

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الأول

الآداب و العلوم



تأليف : د. محمد بيومي مهران

مصر والشرق الأدنى القديم

(٤)

الحضارة المصرية القديمة

الجزء الأول —
الدولاب والعلوم

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي حيران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب — جامعة الإسكندرية

١٤٠٩ هـ — ١٩٨٩ م

دار المعرفية الجامعية
٤ شارع ستيرز الأقاربطة
الإسكندرية



والحمد لله رب العالمين

والصلا والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

مولانا وسيدنا محمد وآله الكرام

«اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما
باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، في العالمين انك حميد مجيد»

إهداء

الى الذين هم اعز على من نفسى

الى ابنائى احمد ضياء الدين وابراهيم والحسين

والى ابنتى أمــــال وأمــــل

تقديم

تقدمنا في الاجزاء الثلاثة الاولى من هذه السلسلة « مصر والشرق الادنى القديم » دراسة شبة مفصلة عن تاريخ مصر السياسى فى العصور الفرعونية ، ومن ثم فقد كان لابد ، وأن نقدم بعد ذلك ، دراسة لأهم مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، وما أسهم به المصريون — وهو جد كبير — فى مختلف مناحى الحضارة فى الشرق الادنى القديم ، حتى تكون دراستنا عن التاريخ المصرى القديم متكاملة ، وليس لبيان فضل الحضارة المصرية القديمة على غيرها من الحضارات ، فذلك أمر لا يستطيع أن ينكره جاحد ، أو يرفض الاعتراف به منصف ، كما أن «أستاذية» مصر فى كثير من مناحى الحياة حقيقة ، لا يرفضها حتى الكارهون ، أو يمارى فيها الناقمون ، مهما شاعت لهم كراهيتهم ، والى أى مدى بلغت نعمتهم على كنانة الله فى الارض .

وتقع هذه الدراسة الحضارية فى جزأين ، الواحد : عن الآداب والعلوم ، وهو موضوع هذا الجزء الرابع من سلسلة «مصر والشرق الادنى القديم» ، والثانى : وقد صدرت طبعته الاولى فى عام ١٩٨٤م ، ويتحدث عن الحياة الاجتماعية ، والتنظيمات السياسية والادارية

والعسكرية والقضائية ، فضلا عن دراسة شعبه مفصلة للديانة المصرية القديمة ، ويمثل الجزء الخامس من هذه السلسلة (١) .

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع ، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

(وما توليقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) ،،،

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الثامن من المحرم عام ١٤٠٩ هـ
بولكلى فى } ٢٠ أغسطس من عام ١٩٨٨ م

(١) قدم الباحث أربع دراسات أخرى عن تاريخ وحضارة مصر القديمة (أنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية الاسكندرية ١٩٦٦ ، مصر والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ م ، حركات التحرير في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٦ م ، اخناتون : عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ م) .

الكتاب الاول

الادب المصرى القديم

كان المصريون القدامى يقدرّون الأدب حق قدره ، ومحبّون بالكلام الجيد والقول البليغ ، وكانوا يرون في ابداع التعبير ، والتصرف في فنون الأدب ، فضلا يمتاز به المرء ، ومثلا ينبغي أن يتخلق به الكريم ، كما كانوا يرون فيه ثروة تعين على المنزلة الرفيعة ، والدرجة السامية ، وهكذا أدرك القوم ما يكون للكلمة من القوة والأثر ، وما تتيحه البلاغة والفصاحة من التسلط على الناس ، وحسن سياستهم والسيطرة عليهم ، ومكان ذلك من مقومات القيادة القوية والزعامة النافذة ، ولنا في ذلك شاهد من قول الملك الاهناسي لولده « مري كارع » وهو يعظه :

« كن مفتتا في الكلام ، قديرا فيه ، مالكا لناصيته ، حتى يعلو شأنك وينب ذكرك ، فتوة المرء في لسانه ، والكلام أقوى من الحرب والقتال ، ان الرجل القطن لا يهاجمه أهل العلم ، وهو بفتنته وحسن بصيرته ، يستطيع أن يتجنب المصاعب ، فلا يصيبه الضرر ، ولا يلحق به الأذى ، والصدق يأتي اليه طائعا مختارا مصفى ، حسب ما جاء في كلام الأجداد الغابرين ، انسج على منوال آبائك الذين سبقوك ، أنظر : ان كلماتهم لا تزال خالدة تبض بالحياة فيما خلفوه من كتب ، افتح الكتاب وقرأ ما فيه ، واستفد بعلم أسلافك ، واتبع تعاليمهم ، تصبح عالما حكيما مثلهم » (١) .

وهكذا كان الأدب يقرأ ويدرس للشباب في المدارس ، وكان الطلاب ينسخونه لتقويم ألسنتهم ، وتعليمهم الفصاحة والبلاغة ، وان كثرة ما حفظ من منسوخاتهم منه في عهود مختلفة ، ليدل على ما كان له من شهرة ، ويشير الى مدى تعلق القوم به .

(١) أنظر :

J.A. Wilson, The Inscription for King Meri-Ka-Re, in ANET, 1966, p.415.

R. O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, : وكلا
p. 181-182.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975. : وكلا
p. 99-100.

هذا وقد بدأ العالم المعاصر يهتم بالأدب المصرى القديم منذ أن نشر العالم الألمانى « أدولف ارمان » فى عام ١٩٢٤ ، مقاله الشهير عن بردية الحكيم المصرى « امنسؤوبى » ، وأنها الأساس الذى اعتمدت عليه حكم سليمان النبى ، كما جاءت فى سفر الأمثال من توراة اليهود المتداولة اليوم — الأمر الذى سوف تناقشه فى مكانه من هذه الدراسة بالتفصيل — ومن ثم فقد بدأ شوق الناس يزدد الى معرفة كنه هذا الأدب ، ومقارنته بالآداب الأخرى ، ولم يكن بين أيدي الناس حتى ذلك الوقت ، الا بعض مقالات وأبحاث متفرقة فى المجلات العلمية ، او خفصول فى بعض كتب التاريخ ، هذا فضلا عن كتاب « ارمان » عن أدب المصريين القدامى الذى صدر عام ١٩٢٣ باللغة الألمانية (٢) ، ويحوى ترجمات كاملة لأهم القصص المصرية ، وكتب الحكمة والأناشيد والأغاني وغيرها ، مما كان معروفا وسبقت ترجمته .

وسرعان ما قام علماء الدراسات المصرية بواجبهم ، فنشر « هرمان جراپو » فى عام ١٩٢٤ (٣) ، كتابا يحلل فيه النصوص المصرية ، ويوضح فيه ما بلغت اللغة المصرية القديمة فى مختلف ميادين المجاز والتشبيه والبيان ، البديع والمعانى ، ومقارنتها بغيرها ، وفى عام ١٩٢٧ ظهر كتاب « ماكس بير » (٤) عن الأدب المصرى القديم ، وقد أجاد فيه صاحبه كل الاجادة ، وفى نفس العام ظهرت الترجمة الانجليزية لكتاب « ارمان » (٥) عن أدب المصريين القدامى (٦) ، ثم توالى بعد ذلك المؤلفات فى الأدب المصرى

A. Erman, Die Literature der Aegypten, Leipzig, 1923. (٢)

H. Grapau, Die bildlicher Ausdrücke des Aegyptischen, Von . (٣)
Dunken und Dichten einer altorientalischen Sprache, Leipzig, 1924.

Max Peiper, Die Aegyptische Literature, Leipzig, 1927. (٤)

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, Trans- (٥)
lation into English, by A. M. Blackman, London, 1927, Reprint, New
York, 1966, under title, The Ancient Egyptians.

(٦) أحمد فخري : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى — الأدب

المصرى — القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٧١ .

القديم ، نشرًا وترجمة وتعليقًا ، بلغات مختلفة (٧) .

وهكذا بدأ علماء الساميات — من أمثال جرمان (٨) وأوسترلي (٩) وهومبير (١٠) ويهودا (١١) — في دراسة الأدب المصري القديم ، وسرعان ما أثبتت نتائج دراساتهم ، مدى ما وصلت له لغة المصريين القدامى في مختلف ميادين المجاز والتشبيه والبيان والبديع ، ومقارنتها بغيرها ، فضلًا عن أثرها الواضح في التوراة ، حتى أصبحنا الآن على قدر من المعرفة ، ربما يمكننا أن نقدم به صورة شبه متكاملة عن الأدب المصري القديم .

ومع ذلك فليس هناك من ريب في أن المعروف حتى الآن من أدب القوم ، ما يزال في نظر العلماء أقل من حيث الكم ، وربما من حيث الكيف كذلك ، مما ينتظر من الفراعين ذوي الامكانيات الواسعة في عالمي الفكر والمادة ، مما يدفع الى الاعتقاد ، بأن ما وقعت عليه أيدينا حتى اليوم لا يمثل غير جزء من ثروة المصريين الأدبية والعلمية ، فما أكثر الذي ضاع ، وما أكثر ما تزال تضم أرض مصر الطيبة من كنوز هذا التراث القومي ،

(٧) انظر مثلاً :

Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, Volume, I, The Old and Middle Kingdoms, Volume, II, The New Kingdom, London, 1976.

وكتبا : R. O. Faulkner, E. F. Wente and W. K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, Yale University Press, 1977.

وكتبا : J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 3-36, 365-381, 405-421, 441-449, 467-71.

وكتبا : G. Posener, Littérature et politique dans L'Egypte de la XIIe dynastie, Paris 1956.

Hugo Gressman and Others, The Psalmists, Oxford, 1926. (٨)

W. O. E. Oesterley, The Wisdom of Egypt, Egypt and The Old Testament London, 1927. (٩)

Paul Humbert, Recherches sur les Sources égyptiennes de la Littérature Sapientiale d'Israel, Nouchatel, 1929. (١٠)

A. S. Yahuda, Die Sprache des Pentateuch in ihren Beziehungen Zum Aegyptischen, Erstes Buch, 1929. (١١)

JEA, XVI, p. 157-160.

وكتبا :

على أن هذا القدر المعروف — رغم قلته الراهنة — إنما يدل بوضوح على أن أدب المصريين القدامى ، إنما قد اتصف بما اتصفت به الآداب العالمية الثرية من أصول وتوزيع ، وذلك من حيث تقسيمه الشكلى الى قتر وشعر ومن حيث تفرعاته الموضوعية (١١) .

ثم هو يمثل أكثر اتجاهات القوم فى الحياة أصدق تمثيل ، كما يؤكد لنا أن المصريين القدامى ، ان لم يكونوا قد وضعوا الأساس الأول من بناء الفكر الانسانى الرفيع ، فافهم قد كانوا من أئمة الناس فى ذلك (١٢) .

وعلى أية حال ، فلقد عالج القوم فى آدابهم نواحى مختلفة من الأدب فكتبوا فى المواعظ وآداب السلوك وما ينبغى التخلق به فى الظروف المختلفة ، وضمنوها الأمثال والحكم الخالدة على مر الأيام ، وكر السنين ، وأنشأوا المقالات فى الإصلاح السياسى لعلاج ما تقضى — فى فترة ما — من مساوئ ، وما حل بالمجتمع من نكبات ، وصنفوا الرسائل فى المناسبات والأغراض المختلفة، فى التهنأت والتواصى والتعزيت والتراجى، والتفاضل والمفاخرة وغير ذلك من مطالب الحياة ومقاصدها ، وحاكوا القصص القصيرة المختلفة، حتى ليعتقد أن مصر هى موطن القصة القصيرة، وصاغوا الأناشيد ، وألفوا الأغاني ، بل وألغوا التمثيليات الدينية يمثلونها فى أعيادهم لآلهتهم وملوكهم ، الأمر الذى يدل على أن كثيرا من النصوص الأدبية المصرية لم تقتصر أهميتها على كونها تراثا أدبيا فحسب ، بل انها إنما تقدم لنا بعدا إنسانيا للحضارة المصرية القديمة التى لا يعرف عنها الشخص العادى ، سوى المقابر والتوابيت والتماثيل ، بل ان كثيرا من الناس كانوا يعتقدون — الى عهد قريب — أن حضارة مصر الفرعونية ليست الا حضارة مادية فى الدرجة اولى ، وأن هذه الشوامخ الراسيات

-
- (١٢) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم — الجزء الأول — مصر والعراق — القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٢٥ .
(١٣) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تفرغ التربية والتعليم فى مصر — الجزء الأول — العصر الفرعونى — القاهرة ١٩٧٤ ص ٧٠ .

على أرض الكنانة ، من الأهرامات والمعابد والمسلات وغيرها من الآثار
المصرية ، ليست الا رمزا للاستعباد والسخرية (١٤) .

غير أن هذه الصورة التي تمثلها ، ونحن قرأ النصوص الأدبية
المصرية انما تكذب ذلك كله ، كما تكذب أيضا ما يقال من أن المصرى
القديم لم يكن يفكر الا فى الموت ، حيث ثبت لنا أنه كان يحب الحياة ،
كما تدل على ذلك قصائد المحبين التي تشير الى تمتع مرهف ، سواء أكان ذلك
فى المرأة أم فى الطبيعة ، كما يتردد فيها أصداء النشوة والهناء والمرح ،
ذلك لأن كثيرا منها انما يتحدث عن رحلات الصيد والقنص فى أحراش
الدلتا وأطراف الصحراء ، وعن الرقص والموسيقى والفناء .

هذا وقد عرف المصرى القديم أيضا الأدب الروحاني ، وسما فيه الى
قسم عالية ، وفى أشعار اخناتون أبلغ دليل على ذلك ، كما عرف المصرى
القديم كذلك شعرا تغلب عليه النزعة الفلسفية ، وبحث بصورة رمزية فى
رحلة الانسان بين الميلاد والمات (١٥) .

وهكذا تعددت ميادين الأدب المصرى وتنوعت مراميها ، فهناك
الأدب الدينى ، وهو أغنى فروع الأدب مادة وأوفرها ثروة ، لأنه يتناول
نواحي متعددة وموضوعات شتى ، فمنها موضوعات تتناول الحياة الأخرى
وعقيدة الناس فى البعث والحساب ، الى أخرى تحدثنا عن عقيدتهم فى
خلق الكون ، وما أنشأوا حول ذلك من صور وأخيلة ، ثم ما يدور حول
معبوداتهم المختلفة من قصص وأساطير ، كما تضمن هذا النوع من الأدب
عددا كبيرا من الصلوات والطقوس والأناشيد والشعائر الدينية ، ثم من
الأوراد والأدعية والتماويذ السحرية .

(١٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر الفرعونية

— الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢ .

(١٥) منير مجبى : الجزيرة المسحورة — القاهرة ١٩٧٢ ص ١٢ .

ولعل من أروع الآداب الدينية وأقدمها « متون الأهرام » (١٧٤) ، وهى لون من التصورات والأخيلة والملاحم التى تعبر عن أفكار المصريين الأولى فى الدين والسياسة ، ومدى صلتها بفرعون ، كما تصور آمالهم فى الدنيا والآخرة ، سجلت كلها على جدران بعض الأهرام منذ أواخر الأسرة الخامسة ، واستمر تسجيلها فى الأسرة السادسة ، وكان الغرض من تسجيلها أن تكون عونا لفرعون المتوفى على بلوغ أسباب السماوات ، وغزاء له عما يلقى فى سبيله الى الجنة من عقبات ، ثم براءة يلقى بها ربه

(١٦) يذهب الدكتور أحمد فخري الى أننا لا يمكننا أن نعتبر متون الأهرام من المواضيع التى تدخل فى باب الادب ، وإن كانت من الناحيتين الدينية واللغوية ذات أهمية بالغة ، ونساعدا فى فهم كثير من النقاط الغامضة من حضارة المصريين القدامى بوجه عام ، وديانتهم بوجه خاص . (أحمد فخري : تاريخ الحضارة المصرية ١/٣٧٤) .

وعلى أية حال ، فلقد كان « جاستون ماسبيرو » أول من اكتشف متون الأهرام فى عام ١٨٨٠ م ، داخل هرم « وناس » (ونيس) ، ثم عثر بعد ذلك على كثير منها فى أهرام ملوك الأسرة السادسة ، بل فى أهرام بعض ملوكها ، وهى مجموعة من التعاويل السحرية والطقوس الجنائزية ، وأجزاء من بعض الأساطير المصرية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الأسرة الأولى ، بل فيها اشارات الى الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها على أنها حرب بين الالهة التى عبدت فى تلك الايام وعلى كل فهم يختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، كانوا يختارون البعض ، ويتركون البعض الآخر ، وقد قسمها « كورت زيتة » الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الآخر حيث تفتح له ابواب السماوات التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحويله الى نجم من النجوم التى لا تفتى ، والى اله الشمس ، او على الأقل ، ليكون فى ركاب اله الشمس ، ومن أهم الدراسات عن نصوص متون الأهرام ، دراسات :

S. A. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, New York, Toronto, 1952.

K. Sethe, Die altägyptischen Pyramidentexte, 4 Vols, Leipzig, 1908-1922, Reprint Hildesheim, 1969. وكلنا

R. O. Faulkner, The Ancient Egyptian Texts, 2 Vols, Oxford, 1969. وكلنا

فى عالم السلوات ، ذلك أدب خاص كان وقفا على الملوك ، أرادوا أن يظهروا به قيمتهم فى الدنيا والآخرة ، ولعلمهم لجأوا الى تسجيله ، حينما كشف الغطاء عن عيون الشعب ، فأخذ يرى بعض ما كان خافيا عليه من قبل ، هنالك ارتفعت البراقع عن وجه الحياة فأخذ القادرون من أفراد الشعب يقلدون الملوك .

ولما كانت أيام الدولة الوسطى وتطورت عقائد الناس بعض الشيء ، استعاض عن متون الأهرام بأخرى قد تشبهها فى أهدافها ، ولكنها تخالفها من حيث الاكتفاء بتدوينها على جدران التوابيت فحسب ، وسماها العلماء « متون التوابيت » (١٧) ، ثم أخذت العقائد سبيلها فى التطور ، حتى اذا ما كانت أيام الدولة الحديثة استعاض الناس عن «متون التوابيت» بأخرى تختلف عنها فى أسلوبها وترتيبها ، وفى أنها كانت تكتب على قرطيس البردى ، وفى أنها كانت آخر الأمر أكثر شعبية ، واصطلح العلماء على تسميتها « كتاب الموتى » ، وهى لا تخرج عن كونها رقى وأدعية وأحرازا يرجى أن تنفع الميت فى الآخرة (١٨) .

وكان الأدب فى أول الأمر واقعيا ، يميل الى التعبير العقيق السليم بعيدا عن المحسنات ، ولكن تطور الظروف السياسية غير من أساليبه حتى ليستطاع وضع حد فاصل بين ألوان الأدب فى مختلف العصور ، مما يشير الى ما طرأ على البلاد من فوضىة أو تدهور أو رغبة فى لم الشمل أو ثورة تستهدف الخلاص من نير المستعمر ، أو الركون الى الدعة بعد الاطمئنان الى قيام دولة تستطيع أن تفرض رأيها على غيرها من الدول ، ولقد وصل الأدب الى قمته قبل عهد الدولة الحديثة فى عهود الكفاح ، ثم ركن من بعد ذلك الى المحسنات اللفظية ، فأضاع قواه وبددها .

(١٧) انظر عن : متون التوابيت وكتاب الموتى (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٤٤٩ - ٥١) .
وكذا : A. de Buck, The Egyptian Coffin Texts; ed. A. de Buck and A. H. Gardiner, 7 Vols, Chicago, 1925-1961.

(١٨) احمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١ .

ولقد ظل أدب الدولة القديمة مثلاً يحتذى فى مختلف العصور ، حتى ليرى القوم فى عهد الدولة الحديثة يتمثلون به ويقلدونه ، حين أحسوا بأنهم لا يستطيعون أن ينحو نحوه أمام واقعية الحياة التى يحبوها ، وإن أفسدوه بمحسنتهم التى ظنوا أنها تغطى عيوب أسلوبهم ومراميها (١٩) ، وعلى أية حال ، فرغم ما يبدو فى أدب الدولة القديمة من بداهة وجفاف أحيانا ، ومن جزالة وعنجهية حيناً آخر ، فالأمر الذى لا شك فيه أن أدب الدولة القديمة لا يخلو من رقة وبلاغة ، يبدو ذلك واضحا فى تعاليم الوزير « بتاح حنب » ، وفى كثير من نصوص لوحات المقابر ، وعلى العموم فإن المرء إنما يستطيع أن يلمس بسهولة الأمل القوي فى أدب الدولة القديمة ، بعد أن وضع المصرى الأسس القوية لحضارته العريقة ، والتى أعطته الرضا والثقة فى المستقبل .

هذا وكان للتطور الاجتماعى والتغير السياسى الذى صاحب عهد الثورة الاجتماعية الأولى ، أثر واضح على الأدب ، فلمسه فى الأسلوب المختلف للقصائد ، وفى ظهور نوع جديد من الأدب ، هو أدب النقد والسياسة ، ومن ذلك آراء الحكيم المصرى « ايبو - ور » فى تعذيراته المشهورة (٢٠) ، التى تحدث فيها عن الاضطراب الخلقى والقوضى فى المجتمع ، مما مهد لنوع آخر من الشعر والنثر يتحدث عن اليأس والمزلة (٢١) وفى العصر الالهناسى بدأ بعض الملوك يقدمون لأولياء عهودهم خلاصة تجاربهم فى السياسة ، حتى يكون لهم من تجارب الآباء ما يفيدهم فى إدارة شئون البلاد ، ومن ذلك تلك النصائح التى وجهت الى الملك « مرى

(١٩) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية للقيامة - الاسكندرية

١٩٦٦ ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .

A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, (٢٠) Leipzig, 1909, Reprint Hildesheim, 1969.

(٢١) انظر : بردية اليانس من الحياة فى

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 406-407.

A. Erman, in LAE, 1927, p. 86-92.

R. Weill, in BIFAO, 45, 1946, p. 89-154.

كارع « ٣٣ » ، ذات المضمون السياسى والأخلاقى ، وقد صيغت فى أسلوب أدبى رائع ، حتى اعتبرها القوم من القطع الماثورة التى يحفظها الطلبة .

هذا وقد تميز أدب الدولة الوسطى بالبساطة والواقعية والاعتزان ، وقد اعتبره المصريون أنفسهم مثالا يحتذى فى البلاغة وجودة التعبير وبداعة التصوير ، وكان المعلمون والتلاميذ ينسخونه فى جميع العصور ، ثم يقرأونه ويحفظونه وينسجون على منواله ، كما ظال لديهم طوال عصور التاريخ التالية باعتباره الأدب الكلاسيكى « ٣٤ » ، وعلى أية حال ، فإن استتباب الأمن والأمان — سياسيا واقتصاديا — انما يتبعه فى غالب الأحيان ، ازدهار فى الفكر والأدب ، ومن البدهى أن هذا انما ينطبق على عصر الدولة الوسطى ، ولدينا شواهد كثيرة عن النهضة الأدبية فى ذلك العصر ، مثل « قصة سنوهى » « ٣٥ » ، والتى تمثل فى الواقع بداية نوع جديد من القصص التحليلى الذى يهتم — الى جانب سرد الأحداث — بدراسة نفسية البطل ، وتحليل مشاعره ، فى أسلوب قوى ، خال من الزخرف المبالغ فيه .

وجامت الدولة الحديثة ، وتكونت الامبراطورية المصرية الشامعة ، ورأت مصر رخاء وثراء لم تشهده من قبل ، واتصلت مصر بشعوب أسيوية كثيرة ، وتعرفت عاداتها وتقاليدها وآدابها ، وبدأ يظهر ذلك الثراء والترف

A. Erman, LAE, p. 75-84.

(٢٢) انظر

J. A. Wilson, ANET, p. 414-418.

وكلا

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 97-109.

A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 20-36.

وكلا :

(٢٣) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق

ص ٧٢ .

(٢٤) انظر

G. Lefebvre, Romans et Contes egyptiens de L'epoque Pharaonique, Paris, 194, p.

A. Erman, LAE, p. 14-29.

J. A. Wilson, ANET, p. 18-22.

وكلا :

فى الأدب العاطفى والعنائى بصورة خاصة ، وعلى أية حال ، فاذا كان أدب الدولة القديمة انما حاول أن يناهض التراث القديم، ويفرض صورة جديدة فان الأدب الكلاسيكى انما ظل محتفظا بسطوته كرمز للأسلوب الأدبى ، ولئن شاع الأسلوب القصصى الذى يفهمه العامة ، فان معنى ذلك لم يكن سوى توسيع الشقة بين جمهرة الناس ، وبين تفهم الأسلوب القديم ، حتى غدا بالنسبة لهم كأسلوب الشعر الجاهلى بالنسبة لعامة الناس اليوم ، فلم يعد عامة القوم فى الدولة الحديثة يستسيغون — أو على الأقل يفهمون — رصانة الأسلوب القديم وقوته وبلاغته (٢٥) .

وفى عصر العمارنة ، انتشرت اللغة الدارجة التى حلت محل اللغة التى كانت مستعملة منذ أيام الدولة الوسطى بأجرومييتها القديمة ، ونشأ عن هذا التطور لغة مكتوبة نسيها « اللغة المصرية الحديثة أو المتأخرة » (٣١) وقد أدى ذلك الى أن تصبح اللغة القصصى ذات الأسلوب الأدبى الذى يتميز به الكتاب ، والتى كانت غير مفهومة الى حد كبير من العامة ، عرضة للتغيير ، ومن ثم فسرعان ما وجدت التعبيرات العامية طريقها الى الأدب ، فضلا عن النصوص الدينية ، وهكذا أصبحنا تدريجيا نرى الكثير من العامية فى النصوص الأدبية والمرسية ، فضلا عن النصوص العلمية الخاصة (٣٢) .

وفى الأدب — كما فى الفن — استبعدت النغمة الرزنية ، فهناك نص يعبر فيه كاتبه للفرعون عن الأمل فى أن يعيش طويلا فى العمارنة « حتى يسود البجع ، ويبيض الغراب ، وحتى تروح الجبال وتجيء ، وحتى

(٢٥) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٨٩ .

(٣٦) محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته — الاسكندرية

١٩٧٩ ص ٤٢٨ — ٤٣٠ .

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, New York, 1959, p. 282.

(٢٧) أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة ص ١٤٨ ، وكلا

Elconore Billo-De Mot, The Age of Akhenaten, Translated from French, by J. Lindsay, London, 1965, p. 83.

يسرى الماء نحو المنبع » ، هذا ويجب أن يكون لدى الملك كنوز « بقدر
حبات الرمل على شاطئ البحر ، وبقدر الفلوس على السمك ، وبقدر
الشعر على الثيران » ، وأن يحتفل بأعياده الثلاثينية « بقدر ما للطيور من
ريش ، وما للأشجار من ورق » (٢٨) •

هذا ولم يقتصر الأمر على تسرب الروح الشعبية والتعبيرات العامية
الى كل من اللغة والأدب ، وإنما ظهر كذلك تأثير أجنبي قوى فى اللغة ،
وذلك بإدخال كلمات من اللغات الأميوية ، ليظهر الكاتب نفسه بأنه
ذو ثقافة واسعة ، وأن كل البلاد وطن له ، ومن ثم نراه يذكر كلمة
« ماريانو » (Maryanu) بدلا من « فارس المصرية » ، وكلمة
« مركبة » (Merkobet) بدلا من الكلمة المصرية للمركبة ، وكلمة
« مجدل » (Migdol) بدلا من الحصن ، وكلمة « اكوفوا »
(Akunu) بدلا من الجرة ، واستحدثوا طريقة لكتابة تلك
الكلمات وغيرها من الأسماء الأجنبية ، ظلت مستخدمة أجيالا عدة بعد
ذلك (٢٩) ، على أن ما حدث فى عصر الممارة ، إنما أدى الى انفتاح
المجالات أمام عصور الرعامسة ، مع انتشار التعليم فيها ، وكثرة ما قبلته
من ألفاظ شرقية دخيلة ، وأخيرا حاولت العصور المتأخرة احياء أساليب
الدولتين القديمة والوسطى فى بعض نصوصها ، حتى أن تمكس عليها
أمجاد أهلها •

وأما عن الحدود الزمنية لتقسيماتها ، فليس من اليسير تحديد حد
معين لنشأة الأدب المصرى القديم فى أول أطواره ، فلا شك أن أهل ما قبل
التاريخ الذين لم يعرفوا الكلمة المكتوبة ولم يتركوا لنا أدبا مدونا ، كانوا
ستمعون - على الرغم من ذلك - بالقصة الشفهية ، والأغنية الشعبية ،

(٢٨) أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٢٥ - ١٢٦ ، وكذا

E. Bille De-Mot, Op-Cit, p. 83.

N. de G. Davies, The Rock Tombs of El-Amarna, III, p. 329.

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963. (٢٩)
p. 220.

والبطولات المروية ، مما لم تحتفظ منه مكتوبات العصور التاريخية
الا بتف ضئيلة متفرقة (٣٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا الى عدة نقاط بشأن الأدب
المصرى القديم ، منها :

أولا - ان هذا الأدب لما قد تضمن الفث والسمين - شأنه في
ذلك شأن أى أدب قديم أو معاصر - وان كان السمين هو الذى يستشهد
به عادة أكثر من غيره ، للدلالة على أسى ما وصل اليه تفكير أهله ،
ومنها :

ثانيا - أن أية ترجمة لهذه المختارات لن تبلغ من نفس القارىء
المعاصر ، ما بلغت من نفوس أصحابها القدامى ، حين ألقت لهم بلغتهم
وتذوقوها بروحهم ، وذلك على الرغم من أن ما نستشهد به منها تتجاوز
فيه عادة عن صور التكرار المبهودة فى الآداب القديمة كلها ، والتي
لا يستسيغها الذوق الحديث .

ومنها : ثالثا - أنه ما من واحدة منها قد خلصت لفرع محدود من
فروع التأليف ، وانما هى قد تجمع فى طياتها أحيانا بين معالم الأسطورة
والتاريخ والعقائد والعبرة والحكمة ، وبين طلاوة الأسلوب ، فى آن واحد

ومنها : رابعا - أنها ، بمجموعها وروحها ، وان عبرت بصدق عن
خصائص يئتها الطبيعية والعرقية والاجتماعية فى تصوراتها وتقاليدها
وآلامها وآمالها ، الا أن ثمة سمات عامة وصلت بينها وبين أمثالها من
الآداب القديمة الأخرى ، مثل ضخامة التأثير الدينى ، وكثرة التكرار فى
معانيها ، فضلا عن تقاربها منها فى صور التعبير عن الفرائز الالسانية
والمواقف الفردية ، لا سيما منذ ظهر التأثير والتأثر بينها وبين آداب جيرانها
فى أيام الدولة الحديثة (٣١) .

(٣٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٢٦ .

(٣١) نفس المرجع السابق ص ٣٢٥ .

هذا وقد عرف المصريون الشعر من غير شك ، وكافت له أوزانه التي يلتزمونها والقوافي التي يراعونها ، وقد يقف جملنا بالنطق الصحيح — بسبب اسقاط المتحركات وانعدام الحركات — كما يقف جملنا أيضا بوضوح الضبط على المقاطع ، عقبة في سبيل ضبط النطق الصحيح للكلمات ، مما يجعل متابعة الوزن الشعرى على هذه الصورة أمرا سهرا ولكن مطالعة الأناشيد الحماسية أو المدائح الدينية أو أهازيج النزل ، أو أغنيات النصر ، تفصح عن التزام أوزان وقوافي معينة من غير شك ، وأبسط ألوان الشعر ، كما نعلم ، التزام قافية الشطرين أو البيتين القصيرين ، والتزام وزن واحد فيها ، وقد ظهرت بعض الأشعار التزم أصحابها في أبياتها الصدر دائما ، بحيث يتكرر في كل بيت ، بينما يتغير العجز ، كما ظهرت بعض الأشعار حيث يكرر الشطر الثاني في معنى مقابل للشطر الأول أو مساو له ، بقصد التوكيد ، وهو المعروف بشعر التساوى في الشطرات المتقابلة ، وقد تقسم القصيدة الى فقرات تحوى كل منها عدة أبيات تصاغ على نمط واحد ، وهذا النوع من القصائد يكاد يكون مقصورا على المدائح الدينية وأناشيد الملوك ، هذا وقد كانت الفقرات ثلاثية أحيانا ، ورباعية أحيانا أخرى ، وإن زادت الأبيات في الفقرة الواحدة في المناسبات حتى تبلغ عشرة أبيات ، وهى فى هذه الحالة تخضع كذلك للثلاثيات أو الرباعيات ، وقد انتشرت ، فيما وصل إلينا من شعر ، ضروب البلاغة ، وخاصة فى الدولة الحديثة ، من محسنات لفظية وجناس ومجاز واستعارة (٣٣) .

وعلى أية حال ، فإن العلماء قد تعارفوا على أن للشعر المصرى القديم خصائص يمكن أن نجعلها فى النقاط التالية :

أولا : أن القصائد فى الأدب المصرى القديم إنما كانت مقسمة الى فقرات وأبيات ، ليس بالضرورة أن تكون متساوية فى الطول ، من حيث عدد سطورها ، ولكنها تبين بوضوح أنها مقسمة الى أقسام :

ثانيا : تكرار استخدام التماثل ، كمظهر آخر من مظاهر هذا التشابه فتأخذ الفكرة الواحدة تعبيراً مزدوجاً ، حتى أن السطر يتكون فيها من جملتين قصيرتين ، توجد في كل منهما نفس الفكرة بصيغة مختلفة عن الأخرى .

ثالثا : أن التشابه يتمثل كذلك فيما يبدو من أن السطور الشعرية إنما تحتوي على عدد محدد ومنتظم من الأفعام .

رابعا : تكرار التلاعب بالألفاظ ، وورود ألفاظ كثيرة متشابهة التطور جنبا الى جنب (الجنس والطباق ؟) وقد كان الشعراء المصريون القدامى مفرمين بتجنيس حروف بداية الكلمات المتتالية .

خامسا : الاستعمال الغريب الذي كان يظهر أحيانا ، وهو الذي كانت تؤخذ فيه كلمة وردت في سطر ، ثم تكرر في السطر التالي ، كما كانت الاستعارة كثيرة الاستعمال أيضا (٢٢) .

وأما مجالات الأدب المصري القديم التي سوف نتعرض لها في هذه الدراسة ، كل في فصل مستقل ، فهي :

- ١ — أدب الأسطورة .
- ٢ — أدب القصة .
- ٣ — أدب الأناشيد .
- ٤ — أدب الملاحم والمدائح والغناء .
- ٥ — أدب الصوار .
- ٦ — أدب الحكمة والنصائح .
- ٧ — أدب النقد والسياسة .

الفصل الثاني

أدب الأسطورة

كان أدب الأسطورة من أوائل الآداب المترابطة ذات الفكرة والحبكة لا سيما منذ احتضنها رجال الدين لاتصالها بمعتقدهم ، واحتضنها رجال الحكم لاتصالها بذكريات أجدادهم ، وقد أحب القوم تلك الأساطير لتسميتها ، ولأنها صورت لهم المعبودات فى صور بشرية لطيفة مألوفة ، فهى تأكل وتشرب وتتزوج كما يفعل البشر، وهى ترضى وتغضب وتتخاصم كما يفعل البشر ، ثم هى تعيش آخر الأمر ، كما يعيش الملوك والأمراء من سادة البشر (١) ، ولعل أهم هذه الأساطير :

- ١ - أسطورة أوزيريس .
- ٢ - أسطورة حور والعقارب السبعة .
- ٣ - أسطورة النزاع بين حور وست .
- ٤ - أسطورة هلاك البشرية أو انقراضها .
- ٥ - أسطورة حيلة إيزة .

(١) حاول المصرى القديم فى تصوره الأسطورى أن يفهم فى عبارات على لسان البسر ، شخصا أو حادثا أو مجموعة من الناس أو نتائج بعض الأحداث التى يرجعها الى العالم الالهى ، ويقصد بمعبدة « العالم الالهى » مالا يستطيع الانسان تفسيره بعقله وبأدراكه الحسى ، ولو كان هذا الشيء موجودا ، ويحدث الاجرام الطبيعية كالسما والشمس فى عقل المصرى القديم انها تنتمى الى العالم الالهى ، ولا يمكن للانسان فى أى زمان أن يدرك بعقله أى كائن من العالم الالهى ، الا بالرمز (عبد الحميد زايد : الرمز والأسطورة الفرعونية ص ٣٠) ، والرمز : هو مظهر المحاولة البشرية فى جعلها عنصرا من العالم الالهى ملموسا على أسس بشرية ، أى على أسس المنطق والادراك الحسى ، على الرغم من أن ذلك لا يتفق بالضرورة مع قوانين الطبيعة ، وكان حكماء المصريين حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، عالين بتلك الحقيقة ، ولم يخطئوا رمزا بحساباته نسخة لما يمثله ، وربما أخذ الرمز المصرى بهذا المعنى شكل شيء أو فعل أو الفاظ ، وبينما لم يكن كل رمز تصورا أسطوريا ، فقد كان كل تصور أسطورى رمزا لكائن من العالم الالهى ، وواضح أن رمزا من الرموز انما يصلق اذا جعل شيئا من العالم الالهى مفهوما فى الحدود الانسانية ، وبقدر تقبل عقيدة الانسان له (رودلف آتس : اساطير العالم القديم - ترجمة أحمد عبد الحميد ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر - القاهرة ١٩٧٤ ص ١٩ - ٢٠) .

٦ - أسطورة البهتان والصدق .

٧ - أسطورة مولد حتشبسوت الآلهى .

١ - أسطورة أوزير وست :

لعل هذه الأسطورة انما هى أقدم الأساطير المصرية وأروعها ، حتى أننا مازلنا نجد فيها من متاع الروح وعزاء النفس أكثر من غيرها ، فنسيج هذه الأسطورة مصرى أصيل ، ومن وحي الطبيعة المصرية الصادقة ، فلقد خال القوم الأرض والسماء زوجين من ذكر وأقش (جب ونوت) ، وغالوهما أول الأمر رقنا ، ثم انفصلتا فانتشر الهواء بينهما ، ثم ولد لهذين الزوجين من البنين اثنان ، هما أوزير وست ، ومن البنات اثنتان هما ايزة وببت حت (نفيس) (٢) .

فأما « أوزير » فقد تزوج من أخته « ايزة » (٣) ، وورث عن أبيه ملك الوادى ، فسار فى الرعية بالعدل والحكمة ، وقدم للناس من الأعمال الصالحات ما جعله فى مجال الخير اماما ومثلا ، علم للناس الزرع والضرع وشرع لهم الأحكام والقوانين ، وطاق فى أقطار الدنيا يبشر بالخير والعدل وطبقا للأساطير المتصلة بأوزير ، فإن الناس فى ذلك العصر المبكر ، كانوا ما يزالون فى بربرية ياكلون لحوم البشر ، وأن أوزير (٤) قد علمهم

(٢) انظر من : فكرة الخلق عند المصرى القديم ، والنظريات التى دارت حولها (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٢٤٣ - ٢٦٥) .

(٣) انظر عن : أوزير وايز - (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٨٦ - ٢٩٨ ، ٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٤) يلحظ « ياروسلان تشرنى » الى أن اسم « أوزير » الذى اشتق منه الاسم الاغريقى « أوزيريس » يبدو أن معناه « حذقة العين » أو « مستقر العين » ، ويبدو أنه اسم بشرى الاصل ، ويحتمل أن أوزير كان ملكا دنيويا حقيقيا أضحى ممجبا أو مقدسا بعد وفاته ، والأسطورة التى نسجت عنه لم تركز اهتمامها على حياته الاولى كملك أو حاكما لمصر ، انما وجهت اهتمامها على موته ، وعلى بعثته من جديد بعد مصرعه المأسوى ، والذى

الحضارة ، وما يجب أن يؤكل وما لا يأكل ، وأوضح لهم كيفية زراعة الحبوب كالقمح وكروم العنب ، كما علمهم كذلك طريقة عبادة الآلهة . وكتب القانون من أجلهم ، بعون من كاتبه « تحوت » ، الذى خلق الفنون والعلوم ، وأعطى الأشياء أسماءها ، وأنه قد حكم بالمنطق ، وليس بالقوة ، ثم بدأ ينشر علمه فى بقية العالم ، تاركا زوجه « ايزة » ثابتة عنه فى تصريف الأمور فى مصر ، وقد اضطجبت معه فى مهمته كثيرا من الموسيقين واستطاع عن طريق المناقشة وأغاني الأناشيد ، أن يقنع الناس بالتبسط وسأله الى الخير والنجاح والفلاح ، وهكذا كتب له نجحا غير قليل ، فى تعليمهم زراعة القمح والشعير والعنب ، فضلا عن بناء المدن ، ثم سعد فى النهر حتى بلغ اقليم الحبشة ، فعلم أهله أصول الزراعة وفنونها ، وخطط لهم القرى والمدائن ، ثم تولى عنهم هابلا مع النيل ، فأخذ يقوى شواطئه وجسوره ، ويشق لئله الجداول والمصارف .

وأما أخوه « ست » ، فقد تزوج من أخته « نكتيس » (بت ح) ، ولكنه كره أن يؤول ملك الوادى الكبير الأخضر السعيد الى أخيه أوزير ، وغاظه أن يرى له ذلك المكان الرفيع ، فامتأ قلبه حسدا له ، وحقدا عليه ، وسولت له نفسه قتل أخيه ، ثم ترك هذا الانسان الطيب يودع دلياه على هذا النحو المروع ، الذى أقرله من قلوب القوم منزلة الحب والتقديس والاحلال ، ومن ثم فسرعان ما لطمح أتباع « أوزير » شخصية « ست »

أضحي بعده حاكما او ملكا على عالم الموتى ، ولا توجد رواية شاملة او حتى كاملة معروفة حتى الآن لقصة أوزير فى الوثائق المصرية ، ومصدرنا الرئيسى من هذه القصة هو « بلوتارخ » (Plutarch) من « ايريس وأوزيريس » وان كانت هناك اشارات متواترة فى النصوص المصرية من كل العصور ، يتضح من سياقها أن الاسطورة التى أوردها « بلوتارخ » تتسق فى جوهرها مع المفاهيم العقيدية المصرية (تشرنى : الديانة المصرية القديمة ص ٤٠) .

(٥) انظر عن « ست » (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ٢/ ٢٨٠ - ٢٨٦) .

بالسواد منذ لحظة مولده ، فزعموا أنه لم يولد في الوقت السليم ، ولا في المكان الصحيح ، فلقد ألقى بنفسه من رحم أمه ، وانعبر من جنبها .

وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى يسبغ الرواة صفة الواقعية على مقتل أوزير ، فذهبت رواية الى أن « جب » قد قسم مملكته بين ولديه ست وأوزير ، على أن يأخذ الأول ملكة الصعيد ، وأن يأخذ الثاني ملكة الدلتا ، غير أن « ست » ادعى بعد ذلك أن الملكة كلها له ، وأنكر مشاركة أخيه له فيها ، وتذهب رواية أخرى الى أن أوزير وست قد رضيا بحكم أبيهما ، وبدأ كل منهما يحكم نصيبه ، غير أن « جب » عاد فقرر أن ست حاكم مـى ، ومن ثم فقد أعطى نصيبه لأوزير ، وبينما كان أوزير يغزو البلاد الأجنبية ، تاركاً امرأته ايزة تصرف الأمور في مصر ، بدأت عوامل الشر تتحرك في قلب ست ، بغاصة وأنه كاله حرب ، كان يرى أوزير يستخدم الكثير من الوسائل السلمية ، ومن ثم فقد بدأ يفكر في الانتقام منه أثناء الاحتفال بمودته منتصرا الى العاصمة « منف » .

هنا ، وطبقا لرواية « بلوتارخ » فقد وضع ست أوزير في صندوق كان في الأصل تابوتا له ، ثم ذهب أساطير أخرى أن الاغتيال كان عند « ندية »^(٦)

(٦) « ندية » أو نديت : تقع على مقربة من مدينة البلينا بمحافظـة سوهاج ، فيما يرى برستد ، وأما « أرض الغزال » فهي بلدة « كوم مرة » وهي بلدة « كومبر » الحالية ، على مبعـدة ١١ كيلو الى الجنوب من أسـينا ، فيما يرى زيتـه ، غير أن « هرمان كيس » إنما يشك في ذلك كله ، ويرى أن الامر لا يخرج عن كونه نزاعا بين أنصار معبودين من شرق الدلتا ، وأنصار في بلدة « جدو » ضد أنصار ست في بلدة « مثة » أو « سترة » على حدود مصر الشـمالية الشرقية ، وأن المعركة كانت عند مياه « ندية » في أرض الغزال التي يمكن تعيينها بمنطقة قرب « كوم أبو ياسين » الحالية ، وقرب اقليم « أوزير » نفسه (في مدينة عنجتي ، والتي سميت « جدو » ، وقد أطلق القوم عليها « بر - أوزير » الذي حرفه الافريق الى بوزيريس = وهو أبو صير بنا الحالية ، جنوبي غرب سمود) ومن ثم فقد سمت النصوص هذا الاقليم « الفحل الممزق » ، إشارة الى هزيمة أوزير نفسه (انظر : =

أو في أرض الخزال شرق الدلتا ، ثم ألقاه في النيل^(٧) ، وأن جسد أوزير القليل إنما تم تقطيعه الى أربعة عشر جزءا (وربما ستة عشر جزءا) وأن زوجه ايزة ، وأخته تفنيس ، قد عثرتا على جسده عند شواطئ «ندية» وتذهب رواية أخرى الى أن الاغتيال كان في منف أو قرب عين شمس ، وأن ايزه وتفنيس قد دفنتاه هناك ، على أن رواية ثالثة تذهب الى أن الجسد قد حمله تيار النهر الى « بيليس » في مستنقعات الدلتا (وقد حرفت بيليس Byblis فيما بعد الى بيلوس Byblos التي في فينيقيا) ، على أن رواية رابعة تذهب الى أن النيل قد احتل الصندوق حتى مصبه ، واسلمه البحر الأخضر (البحر المتوسط) فاحتله البحر بدوره حتى ألقاه آمنا على شاطئ « جبيل^(٨) » في لبنان ، فأظلمت هناك شجرة مباركة واحتوته في جوفها ، وساحت ايزة (ايسة) في الأرض بحثا عن أخيها ، حتى بلغت جبيل واهتمت الى الشجرة ، واستخلصت الوديعة منها واحتملتها الى مصر ، حيث أعادت الى بدن أخيها روحه وحملت منه ،

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939, p. 100.

BIFAO, XXX, 1930, p. 721 F.

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Geographiques, V, Paris.: وكلنا 1928, p. 220.

(٧) هناك من يرى أن أوزير كان أصلا ملكا من البشر ، حكم في عصر سحيق للغاية جميع أرض مصر من عاصمته في شرق الدلتا (أبو صير بنا) وقد فسرت ميثته العنيفة فارقا في النيل ، والتي تسبب فيها أخوه ست طبقا لهذه النظرية ، باعتبارها ميثه للـك في ثورة كان مركزها مدينة «امبوس» (طوخ الحالية بمركز نقادة بمحافظة قنا) مقر عبادة « ست » ، وقد تسبب ذلك في انقسام البلاد الى مملكتين مستقلتين ، أحدهما في الصعيد ، والأخرى في الدلتا ، ثم وحدهما الشماليون مرة أخرى ، وقد انعكس هذا الصراع ، وإعادة تأسيس الملكة الأصلية في البلاد في الأسطورة بانتصار « حور » بن « أوزير » على « ست » (ياروسلاف تشرني : الديانة المصرية القديمة ص ١١٨) .

(٨) كانت « جبيل » تكتب في الدولة القديمة « كبن » وفي الدولة الوسطى « كبنى » ، وفي الدولة الحديثة « كبنا » ، وذكرها الآشوريون باسم « جوبلا » ، والإغريق باسم « بيلوس » ، والعرب باسم « جبيل » ، وتقع على مبعده . { كيلو شمالي بيروت (A. H. Gardiner, Onom, I, p. 257) .

وتسترت معه ، ولكن أخاه « ست » كشف مخبأه ومزقه فى هذه المرة شر ممزق ، وقطعه اثنتين وأربعين قطعة ، وذلك يرمز فيما يبدو ، الى تمزق وحدة البلاد القديمة وتجزئتها الى اثنتين وأربعين اقليما ، كما يفسر تعدد مزارات أوزير التى قامت على أجزائه الموزعة فى كافة هذه الأقاليم .

وعلى أية حال ، فلقد ظلت ايزة وفيه لزوجها الشهيد ، كما ذكرنا آنفا ، فلقد استعانت بسحرها حتى ردت اليه روحه لفترة من الزمن ، ثم حطت عليه ، كما يحط الطائر ، فحملت منه حملا ربانيا ، ووضعت منه طفلهما « حور » الذى ربه فى أحراج الدلتا خفية ، وعاقبتها كائنات عدة على كفلكه ، فأرضعته بقره ، ورعته معها سبع عقارب ، وهو الذى اشتهر بين القوم بسفته الابن الذى فقد أباه أوزير ، وهو « حور ابن ايزة » (حرسا است) ، وان كان « هنرى فرانكفورت » يذهب الى أن « الصقر حور » اله السماء ، انما هو نفسه « حور » ابن أوزير وايزة ، وانه لمن الخطأ أن تفصل بين « حور الاله الكبير سيد السماء » وبين « حور ابن ايزة » ، أو أن تفسر حقيقة هذا التوحيد على أنه يرجع الى التوفيق بين المذاهب المختلفة فى العصور المتأخرة .

وعلى أية حال ، فلقد عادت « ايزة » ، فشتهرت بأخيها « ست » — القاتل الفاصب — بين الأرباب والناس وكادت له عدة مرات ، وعندما شب ولدها « حور » ، كما يشب أبناء الأساطير ، الذى لا يخضعون لحكم المنطق ، شرع يدبر أمر الانتقام لأبيه ، وقد شاء الله تعالى أن يؤيد الحق ، فظاهر حور على عمه ست ، ونصره عليه نصرا ميثا ، ثم يفصل قضاء الالهة فى مدن « أون » أو فى منف بين المتخاصمين ، ويحكم لهور بعرش أبيه أوزير ، فيصبح ملكا على مصر ، كما يحكم لأوزير بعرش البقاء والخلود ، فيصبح ساطقا على الموتى (٩) .

(٩) احمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٢ — ٦٣ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٢٦ — ٣٢٩ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٨٠ — ٢٨٩ ، وكذا

Jacques Vandier, La religion egyptienne, Paris, 1949, p. 45-47

H. Frankfort, Kingship and The Gods, Chicago, 1948, p. 38-41. وكذا

Veronica Lons, Egyptian Mythology, 1968, p. 50-63, p. 127-138. وكذا

تلك هي أسطورة أوزير وإيزة مع أخيهما ست ، باختصار ، وهي كما نرى ، قصة الخير والشر ، فهي قد صورت الأخوين (أوزير وست) يختصمان خصاما يذكرنا - مع الفارق - بخصام ابني آدم ، هابيل وقابيل حين قربا إلى الله تعالى قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فطوقت له نفسه قتل أخيه فقتله (١٠) .

وصورت الأسطورة أيضا كثيرا من طبائع البشر وعواطفهم وأهوائهم صورت الحب والبغض ، والوفاء والخدر ، والرحمة والقسوة ، ثم علمتنا أن الباطل لا محالة مهزوم ، وأن النصر للحق وأهله مكفول ، طال الكفاح أو قصر ، وليس هناك من ريب في أن هذه الأسطورة إنما تصور حياة

(١٠) أنظر عن قصة ولدي آدم (هابيل وقابيل) : سورة المائدة : آية ٢٧ - ٣١ ، وأنظر : تفسير الطبري ١٠/٢١٠ - ٢٣٠ ، تفسير المنار ٦/٢٨٠ - ٢٨٧ ، تفسير القرطبي ص ٢١٣٠ - ٢١٣٨ ، صفوة التفاسير ١/٣٢٨ - ٣٣٩ ، في ظلال القرآن ٢/٨٧٤ - ٨٧٥ ، تفسير الكشاف ١/٤٨٤ - ٤٨٦ ، تفسير البضاوي ١/١٤٩ - ١٥١ ، تفسير النسفي ١/٢٨٠ - ٢٨١ ، تفسير ابن كثير ٢/٦٦ - ٧٤ .

ويقول صاحب الظلال (٢/٨٧٤ - ٨٧٥) هذه القصة تقدم نموذجا لطبيعة الشر والعدوان ، ونموذجا من العدوان الصارخ الذي لا مبرر له ، كما تقدم نموذجا لطبيعة الخير والسماحة ، ونموذجا من الطيبة والوداعة وتفهما وجهها لوجه ، كل منهما ينصرف وفق طبيعته ، وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها البشر ، والعدوان الصارخ الذي يشع الضمير ، ويشير الحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل ، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء ، فإذا ارتكبها على الرغم من ذلك ، وجد الجزاء العادل ، كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه ، هذا ولا يحدد السياق القرآني ، لأزمان ولا مكان ولا أسماء القصة وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات من « قابيل وهابيل » ، وأنهما أبناء آدم في هذه القصة ، وورود تفصيلات من القضية بينهما ، والنزاع على أخين لهما ، فإنا نؤثر أن نستبقى القصة ، كما وردت ، مجملة بدون تحديد ، لأن هذه الروايات كلها موضع شك ، في أنها مأخوذة عن أهل الكتاب (تكوين ١/٤ - ٢٦) ، والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبا لم يرد فيه تفصيل ، وهو من رواية ابن مسعود ، قال ، صلى الله عليه وسلم « لا تقتل نفس ظلما ، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .

المصريين وتجارهم في تلك الحياة ، ولن نجد ما يمنعنا من أن تصور أن يكون « أوزير » هذا رمز « النيل » ، وأن تكون « ايزة » رمزا لأرض الوطن ، تشقى بعد النيل عنها ، وتسعد بعودته إليها ، فأوزير كالثيل يطوف بالجشة ، ثم يحبط بمصر ، وأوزير قد علم الناس الضرع والزرع ، والنيل كان — وما يزال وسيظل — حبيب المصريين وأمتاذهم الأول ، علمهم الضرع والزرع ، ورسم لهم أروع صور الحب والوفاء والخير والجمال . وأوزير يحارب الشر ، كما يحارب الثيل الجفاف .

وهكذا ربط المصريون بين أوزير وكل التطورات التي تحدث على سطح الأرض طوال العام ، وتؤثر في إنتاجهم الزراعى ، فعندما يجىء الفيضان يكون أوزير هو الماء الجديد الذى يكسب الحقول خضرة ، ومع أن أوزير صار مع الماء — بل مع ينابيع المياه العظيمة — قسا واحدة ، فاته من الواضح ، أن وظيفة خاصة للماء ، هي التي امتزج بها ، فالماء بوصفه مصدرا للغصب ، ومانعا للحياة ، هو الذى وحد به أوزير ، وهو الذى يسبغ الحياة على التربة ، ومن ثم فإن أوزير كان يتصل بالتربة اتصالا وثيقا ، وإذا ما جف النبات وغنى ، فإن هذا يعنى أن أوزير قد مات غير أن موته هذا ليس أبديا ، إذ اعتقد القوم أن الحياة تعود إليه كل عام ، ومن هنا كانت الاشارات المعروفة لنا عن أوزير إنما تفرقه بعياة النبات أو توحده معها ، ومن ثم فقد كان تمثيله باعتباره « الها للخضرة » كان سائدا في مصر في كل العصور المتأخرة ، وربما ساد أيضا منذ العصور المبكرة ، عندما تقابل اسمه لأول مرة في الوثائق المكتوبة .

هذا وتربط « متون الأهرام » بين أوزير والحياة النباتية ، كما يرتبط بذلك تصوير أوزير مستلقيا على الأرض ، وينبت القمح من جسده ، أو تمثل شجرة ثابتة من قبره أو تابوته ، أو تجعل تماثيله للمصورة على هيئة مومياء في قالب مكون من الدشيشة والتراب مدفونة مع المتوفى ، أو موضوعة في حقل القمح ، ليضمن به الزارع محصولا موفورا من أرضه ، ومن ثم فقد كان طبيعيا أن يتخيل العقل المصرى ارتباطا بين البعث

والبذور النامية ، ففى عصر الثورة الاجتماعية الأولى تقارن روح الميت مع « نبرى » الاله المجسد للقمح ، ومنذ الدولة الوسطى أصبح يشار الى أوزير كاله للفيضان والخضرة ، وفى الدولة الحديثة تبدو طبيعته الرابضة الى حياة الخضرة واضحة فى تواتر الاشارة فى المقابر الى « القمح — أوزير » ، وهكذا وحد فى أقدم نسخة من « كتاب الموتى » مع الحنطة ، ومن ثم يعبر المتوفى عن نفسه بقوله « ائى أوزير ، وائى أعيش كحبة حنطة ، وأنمو كحبة حنطة ، وائى شعير » ، وهكذا ومن أجل الحياة والموت ، اعتبر أوزير بعد ذلك الها للموتى ، طوال العصور التاريخية ، وظلت تلك الصفة من أبرز صفاته .

ولعل ما تجدر الاشارة اليه ، أن مصرع أوزير — على نحو ما رأينا آنفا — وتقدير المصريين لجوده ، ووفائه ، كما تصوره الأسطورة ، انما يقدمان لنا صورة رائعة من الخلق البشرى الكريم ، وانموذجا جميلا من القيم الانسانية الرفيعة ، ثم ان فكرة الانسان المؤله ، والاله المجسد فى هيئة البشر ، وفكرة الحمل من الروح — حمل ايزة بولدها حور — كل أولئك صور جميلة ، وبخاصة صورة الحمل من الروح ، لأنها تجيب الى قلوبنا هذا الطفل ، وتبشر بالحق والعدل والرحمة والتضحية ، وليس فى دنيا البشر أجمل من هذا المثل .

بقيت الاشارة الى أن المصريين انما كانوا جد راغبين فى تقليد « أوزير » الذى قدمه « ست » أمام رع ومجمع الآلهة فى هليوبوليس ، لكن مجمع القضاء الالهى هذا ، انما قد برأ ساعته ، بمساعدة نحت ، على أساس أنه « صادق الصوت » ، هذا فضلا عن أن المصرى — تشوقا الى البعث والحياة بعد الموت مثل أوزير وبالتماثل معه — انما كان يجب أن يتلقى بدوره حكما الهيا فى هذه الحال من أوزير نفسه ، لأنه اله للموتى وهكذا بدأ المصريون فى عصر الثورة الاجتماعية — وهو عصر الاتجاه نحو الديمقراطية فى مصر القديمة — يشاركون الفرعون المؤله مصيره الأخرى ، فكما أن الفرعون سيكون أوزير فى الآخرة ، فقد اعتقد كل

فرد أنه سيكون كذلك أوزير ، وما يكاد ركب التاريخ يصل بإمامه الى مطام الحياة من أيام الدولة الوسطى حتى تصبح هذه العليقة واضحة بينة فيما انتشر على توابيت الموتى من تعاويذ ورقى مختلفة تشير كلها الى أن الناس قد تساوت مقاديرهم فى هذه الدنيا ، فأصبحوا فى عالم القبور سواء ، غير أن الناس ، فيما يبدو ، قد خدعوا أنفسهم عن طبيعة أوزير ، ونسوا — أو تناسوا — ما كان من قضاء الآلهة فى أوزير ، وزعموا أن فى حمل اسمه ، والتعلى بتأجه وصولجائه وشاراته ، ما يرفع عنهم كل ذنب ويصل بهم الى عرشه ومقامه ، وتزودوا لآخرتهم بكتاب يسجل طائفة من الفضائل والصالحات من الأعمال ، ويتخذون منها براء الى رب الموتى ، وربما من عذاب الآخرة وجعيمها ، وبذا غدا أمر الدين سهلا ، وبدا الناس يأخذون بظواهر الأمور ، ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم بذلك العزاء الزائف ، والنفس البشرية تحتاج الى العزاء على كل حال (١١) .

(١١) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٦٣ ، ياروسلاف تشرنى : المرجع السابق ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، أحمد بدوى : فى موكب الشمس ٧٠/٢ - ٧١ ، أدولف ارمان : المرجع السابق ص ٤٨ - ٤٩ ، ٨٠ - ٨٢ ، جيمس هنرى برستد : فجر الضمير ص ١١١ - ١١٦ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٢٨٩ - ٢٩١ ، الثورة الاجتماعية الأولى فى مصر القراعنه ص ٢١٦ - ٢١٧ .
وانظر من الاسطورة بصفة عامة :

H. P. Cooke, Osiris, A Study in Myths, Mysteries and Religion, London, 1931.

Plutarch, Isis and Osiris, Trans, by F.C. Babbitt, London, 1963. وكلا

L. Spence, The Myths and Legends of Ancient Egypt, London, 1915. وكلا

M. A. Murray, Ancient Egyptian Legends, London, 1913 وكلا

كانت هذه الأسطورة من أحب الأساطير الى المصريين ، فهي تمثل قصة امرأة معذبة ، فجعت في زوجها ، ثم لاقت الأمرين في البحث عن هذا الزوج المقتول حتى عثرت عليه ، واستعانت بسحرها حتى ردت روحه عليه لفترة من الوقت ، وحملت عليه كما يحط الطائر فحملت منه حملا ربانيا ، ووضعت منه طفلا « حور » (١) ، ثم وقفت وحيدة تدافع عن ولدها هذا ، بل ونسبت الى أوزير كذلك ، كما ريت فيه نزعة الثأر لأبيه ، ثم خلافت على عرش مصر العليا والسفلى كخلف له .

على أن هذه الأسطورة لم تكن كغيرها من الأساطير التي يتحدث بها الأب الى ابنه ، أو الأم الى ابنتها ، فحسب ، ولكنها كانت أيضا واحدة من القصص التي كانت تستعمل في أغراض سحرية ، إذ اعتقد القوم ، اعتقادا راسخا ، بأن بعض الأساطير التي يتحدث عن بعض شئون الآلهة ، وخاصة تلك التي تتعلق بمصائب حلت ببعضهم ، انما تصبح ذات أثر فعال ، اذا

(١) صورت منون التوابيت حمل ايرة بولدها حور في مشهد حوارى يشترك فيه أربعة ، ويبدأ بانطلاق اعصار يروع الآلهة ، ويوقف ايرة الحبلى مشفقة ان يكون هو صوت خصمها « ست » رب الرمود والبروق اتي يهددها بايذاء جنينها ، فاستصرخت الأرباب وذكرتهم بوضعها وبأنها أخت أوزير ، صاحب الفضل في الفصل في الخصومات القديمة ، وأن بلوته تشكلت في بيضته في أحشائها ، فناد بهم : هلموا ايها الأرباب ، واحبوا من هو في بطنى ، واذكروا انه مولاكم ، وسرعان ما باتتبا صوت « أوم » مبشرا « لبطنى قلبك » ولكن تظهر على المسرح امرأة تسأل ايرة متخافتة : وكيف ندركن ان من هو في البيضة سيكون للاله السيد حقا ، وورثا لأرباب الماضى ؟ ، وتشعر ايرة بما في السؤال من تعريض بها فتجيبها منفصلة لكرامتها : أنا ايرة ربة الشهرة والقداسة ، وأن من في أحشائى هو غرس أوزير حقا ويناصرها اوم قائلا : انها حملت خفية ، وهى فتاة حملت ، وستضع حملها دون تدخل الأرباب ، وهو غرس أوزير فعلا ، فليقلع ذلك العدو الذى قتل أباه عن ابداء بيضته الصغيرة ، وليبجله الساحر الأعظم ، فاطبعوا ايها الأرباب ما قالت ايرة (عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٢٦) .

عبد المنعم أبو بكر : اساطير مصرية - القاهرة ١٩٥٤ ص ٦٩ - ٧٠ .

استعملت كتميمة سحرية ، ذلك لأن الأساليب التي تخلص بها هذا الاله أو ذاك من محنته ، هي بعينها التي تخلص من يستعملها من البشر في معنة مماثلة ، هذا وقد اعتاد بعض القوم أن يقيموا أمام منازلهم لوحة حجرية نقشوا فوقها صوراً تمثل الاله حور ، وهو يطيأ بقدميه تماشين ، ويقبض يديه على بعض العقارب والثعابين وغيرها ، والمقصود بهذه اللوحة أن تمنع هذه المخلوقات الضارة من أن تدخل المنزل وتفتك بسكاته .

وهناك نموذج جميل من هذه اللوحات وجد بين مخلفات « الكوفت مترينخ » ، وقد عرف بين العلماء باسم « لوحة مترينخ » كان القوم يستعملونها تعويذة تقي من لدغ العقرب ، وقد جاء فيه :

« أنا ايزة بينما كنت خارجة من المشغل الذي تقالى اليه أخى ست ، سمعت تحونى الاله الكبير ، سيد العدالة فى السماء والأرض ، وهو يقول لى : اقبلى أيتها الالهة ايزة ، ما أحسن أن ينصت الانسان ، يحيا الانسان جهدى غيره ، اختبىء مع ابنك ، ذلك الطفل الذى يقبل الينا ، عندما يكبر جسده ، وتكتمل قوته ، فسوف تفعلينه يستولى على عرشه ، وتحفظين له بذلك وظيفته ، ملك الأرضين ، وحينما خرجت ساعة المساء ، خرجت العقارب السبعة فى اثرى تحوطنى وتحرسنى (ربما المقصود من ست أو أعوان ست طبقاً لرواية بلوتارخ) ، ولكل منهن مكان معلوم من بين يديها ومن خلفها ، وقد لبهتن فى حزم الى آداب الطريق ، قائلة : لا تعرفن على الأسود ، ولا تحبين الأحمر ، ولا تفاضلن بين ابن الغنى وابن الفقير ، ولتبق وجوهكن منكفئة على الطريق ، واحذرن اثارة الشكوك ، وأن يتبعكن متلصص يبحث عن مخبأى ، حتى فصل الى « برسوى » مدينة السيدتين المتعلتين ، عند بداية المستنقع ونهاية القفص (الذى نعيش فيه) .

واقتربت ايزة بمقاربها السبعة فى طريقها من دار سيدة متزوجة قاسية فلمحتها ربة الدار من بعيد وغلقت أبوابها دونها ، فاستامت العقارب من قسوها ، وأضرمن عقابها على فعلتها ، وبعد قليل وجلت ايزة الضيافة عند

امرأة فقيرة ، وانسلت إحدى العقارب (قن) الى بيت السيدة البخيلة ، ولدغت طفلها ، وأشعلت النار فى بيتها ، فخرجت للمرأة تولولها ، وما من سميع لها أو مجيب . الا ايزة التى أشفقت على الطفل البريء ، ونادتها : تعالى ، تعالى ، فان فى فمى الحياة ، وأنا فتاة معروفة فى بلدنا ، أوقف الثعبان بأمرى ، فلقد علمنى أبى العلم ، فقد كنت ابنته المحبوبة ، فسارعت المرأة الى ايزة ، ووضعت أمامها اينها ، ولما كالت الالهة قد تنبأت بما حدث فانها تمتت بتعويذتها السحرية ، منادية « سم » كل عقرب من العقارب السبع آمرة أياه أن يستل من جسم الطفل ، ولم تكده تنتهى من تميمتها حتى سال السم خارجا من جسم الطفل ، ودبت الحياة فيه ، وفى نفس اللحظة التى استعاد فيها الطفل عافيته ، انطلقت النيران بقوة سحرية من منزل تلك المرأة القاسية ، وتلقت ايزة ثناء تلك المرأة وجيرانها .

وسرعان ما اختفت ايزة من القرية خوفا من بطش ست ، فأسرعت خطاها متوغلة فى أحشاء المستنقعات لتختفى هناك عن أعين المتطفلين من الناس ، وفى هذا المكان الموحش استقبل « حور » الحياة ، بعد أن ذاقت أمه الأمرين فى وحدتها المضنية ، وهكذا عاشت ايزة مع وحيدها بين المستنقعات (أحراج خم) الموحشة ، ولا هم لها سوى ثشنة وليدها ورعايته ، فلا تركه الا لوهلة قصيرة لتحصل على ما يقيم أودهما من طعام أو شراب .

غير أن ست سرعان ما علم بأمر الطفل ، فأرسل عقربا لدغته أثناء غياب أمه ، التى ما أن عادت اليه حتى وجدته يكاد يفارق الحياة ، فصرخت صرخة مدوية سمعها من فى القرية المجاورة ، فهرعوا اليها ، وصاحت امرأة منهم : لا بد أن حور قد لدغته عقرب ، وأما ايزة فقد قربت أهلها من فم الطفل لتمتطع ديب ألقاسه ، ثم فحصت الطفل فوجدت السم عالقا به ، فأخذت تصرخ : أى رع ان ابنك حور قد لدغ ، ان حور قد لدغ ، وهو الورث والمولى على عرش « شو » ، ان الطفل الجبيل ذا الأعضاء الذهبية قد لدغ ، ان حور ابن ايزة قد لدغ ، ان حور الذى أعدته لكى

يثأر لأبيه قد لدغ ، ان حور الذي خشيت أن يصيبه مكروه ، وهو فى
رحى ، قد لدغ ، ان حور الذى رعيته قد لدغ ، ان حور الطفل الذى
رجوت حياته قد لدغ ، ان الطفل قد مات .

وهنا جاءتنى امرأة كيسة ، أنبل نساء بلدها ، وهى الالهة « سرقه »
(سرقه) ، وقالت لى : لا تقنطى فالطفل آمن . والأحراج محروسة
ولا حكم للموت عليها ، لأن ست لا يقربها ، ولا يجوب أرض خم . .
فلعل عقربا لدغته أو حيوانا عضه . . ، ثم توافدت الربات عليها ، وفى
مقدمتهن اختها « نبت حت » (نفتيس) ، وأوصتها احداهن بأن تستصرخ
السماء ، فصرخت صرخة أوقفت بها مركب اله الشمس فى مدارها ،
وأوقفت كوكبه حيث كان ، وارسل « تحوت » ليستطلع الأمر « فجاء
تحوت وسأل الإزة : ماذا جرى ، أيتها الربة ذات القم الحفيف ، لسوف
يثبت قرص الشمس حيث كان بالأمس ، ويحتجب الضياء ومع الظلام ،
الى أن يبرأ حور من أجل أمه .

وبدا تحوت يرقل تعاويذه السحرة ، معددا أوصاف حور ، مقارنا
اياها بأوصاف كائنات الهية متعددة ، « حور تحيطه العناية ، حور مثله
كمثل ذلك الذى فى قرص الشمس ، الذى يضيء الأرضين بنور عينيه ، أى
حور ، استيقظ ، أى حور ان حصاتك مؤكدة ، استيقظ وادخل الفرح
الى قلب أمك الإزة ، ان كلمات حور سوف تربط بين القلوب ، ان حور
سوف ينشر السلام على أولئك الذين يرغبون فى السلام .

« أنا تحوت بن رع البكر ، ان أتوم وأصحابه أصدرُوا أمرهم لى
بأن أشفى حور لتقر عين أمه ، ولأشفى كل مصاب بنفس العلة ، سيحيا
حور من أجل أمه ، وسيحيا كذلك كل من كان مصابا بنفس الداء » .

وينتهى الحوار بشفاء الطفل حور وتعويذه من كل ما يمكن أن يهدده
وهو حوار يراه « دريموتون » حلقة من دراما قاضجة كانت تمثل فتحرك
العواطف ، وتأخذ بالباب المشاهدين ويغتمها « تحوتى » بقوله : ان العالم

يترقبني لأرسل له « مسكته » وأطلق له « معنجة » ولسوف يمدح الرسول
على ما أداه ، عندما يزف البشرى الى من أرسله (٣) .

٣ - أسطورة الصراع بين حور وموت :

عثر على هذه الأسطورة في عام ١٩٢٨ م في دير المدينة بطيبة الغربية
(الأقصر غرب) على بردية مكتوبة بالخط الهيراطيقي ، وقد اشتراها
المستر « شستر بيني » ثم أهداها الى المتحف البريطاني ، والبردية ترجع
الى أيام « رمسيس الخامس » (١١٤٥ - ١١٤٦ ق م) من الأسرة
العشرين ، وقد أعيدت كتابتها بلغة الدولة الحديثة من برديات أقدم ترجع
الى أيام الأسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق م) ، وقد عثر على
بعض أجزاء منها في برديات الدولة الوسطى والحديثة ، والنص الأساسي
لهذه البردية نشره « سير ألن جاردنر » (٢) كما قام بترجمة البردية وشرحها
ثم مقارنتها بغيرها من النصوص الأخرى ، كثير من العلماء ، من أمثال :
جان كايارد (٤) وجوستاف فيفر (٥) وأدولف أرماني (٦) ، وبلاكمان (٧)

(٢) انظر : عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٧ ،
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٢٩ - ٣٣١ ، إثنين دريويون :
المسرح المصري القديم - ترجمة تروت مكانة ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر
القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٧ - ٩٢ ، ص ١١٦ - ١٢٤ ، أدولف أومان : ديانة
مصر القديمة ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

E. Drioton, Le theatre dans L'ancienne Egypte, Revue d'Histoire du Theatre, 1954, p. 54 F. وكذا

A. Moret, in Rev. de L'Histoire des Religions, 1915, p. 213 F. وكذا

A. H. Gardiner, The Library of A. Chester Beatty Description (١)
of a Hieratic Papyrus with a Mythological Story, Love-Songs and Other
Miscellaneous Texts-The Chester Beatty No. 1, London, 1931, p. 8-26,
Pls. 1-16.

A. H. Gardiner, LES, p. 37-60. وكذا

Jean Capart, in Chronique d'Egypte, 8, 1933, p. 243-255. (٤)

G. Lefebvre, Romans et Contes egyptiens de L'epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 178-203. (٥)

A. Erman, The Literature of «The Ancient Egyptians Trans (٦)
into English by A. M. Blackman, London, 1927, Reprint New York,
1966.

وجبريفث (٨) وپروفر - تروت (٩) ، وشييجل (١٠) وجو ويلسون (١١) ،
وغيرهم (١٢) *

هذا وقد قام بعض العلماء المصريين بتقديم ترجمات للبردية - سواء
أكانت هذه الترجمات كاملة ، أو لأهم أجزاء البردية - من أمثال : سليم
حسن وأحمد فخرى وعبد المنعم أبو بكر وعبد الحميد زايد وعبد العزيز
صالح ، فضلا عن ترجمة عربية لكتاب « جوستاف لوفيفر » (١٣) *

وتمثل هذه البردية القضاء وأحكامه ، كما تقدم فكرة عن كل
الخطوات التي تستلزمها قضية ما ، وتبين أطوارها المختلفة في ساحة القضاء
فضلا عن أنها إنما تتعلق بشخصيات اعتبرها المصري القديم آلهة له ، غير

-
- A. M. Blackman, in JEA, 19, 1933, p. 210 F. (٧)
J. G. Griffiths, The Conflict of Horus and Seth from Egyptian
and Classical Sources, Liverpool, 1960. (٨)
E. Brunner-Traut, Altägyptische Märchen. Düsseldorf-Cologne, 1965, p. 93-107. (٩)
J. Spiegel, Die Erzählung Vom Streite des Horus und Seth in (١٠)
Pap. Beatty I, als Literaturwerk. Leipziger ägyptologische Studien, 9, 1937.
J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 14-18. (١١)
H. Te Velde, Seth, God of Confusion, Leiden, 1967. (١٢)

ومن أحدث لرجمات هذه البردية :

- Miriam Licheim, Ancient Egyptian Literature, London, 11,
1975, p. 214-223.
E. F. Wente, in Simpson, The Literature of Ancient Egypt,
London, 1977, p. 108-126.
(١٣) سليم حسن : الادب المصري القديم - الجزء الأول - القاهرة
١٩٤٥ ص ١٢٧ - ١٦١ ، أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية
١/ ٣٧٨ - ٣٨٢ ، عبد المنعم أبو بكر : أساطير مصرية ص ٢٦ - ٤٠ ،
عبد الحميد زايد : الرمز والاسطورة الفرعونية - مجلة عالم الفكر - ديسمبر
١٩٨٥ ص ٤٧ - ٥٢ ، عبدالعزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ١/ ٢٢١-٢٢٢
جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني - ترجمة
على حافظ ص ٢٣٧ - ٢٧٠ (الألف كتاب رقم ٦٦) ، رودلف آتس :
اساطير العالم القديم (معرب) - القاهرة ١٩٧٤ ص ٦٢ - ٦٤ .

أن الأسلوب الشيق الذى دبجت به الأسطورة يجعل القارئ ، يحس وكأنها تهدم صورة حية لما كان يحدث بين الناس ، وخاصة أن الأسلوب انما قد صاغه المؤلف بالفاظ تستعمل فى الحياة اليومية ، ومن عجب أن المصريين رغم أنهم كانوا — كما يقول جوستاف لوفيفر — من « أتقى أهل الأرض جميعا » ، فإن الحديث فى هذه الأسطورة عن الالهة ، لا ينم عن رفع الكلفة فحسب ، بل يميل الى عدم الاحترام ، وربما السخرية ، ويبين ضعفهم وعيوبهم ، ويضحك القارئ عليهم ، ويتحدث عن رذائلهم ، على أنه من ناحية أخرى ، ما تظن أن المصريين المتدينين كانوا يتخيلون لأربابهم مثل هذا النقاش والجدل ، والأخذ والرد ، دون أن يكون فى دنياهم شيء مثله ، يسمح لأصحاب كل مذهب بأن يجادلوا منافسيهم فى أمور دينهم ، ان لم يسمح لأهل الحكم أيضا بأن يتقبلوا مجادلة ولاتهم وأعضاء مجالسهم ، كما جادل الأرباب رئيسهم .

والأسطورة ، على أية حال ، انما تمثل حكاية شعبية قوية ، ربما للتسلية أكثر منها للفرض التعليمى ، وتركيب القصة ، كما قلنا ، قضائى بالمحكمة العليا للالهة « الأياد » (مجمع الآلهة) فى محاولة لانهاء النزاع الذى استمر ثمانين عاما أمام أعضاء التاسوع وكبار الأرباب برئاسة « رع حر أختى » رب عين شمس ، دون الاهتمام الى حل لها ، وكان موضوع القضية عرش مصر الذى يطالب به « حور » و « ايزة » استنادا الى القانون ، ويطلب به « ست » استنادا الى قوته ووسطوته ، ذلك أن « ست » كان قد اغتصب الملك بعد أن قتل أخاه « أوزير » الذى أصبح بعد ذلك ملكا فى العالم الآخر ، غير أن « ايزة » التى كانت قد حملت بولدها « حور » من روح « أوزير » ، عنيت بتربية حور ، حتى بلغ أشده وأخذ يطالب بعرش أبيه أوزير ، وتسانده فى ذلك أمه « ايزة » ، وقامت الحرب بين حور وست ، وعقد مجلس الآلهة محكمة للفصل بينهما ، غير أن المحكمة قد انقسمت الى فريقين ، الواحد يؤيد حور ، والآخر يرى أنه قد تجاوز الحد فى الاجترار على عمه ، وأن عمه أحق منه بالملك وأجدر به .

وكان « أتوم » يميل الى « ست » القوى ، على حين كان قرار المحكمة

فى صالح الوريث الشرعى « حور » ، وبنفس هذا القرار انتهت الفصومة أخيرا الى خاتمتها السعيدة بحور ملكا متوجا على عرش مصر ، ولعل من أهم الخصائص المميزة للخاتمة مظهر « ست » هنا — كما فى الملاهوت المنفى — مغلوبا طبيعا فما أن أصبح القرار نهائيا ، حتى وافق عليه راضيا حيث عهد عندئذ الى « رع حراختى » بأن يكون بمثابة الولد ، والمحارب المخيف فى زورق الشمس ، وتستلئ الأحداث من بدايتها ونهايتها بالأحداث التى تزخر أو تعجل اجراءات المحكمة وقراراتها ، والقصة ، على أية حال ، تتلبد ساخر لاجراءات المحاكم البطيئة والشكليات الملعونة ، كما أنها متبلبة بالغز واللز فى المشغوص القيادية .

تقول الأسطورة ما ملخصه :

« نقدم حور ، الطفل المقدس الى سيد العالم « أتوم » يطالب بعرش أبيه « أوزير » ، جميل الطلعة ، ابن « بتاع » الذى يضىء الغرب بحياء ، بينما كان « تحوت » يقدم العين للأمير القوى فى هليوبوليس ، ثم تكلم « شو » ابن « رع » أمام القوى الموجود فى هليوبوليس : الحق هو الرب القوى ، اعط الوظيفية لحورس ، ثم قال تحوت للأنياد (مجمع الآلهة = آلهة التاسوع) : هذا هو الحق مليون مرة ، وهنا تصاعد صوت ابرة فرحة ، وكانت السعادة تطفو على وجهها ، ووقفت أمام سيد الجميع وقالت : يا ربح الشمال اذهبى الى الغرب ، واحملنى معك هذا النبا السعيد ، وبلغه الى « أوزير » (اون نر = وتفر) ، له الحياة والسعادة والصحة » .

« وعندئذ قال شو بن رع : ان وجود العين هو اله العدل من قبل الأنياد ، وقال رب الجميع : ماذا يعنى اتخاذكم قرارا منفردا ، ... ثم صمت رب الجميع مدة طويلة لأنه كان ساخطا على الأنياد ، ثم قال « ست بن قوت » : أخرجه معى الى الخارج حتى أستطيع أن أرىكم ان يدي تغلب على يده فى حضرة الأنياد مادام أحد لا يعرف وسيلة أخرى لتجريدته ، ثم قال تحوت : أليس من الصواب أن نعرف من

المخطيء ، الآن هل تعطى وظيفة أوزير الى ست ، ومازال ابنه حور يقف هنا فى المحكمة ، وهنا غضب « رع حور أختى » غضبا شديدا ، فقد كانت رغبته اعطاء الوظيفة لست ، وصاح « أنوريس » صيحة عالية أمام الأنياد ، وقال : ماذا تفعل ؟ »

« واختلط الجابل بالنابل فى ساحة القضاء ، واقترح البعض أن يسأل فى ذلك بعض الآلهة لكى تعطى رأيا ، فبين يستحق الوظيفة بين الاثنين (حوروست) ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وظهر اقتراح أن تسأل « نيت » - ربة صا الحجر - فى جدرة باتخاذ القرار الناجز ، وأمر أعضاء التاسوع أن يكتب تحوت خطابا - باسم سيد الجميع ، النور الذى يسكن هليوبوليس - الى « نيت » العظيمة ، أم الآله ، فأوما تحوت برأسه ، وقال : « صنا سافعل ما تأمرون به ، نعم سافعل ، سافعل ، وجلس على الأرض وكتب الخطاب التالى :

« ملك مصر العليا والسفلى ، رع أتوم ، محبوب تحوت ، سيد الأرضين ، الساكن فى هليوبوليس ، يقول : ماذا نحن فاعلون بأمر هذين الرجلين اللذين وقفا فى ساحة القضاء ثنائين عاما ، ولم يستطع أحد أن يفصل فى أمرهما ، فرجو الكتابة إلينا بما نحن فاعلون » .

وأرسلت « نيت » (نيت) الآلهة العظيمة أم الآله خطابا الى التاسوع تقول : اعطوا منصب أوزير لولده حور ، ولا تقتربوا مكائد جسية ليست فى محلها ، والا غضبت وأطبقت السماء على الأرض ، وقولوا لرب الجميع ، سيد عين شمس أن ضاعف ثراه ست وهبه ابنتيك « عنات » و « عشتارته » ان شئت ، ولكن ضع حور فى منصب أيه .

ثم وصل خطاب « نيت » العظيمة أم الآله الى الأنياد ، عندما كانوا جلوسا فى القاعة الكبرى المسماة «حور صاحب القرون المتقدمة» ، ووضع الخطاب فى يد تحوت ، ثم قرأه تحوت أمام رب الجميع والأنياد كاملا ، وقالوا بصوت واحد : هذه الآلهة على حق ، وعندئذ غضب رب الجميع

على حور ، وقال له : أنت ضعيف البدن ، والمنصب أكبر من أن تحمله ، ولازلت طفلا يفوح البخر من فمك ، وهنا غضب الحاضرون ، وثار الرب « بابا » قائلا له فى جراءة : لقد أصبح هيكلك خاويا (بعد أن تجاوزه الانصاف) ، وقالم رع من الالهة ، فاستلقى على ظهره ، وابتأس قلبه ، فعزت كرامته على أفراد التاسوع ، على الرغم من مخالفتهم لرايه ، وصاحوا فى وجه « بابا » قائلاين : أخرج ، فلقد آتيت أمرا لكرا .

ومرت الأيام والسنون ، وجاءت « حاتحور » سيدة الحميزة لتزور أباه سيد الجميع ، ووقفت أمامه وكشفت عن سواها ، وهنا انفجر الإله العظيم ضاحكا ، وصحا من رقدته ، وجلس مع التاسوع وقال لحور وست: قصوا على قصتكم ، واختلفت الأصوات وتزايد الصراخ ، وخاصة عندما تدخلت ايزة أم حور لتدافع عن ولدها ، واشتد حنق ست ، وأقسم فى ثورة غضبه أنه سيقتل واحدا من الالهة كل يوم ، ورفض رفضا باتا أن يشترك فى هذه القضية ، ما دامت ايزة حاضرة ، ووافق رع حراختى ، وانتقل بمجلسه الى مكان قصى فى « الجزيرة الوسطى » ، وحذر النوتى من أن ينقل ايزة اليهم بقاربه ، فلم تسلم ايزة بهذا القرار ، وتكررت فى هيئة عجوز ، واستدرت عطف النوتى بادعائها أن فى الجزيرة غلاما صغيرا يرعى لها أغنامها ، ولم يصله طعامه منذ أيام ، وأنها تود أن تموله ، وطلمات النوتى بأن ذلك لن يضره لأن قرار الحظر مقصور على ايزة ، ولما تبينت طبعه رشته بخاتمها الذهبى ، فاستجاب لها ونقلها الى الجزيرة الوسطى .

وهناك وجدت القضاة ومعهم ست يتفياون ظل شجرة ، فقلبت نفسها الى غادة مليحة . وخطرت أمام ست المعجب بنفسه حتى لمحا وتمقبها وغازلها ، وفى حديثها معه استشارت نخوته بقولها : تأمل يا سيدى الجليل انى كنت زوجة راع ، وأنجبت منه طفلا ، ولما مات زوجى ، ولى ولدى الصغير أمر أغنام أبيه ، ولكن رجلا غريبا جاء واستولى على حظيره عنوة وقال له : سوف أضربك واستولى على أغنام أليك وألقى بك بعيدا ، فعلا أصبحت حاميا له ؟ ، فأجابها ست : وهل يجوز أن يستولى غريب على

القطيع وابن رب العائلة موجود ، الويل للغاصب ، وعند ذلك غرت ايزة نفسها بسحرها الى هيئة الحداة ، وطارت ، ثم حطت على قمة شجرة ، وصاحت به قائلة له : ابلك اذن على نفسك ، فان فمك هو الذى قالها ، وشطارتك هي التى حكمت عليك ، فما الذى تريد بعد ذلك .

وصرخ أعضاء التاسوع قائلين : ما هذا يا ست ، لقد اتعبتنا بقضيتك وأنت تقر الآن بالحق ، فلتعطى وظيفة أوزير الى ولده حور ، غير أن ست لم ينهزم ، وطلب من سيد الجميع أن يدخل فى معركة جسدية مع حور ، على أن تعطى الوظيفة للغالب ، وهلل التاسوع لهذه الفكرة ، ومرعان ما انتقل الخصمان الى فرسى نهر ، وصمما على أن يبقيا تحت الماء مدة ثلاثة أشهر كاملة ، ولكن ايزة أفسدت المراهنة بتدخلها الى جانب ولدها حور ، حيث استقطت فى الماء (خطأ) لكى تشل حركة ست ، فاستعطف ست أخته ايزة ، وطلب اليها بحنان أن تبعد عنه الخفاف ، ومرعان مارق قلبها : فغضب حور على أمه وأطاح برأسها . فازعج أعضاء التاسوع من هذه القصة الشنيعة وسبحوا لست أن يعاقب حور باقتلاع عينيه ودفعهما فى الأرض حتى قضى بهما ، وهنا أسرع حاتحور ووضعت فى مقلتيه لبن فزال ، وبذلك ارتد الضوء اليهما .

وطلب رع من الخصمين أن يوقفا عراكمهما ، فصرخ ست مقسما : سوف لا تعطى وظيفة أوزير الى حور ، الا بعد أن يغلب أحدهما الآخر ، واقترح أن يقوم سباق بينهما فى سميتين ، على أن يتسلم الغالب وظيفة أوزير ، فاعد حور لنفسه قارباً من الخشب طلالها من الخارج بالجص ليبدو للناظر أنه صنع من الحجر ، وبنى ست لنفسه قارباً من الصخر الأصم ، وما كاد يضمه فى الماء حتى غرق فى اليم ، وأقلع حور بقاربه نحو الشمال الى مقر الالهة نيت فى ساو ، وهناك أبلغها بكل ما حدث ، كما عرض عليها ما أخطأ فيه ، واتخذت شكل فرس النهر ، وأراد مهاجمة قارب حور ، الذى سارع باستعمال الخفاف ليلقيه على ست ، الا أن أعضاء التاسوع صرخوا قائلين : لا ترم ست بهذا الخفاف .

واقترح تحوت أن يكتب الآلهة خطابا الى الاله أوزير يسأله رايه
 فى المشكلة ، ثم قال شو ابن رع : ما قاله تحوت للأبياد حق مليون مرة ،
 ثم قال رب الجميع لتحوت : اجلس واكتب خطابا الى أوزير لنستطيع
 سماع ما عنده من قول : وكتب تحوت الخطاب ، وعندما تلقى أوزير صاح
 صيحة عظيمة ، ورد عليه فى الحال فقال : لم تخدعون ولدى حور ، وأنا
 من شد أزركم . وأنميت الشعير والحنطة لحياة الأرباب والأحياء من بعدهم
 وما من اله آخر أو الهة يستطيع أن يفعل ذلك ، وعندما قرى الرد على
 « رع حراختى » امتكر هذا التعالى ورد عليه بمثله قائلا له : انك وان
 لم توجد إلاقا ، ولم تولد بتاتا ، فلسوف يبقى للشعير والحنطة (من
 دوتك) .

وعندما وصل خطيب «رع حراختى» اله أوزير ، سارع بالرد مهددا
 الآلهة أن يرسل الهم بعض المردة من أتباعه ، واتهم رع حراختى بأنه يجمع
 من حوله فئة من الآلهة ، لا هم لها الا الاعلاء من شأنه والتزلف اليه ، بينما
 يعملون شئون الناس ومصلحتهم ، ثم تساءل : يا صانع التاسوع أين
 العدانة ، اذا حدث عنها فانك ستجدها قد عرقت وذبحت معاملها ، احكم
 بالعدل ، أما الأرض التى أعيش فيها فهى ملائ برسل ذوى وجوه متوحشة
 وهم لا يفتنون أى اله أو آلهة ، ان فى استطاعتى أن أرسلهم اليكم
 ليقضوا على أى منكم فيجلبوه الى هنا ليمش معى (اشارة الى موت) ،
 اذ لا معنى أن أعيش هنا فى الغرب ، بينما ترحلون أتم فى عالمكم ، والى
 أتساءل من منكم يفوقنى قوة ؟ وويل الحق انكم لا تعبدون شيئا غير
 الخداع ، واعلموا أن بناح العظيم عندما خاق النجوم فى السماء قال لها :
 مستذهين كل ليلة ، ومنحيين فى الغرب حيث يحكم أوزير ، وسوف
 يذهب الى الغرب أيضا كل اله وكل انسان ليحيا هناك مع أوزير .

وعندما وصل الخطاب الى تحوت ، وقرأه على أفراد التاسوع ، وافقوا
 عليه بالاجماع ، ولكن ست أراد أن يخرج بمحاولة جديدة ، فأمر « أتوم »
 ايزة أن تحضر ست مكبلا بالقيود ، ونفذت ليزة ما أمر به أتوم ، الذى

وجه الحديث الى ست قائلا : لماذا لا تريد أن تأخذ العدالة مجراها ؟ ولماذا تعارض في أن يأخذ حور وظيفة آييه ؟ وهنا أجاب ست : سيدى ومولاي، دع حور بن ايزة يتسلم وظيفة آييه ، وسرعان ما حضر حور ، ولبس التاج الأبيض ، واعتلى عرش آييه ، ثم قيل له : أهلا بالملك الطيب المولى على مصر ، فليكن من نصيبك الحياة والسعادة والصحة ، وأما سيد الجميع فقال : دعوا ست بن فوت يأتى ليحيا معى ، سأجعل منه ابنا لى ، سوف يدوى سوره فى السماء ، سوف يجابه كل الناس ، وأما رع فقد قال عندما بلغه الخبر : فلتسددو به ، خروا الى الأرض ساجدا أمام حور بن ايزة ، وهكذا انتهت هذه القضية بالسعادة ترغف على حور فى طيبة موطن الحق ، وبارضاء ست برفعه الى السماء ليكون تبعا لاله الشمس « رع عراختى » ، والساح له باستغلال طاقته فيها ، حيث يزأر فيكون الرعد، ويشور فتثور العواصف .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الرواة الدينيين من أنصار اوزير وحور لم ينسوا نصيحة الربة « نيت » الى أفراد التاسوع بأن يقولوا للاله الأكبر أن يجب ست ابنتيه عنات وعشتارته ، ان شاء ، وبمعنى آخر أن يمنحه أراضي الربتين فى غربى آسيا وصحراواتها ، على أن يبعد أذاه عن مصر ، وأن ذلك قد حدث ، وأن ست قد عوض عن مصر بنيرها ، على الرغم من تبعيته لأربابها ، ومن ثم فقد أصبح هؤلاء الرواة المتعصبون — كلما ألت بمصر مصيبة وتعرضت لغزو من آسيا وعبر صحراواتها — رمزوا الى هذه المصيبة رمزا فى أساطير عقيدتهم ، وربطوا بينها وبين مكائد ست وإيحاءاته ، ولقد ظنوا مثل هذا الظن بالنسبة للهكسوس الذين أتوا من آسيا ، وعبدوا ست وحاربوا تحت رايته ، كما ظنوه أيضا بالنسبة للفرس الذين اغتصبوا عرشهم واستهانوا بمعايدهم ومذاهبهم ، ولم يحترموا موتاهم ، وحاربوا أبطاله الساعين الى تحرير وطنهم ، وقد أدمجت كل هذه الشرور رمزا فى أساطير وتمثيلات بناها معبد اوزير فى أيدوس واحتفظت بها بعض البرديات المتأخرة ، وقد خدمت غرضين ، غرض ارضاء البمامين والمشاهدين بالرمز الى استمرار مشكلات ست ضد اوزير

وأسرته وغرض ترديد اللعنات ، باسم الدين والقومية ، على الأعداء
 الفرس الذين سمح لهم ست باجتياز أراضيه الآسيوية ، وايداء مصر في
 كرامتها وتقاليدها ورغم ذلك كله ، فلقد ظل أنصار ست من المصريين
 يعتبرونه ربا قادرا غاضلا ، يرسل العواصف لكي تبشر بالمطر ، ويستخدم
 طاقته الحربية في نصرة مصر وجيوشها ، ويستخدم قوته السحرية في
 حماية رب الشمس ومركبه ، بل ويأخذ بناصر أخيه أوزير في الآخرة .
 بقيت الانتارة الى أن هذه الأسطورة انما كانت من أحب
 الموضوعات الى قلوب المصريين ، لأنها قصة النزاع بين الخير والشر .
 التي تنتهي بانتصار الخير ، ويمل صاحب الحق حقه ، وكأوا
 يمثلون حوادثها كل عام منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة على الأقل ،
 في عيد أوزير في أييدوس — كما أشرنا آنفا — وكان الكهنة يقومون
 بأدوار الآلهة ، ويشترك الناس في تمثيل الممارك ، وكان يحج الى أييدوس
 في كل عام آلاف من الناس ليشهدوا تلك المواقب والتمثيلات التي
 تستغرق عدة أيام . وربما كان ذلك هو السبب الذي دفع الباحثين في
 تاريخ المسرح بمعتقدون أن هذه الأسطورة التي كانت تمثل حوادثها قبل
 أربعة آلاف عام ، انما هي أقدم ما نعرفه عن التمثيلات في العالم كله ،
 فقد كان المصريون يمثلونها قبل ظهور المسرح اليوناني الى عالم الوجود
 بما يقرب من ألف وخمسمائة عام (١٣) .

(١٤) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٤٣ - ١٦١ ، عبد العزيز
 صالح : المرجع السابق ص ٣٢٩ - ٣٣٣ ، أحمد فخري : المرجع السابق
 ص ٣٧٩ - ٣٨٢ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٩ ،
 عبد الحميد زائد : المرجع السابق ص ٤٨ - ٥٣ ، جوستاف لوبنفر :
 المرجع السابق ص ٢٤٢ - ٢٧٠ .

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 178-203.

M. Lichtheim, Op-Sit, p. 214-223.

J. A. Wilson, ANET, p. 14-18.

A. Gardiner, LES, p. 37-60.

E. F. Wente and Others, The Literature of Ancient Egypt,

London, 1977, p. 109-126.

J. Capart, Cde, 8, 1933, p. 243-255.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

٤ - أسطورة هلاك البشرية وانقاذها :

وصلت إلينا هذه الأسطورة بطريقة غريبة ، فقد قُلت في كتب التعميدات السحرية التي نُقشت على جدران بعض مقابر ملوك الدولة الحديثة في طيبة الغربية ، من أمثال « ستي الأول » (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) و « ورعمسيس الثاني » (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) و « ورعمسيس الثالث » (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) و « ورعمسيس السادس » (١١٤١ - ١١٣٤ ق.م) فضلا عن « ناؤوس » الملك « توت غنخ آمون » (١٣٤٧ - ١٣٣٩ ق.م) (١) .

هذا وقد قام بعض العلماء بنشر هذه الأسطورة ، من أمثال ادوارد نافيل (٢) وماكس مولر (٣) ورودر (٤) وبيانكوف (٥) وغيرهم (٦) ، فضلا عن بعض العلماء المصريين ، من أمثال الدكتور سليم حسن (٧) والدكتور أحمد فخري (٨) والدكتور عبد المنعم أبو بكر (٩) والدكتور عبد العزيز صالح (١٠) وغيرهم .

والأسطورة - كما يقول أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، طيب الله ثراه (١٩٠٧ - ١٩٧٦ م) من أروع أساطير المصريين القدامى ، نعدثوا

(١) Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, A book of Readings, II, London, 1976, p. 197-198.

(٢) E. Naville, Transactions of The Soc. of Bib. Arch IV, p. 1-9.

(٣) M. Muller, Egyptian Mythology, p. 73 F.

(٤) G. Roeder Urkunden Zur Religion des Alten Aegypten, Jena, 1923, p. 141-143.

(٥) A. Piankoff, The Shrines of Tut-Ankh-Amon, New York, 1955, Harper Torchbook, 1962, p. 27-29.

(٦) Ch. Maystre, Le Livre de la Vach du Ciel, BIFAO, 40, 1941. n. 53-114, The Whole Text., 58-73.

(٧) سليم حسن : المرجع السابق ص ٧١ - ٧٤ .

(٨) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٩) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٨ .

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

بها لكى يظهروا — من طرف خفى — ما عرف عن الانسان من ميل الى الشر ، وعن تعسفه ومغالاته فى الاستبداد ، اذا ترك له الجبل على الغارب فاغضب هذا النزوع الى الشر الاله الكبير ، وأراد أن ينتقم من هذه المخلوقات الضعيفة التى شقت عصا الطاعة على خالقها ، فيرسل عليهم ما يكاد يهلكهم ، ثم تأخذه الشفقة بهم فينجى بعضهم لتستمر حياة الناس على الأرض فضلا عن أن يكون فى ذلك عبرة ومثلا يضرب للبشر النساعف فيردعهم ويقوم من ميلهم الى الشر والخيانة . وهناك ما يشير الى أن هذه الأسطورة انما كانت محبوبه لدى القوم ، فقد عثر عليها مكتوبة فى أكثر من مكان : وكان الملوك أنفسهم يتعلقون بما أنطوت عليه من حكمة عييفه فأمروا بنقشها على جدران مقابرهم الداخلية لتصحبهم الى الدنيا الثانية .

هذا وتيسر الأسطورة بسذاجة التعبير والتكرار الذى يستهوى العامة من الناس ، هذا الى جانب اشتغاقات لغوية خاصة بأسماء الآلهة تلتفت نذر المشتغلين باللغة المصرية القديمة ، هذا فضلا عما تقدمه من مسود طريفة للاحتفالات والمراسيم المحلية التى كان لا بد منها فى الطقوس المصرية القديمة .

وعلى أية حال ، فإن الأسطورة تحدثنا أن الاله « رع » ، بعد أن خلق نفسه بنفسه ، وخلق الوجود ، ونملك أمور الأرباب والبشر ، تقدمت به السن ، فتأمر جماعة من أشرار الناس ضده ، وكفروا بنعمته ، ثم انتشروا فى الأرض فأله كفروهم ، وجمع كبار الأرباب عنده (حاتحور وشمس وتفنوت وجب وبوت) سرا ، حتى لا يراهم البشر فترنسد فصائلهم ، ثم قال لهم : تأملوا الناس الذين خلقوا من عيني يدبرون أمرا صدى ، فافتونى بما ترون ؟

قال نوت : يا ابني رع ، يا أيها الاله الذى أصبح أقوى ممن خلقه ، وأكبر ممن كونه ، لا نفعل أكثر من أن تجلس على عرشك ، فافك عظيم

الرهبة ، تم وجه عينيك على أولئك الذين يجذفون فى حقك ، فقال رع :
أنظر : انهم هربوا الى الصحراء ، فقد ارتعدت قلوبهم مما قالوه .

واستقر الرأى على أن يرسل « رع » عينه « تغنون » فى صورة
« حاتحور » ، ففتكت بالعصا وشربت دماءهم ، ولكنها سرعان ما استمرت
ظمم الدم ولذة الانتقام ، فبدأت تأخذ الأبرياء بجزيرة العصا ، وأوشكت
أن تغنى البشر أجمعين ، لولا أن تدارك رع الناس برحمته ، وأوحى الى
أوليائه ان يتحايلا على فتاته العاتية ، وطلب منهم أن يجهزوا سبعة آلاف
إنا من الجعة . وأن يرسلوا عدائين سريعين ، يجرون كما يجرى ظل الجسم
ليحضروا من أسوان مسهوفا أحمر اشتهرت به — لعله اكسيد الحديد^(١١)
وأن يخلطوه بالجعة ، ولما أهل صباح اليوم الموعد ، الذى اعتزمت فيه
حاتحور فناء البشر ، قال لهم : اسكبوها فى المكان الذى قالت أنها تستهلك
البشر فيه ، فرووا الحقول بها حتى ارتفعت نحو أربعة أصابع ، وجاءت
حاتحور فى الصباح ، وورأت ما غرس الحقول ، ونظرت الى وجهها الجميل
فيه وشربته ، ولذ لها طعمه ، فسكرت ونسيت أمر البشر .

وهكذا قامت عقدة الأسطورة على الإيحاء بأن رحمة الرب غلبت قمت
وأن ما حدث من شر ، فى تمرد خلقه عليه ، إنما كان سببا فى عمران بقية
الكون ، وقد يتأنى بعض الأخير من الشر أحيانا ، هذا فضلا عما صورته من
عنف تغنوت وحاتحور ، ورمزت به الى أن للآفات بطشة دونها بطشات
الرجال ، هذا الى جانب أن الأسطورة إنما قد ربطت بين الفيضان الذى

(١١) يرى تشرنى أنها فاكهة حمراء اللون يطلق عليها اسم « ديدى »

(Uru) أنوا بها من اليفانتين ، (تشرنى : المرجع السابق ص ٦١) .

ويذهب الدكتور عبد المنعم أبو بكر الى أن « ديدى » (ددى) هذه
مادة حمراء استعمالها المصرى فى الحصول على اللون الأحمر ، لا نستطيع
الجزم عما اذا كانت مادة نباتية أم حجرية ، الا أنه من المعروف أن اليفانتين
(البفنتين = جزيرة أسوان) تحوى سنجما لما نسميه « المغرة » (Didi)
ولعلها هى ما أراد الآلهة احضاره من هناك (عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق
ص ٥٥) .

واما قص الأسطورة فهو كالتالى :

حدث فيما مضى من الزمان $\frac{1}{2}$ حين كان رع يسكن الأرض ، وبعد أن خلق الناس ، وخلق كل ما يدب على ظهر الأرض ، كما خلق الآلهة (١٢) — أن كان الناس يتقدمون إلى الاله الأكبر ، بكل فروض الطاعة والعبادة ، اللازمتين لمقامه العلى ، ولكن الاله كانت قد داهمته الكسولة بتعاقب السنين والأجيال وأصبح عجوزا ، عظامه من فضة ، ولحمه من ذهب ، ونسره من اللزورد ، فأخذ الناس يتهمون عليه ويرمونه بالضعف والهزال .

وعلم جلالة الاله بما كان يدور بين الناس ، وبما كانوا يمسون به ، فغضب وأمر الآلهة التى كانت فى ركابه قائلا : أدعوا لى عيني على عجل ، وكذا « شو » و « تنسوت » و « جب » و « فوت » ، وكل الآلهة من الآباء والأمهات الذين كانوا معى عندما كنت أسكن « فون » نفسه (١٣) ،

— — —

(١٢) هناك الكثير من النصوص التى تستنتج منها مفهوم المصريين من مصر اقامت فيه الآلهة على الأرض جنبا إلى جنب مع البشر ، ومع ذلك فليس لدينا سرد كامل ومنسق عن خلق الانسان نفسه وان كان من الطبيعى ان البشر ، شأنهم فى ذلك شأن أى كائنات اخرى ، قد خلقتهم الآلهة ، فهم يدمون « قطيع الاله » او « قطيع رع » ، وبالتالي نستطيع أن نستنتج أن رع هو خالق البشر ، أى المصريين عامة ، وفى الأسطورة فان كلمة « رومى » ، والنسب نطلق فى اللغة المصرية القديمة على المصريين ، يمكن أن تدل أيضا على دموع الاله رع ، وفى مواضع اخرى يشار إلى البشر على أنهم « ابوا من عينه » بينما كانت الكائنات الأخرى من « صنعه » ، لكن دور « رع » فى الخلق سبقه اعتقاد بان الاله « خنوم » قد شكل كل طفل يولد على عجلة الفخراى وربما كان ذلك مجرد صفل لدور خنوم الأساسى بخلقها لكل الأشياء الحية ، وهو دور أهمته قوى الإخصاب الخارقة التى يتمتع بهسا الكبتش رمزها الحيوانى المقدس ، هذا ريشق اسم خنوم من فعل « ختم » بمعنى يخلق ، وهذا يعنى انه اله خالق منذ البدء ، ولم تسبق طلبه هذه الصفة كبعض الآلهة غيره ، ومن أهم ألقابه « خالق البشر » (تشرنى : المرجع السابق ص ٦٢ — ٢٦٨ ، وانظر عن الالهين رع وخنوم : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٢٩٩ — ٣٠٣ ، ٣١٥ — ٣١٧) .

(١٣) انظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٤٣ — ٣٦٥ .

مع أفراد حاشيته ، ادعسوم جسيما فى السر حتى لا يراهم البشر ، واحضروهم الى القصر الكبير . وحضر الالهة جسيما واجتمعوا سرا حتى لا يعرف البشر بأمر اجتماعهم ، وعندما دخل عليهم الالهة خروا ساجدين بين يديه . واضعين أيديهم على الأرض . ثم هتفوا قائلين : تحلت إلينا حتى نعرف خطبك ، فقال رع موجهة دلامه الى نون : يا أيها الاله الأكبر الذى جئت منه الى الوجود ، ويا أيها الالهة الكبار : أنظروا أولئك البشر الذين خلقوا من عيني ، أنهم يدبرون شيئا ضائعا . أنهم يقولون فى قلوبهم متهمين ، أنظروا : ان الملك أصبح كهلا . تحولت عظامه الى فضة ، ولحمه الى ذهب ، وشعره الى لارورد . هل لك ان ترشدنى الى ما أفا صانع بهم . من أجل ذلك دعوتك لاستشارتك . أعلم انى لم أقدم على افنائهم حتى اسمع منك ما تنصحنى به .

وتكلم « نون » قائلا : انت أيها الاله العظيم ، انت يا من تفوق خالقتك فى عظمتك ، انت الابن الذى نامت موته موة آية ، أرسل عينك لتفتك بالمتآمرين عليك ، وعندئذ سوف يختفون من فوق الأرض فأرسل رع عينه لتفتك بالبشر حسب نصيحة نون . ولكنهم عندما شعروا بها تفرقوا الى الصحارى واختفوا بين الصخور ، فقال رع : انظر : لقد هربوا الى الصحراء . اذ ارعدت قلوبهم مما قالوه ، وعندئذ تقدمت جسوع الالهة الى جلالة وقالوا : أرسل عليهم عينك لتقتلهم لك ، دعها تنزل انيهم فى صورة حاتصور ، وذهبت هذه الالهة وقتلت البشر فى الصحراء ورجعت الى آيها ، فقال لها الاله : مرحى يا حاتصور ، لقد فعلت ما أرسلتك لتفعله ، وقالت هذه الالهة : وحق حيائك اننى انتصرت على الناس ، وهذا شئ يحبه قلبى . فقال جلالة رع : سانتصر عليهم فى هليوبوليس وأيياهم ، فرد عليها الاله قائلا : ان فتكك بهم سوف يولد سلطاني عليهم . ولكن كفى ما قتت به . لا تقتلى منهم بعد ذلك فردا .

وأما الالهة فلم تستمع الى ما قاله أبوها ، واستمرت طوال الليل تفتك بالبشر ، وتسبح فى دمائهم . وخشى رع ان تأبى حاتصور على ما تبقى

منهم فى صبيحة اليوم التالى ، فصاح فيمن حوله : ادعوا لى على عجل .
رسلا يسابقون الريح ، يجرّون كما يجرى ظل الانسان ، فأحضروهم اليه
فقال لهم جلالتهم : اسرعوا الى اليقاتين (جزيرة أسوان) واحضروا لى كل
ما تستطيعون حمله من « ديدى » ، وعندما أحضر الرسل الـ « ديدى »
الى الاله أمر بصحنه ، كما أمر بعض الخادومات بأعداد كميات كبيرة من
الجمعة وخططها بالـ « ديدى » فأصبحت فى لونها تشبه دماء البشر ، ثم ملأ
بها سبعة آلاف جرة ، وفى الصباح أمر « رع » أتباعه أن يحملوا هذه
الجرار بما فيها من جعة حمراء ، وسكبها فى المكان الذى اعتزمت حاتحور
أن تفتك فيه بمن بقى من البشر ، وقال الاله : ما أجمل ما فعلت ، سأحمى
ما بقى من البشر من فتكها ، وبدت الحقول كبركة كبيرة تعالوها طبقة من
الجمعة الى ارتفاع ثلاثة أكف (الكف ٧٥ سم) وتم ذلك بأمر من جلالة
هذا الاله ، وفى الصباح خرجت حاتحور ووجدت المكان مغمورا ورأت
وجها معكوسا على السائل بشكل جميل فشربت منه واستطابت طعمه
وقلّت راجعة وهى ثملة ، فلم تعترض الناس ، وأقيمت الاحتفالات وسر
الاله ، ورضيت نفسه بنتيجة هذا العمل (١٥) .

(١٤) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٤٩ - ٥٨ ، سليم حسن :
المرجع السابق ص ٧١ - ٧٤ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٧٥ -
٣٧٦ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، نجيب
ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠١ - ٥٠٢ ، ارمان : ديانة مصر القديمة
ص ٧٥ - ٧٦ ، وكلنا

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 10-11.

A. Erman, Op-Cit, p. 47-49.

Ch. Maystre, Op-Cit, p. 53-73.

A. Pionkoff, Op-Cit, p. 27-2.

M. Lichtheim, Ancient Egypt Literature, London, 1976,
p. 197-199.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

٥ - أسطورة حيلة ايزة :

اعتقد المصري القديم أن هناك علاقة خفية بين الانسان واسمه ، وأن الاسم انما يكون الجزء الحى من الانسان ، بل هو العنصر الذى يقوم شخصيته وقوته . ومن ثم فقد اعتاد القوم أن يسمي الشخص الواحد باسمين اثنين : الاسم الأكبر ، والاسم الأصغر ، أو الاسم الكبير والاسم الجميل ، وقد اعتاد المصري أن يخفى اسمه الكبير ، وأن يشيع بين الناس الاسم الأصغر ومن هنا اعتقد القوم أن محور اسم الشخص من مقبرته انما هو عمل كاف لقتله أبدا ، لأنه يسلبه بهذا العمل ذلك العنصر القوى الذى تقوم عليه حياته الأبدية .

والأسطورة التى تتعرض لهذا الموضوع مكتوبة على بردية محفوظة فى متحف تورين ، وترجع الى أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٩ - ١١٨٤ ق م) ، وقد اهتم كثير من العلماء بنشرها ، من أمثال اركيبيت (١) وماكسوم مولر (٢) وأدولف ارمان وهرمان رانكة (٣) ورودرو (٤) والن جاردنر (٥) وجون ويلسون (٦) وغيرهم (٧) ، كما اهتم بترجمتها والتعليق عليها كثير من العلماء المصريين .

وتقول الأسطورة : كانت ايزة امرأة حكيمة فى قولها ، ولها قلب يفوق فى شجاعته قلوب ملايين الرجال ، وكانت أعقل من ملايين الرجال ، ولم يكن هناك شئ فى الأرض أو فى السماء لا تعرفه ، فهى مثل دج

Eric Peet, A Comparative Study of The Literature of Egypt, (١)

Palestine and Mesopotamia, p. 19 F.

M. Muller, Op-Cit, p. 80 F.

(٢)

A. Erman and H. Ranke, Aegypten, Tubingen, 1923, p.

(٣)

301-304.

G. Roeder, Op-Cit, p. 138-141.

(٤)

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 116-118, Pls, 64-65.

(٥)

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 12-14.

(٦)

F. Rossi and W. Pleyte, Papyrus Turin, Leyden, 1869-76.

(٧)

G. Moller, Hieratische Lesestucke, II, Leipzig, 1927, p. 50-52.

الذى صنع كل ما على الأرض ، وقد دبرت هذه الالهة (ايزة) فى نفسها ، أن تعلم اسم الاله الأعظم ، وكان الاله رع يدخل الى السماء كل يوم على رأس رجال سفينه ، وكان يجلس على عرش الأفق وكافتقد تقدمت به السنون وضعف تحكمه فى لعابه الذى كان كثيرا ما يسيل من شديقه ويتساقط على الأرض فتناولت ايزة بعضا منه وعجنته بترابه الأرض ، وشكلت منه ثعبانا مقدسا ووضعت فى الطريق الذى اعتاد الاله العظيم أن يسلكه حسب ارادته بين شطرى الوادى •

وجاء الاله الأعظم فى بهائه ، وكان آلهة قصره يسرون خلفه ، ومشى كمادته فى كل يوم ، فعضه الثعبان العظيم ، عضه النار الحية التى خرجت منه هو ، فصرخ الاله صراخا عاليا وصل الى السماء وتجاوبت السموات صراخه ، وصاح أفرد الناسوع : ما هذا ؟ ما هذا ؟ ولكن رع لم يستطع — من فرط ألمه وشدة صراخه — أن يجيب ، وارتعشت شفتاه ، واهتزت أعضاء جسمه ، لأن الاسم تمكن من جسده ، وعندما أخذ الاله يتمالك نفسه ، صاح فى أتباعه :

أفثوني ، أتم معشر الالهة يا من خلقتكم واخرجتكم من جسمي ، اقتربوا منى لأحدثكم بما حدث لى ، لقد وخذنى واخذ لا يعرفه قلبى ولم تره عينى ، ولم تصنعه يداى ، ولا أستطيع التعرف عليه من بين مخلوقاتى ان ألمه شديد لم أشعر بمثله ، وليس هناك أشد ايلاما منه ، انى شريف ابن شريف ، أتيت الى الحياة الها ، انى عظيم ابن عظيم ، اختار أبى اسما لى ، لقد تعددت أسمائى واختلفت أشكالى ، وقد أودعت صورتى آلهة أخرى واختار أبى وأمى اسما لى ، واختفى هذا الاسم فى جسدى قبل ولادتى حتى لا تستطيع قوة ساحر أو ساحرة أن تعرفه وتتغلب به على ، دعوا أولاد الالهة يحضرون الى ، أولئك الذين عرفوا بالحديث الطب ، وعرفوا السحر ، ووصلت حكمتهم عنان السماء •

وجاء الآلهة الصغار يندبون ويكفون ، وتقدمت ايزة تسأل عما حدث

وقالت له : ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ اذا كان ثعبان قد أصابك بسوء . أو أن شيئاً من مخلوقاتك قد عصاك ، فاني ساسحقه بقوة سحري ، وسأمنعه من أن يجتلي بهاء أشعثك ، ففتح الاله المقدس فيه ، وقص على ايزة ، قصة الثعبان ، ثم قال : انى أشعر ببرودة أشد من برودة الماء ، انى أشعر بحرارة أشد من حرارة النار ، ويفرق جسسى فى العرق ، بينما اهتز من شدة البرد ، هناك غشاوة على عيني ، ولا أستطيع الرؤية ، فقالت له ايزة : أخبرنى باسمك أيها الأب المقدس لأن الانسان لا يستطيع أن يحيا دون ان يذكره فى تعويذة السحر .

فقال رع : أنا الذى خالق السماء والأرض ، وسوى الجبال وأنشأ ما عليها ، أنا الذى خلقت الماء ، وجعلت الالهة « مع - ورت » تأتي الى الوجود ، أنا الذى خلقت الثور لأجل البقرة ، وجعلت التناسل فى العالم ، أنا الذى أنشأت السماء ، وأنشأت أسرار الأفق ، وأحلت فيهما أرواح الالهة ، أنا الذى فتح عينيه فكان الضوء ، وأغمض عينيه فكان الظلام أنا الذى يأمر النيل فيفيض ، أنا من لا تعرف الالهة اسمه ، أنا الذى أمرت بالأعياد وخلقت مجارى الماء ، أنا خالق نار الحياة لأنشىء أعمال الكون ، أنا « خبرى » فى الصباح و « رع » فى الظهيرة ، و « أتوم » فى المساء .

ولكن السم لم يغادر جسده ، فتقدمت منه ايزة وقالت : ان اسمك الحقيقى لم تذكره بين الأسماء التى قلتها ، اذا أخبرتنى به خرج السم من جسدك ، واعلم أن الانسان لا يحيا الا اذا نطق باسمه ، ولكن ألام السم ما زالت تحرق جسده ، فكانت أقوى من لهيب النار ، فقال جلالة رع : يا ابنتى ايزة ، قربى أذنك منى حتى يخرج اسمى من جسدى فيدخل جسدك .

وهكذا تمكنت ايزة من معرفة اسم رع ، ومن ثم قالت : أخرج أيها السم من جسد رع المحترق ، لأنى أقول التعويذة ، اتى أنا التى أمر ، انى أنا التى أبعث بالرسالة ، أخرج على الأرض أيها السم القوى ، ولتعلم

أن الاله الكبير قد أسر في أذني باسمه الكبير ، فعاش رع ، ومات السم
من قول ائمة الكبيرة ، سيدة الآلهة ، التي تعرف رع باسمه الحقيقي ،
ومن ذلك الوقت أصبح قسمها هي الرقية التي كان يتلوها السحرة ليشفوا
بها لدغة الثعبان(٨) .

(٨) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١٩ - ٢٥ ، أحمد
فخري : المرجع السابق ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ، سليم حسن : المرجع السابق
ص ١١٢ - ١١٥ ، وكذا

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 12-14.

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 116-118.

وكذا

جاءت هذه الأسطورة على بردية « شستريتي الثانية » ، والمحفوطة
بالمتحف البريطاني برقم ١٠٦٨٢ وترجع الى أيام الأسرة التاسعة عشرة ،
وقد فقدت بدايتها ، هذا وقد قام بنشرها « سير آلن جاردنر » (١) ، وترجمها
وعلق عليها كثير من العلماء ، من أمثال جوستاف لوفيفر (٢) ووليت (٣)
وارمان (٤) وجريفت (٥) وماكس بيير (٦) وغيرهم (٧) ، كما اهتم بها من العلماء
المصريين سليم حسن (٨) وعبد العزيز صالح (٩) .

وقصة الأسطورة بها تب من أسطورة « أوزير وموت » - والى
حد ما من « قصة الأخوين » - غير أنها لم تذكر أوزير وموت صراحة ،
وانما كنى كاتبها عنها بإسئ معنوين ، هما « الحق والبهتان » أو الصدق
والبهتان ، وكانا أخوين عاشا بين البشر .

وأسلوب الأسطورة بسيط ، وتعبيراتها متشابهة ، وفيها شيء من
خوارق العادات ، فيما يتصل بالخنجر والثور ، كما أنها أبانت لنا بعض
عادات المصريين القدامى على أيام الرعامسة ، كاستخدام الأعشى من الرجال
فى حراسة الأبواب ، وايداع الثور عند راع فى مقابل أجر ضئيل ، فضلا
عن تقديم صورة حية لحياة الفلاح وقت ذاك ، وكذا الحياة المدرسية ،

A. H. Gardiner, LES, p. 30-36, Hieratic Papyri in The British (١)
Museum, Third Series, Chester Beatty Gift, London, 1935, I, 2-6, 153,
II, Pls. 1-4.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 159-168. (٢)

E. F. Wente, Op-Cit, p. 127-132. (٣)

A. Erman, Forschungen und Fortschritte eighth year No. 4 (٤)
(1932), p. 43-44 LAE, p. 3 F.

J. G. Griffith, JEA, 53, 1967, p. 89-91. (٥)

M. Pieper, ZAS, 70, 1934, p. 92-97. (٦)

A. Theodorides, RdE, 21, 1969, p. 85-105. (٧) انظر

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 211-214. وكذا

S. Schott, Altägyptische Liebeslieder, Zurich, 1950, p. 205-208. وكذا

(٨) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٢٢ - ١٢٦ .

(٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

ولعل مما يلفت النظر ، فيما يرى الدكتور سليم حسن ، أسماء بطلى القصة « الصدق والبهتان » اللذين خلعا على الأخوين المتخاصمين ، لأن ذلك لم يكن منتظرا ، حيث أن كلمة « صدق أو عدالة » من الأسماء المؤثرة فى اللغة المصرية القديمة ، وإن كان اطلاق أسماء معنوية على صور حسية إنما هى من الأمور الشائعة عند القوم من قديم الزمان ، ومثالنا الالهة « ماعت » (معات) التى تدل على الصدق والعدالة ، وأحيانا النظام والاستقامة (١٠) ، وهذا أقدم مثال للكناية (١١) .

تقول الأسطورة : أن « البهتان » أراد أن يكيد لأخيه « الصدق » فترك خنجره ودبعة لديه ، ثم استلبه منه خفية ، وعاد فطالبه به ، ولما اعتذر له أخوه عن ضياعه لم يقبل عذره ، كما لم يقبل أن يعوضه عنه ، وشكاه الى الأرباب مدعيا أن سلاح خنجره كان فى ارتفاع الجبل ، وأن مقبضه فى ارتفاع الشجر ، ففوض له الأرباب التعويض الذى يجب ، فأصر على أن يقتلع عينى أخيه ، وأن يستخدمه حارسا لداره ، فأجابه الأرباب الى ما أراد ، وأذل البهتان أخاه ، وجعله حارسا لبابه ، ولكنه كلما نظر اليه أحس بخزيه ، وبأن الضرر ما زال يحتفظ بوقاره وجماله ، ومن ثم فقد دبر أمر قتله ، وعهد بذلك الى عبيدين عنده ، غير أنهما لم ينفذا جريسته ، وتركاه « الصدق » عند سفح الجبل .

ومر حين من الدهر ، وشهدت الصدق أثى بارعة الجمال ، فأحبته وتزوجته ، وإن لم تعلن ذلك الزواج حتى لا يمازها الناس به ، ولكنها خصصت للزوج غرفة بجانب باب دارها ، ومرت الأيام ورزق الزوجان بسلام تعهده الأم بالتربية الصالحة ، وأخفت عنه سر أبيه ، وألحقته بمدرسة أثقن الكتابة فيها ، وتعلم فنون الرياضة والنزال وتفوق على أقرانه فيها ، وإن نقص عليه هذا التفوق أن زملاءه كثيرا ما كانوا عن أبيه ، بل وكانوا أحيانا يسيرون به لأنه لا أب له ، وعندما عرف الحقيقة ، وأن أباه إنما هو

(١٠) أنظر عن عن الالهة «ماعت» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٣٥٠ - ٣٥٢) .
(١١) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٢٢ - ١٢٣ .

ذلك البواب الأعشى ، كظم غيظه ، وان ألح الى أمه أن موتها خير من حياتها « كان خيرا لك أن تجمعي أهلك حتى يأتوا لك بتسماح يلتهمك » .

وفى نفس الوقت بدأ يفكر فى أن يكيد لعمه « البهتان » ، كما كاد هو لأبيه من قبل ، فاشتري ثورا وعهد به الى أحد رعاة عمه ، وطلب منه أن يرعاه حتى يعود من سفره فى مقابل أجر أعطاه إياه ، وفى يوم من الأيام رأى البهتان الثور ، فأعجب به وذبحه ، رغم معارضة راعيه ، ومرت شهور وجاء الغلام ، وعلم بما حدث ، فشكا الراعى ومسيده الى الأرباب وادعى أن ثوره كان ينجب ستين عجلا كل يوم ، وأنه اذا وقف وسط الدلتا بلغ أحد قرئيه جبالها الشرقية ، وبلغ الآخر جبالها الغربية ، وتعجب الأرباب من دعواه . واتهموه بالمبالغة التى لا تصدق ، فأجابهم : وهل رأيتم من قبل خنجرا بضخامة الخنجر الذى حكم على أبى بالعمى من أجله ، وهنا علم الأرباب أن البهتان قد خدعهم ، فردوا على الحق بصره ، وأمرؤا بجلد البهتان مائة جلدة ، وبجرحه خمسة جروح بالغة ، وفقه عينيه ، وبأن يصبح بوابا لأخيه ، جزاء وفاقا على ما فعل بأخيه من قبل ، وهكذا عبر القصاص بهذا العقاب ربما عما أصبحت عليه العقوبات البدنية فى عصره ، كما عبر بتربية الابن تربية صالحة — كناية ورياضية وعسكرية — عما كانوا يستعجلونه لتربية أبناء الكبراء فى أيامهم (١٢) .

(١٢) عبد العزيز مصلح : الشرق الأدنى القديم ١/ ٣٣٣ - ٣٣٤ (القاهرة ١٩٦٧) .

كانت ولاية العرش فى مصر الفرعونية تنحصر فى الابن الملكى الأكبر من الدم الملكى الخالص ، ثمة زواج الأخ الملكى من الأخت الملكية من الأبوين الملكيين وهكذا كانت القاعدة الثابتة أن يعتلى عرش مصر من تسرى فى عروق أمه وأبيه الدماء الملكية النقية ، أما اذا كان ابنا لزوجة مصرية غير ملكية ، فكان عليه أن يلجأ الى الزواج من أميرة من الفرع الملكى الخالص ، ليقوى بذلك شرعية مركزه ، ويصبح أهلا لتولى عرش الفراعنة^(١) ، ومع ذلك فان زوج الأميرة الملكية انسا يعتبر مجرد أمير ، وأما أبنائها - ثمة هذا الزواج - فقد كانوا يعتبرون ورثة شرعيين ، وفى بعض الحالات قد يصبح زوج الملكة الوارثة ملكا ، حين تكون هذه الملكة كبرى نساء البيت المالك منا ، كان تكون أرملة ملك أو كبرى بناته ، أو أبعد من ذلك قرابة (٢) .

ولعل ذلك انما يعنى أن العرش المصرى انما كان ينتقل عن طريق المرأة ، ومن هنا كانت الزوجة الملكية الكبرى للملك هى الورثة التى يستطيع هذا الملك الوصول الى العرش عن طريق الزواج بها ، ولم يكن مولد الملك مهما ، بقدر ما يكون مولد الملكة ، فقد يكون من أية طبقة ولكنه يصبح ملكا حين يتزوج من الملكة ، ونستطيع أن نقول ان الملكة ملكة بحق المولد ، وأن الملك ملك بحق الزواج ، ولا يستطاع تفسير هذه الزيجات الملكية بغير عادة التسلسل الأموى ، وانتقال التاج عن طريق خط الأثني (٣) ، ولعل هذا هو الذى جعل نظرية تولى العرش فى مصر،

Percy E. Newberry, King Ay, The Successor of Tut-Ankh (١)
Amun, in JEA, 18, 1932, p. 51.

(٢) انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون - عصره ودعوته -
القاهرة ١٩٧٩ ص ٥٠ - ٥١ .

A. M. Margaret, Splendour That Was Egypt, London, 1950, (٣)
p. 102.

تنص على أن تكون أم الملك من نسل ملكي خالص ، فهي اما أن تكون ابنة ملك ، أو زوجة ملك ، أو أم ملك ، وقد تكون الثلاثة معا .

وانطلاقا من كل هذا ، فإن الملك الذي يجلس على عرش مصر ، من غير أبناء الأسرة المالكة ، كان عليه أن يتزوج من إحدى أميرات البيت المالكي . حتى يأتي خلفه ، والدعاء الملكية تجري في عروقه ، ذلك لأن الملكات انما كن ممثلات للدم الملكي ، ويحافظن على التقاليد الملكية بارتباطهن بالأسرة الجديدة — سواء أكان أول ملوكها زوجا للملكة أو أحد أبنائها ، هذا وقد اعتبر المصريون القدامى الزوجة الرئيسية هي «زوجة الاله» (زوجة الملك المؤله) ، وإن كانت من نسل ملكي سابق لكن جيء بها من صلب جسد مؤله ، ومن هنا نشأت نظرية تولي العرش ، ورغم أن للملوك الحق في الزواج من أكثر من واحدة ، غير أن الزوجة الرئيسية انما كانت تعتبر أقوى الزوجات ، ولعل ذلك هو السبب في زواج الأخ بأخته التي لعبت اليها بعض الملوك (وليس المصريون عامة) بغرض تأكيد صفاء الألوهية من ناحية ، فضلا عن التقليل من عدد المتطلعين الى العرش من ناحية أخرى (٤) .

على أن هناك بعضا من الملوك انما قد لجأوا — في تبرير شرعيتهم للعرش — الى قصص الولادة الالهية — كما فعلت حتشبوت وأمنحتب الثالث — في نصي الولادة المشهورين ، الواحد : في معبد المدير البحري في طيبة الغربية ، والثاني في معبد الأقصر في طيبة الشرقية ، ويتحدث الأول عن ولادة حتشبوت من الاله آمون ، ومن أحسن ، زوج تحوتمس الأول (٥) ، ويتحدث الثاني عن ولادة أمنحتب الثالث من الاله آمون ،

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, (٤)
p. 96-97.

E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, Part, II, 1896, p. (٥)
46-56.

J. H. Breasted, ARE, II, Chicago, 1927, Parag. 192-220, p. وكذا
78-89.

ومن « موت ام ويا » زوج الملك تحوتمس الرابع (٢٠) ، وفي كلا النصين نرى الاله آمون يتخذ شخصية « الزوج الأب » ثم يتصل بالملكة الأم (أحسن أو موت ام ويا) اتصال الرجل بزوجه ، فتحمل الملكة وتنجب الفرعون (٢١) .

وعلى أية حال ، فإن التاريخ انما يحدثنا أن « تحوتمس الأول » (١٥٢٨-١٥١٠ ق م) لم يرزق بولد ذكر من زوجه الرئيسية «أحسن» وانما ، وضعت له بنتا دعوها « حتشبسوت » ، كان المفروض أن تخلفه على العرش ، لولا أن سوابق حكم الملكات في مصر القديمة لم تشجعه ولم تشجها على ذلك ، ذلك لأن القوم ، فيما يبدو ، ما كانوا يستيفون أن تحكمهم امرأة ، رغم أنهم ما كانوا ينكرون حق الأث في وراثة العرش ، بل ان العرش نفسه ، كما قلنا ، انما كان ينتقل عن طريق المرأة ، وليس الرجل ، ومن ثم فقد زوج تحوتمس الأول ولده تحوتمس الثاني من ابنته « حتشبسوت » ، صاحبة الحق الشرعى فى العرش ، وأجلسه خليفة له على عرش مصر ، غير أن زوجه وأخته « حتشبسوت » انما كانت قوية الشكيلة ، ومن ثم فقد نجحت فى أن تؤكد شخصيتها فى عهده ، وفى أن تمهد لخلافتها اياه ، ثم مات بعد أن أنجب منها بنتين ، كما أنجب ولده « تحوتمس الثالث » من زوجة غير ملكية هى « ايزة » وهو الذى خلفه على العرش تحت وصاية عمته وزوج ابيه «حتشبسوت» غير أن هذه الوصاية سرعان ما أصبحت حكما حقيقيا ، عندما أبعدت حتشبسوت تحوتمس الثالث عن العرش ، وانصرفت بحكم مصر قرابة اثنين وعشرين عاما (٢٢) .

(٦) A. Gayet, Le Temple de Louxor, Cairo, 1895, Pls. 62-73, fig. 205.

(٧) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر والشرق الأدنى وقديم - الجزء الثانى - مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٠١-١٠٤ .

(٨) W. C. Hayes, CAH, II, Part, I, Cambridge, 1975, p. 317.

H. Gauthier, le Livre des Rois d'Egypte, II, Cairo, 1912, p. 236. وكذا

J. Yoyotte, Kemi, 8, 1968, p. 85-91. وكذا

A. Weigall, A History of The Pharaohs, II, London, 1925. وكذا
p. 106-108.

وفى الواقع أن ذلك لم يكن أمرا إذا فى تاريخ الفراعين ، فقد فعلت ذلك امرأتان من قبل ، على الأقل ، الواحدة « نيتوكريس » فى آخر الاسرة السادسة ، والاخرى «سوبك نفرو رع» فى آخر الاسرة الثانية عشرة ، وان انتهت الأسرتين بكل منهما ، ولكن الجديد هنا أن أثى ظهرت بمنظر الرجال وارقت زيهن ، وان حدث ذلك فى شيء من التردد ، أول الامر ، ثم أصبح أمرا عاديا بعد ذلك ، حيث نرى بعد ذلك «حتشبسوت» تظهر بزي الرجال فى أماكن كثيرة فى الكرنك ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان المرأة الفرعونية انما كانت تصر على أن تلبس نفسها بلب « ملك » وليس « ملكة » ، وان تستخدم ضمير المذكر ، وليس المؤنث (١) .

ولم تكف « حتشبسوت » بذلك ، وانما زعت نفسها فى أسطورة سياسية ، مولدا للها ، من الاله آمون نفسه ، وسجلته على معبد الديبر البحرى فى طيبة الغربية ، تقول الأسطورة : أن مجلس أرباب الوادى قد انعقد برئاسة آمون للتشاور فىمن يخلقه ليجلس على عرش الكنانة ، واذا برز الحكمة « تحوت » يتقدم الى آمون ليذكره بأحسن الجيلة ، زوج الملك تحوتس الأول ، واذا بآمون يعلن للأرباب أنه سيهب الملكة الجيلة مولودا من صلبه يعتلى العرش ، وأنه قضى أن يكون الولد أثى وسرعان ما تحققت المعجزة بأن مضى آمون الى قصر الملكة فى غيبة زوجها — بعد أن قمص بصورة وتزى بزيه — ثم دلف الى مخدع الملكة فوجدتها وسنانة ولكن شذى عطره قد نفذ الى أنفها فأيقظها ، ولم تكن تنو اليه بناظرها حتى تمثل لها بشرا سويا ، رأت فيه زوجها ، فقالت : هين لك ، فجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، ولما قضى منها وطره ، بأها عن يكون ، ففرحت بذلك وتهللت واستبشرت بما أودع فى رحمها قبل أن يهم آمون بمغادرة مخدعها ألبأها بأنها مستضع أثى ، وسوف

H. Chevrier, ASAE, 34, 1934, p. 170-172.

Suzanne-Ratié, la Reine-Pharaon, Paris, 1972, p. 20-22, 262.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p.

181-184.

W. C. Hayes, Op-Cit, p. 317-318.

(١)

وكذا

وكذا

وكذا

يكون اسمها « حثشبوت خمنت أمون » بمعنى « ذروة النيلات ،
صفية أمون » •

ثم أوحى أمون الى « خنوم » - الاله المتكفل بخلق البشر - أن
يصور بدن الجنين من حلسال ، ثم قال له : لتصنع ابنتى هذه وقرينتها من
أعضائى ، ولتشكلها بجمال لا مثيل له بين الآلهة ، اصنع لى ابنتى هذه
التي أنجبته ، لقد وهبتها الحياة والسعادة والقوة ، سأمنحها كل شيء
لتصبح مثل رع الأبدى ، فأجاب خنوم : سأصنع لك ابنة اسمها
حثشبوت ، لها الحياة والصحة والسعادة ، سوف يفوق جمالها جميع
الآلهة ، حتى ينق مع مكاتها كملك لمصر العليا والسفلى •

ولما جاء المخاض الملكة اجتمع الأرباب فى ساحة القصر ، وهرع
اليها منهم من يستطيع مساعدتها فى ساعة العسر ، ولما خرجت حثشبوت
الى الدنيا تلقته الآلهة حاثحور ، وقدمتها الى أمون الذى سعد بها كثيرا
ثم قال : انت يا أعظم جزء منى ، ستصبحين « ملكا » على مصر ، سوف
تجلسين على عرش حور الى الأبد ، ثم قدمها أمون الى بقية الأرباب ،
باعتبارها وريثة عرش الفراعين ، ثم خاطبهم بقوله : ها هى ابنتى
حثشبوت معكم ، لتحيطوها بحبكم وعطفكم ، فأجابت الآلهة ، هذه
هى ابنتك حثشبوت التي تحيا سوف تحيطها بحبنا وعطفنا ، وستحيا
فى سلام وهدوء ، انها ابنتك التي خلقتها من نفسك ، انك أعطيتها
روحا من روحك ، انك أسبغت عليها قوة سحرية من قوتك ، لقد
امتلكت البلاد وكل ما تفلله السماء ، بينما كانت فى بطن أمها ، انها
صاحبة كل ما تحويه البحار ، هذا ما صنعت له ، انك أعطيتها حظحور
فى الحياة ، لقد وهبتها سنى ست فى السعادة •

ثم سرعان ما تلقى أبوها (تحوتمس الأول) البشرى ، راضيا شاكرا
وأعلنها على الناس كافة ، ولما أصبحت الطفلة شابة كانت جميلة جمالا
رائعا ، وكان النظر اليها أمتع من النظر الى أى شيء فى الدنيا ، كانت
صورة اله : تتصرف كما يتصرف الآلهة ، ولها روعتهم وبهائهم ، وكانت

تضارع الربة « لحو » فى زمانها ، ثم طاف بها أبوها على المعابد الكبرى وأعلنها خليفة له على عرش الكنانة .

وهكذا حاولت حثشبوت بكل الوسائل أن تزيل من أذهان القوم كراهيتهم لحكم الأثاث ، ولسنا ندرى مدى تصديق المصريين لهذه الادعاءات الأسطورية، ولكن حسبها — من الناحية السياسية — ما تدل عليه من اعتقاد الفراعين بأن الأمر الواقع فى ارتقاء العرش ، والهيمنة على السلطة لا يكفى ، وأنه لابد من تأييده بسند من الدين ، يرضى الكهان والخاصة والعوام (١٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة الى أن تحوتس الثالث أراد أن يرد على أسطورة خصيمته حثشبوت عن « المولد الإلهى » الذى زعمته فى هذه الأسطورة ، بأسطورة « الاختيار الإلهى » له ، وذلك عن طريق دعوى صورها على معبد الكرك ، وزعم فيها أن أباه تحوتس الثانى قد بعث به مطلقا الى دار أمون لينشأ فى ظله ، لينبئ فى كتفه ، وتحت رعاية كهانه ، وقد حدث خلال الاحتفال بعيد دهنى كبير ، أن اتحنى تحوتس الثالث جانبا من البهو الشمالى فى معبد الكرك ليشهد منه موكب ربه أمون ، وعندما مر الموكب — والفرعون فى مقدمته — تعمد تمثال الإله أن يحوم حول مكان تحوتس الصغير ، وقد تبعه الكهان ورجال الدولة دون أن يدروا عن هدفه شيئا ، حتى بلغ موضع تحوتس من أمامه ، هناك أخذ الرعب فخر صعقا ، فلما أفاق رأى ربه ينهض ثم يأخذ بيده فيقوده الى أقدم مكان فى المعبد ، هناك كشف عنه غطاءه وفتح له أبواب السماء ، فطار إليها حيث تلقى ألقابه وجعلت الدياتمت

(١٠) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ٢٠٠/١ ، الأسرة والمجتمع ص ٢٥ - ٣٩ ، عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ٩٧ - ١٠٨ ، وكذا

J. H. Breasted, ARE, II, Chicago, 1927, p. 78-89.

E. Noville, The Temple of Deir El-Bahari, II, London, 1896, p. 46-56. وكذا

قديمه ، والنصر في ساعديه ، ثم مد له حدود ملكه ، لأنه أحبه حبا لم
يحبه أحدا من قبل (١١) .

وهكذا رد تھوتمس الثالث على أسطورة حتشبسوت بأسطورة
مثلا ، وسوف يفعل أمنحتب الثالث فيما بعد ، ما فعلته حتشبسوت
الآن ، كما أثرنا من قبل .

(١١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠٠ ، وكذا
Urk., IV, p. 157-159, 186-190.
W. C. Hayes, CAH, II, Part, I, p. 317.

الفصل الثالث

أدب القصة

يتفق الباحثون — أو يكادون — على أن مصر انما كانت اول بلد نشأت فيه القصة القصيرة ، فلقد عرف القوم الأدب القصصى منذ فجر حياتهم ، وبرعوا فى صياغته ، وأن لديهم منه ألوان رائعة ، منها ما يصور بعض ما حدث فى أيامهم ، ومنها الخرافى الأسطورى ، يقصدون من روايته العبرة والموعظة الحسنة ، ومن ثم فقد جمعت قصص القوم فى سياقها ، بين حقائق موضوعية ، وبين صياغة فنية ، وبين أخيلة تصور المعجزات وفنون اسحر ، وبين آراء خاصة ، وأمانى عامة ، عبر القصص عنها بطريق الرمز .

ولعل أقدم القصص تلك التى جاءت على بردية « مستكار » ، والتى تتناول روايات السحر وأهله ، وبعض ما يأتون من فنونه وألوانه ، وأثر ذلك كله فى حياة الناس ، وقيل انما قصت على الملك « خوفو » — ثانى ملوك الأسرة الرابعة ، وصاحب الهرم الأكبر — تصور له بعض أيام أسلافه ، ومع أن القصص قد كتبت بعد أيام خوفو بعشرة قرون — تزيد قليلا أو تنقص كثيرا — غير أن أصله يرجع الى أيامه على أية حال ، وهى قصص ، أيا كان الغرض منها ، فهى تصور لنا الترف واليسار الذى كان يشيع فى حياة القصور يومئذ ، ويصور ألوانا من سلوك الناس ، ومن تفكيرهم وعاداتهم وشرائعهم فى ذلك العهد البعيد من تاريخ مصر .

غير أن العصر الذهبى للقصة ، انما يبدأ منذ عهد الثورة الاجتماعية الأولى ، حيث مرت البلاد ابانها بأحداث كثيرة ، ازدهر الأدب بعدها ، بل ان المؤرخين انما يكادون يجمعون على أن هذا العصر ، بقدر ما ضل عى الباحثين بمصادره الأثرية ، بقدر ما منحهم قدرا من الأدب يكاد يعطينا صورة عن الحياة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ مصر ، ولعل من أروع المقطوعات الأدبية التى تسب الى تلك الفترة انما هى « قصة الفلاح الفصيح » ، والتى تعد آية فى بلاغة الأسلوب ، كما أن بيان الشكوى رائع أخاد ، فيه كثير من التورية ، وفيه كثير من التهمك الرائع ثم ان الصورة التى عرضها ذلك القروى الفصيح انما تعد مظهرا صادقا ،

لما كان واقعا يؤمئذ من ضيق الناس بحال البلاد ، وتبرمهم بالفوضى
التي مناعت حياتهم •

ومن أيام الدولة الوسطى تجيء « قصة سنو هي » ، ذلك الرجل
الذي فر الى فلسطين في ظروف سياسية معروفة ، وأقام بها حتى صدر
عفو فزعوني عنه ، وهي من القصص الواقعي الذي يلقي ضوءا على
انحراث التي حزت في مطلع الأسرة الثانية عشرة ، وتصور أحوال البلاد
السياسية والاقتصادية والحربية وقتئذ ثم هي مرآة صافية لوجه الحياة
في فلسطين . وظاهر أن المصريين قد فتنوا بها ، وظلوا ينسخونها
ويتداولونها دهرًا طويلا •

ثم هناك « قصة البحار » التي ترجع أيضا الى أيام الدولة الوسطى ،
وتشبه الى حد كبير « قصص السندباد البحري » في « ألف ليلة وليلة »
فهي تحدثنا عن بحار حملته الأمواج — بعد أن انحطت سفينته — الى
جزيرة نائية ، بها حية ضخمة ، أكرمته وحمته ، وظلت ترعاه حتى عاد الى
وطنه ، وقد وضعت القصة في أسلوب رقيق يعبر عن أجمل العواطف ،
ويستثير روح البطولة والمجازفة ، ويعصور حياة الملايين تصويرا دقيقا وهي
تشير كذلك الى حب الوطن الذي ملأ قلوب المصريين ، بحيث أضحي
لديهم من قواعد الايمان •

ولعل ما تجدر الاشارة اليه هنا ، أن القصص الذي وصلنا منذ
عهد الدولة الوسطى ، انما يشير الى فضج ينم عن وجود مرحلة سابقة
لمعالجة هذا اللون من الأدب ، قد نستطيع أن نستشف وجوده من معالجة
الأساطير في متون الأهرام من عهد الدولة القديمة ، ومهما يكن من أمر ،
فإن غياب القصة في عهد الدولة القديمة لا ينهض دليلا على عدم وجودها
فقد يكشف يوما عن عناصرها الأولى في هذه العهود البعيدة ، وعلى أية
حال ، فإن أدب القصة في عهد الدولة الوسطى ، لا يمثل مرحلة تطور
فحسب ، بل يمثل مرحلة كمال نسبي ، بل انه يمثل ذروة الأدب القصصي
في مختلف عصور الحضارة المصرية القديمة •

وأما القصص الذى يرجع الى عهد الدولة الحديثة والعصر المتأخر فكثير ومتنوع ، فهناك قصة « فتح يافا » التى تبين لنا كيف أصبح المصريون دهاة فى الخدع والمهارات الحربية ، وهنا « قصة ون أمون » التى تشير الى مدى ضعف نفوذ مصر الخارجى ، بعد أيام الامبراطورية المجيدة ، ثم هناك « قصة الأخوين » ، والتى كتبت باللغة الشعبية ، وحلق بها كاتبها فى آفاق الخيال طويلا ، وهى تمثل الصراع الدائم بين اغراء المرأة حين تطيش ، وغفة الرجل حين يفتح الضمير الحى عينه على سر الفتنة ، وهناك « قصة الأمير المقدور عليه » ، والتى توضح الصلة بين مصر وبلاد الشرق فى أخريات أيام الدولة الحديثة ، والتى تصور آمال الوالد ولهفته حين ينتظر الولد ، وقد طال شوقه اليه وأمله به ، ثم هلمه واشفاقه من المستقبل حين تحدثه نفسه ، بما يمكن أن يصيب الولد من مكروه .
وأما « قصة الصراع بين الحق والباطل » فهى من القصص التعليمية التى يقصد به أصحابها الى العبرة والموعظة الحسنة (١) ، ، سوف نحاول هنا أن نتعرض — بالشرح والمناقشة — للقصص التالية :

- ١ — قصة خوفو والسحرة .
- ٢ — قصة الفلاح النصيب .
- ٣ — قصة سنوهى .
- ٤ — قصة الملاح والجزيرة النائية .
- ٥ — قصة فتح يافا .
- ٦ — قصة الأخوين .
- ٧ — قصة ون أمون .

(١) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٧٢ - ٧٤ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٩٢ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤ - ١٥ ، ٢١ .

لعل من الجدير بالإشارة - بادئ ذي بدء - أن قصة خوفو والسحرة هذه ، ليست قصة واحدة ، وإنما هي عدة قصص ، منتظمها قصة واحدة ، تصور لنا ما كان منتشرًا بين الناس في عهد الدولة الوسطى من أقاصيص نسبوها إلى القدماء ، ليضيفوا عليها حالة من التمجيد والتعظيم ، ومن ثم فقد اختاروا نسبة حوادثها إلى عصور ملوك اشتهروا في التاريخ ، وكانت أعمالهم وآثارهم ماثلة أمام عيون من جاءوا بعدهم . وكانوا ينظرون إلى أيامهم نظرة إعجاب وإعزاز ، وهكذا كانت شخصيات هؤلاء القرائين محورًا لعدد كبير من القصص ، للرسمية منها والشعبية ، وقد جمعت قصصهم في سياقها بين حقائق موضوعية ، وبين صياغة فنية ، وبين أخيلة تصور المعجزات وفنون السحر ، وبين آراء خاصة وأمانى عامة عبر القصاص عنها بطريق الرمز .

هذا وقد حفظت هذه القصص في بردية محفوظة في متحف برلين (برقم ٣٠٣٣) ، وكانت قد أحضرتها الآنسة « وستكار » من مصر وسلمتها إلى العالم الألماني « كارل ريتشارد ليسيوس » (١٨١٠ - ١٨٨٤م) حينما كان مقيمًا في إنجلترا (عام ١٨٣٨/١٨٣٩م) ، ثم أودعت بمتحف برلين بعد وفاة ليسيوس ، وعلى أية حال ، فلقد عرفت البردية بين علماء المصريات باسم « بردية وستكار » ، وقد كتبت في عهد الدولة الوسطى ، وإن كان هناك من ينسبها إلى عصر الهكسوس (١) .

وكان أول من نشرها « أدولف ارمان » (٢) و « كورت زيتس » (٣) ، ثم

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٩٦ ، عبد العزيز صالحي : المرجع السابق ص ٢٣٥ ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ١٩١ ، وكذا Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1973, p. 215-216.

(٢) A. Erman, LAE, 1927, p. 36-47 and A. Erman, The Ancient Egyptians p. XXIV, LZVIII-LXIX, 36-49 (New York, 1966).

(٣) K. Sethe, Ägyptische Lesestücke, Leipzig, 1924. K. Sethe, BrL, Leipzig, 1927, p. 32-45.

ترجمها «ارمان» و«جوستاف لوفيفر»(٤) ، و«ارك بيت»(٥) ، و«ماكس بير»(٦) و«جاستون ماسبيرو»(٧) و«سكوت»(٨) و«بوزر»(٩) وغيرهم(١٠) ، هذا فضلا عن الترجمات العربية للبردية(١١) .

ولعل من الجدير بالإشارة أن تلك القصص التي جاءت على «بردية وستكار» ، إنما يندعها علماء المصريات من أقدم — إن لم تكن أقدم — القصص التي تتناول روايات عن السحر وأهله ، وبعض ما يأتون من فنونه وأنواعه ، وأثر ذلك كله في حياة الناس ، وقيل أنها قصت على «خوفو» تصور له بعض أيام أسلافه ، ومع أن القصص قد كتب بعد عصر خوفو بعشرة قرون ، إلا أن أصله يرجع إلى أيامه على كل حال ، وهي قصص أبداً كان الغرض منها ، فاتها ، كما أشرنا من قبل ، إنما تصور لنا الترف واليسار الذي كان يشيع في حياة القصور يومئذ ، ويصور ألوانا من سلوك الناس ومن تفكيرهم ومن عاداتهم وشرائعهم في ذلك العهد البعيد من عهود مصر الفرعونية .

وعلى أية حال ، فإن موضوع البردية أن أبناء الملك «خوفو» —

G. Lefebvre, Romans et Contes égyptiens de L'époque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-90. (٤)

E. Peet, Op-Cit, p. 41 F. (٥)

M. Piepe, Op-Cit, p. 55 F. (٦)

J. Maspero, Op-Cit, p. 21 F. (٧)

S. Schott, Altägyptische Liebeslieder, Zurich, 1950, p. 176-187. (٨)

G. Posner, Littérature et Politique dans L'Égypte de la XIIe Dynastie, Paris, 1956. (٩)

E. Brunner-Traut, Altägyptische Märchen, 1965, p. 11-24 (١٠)

William Kelly Simpson, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 15-30. وكذا

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 215-222. وكذا

(١١) سليم حسن : المرجع السابق ص ٧٤ — ٨٧ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٩٦ — ٤٠٢ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٥ — ٣٣٧ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ١/٣٢٠ — ٣٢٣ .

صاحب الهرم الأكبر - أخذوا يقصون عليه واحدا بعد الآخر أحاديث عجيبة عن أعمال السحرة ، وما يمكنهم أن يأتوا به من معجزات (١٢) ، وما يستطيعون الانباء به من أخبار الغيب وما سيحدث في المستقبل ، وأول البردية مكسور ، ومن ثم فنحن لا نعرف كيف كانت بدايتها أو محتويات ما غاب منها ، كما أننا لا نعرف أيضا من هو ذلك الأمير ابن الملك خوفو ، الذي قص عليه تلك القصة التي حدثت في عهد الملك « زوسر » - صاحب الهرم المدرج في سقارة ، وأول ملوك الأسرة الثالثة (١٣) - ذلك لأن الجزء المحفوظ من البردية انما يتجذبت فقط عن ترجم الملك « خوفو » على جده « زوسر » ، وتقديم القرابين له ، كما

(١٢) من المعروف أن الله تعالى انما قد اختار معجزة نبيه موسى عليه السلام من نوع السحر الذي برع المصريون فيه ، ذلك لأن معجزات الانبياء ما كانت لتنزل الا في أمر من واقع حياة الناس ، وما يدور بأذهانهم ، فتكون محققة في أعينهم ، على غير قاعدة ولا قياس لخارق الاعمال ، والمصريون طالما فكروا في السحر ، وسحروا به ، وضربوا به في أغوار الوهم وتخيلوه ، وقد ورد لنا عن الحياة المصرية القديمة من أحاديث السحر والسحارين ما كان الناس يخرجون به الى عالم الغيب من عالم الشهادة ، ومن دنيا الواقع الى افاق الحياة ، والمصريون انما كانوا - فيما تشهد به قصص أدبهم كقصتنا هذه - بحبون أحاديث السحر وخوارق الاعمال ، هذا فضلا عن أن المصريين - كما يشهد القرآن الكريم بذلك - قد برعوا في السحر ، حتى أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وحتى خيل لموسى عليه السلام ، أن حبالهم وعصيمهم قد أصبحت حيات تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قال تعالى «قالوا يا موسى أما أن تلقى وأما أن نكون نحن الملقين ، قال القوا ، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم (الاعراف : آية ١١٥ - ١١٦) ، وقال تعالى «قالوا يا موسى أما أن تلقى وأما أن نكون أول من ألقى ، قال بل القوا ، فإذا حبالهم وعصيمهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف أنك أذنت الاعلى ، وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى» (سورة طه : آية ٦٥ - ٦٦) .

(١٣) أثبتت الحفائر الحديثة أن «زوسر» لم يكن أول ملوك الأسرة الثالثة ، واسبقه الى العرش المصري الحور «سانخت» الذي تجسسه كل الاحتمالات المقبولة أخا أكبر للملك زوسر ، غير أننا لا نعرف عنه شيئا ، سوى أنه الجنائزى الذي يحتمل أنه قد استخدم كنقطة بداية لهرم زوسر المدرج (انظر :

R. Weill, Les IIe et IIIe Dynasties Egyptiennes, Paris, 1908, p. 128.

J. P. Lauer, Les Pyramide a degres, in Rev. Arch., 47, 1956, p. 17.

يتحدث عن ذلك الساحر الذى عاش فى عهده ، والذى وجد اسمه مكسور
أيضا فى البردية .

وعلى أية حال ، فإن « بردية وستكار » انما تروى قصصا ثلاثة :
قصة الزوجة الخائنة ، وقصة سنفرو وفتيات القصر ، وقصة خوفو
والسحرة .

١ - قصة الزوجة الخائنة :

حدثت هذه القصة - طبقا لما جاء فى البردية - على أيام الملك
«نب كا» - من الأسرة الثالثة ، وربما كان هو الملك «سانفت»^(١٤) -
وقد قصها الأمير « خفرع » (خع اف رع - صاحب الهرم الثانى فى
الجيزة) وقد جاء فيها : عندما كان الملك « ب كا » فى زيارة لمعبد بتاح
فى منف ، كان « أوبا أونر » كبيرا للكهنة المرتلين فى المعبد ، وكان
متزوجا من امرأة داعة ، كانت على علاقة جنسية بشاب من أواسط الناس ،
وأهمها كان يلتقيان - فى غياب زوجها - فى منزل ريفى يملكه الزوج
الكاهن على حافة بحيرة ، حيث كانا يعاقران الخمر ، ويرتكبان ما حرم
الله ، ثم ينزل الفتى آخر النهار - فيغتسل فى البحيرة ، على أن حارس
البيت ، وقد سدرت المرأة فى غيها ، ومضت فى ضلالها زمتا ، قد عمد
فمشى بخيرها إلى زوجها ، الذى صنع من الشمع كهينة التمساح ، فألقاه
بى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحرة ، ما حوله إلى تمساح
مفترس عظيم ، فلما نزل الفتى إلى الماء قبض التمساح عليه ونزل به إلى
أسفل الماء ، ومكث تحته سبعة أيام كاملة ، ثم تحدث الكاهن بخبر
زوجته الخاطئة إلى الملك ، ودعاه إلى بيته ليشهد العشيق الشاب بين فكي
التمساح وهناك على حافة البحيرة وقف الملك مع الكاهن الذى نادى
التمساح فخرج إليهما بفريسته ، فما أن رأى الملك التمساح حتى ارتاع
وفزع لمراه ، ولكن الكاهن ما كاد ينحنى عليه ليلتقطه حتى عاد سيرته
الأولى دمية من الشمع ، ثم أمر الملك التمساح أن يفتك بالفتى الزانى جزاء

جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق ، وذر رمادها فى النهر ، ولعل ذلك انما كان جزاء الزانى والزانية عند القوم ، للقتل حرقا أو غرقا .

وعلى أية حال ، فما أن انتهى الأمير « خفرع » من قصته ، حتى يأمر أبوه الملك خوفو بأن تقدم القرايين للملك « فبكا » ، ألف رغيف من الخبز . ومائة اءاء من البجعة وثورا وكيلين من البخور ، وأن يقدموا قربانا لكبير الكهنة المرتلين « أوبا أوز » رغيفا واءاء من البجعة وقطعة كبيرة من اللحم ، وكيلًا من البخور .

٢ - قصة سنفرو وفتيات القصر :

تروى بردية ومستكار أن الملك « سنفرو » - رأس الأسرة الرابعة - قد أحس ذلت يوم ضبقا فى العمار . وحزنا فى النفس ، فأشار عليه كاهنه « جاجام غنخ » بأن يلتبس التسمية فى الخضرة والماء والوجه الحسن ، وأن يستقل قاربا ويصطحب معه عددا من العذارى . ويطلق البصر فيما أفاءه النيل على جانبيه من خضرة وخير عيم ، وعمل سنفرو بالنصيحة واصطحب فى قاربه الكبير عشرين عذراء ، وعهد اليهن بالتجديف والغناء ، فاصطفن على جانبى القارب ، وجذفت كل منهن بمجداف من الأبنوس المرصع بالذهب - كما تدعى القصصة - وانطلقن فى التفريد والتجديف ، وكانت كل منهن تحلى جبينها باكليل تزينه حلقة على هيئة السمكة ، فتسربت الى الملك البهجة ، وسرى الى نفسه السرور ، بما شهد من فتيات ليس عليهن من الثياب ، الا ثياب من شباك لا تكاد تستر شيئا ، وبما سمع من غنائهن ، وهن يسرين به فى أمواه البحيرة وسط الخمائل والأغصان ، لولا ما رأى من توقهن عن التجديف ، وتهدل شعر رئيستهن على وجهها ، فأزاحت يدها ، وعندئذ سقطت حليتها فى الماء ، فوعدها بأن يعوضها عنها بما هو خير منها ، ولكنها آبت الا حليتها ، فاسقط فى يد سنفرو .

وسرعان ما استدعى الكاهن « جاجام غنخ » على عجل ، فما أن علم بالخبر ، حتى قرأ من عزائم السحر ، الذى انشقت له مياه البحيرة ،

حبت انطوت نصف على نصف ، فأصبح ارتفاع الماء فى البحيرة أربعة وعشرين ذراعاً فى أحد الجانبين ، بعد أن كان اثنى عشر فقط ، ورأوا فى قاع البحيرة تلك الحلية ، وقد استقرت فوق قطعة مكسورة من فخار ، فأشار اليها الكاهن ثم سلمها الى صاحبته .

ولعل مما تجدر اليه الإشارة فى هذه القصة أن قصاصها لم يتخيل مبيكه ربا مطلقا قادرا مقتدرا ، كما اعتادت النصوص الرسمية أن تصف ملوكها ، ولم يجد بأسا فى أن يصوره عاجزا عن أن يفعل بعض ما يستطيع كاهن من رعيته أن يفعله ، وأن هذا الملك — وإن خاطبه رعاياه بلقب الربوبية إلا أنه لم يعتقد فى نفسه الربوبية الفعلية ، بحيث لم يكن من المستبعد عليه — تبعا لذلك — أن يخاطب أهل فى عصره بلفظ « الأخوة » كما خاطب كاهنه المرتل .

والواقع أن الملك « سنفرو » قد خلف وراءه شهرة عريضة للحاكم المثالى فى الخير ، وحسن التصرف ، شديد الحرص على أن يسود العدل رعيته ، حتى أنه اتخذ العدالة شعارا له ، فلقب نفسه « نب ماعت » (سيد أو رب العدالة) ، ومن ثم فقد ظلت ذكراه عدة قرون بين المصريين ، وكانوا يشيرون اليه بقولهم « الملك المحسن » و « الملك الرحيم » و « الملك المحبوب » و « الملك الفاضل » ، كما صورته الوثائق متواضعا ، يميل الى المعرفة ، ويكرم العلماء ، ويحسن الاستماع لهم ، ويكتب بنفسه ولا يبالى أن يسأل عما لا يعرفه ، ومن ثم فقد اختار بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة ، بعد وفاته بحوالى سبعة قرون ، نفس المنطقة التى دفن فيها لتكون مثولهم الأخير ، تيمنا به وتبركا .

٣ - قصة خوفو والساحر جدى :

نروى بردية ومستكار أن الساحر « جدى » (جدى) الذى بلغ من سحره أن يلحم الرأس المقطوع ، ويذل الأسد لأرادته ، أن قد دعى الى حضرة الملك خوفو ، حيث عرض سحره عليه ، وأوقعه بأوزة ثم ثور ، فصل رأس كل منهما عن الجسد ، ثم ما زال يقرأ من عزائمه ، والرأس

بقترب من الجسد ، حتى التبحا ، وعادت الحياة الى كل منها ، ثم أعاد التجربة مرة ثانية فى بطة ، ثم فى ثور ، فنجح فى ذلك كله ، وذلك على النحو التالى :

جاء دور الأمير « حور ددف » فقال لأبيه خوفو : لقد سمعت حتى الآن أمثلة مما قالوا بأنه حدث قبل أيامنا ، ولا يعرف الانسان ، اذا كان ذلك صحيحا أم غير صحيح ، ولكن يوجد ساحر يعيش فى عهدك بلغ من سحره ان يلحم الرأس المقطوع ، ويذل الأسد لارادته ، ويعيش فى بلدة « دد - سنغرو » ويبلغ من العمر مائة سنة وعشرا ، ويأكل فى اليوم خمسمائة رغيف من الخبز ، وفخذ ثور من اللحم ، ويشرب مائة اناء من الجعة ، ويعرف سر مغاليق هيكل الاله تحوت ، وكان خوفو حريصا على معرفة هذا السر ، ومن ثم فقد أرسل ولده « حور ددف » ليحضر هذا الساحر بنفسه ، وهكذا أخذ الأمير السفن ونزل فى النيل ، حتى وصل الى القرية التى يعيش فيها الساحر العجوز ، وانتقل هناك من سفينته الى بيت الساحر فى محفة من الأبنوس ، عوارضها من خشب السسّم ومغلقة بالذهب ، واستقبله الساحر بما يليق بمقام الأمراء ، ورد الأمير التحية بأحسن منها ، وهناك على تمام صحته ، وأعلمه ان الملك يدعو الى القصر ليتمتع بأطياب الطعام ، ولينال بركة الملك بعد وفاته ، ولبى الساحر الدعوة راضيا شاكرا ، وان طلب أن تخصص سفينة لنقل عائلته وكتبه ، فخصص له الأمير سفينتين .

وبما وصل الساحر « جدى » الى القصر الملكى ، قال له خوفو : ما هذا يا جدى ، وكيف لم نرك حتى الآن ؟ فأجاب جدى : مولاي ، من دعى أجاب ، ولما دعوتنى لبيت ، ومعنى هذا أن الرجل لم يكن يجسد ما يلزمه بأن يسمح بيلاط الملك من تلقاء نفسه ، أو يقصد اعتابه رجاء فضله ، وعلى أية حال ، فلقد طلب خوفو من جدى أن يجرى معجزاته وسحره على سجين ، فاعتذر الرجل وأجاب فى عناد : ولكن ليس على انسان يا مولاي الحاكم ، وحسبك أن أحدا لم يطلب أداء شيء من ذلك

على هذا الشعب النيل ، وهكذا لم يأب جدى أن يرد على ملكه العظيم بما يستقدمه ، ولم يأب أن يعتبر السجين المصرى فردا من شعبه نيل ، على الرغم من جرمه الذى دخل السجن بسببه ، وفضل أن يجزى تجاربه على حيوان أو طير .

وهكذا أحضروا له أوزة ، وقطعوا رأسها ، ووضعوا جسدتها فى الناحية الغربية من القاعة ، ورأسها فى الناحية الشرقية منها ، وقرأ جدى من عزائم السحر ما جعل جسد الأوزة يتحرك ، كما تحرك رأسها ، حتى تلاقيا فركب الرأس فى مكانه من فوق الجسد ، وبعثت الأوزة حية مرة أخرى ، وأخذت تصيح ثم أعادوا التجربة مرة ثانية فى بطة ، ثم ثالثة فى ثور ، فنجح فى ذلك كله ، ثم سأله خوفو عن سر مغاليق هيكل تحوت فأجاب أنه لا يعرف سرها ، ولكنه يعرف مكانها ، وأنها فى صندوق من حجر النفران على إحدى قاعات معبد هليوبوليس ، وأنه لا يستطيع احضارها ، وإنما الذى يستطيع ذلك هو أكبر أطفال ثلاثة تحمل بهم «رد - ددت» .

وهكذا ظل « خوفو » على جهل بسر مغاليق هيكل الاله تحوت ، على الرغم من أن نصوصه الملكية ونصوصه الرسمية ونصوص رجال حاشيته ، كانت تلقى بقلب « ثرعا » أى « الاله العظيم » ، ولسنا نشك فى أن ذكر السحر فى هذه القصة محض اختلاق وخيال ، وإن كنا لا تنكر على المصريين معرفتهم بالسحر وبراعتهم فيه وأن اعتذار الحكيم عن آدائه لا يزيد عن مجرد تخلص لبق لطيف ، ولكن حسبنا من القصة أنها كشفت عما كان مؤلفه يتخيله عن بشرية خوفو ، واحتمال عجزه عن أداء ما يؤديه بعض رعائيه ، وكشفت عما كان الناس يودون أن يظهر به حكيم من الشعب فى مواجهة الملك العظيم ، صاحب الهرم الأكبر ، من عزة النفس ، والاعتراف لقومه بنبالة الأصل .

ثم يكمل الساحر قصته عن أبناء «رد - ددت» فيقول : انه يوجد فى مدينة « ساخيو » - وتقع على الضفة الغربية للنيل ، قرينا من منطقة

هليوبوليس - كاهن يدعى « وسر رع » وأن زوجته « رد - ددت » سوف ترزق بأولاد ثلاثة من صلب الاله « رع » نفسه ، وأن الاله رع قد بشرها بأن أولادها الثلاثة سوف يجلسون على عرش مصر ، الواحد تلو الآخر ، وأن أكبرهم سوف يكون كبير الكهان فى « أون » (هليوبوليس) فحزن قلب خوفو لتلك الأنباء ، ولكن للساحر لماله على عرشه ، بل وسيخلفه من بعده ولده ، ثم حفيده ، ثم يأتى من بعد ذلك أبناء « رد - ددت » (رود جدت) من رع .

وتستمر القصة فى وصف أيام الحمل ، وما اقترن به من معجزات حتى تأتى ساعة الوضع ، وتحضره آلهات الولادة متكررات فى زى راقصات وموسقيات ، بغية تقديم العون للسيدة الحامل ، أبان وضعها لحملها المبارك ، فادعت القصة - أو قل الأسطورة - أن «رود - جدت» حين أتتها المخاض لم يكن عندها من يعينها عليه ، وأن الاله الأكبر رع أراد أن يعينها على الوضع ، فأرسل إليها أربع ربوات على هيئة البشر - قابلة وهى الربة ايزة ، وثلاث مساعدات وهن نفثيس وحقت ومسخت ، فضلا عن تابع عجوز حمل كرمى الداية وحاجيات التوليد ، وهو المعبود خنوم .

واستمرت الأسطورة فى وصف ساعة الوضع وما ظهر خلالها من الترامات ، فذكرت أن الموليدات الفردن بالحامل فى غرفتها ، وأوصدن الباب عليهن ، وجلست ايزة أمامها تقوم بعملية التوليد ، بينما جثت نفثيس خلفها ، لتشد عليها بذراعها ، وتكون سنداً لها عين المخاض ، وعونا على دفع المولود ، وجلست « حقت » تمنعجل الوضع ، أو تحمى الطلق - كما تقول نسوة اليوم - واكتفت « مسخت » بالتشجيع والمهمة شأن العجائز المجربات المباركات ، وكلما ولدت الوالدة توأماً بشرته « مسخت » بما قدر له من حظ سعيد ، وقالت « ملك يتولى الحكم فى هذه الأرض كلها » ، وغسلت الموليدات الأطفال ، وقطعن لكل منهم حبله السرى وأرقدته فوق مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كثائ بسيط ،

وطمان خنوم الوالدة على سلامة أبنائها الثلاثة . وزودهم بدعائه المبرور ،
 ويقدم والد الأطفال الثلاثة المكافآت للربات على عوفهن لزوجته في وضعها
 مكاييل من الشعير . الذى تضعه الربات فى مخازنه ، ثم ينصرفن سرا ،
 وسرعان ما تصدر من الغرف أصوات موسيقية خفية ، ويقال أن الתיجان
 الملكية وجدت مخبأ فى الشعير ، وتضيف الأسطورة أن الخادمة كادت أن
 تنشى السر كله للملك خوفو ، لولا أن تمساحا اقض عليها ، وهى تملأ
 جرة ماء من النهر .

وبدهى أن القصة - على هذه الصورة - إنما تتناولها هواتف الريبة
 والشك من كل جانب ، ولكنها ، على أية حال ، إنما تمثل الناحية الشعبية
 من قصة استيلاء كهنة رع على الملك فى نهاية الأسرة الرابعة ، كما أنها فى
 الوقت نفسه ، تبين الوسائل التى يلجأ إليها الفراعنة لتثبيت عروشهم ،
 حين أعوزهم الحق الشرعى فيه ، وسرى فى عصور تالية فراعين يفعلون
 ذلك ، حين يتمسبون الى الآلهة آمون ، كما يبدو ذلك واضحا فى نص
 الولاة الشهيرين ، الواحد بمعبد الدين البحرى فى طيبة الغربية ، ويتحدث
 عن ولادة الملكة « حتشبسوت » من الآلهة آمون ، ومن « آحس » زوج
 الملك « تحوتس الأول » ، والثانى فى معبد الأقصر ، ويتحدث عن ولادة
 « أمنحتب الثالث » من الآلهة آمون ، ومن « موت ام ويا » زوج تحوتس
 الرابع - كما أشرنا الى ذلك من قبل -

وأيا ما كان الأمر ، فلسنا ندرى مدى قبول الناس لما رويته القصة
 أو الأسطورة ، ان كانوا قد قبلوها عن ايمان وتصديق ، أم اعتبروها
 مجرد دعاية من الكهان وأهل البلاط لصالح ملوكهم ، ولكننا ندرى أن
 ملوك الأسرة الخامسة ظلوا أوفياء للآلهة رع ، صاحب الفضل فى ارتقاؤهم
 العرش ، وظلوا كذلك أوفياء لكهنوته الذين آزرهم فى حكم البلاد^(١٥) .

(١٥) عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ٣٣٥/١ - ٣٣٧ ،
 الأسرة فى المجتمع المصرى القديم ص ٣٩ - ٤١ ، أحمد فخري : المرجع
 السابق ص ٣٩٦ - ٤٠٢ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٧٧ - ٨٧ ، محمد
 بيومى مهران : مصر ١٥٨/٢ - ١٦٠ (الاسكندرية ١٩٨٨) ، وكذا =

٢ - قصة الفلاح الفصيح

اختلف المؤرخون في اسم هذه القصة ، فيسميها البعض « احتجاجات أو شكاوى الفلاح الفصيح » ، ويسميها آخرون « شكوى الفلاح الفصيح » ، ويرى فريق ثالث أنها « قصة فلاح من الواحة المتاخمة لوادى النطرون » ، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى ، طيب الله ثراه ، أننا لا نملك أى دليل على أن صاحبها كان فلاحا يعمل فى الأرض ، وإنما الأرجح أنه أحد الأهالى الذين يعملون فى التجارة ، على أن « جوستاف لوفيفر » إنما يفضل تسميتها « قصة الواحى » ، غير أن إطلاق كلمة « الواحى » على أحد سكان وادى النطرون أمر لا يستقيم مع العرف ، ذلك لأن سكان الواح إنما هم سكان سيوة والبحرية والقرافة والداخلية والخارجة فقط ، ولهذا يسميها البعض « قصة القروى الفصيح » ، لأن صاحبها - سواء كان يعمل فى التجارة أو فى الفلاحة أو فى استخراج النطرون أو الأعشاب - فإنه كان يعيش فى ذلك المكان الذى لا يعدو أن يكون قرية صغيرة ، ولم يكن من أبناء المدن المتعلمين ، وكان الإعجاب به لأنه كان شخصا بسيطا من سكان الأماكن النائية ، ومع ذلك فقد أوتي قدرا عظيما من الفصاحة وحسن التعبير (١) .

Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 216-222.

W. K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 16-30. وكذا

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 36-47. وكذا

G. Lefebvre, Romans et Contes ogyptiens de L'epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-90. وكذا

وانظر الترجمة العربية (جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى - ترجمة على حافظ ص ١٤٠ - ١٥٧) .

(١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٩٤ ،

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 407.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 112. وكذا

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 31. وكذا

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 169. وكذا

وكان « شلبا » أول من لفت الأنظار إلى هذه البردية في عام ١٨٦٣ م ، وفي عام ١٩١٣ م قام « فوجلز انج » بنشر قصصها نشرًا كاملاً (٢) ، وفي عام ١٩٢٣ م قام « جاردنر » بنشر اضافات وتصحيحات لها (٣) ، وهناك ترجمات كثيرة للبردية ، منها ترجمة « ماسيرو » ، و « رويدر » و « سايس » و « ارماني » و « لوفيفر » ، كما حلل نصوصها واقتبس منها وناقشها كثير من العلماء الأجانب وبلغات مختلفة (٤) .

وأما ترجمة الوثيقة باللغة العربية ، فهناك ترجمة الدكتور سليم حسن (٥) ، هذا فضلاً عن ترجمات موجزة لأهم عناصر البردية في كتب

F. Vogelsang, Kommentar Zu den Klagen des Bawern, Untersuchungen, b, Leipzig, 1913, 1964. (٢)

A. H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25. (٣)

De Buck, Readingbook, p. 88-90. (٤) أنظر

K. Sethe, Agyptische Lesestücke, Leipzig, 1924, p. 17-25.

K. Sethe, Erl., Leipzig, 1927, p. 21-32.

A. Erman, LAE, London, 1927, p. 116-131.

F. Lexa, Arch. Or., 7, 1935, p. 372-383.

F. Lexa, RT, 34, 1912, p. 218-231.

A. H. Gardiner, PSBA, 35, 1913, p. 264-276.

E. Suys, Etude sur le Conte du fellah Plaidour, Rome, 1933.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 41-69.

A. M. Blackman, JEA, 20, 1934, p. 218-219.

F. W. Von Bissing, Altägyptische Lebensweisheit, Zurich, 1955, p. 155-170.

ولعل من أحدث ترجمات البردية :

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 169-184.

J. A. Wilson, ANET, P. 407-410.

R. O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, p. 31-49.

S. Herrmann, ZAS, 80, 1955, p. 34-39.

S. Herrmann, ZAS, 82, 1958, 55-57.

G. Lanczkowski, Altägyptischer Prophetismus, Wiesbaden, 1960.

(٥) سليم حسن : المرجع السابق ص ٥٤ - ٧٠ .

هذا وقد حفظت لنا البردية فى أربع نسخ من عهد الدولة الوسطى منها ثلاثة بمتحف برلين (الأولى برقم ١٠٤٩٩ R ، والثانية برقم ٣٠٢٣ R ، والثالثة برقم ٣٠٢٥ R2) وأما النسخة الرابعة ففى المتحف البريطانى (برقم ١٠٢٧٤) ، هذا عدا المقتطفات الأخرى ، ومن حسن الحظ أن ابردية لم تصل إلينا عن طريق نسخة متأخرة معرفة أو بالية - ككثير من المخطوطات المصرية القديمة - وإنما بقيت محفوظة جيدا ، حتى وصلت إلينا فى لفافة من البردى الفخم الذى كتب فى ذلك العصر الاقطاعى الأول (عصر الثورة الاجتماعية الأولى) (٧) •

وقد اختلف المؤرخون فى عصر الملك الذى جرت فى عهده أحداث « قصة القروى المفصيح » وربما كان السبب فى اختلافهم هذا ، هو اختلافهم فى ترتيب ملوك العهد الاهناسى (الأسرتين التاسعة والعاشره) ، وهكذا فانهم يتفقون على أن القصة حدثت فى عهد الملك « نب كا ورع » ولكنهم يختلفون فى مكان هذا الملك من العهد الاهناسى ، وبالتالي يختلفون فى الأسرة التى حدثت على أيامها هذه القصة ، فبينما يضعها فريق فى الأسرة التاسعة ، يضعها آخرون فى الأسرة العاشرة (٨) ، وهكذا رأينا « الكسندر شارف » يرى أن القصة قدمت لأحد ملوك الأسرة العاشرة (٩) ، ويذهب « وليم هيز » الى أن الملك « نب كا ورع » (اختوى

(٦) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٩٢ - ٣٩٦ ، عبد العزيز صالح : الشرق الاحدى القديم ١/٣٦٢ - ٣٦٥ ، جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعونى - ترجمة على حافظ ص ٩٠ - ١٢٥ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٩٧ - ٥٠١ ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٠٨ - ٣١٤ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٥ - ٢١ ، مصر ٢/٣١٥ - ٣٢٤ •

R. O. Faulkner, M. Lichtheim, Op-Cit, p. 169-170. (٧)

(٨) انظر عن ترتيب ملوك الاسرتين التاسعة والعاشره (محمد بيومى مهران : مصر ٢/٢٨٤ - ٢٩٠ الاسكندرية ١٩٨٨) •

(٩) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٧٣ •

الخامس) هو آخر ملوك اهناسيا ، وربما كان الفرعون الذى جاء ذكره فى قصة الفلاح النصيح^(١٠) ، ويرى « ونلوك » أن هناك اقتراضا عاما بأن الملك « نب كاو رع » (اختوى - خيتى) الذى حدث فى عهده قصة الفلاح النصيح ، قد خلف الملك « مرى كارع » على عرش الكنانة وقد حكم البلاد حتى استسلمت اهناسيا لأمراء طيبة ، وبمعنى آخر أن « نب كارع » هو آخر حكام العهد الاهناسي^(١١) .

على ان الدكتور أحمد فخرى انما يرى أن حوادث قصة القروى النصيح كانت فى عصر الملك « نب كاو رع » أحد ملوك اهناسية فى الأسرة العاشرة ، ولكنها كتبت بعده بقليل ، وهذا يعنى أنها كتبت فى الأسرة الحادية عشرة على الأقل ، على أساس أنها حدثت فى عهد « خيتى الخامس » ، الذى لم يبق على العرش طويلا ، فقد عاودت جيوش طيبة هجومها ، ففقت على عائلته فى اهناسيا^(١٢) ، واخضعت مصر كلها ، وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهدا جديدا .

واننى لأميل الى أن قصة القروى النصيح هذه ، انما قد حدثت على أيام الأسرة العاشرة ، وذلك لأنه رأى الغالبية من المؤرخين ، ولأن هناك اتفاقا على أنها حدثت على أيام الملك « نب كاو رع » ، وهو - فيما نرى جمهرة المؤرخين - أحد ملوك الأسرة العاشرة ، وربما كان آخر الحكام الاهناسيين^(١٣) ، الذى تم فى أيامه انتصار امرأ طيبة على ملوك

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 145. (١٠)

H. E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom (١١)
in Thin Thebes, N. Y., 1947, p. 23.

(١٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٧١ ، تاريخ الحضارة المصرية ص ٣٩٤ .

(١٣) اهناسية : كانت عاصمة البلاد فى عهد الامرتين التاسعة والعاشرة ، واسمها المصرى «نن - نيسو» وسماها العرب «اهناس» ، وهى «اهناسية المدينة» الحالية ، احدى مراكز محافظة بنى سويف ، وتقع على الضفة الشرقية لبحر يوسف ، فى مقابل مدينة بنى سويف ، وعلى بعدة ١٦ كيلا الى الغرب منها (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٦٧) .

امناسية ، ثم كتب لهم بعد ذلك ان يعيدوا الوحدة للبلاد ، تلك الوحدة التي فقدتها مصر على أيام الثورة الاجتماعية الأولى ، والتي أقامها منذ فجر التاريخ أقرباء لهم من أمراء «نخن»^(١٤) (البصيلية — مركز ادفو — بحافظة أسوان) .

وعلى أية حال ، فإن قصة القروي النصيح انما تكون من مقدمة وتسع خطب أو شكاوى ، عنى الكاتب باقتفاء معانيها ، وتعبيراتها وألفانها كل العناية ، وهى الواقع أن القصة انما تعد آية فى بلاغة الأسلوب كما أن بيان الشكوى رائع أخاذ ، فيه كثير من التورية ، وفيه كثير من التهمك الرائع ، ثم ان الصورة التى عرضها ذلك الفلاح — أو القروي — انما تعد مظهرا صادقا ، لما كان واقعا يؤمذ من ضيق الناس ، بحال البلاد ، وتبرمهم بالفوضى التى سادت حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما أن فى تكرار موضوع الشكوى تسع مرات ، مع ما تغلغل ذلك من دعاية الحديث ، مما يدل على الروح التى سادت هذا العصر ، وعلى الحزن على العدالة ، واعطاء كل ذى حق حقه ، وحماية المغير من سطوة الاغنياء واصحاب النفوذ ، وقد كتب لصاحبها نجحا بعيد المدى فى أن يوضح لنا بصور شتى ما كان يدور فى عقل ووجدان ذلك القروي البسيط ، بل ما يدور فى عقل ووجدان كل مصرى عضه الجوع ، ومر عليه البأس ، ووقع فريسة لأصحاب الجاه والسلطان .

وتتلخص قصة للقروي النصيح هذه فى أن قرويا يدعى «نخن أبى» خرج من قريته — وهى بلدة تسمى «حقل النطرون» من اقليم وادى النطرون بمقاطعة الفيوم ، على رأى ، وهى واحة متاخمة لوادى النطرون على رأى آخر ، وهى بلدة «غيظ الملح» التى لا تعرف مكافها على وجه التحديد ، ومن علب على الظن انها كانت فى نواحي الفيوم على رأى ثالث — بغية التجارة فى شتى السلع من القاب والنطرون والملح والأخشاب

(١٤) انظر عن «نخن» ودورها السياسى والحضارى (محمد بيومى
مهران : مصر ٥٩/٢ — ٧٤ — الاسكندرية ١٩٨٨) .

وبعض الجلود وبعض محاصيل النباتات التي كانت تنمو في تلك الواحه قديما ، وبعض أنواع من الحجارة وبعض الطيور ، وكثير من الحبوب التي كانت تنمو هناك ، ليستبدل ذلك كله بمحاصيل الوادي في العاصمة اناسيا ، ومن ثم فقد قال ازوجته « مرية » أو « مارية » : « أنظري اني شاخص الى العاصمة لأجلب المؤونة لأولادي ، من فضل تجارتي فانطلقى فاكثالى لى الشعير الذى تركته فى المخزن ، فاكثالتها له فكانت ثمانية مكايل ثم قال لها : عندك كيلان لك ولأولادك ، ولكن اصنعى لى من المكاييل الستة الباقية خبزا وجعة عن كل يوم أقضيه هناك » .

وهكذا ترك الرجل قريته ، ولم يترك لزوجه وأولاده ما يكفيهم الا لأيام معدودات ، ثم حمل حميره بشتى السلع بنية أن يبيعها فى العاصمة اناسيا ، وهناك وعلى مقربة من اناسية ، وفى قرية — وربما ضيعة — تدعى « بر — فينى » كان يتولى أمرها موظف شرير يدعى « تحوت — نخت » نيابة عن موظف كبير ، كان يتولى وقت ذالك منصب كبير حجاب قصر فرعون ، أو ناظر الخاصة الملكية ، ويدعى « رنسى بن مرو » ، وطمع « تحوت — نخت » فى تجارة القروى وحميره ، وأراد أن يكون له نصيب منها ، ان لم يستول عليها كلها ، وتفق ذهنه عن حيلة خبيثة ، فاعترضه على طريق زراعى ضيق ، كان لا بد أن يمر عليه ، واوعز الى خادمه أن يسط على الطريق قماشا يغطيه بالعرض ، ولما تقدم القروى على الطريق فهاه « تحوت — نخت » أن يمر على قماشه المفروش ، فاعتذر القروى بأنه كان حسن النية فيما أقدم عليه ، وابتعد عن القماش وسار قرب الزراعة فنهزه « تحوت — نخت » مرة أخرى ، وفجأة قضم أحد حمير القروى قضمة من سنابل الفلال ، فاعتبرها « تحوت — نخت » فرصته وأصر على أن يستولى على الحمار جراه جرمة ، ويحتج القروى ويهدد بإبلاغ الأمر الى ناظر الخاصة صاحب الأرض قائلا : اننى أعرف رب هذه الضياع ، انها للسمير الكبير رنسى بن مرو ، انه يلجم كل لص فى هذه البلاد كلها ، أم ترانى أسرق فى ضياعه .

وينضب « تحوت — نخت » ، وتأخذ العزة بالاثم ، ويستولى على بضاعة الرجل وحميره ، ثم يتناول غصنا من الأثل الأخضر ، وينهال على الرجل فى كل أجزاء جسمه ، ويصيح القروى باكيا ، ولكنه كلما بكى ، كلما أعاد « تحوت — نخت » ضربه أمرا اياه بالسكوت وعدم الشكوى . فيرد القروى : اتضربنى وتسرق مالى وتمنعنى أن أشكو » ، ويظل القروى يبابه عشرة أيام يستعطفه ويتضرع اليه ، ولكنه لم يمره التفاتا ، مما اضطره الى أن يشكو الى ناظر الضيعة « رنسى بن مرو » .

ويتقدم القروى بشكايته الى النبيل « رنسى بن مرو » وقد قابله ذات صباح وهو فى طريقه من داره الى النهر ليستقل قارب المحكمة ، فرجاه أن يرسل معه تابعا من عنده حتى يعهد اليه بقضته ، ورجع التابع بنص القصة الى رئيسه ، ويتمكن القروى من أن يثير إعجاب « رنسى بن مرو » بيلاعة لفظه ، وفصاحة تعبيره ، ويرفع « رنسى بن مرو » الأمر الى القضاء لعلهم ينصفوا ذلك القروى من « تحوت — نخت » ولكنهم لم يفعلوا شيئا وأجابوا : ربما كان ذلك القروى أحد فلاحى « تحوت — نخت » ، وأله أراد تركه والعمل عند غيره ، وطلبوا من « رنسى بن مرو » أن يطلب من عامله « تحوت نخت » أن يعوضه عن كمية النظرون ، وتجاهلوا الحمير كلية ، وهى التى أعز على القروى من كمية النظرون ، ولكن « رنسى بن مرو » لم يمر حكمهم الظالم أى اهتمام ، وأسر فى نفسه أمرا عزم على تنفيذه .

واستبطل القروى رد « رنسى بن مرو » فوجه اليه عتابا رقيقا ليئا ، حاول أن يستثير فيه فخوته ، فحببه فى العدل ، ووصفه بما يجب أمثاله أن يوصفوا به ، وكان من قوله له : اذا كنت حقا أبا لليتيم ، وزوجا للأرملة وأخا للمرأة المنبوذة ، وردأ لمن لا أم له ، فشجعتنى عنى أن أنشر سمعتك فى الأرض بما يتفق مع القانون الصحيح ، وعساك تكون حاكما بريئمن الجشع ، ونبيلا منزها عن اللذنية ، تزهق المباطل وتحقق الحق ، وتلبى نداءه ها أنذا أقول وأنت تسمع ، أقم العدل أمدحك ويمدحك المادحون ، أزل كرىي واحمنى ، فقد وهنت قوتى ، وضلت حيرتى » .

وهنا لعل سائلا يتساءل : ما بال هذا القروى المظلوم لم ينصف على عجل ، وهل يجوز لنا أن نرمي حكام مصر بالاهمال والمحاباة ؟

فى الواقع أن الأمر لم يكن كذلك ، فالحاكم الكبير (رنسى بن مرو) قد أعجبتة فصاحة « خون — ابو » فأخبر الملك أن فى رعاياه « قرويا فصيحاً » ، وكان الملك — كما يقول جوستاف لوفيفر — فى حاجة الى من يسرى عنه ، فلتتيز الفرصة ، وطلب ألا يبيت فى شكوى القروى ، استزادة من فصاحته ، على أن تسجل شكاياه وترفع اليه ، يقول الملك لكبير حجابيه : « دع امره يقضى فيه على مهل ، ولا تجبه فى شيء مما يقول ، والزم الصمت حتى لا يكف عن الكلام ، واكتب ما يقوله حتى نسمعه ، على أن تتكفل برزق زوجه وعياله ، وذلك لأن القروى لا يأتي (الى العاصمة) الا بعد املاق » ، وهكذا ، وبناء على توجيهات سيد البلاد فلقد « أعطوه فى كل يوم عشرة أرغفة ، واثاءين من الجبة » ، وقد تمود كبير الحجاب « رنسى بن مرو » أن يعطى ذلك لأحد أصدقائه الذى اعتاد (بدوره) أن يعطيها له (أى الفلاح) كما أرسل كبير الحجاب (رنسى بن مرو) الى شيخ بلدة (حقاقات) « سخمت حموت » ليصنع طعاما لزوجة هذا القروى ، ومقداره ثلاثة مكاييل من الشعير فى كل يوم .

وهكذا يتناغل كبير الحجاب عن الرد على شكايات القروى الفصيح الذى يظن أن أمره قد أهمل ، فتحول من الاستعطاف الى الشكاية ثم الى الشراسة ، وتحول من لين الحديث الى العنف والنقد الصريح ، وتوجه الى « رنسى بن مرو » بشأن شكايات متتابعة ، بعد استعطافه الأول (شكايته الأولى) ، لم يسلم حين تقديدها من الأذى ، وضرب الحجاب ، واهانة الحراس ، ولكنه لم يتخل عن عناده ، واستمر يصر على اسماع صوته للحاكم ، ولو ناله الضرب والأذى ، وعمل على أن يصور فى هذه الشكايات كل مبادئ العدالة الاجتماعية والسياسية والقانونية التى كان يطمح فيها المفكرون فى عصره .

وهكذا أخذ القروى فى شكايته الثانية يحذر « رنسى بن مرو »

قائلا : يا كبير الأمناء يا شريفى ، انك أعظم العظماء ، وأغنى الأغنياء ، أنت الذى تتمثل فيك عظمة العظماء ، وغنى الأغنياء ، انك دقة السماء ، وسارى الأرض ، وحبل الميزان الذى يحمل الثقل ، فيا أيتها الدفة لا تتحرفى ، ويا أيها السارى استقم ، ويا أيها الميزان لا تميل ، ، وحين لا يجد أدفا صاغية فانه يقول : « هل أبجتم للشريف أن يسلب رجلا ليس له ولى ، وينهب رجلا ليس معه أحد ، ان الموت يدرك الغنى ومن فى كتفه على السواء ، فهل أفت حى خالد ؟ أليس من القبح أن تميل الموازين ، وتختل المعايير ، وان ينقلب العادل القويم خبيثا ، ان كبار الموظفين يرتكبون السيئات ، ويحيد القوم عن الطريق السوى ، ويسرق القضاة ، ان الذى ينبغى أن يقسم بالعدل قد أمسى سارقا ، والذى ينبغى أن يقضى الحاجات قد أنزل الحاجة بالناس حتى عم العوز المدينة ، والذى ينبغى أن يستأصل الشرور ، هو نفسه الذى يرتكب المظالم ، ان وازن الحبوب يطفلف غشا ، والذى ينبغى أن يبين سبيل القانون يأمر بالسرقة » .

ثم يقول « ان الإصلاح قد يتم فى ساعة ، ولكن الفساد يكث طويلا وتعود الحسنة الى حيث كانت بالأمس ، وتلك هى الحكمة : عامل بالحسنى من أحسن حتى ينزل محسنا » ، ثم ينبه الى واجبات وظيفته : « فلتكن عصاة للمظلوم ، وليكن شاطئك آمنا ، فان التماسيح تبت فى الأرض من حولك ، وليكن لسانك عادلا ، فلا تفضل سواء السبيل ، اذ يكون جزء من الجسد سببا فى هلاك صاحبه ، لا تقل كذبا ، واحذر كبار أشرافك ، انما يفسد القضاة سلة من فاكهة (يلوح أنه يعنى الرشوة) ، والكذب مرعاهم الخصيب ، وهو بذلك أيسر ما تهوى قلوبهم ، وأنت يا أعلم للناس ، أفتبقى جاهلا بأمرى ، وأنت يا من تجنب الناس كل قحط فى المساء ، ألا فانظر ، ان لى طريقا ليس فيه سفينة ، وأنت الذى تنتشل الغريق ، وتنتقد الهالك ، اهتذنى » .

ثم يضرع اليه فى « شكايته الثالثة » ، ويشبهه بالاله « رع » فيقول : انك أنت رع سيد السماء ، ومعك حاشيتك ، ان بقاء الناس جميعا مرجه

اليك ، أنت فيهم فيض عميم ، أنت « حابى » (حبى) (١٥) الذى تخضر به المراهى ، وترد الأرض المجعدة خصيبا ، ادفع السارق ، واحم المسكين ولا تكن تيارا جارفا على من استجار بك ، اتق دنو الآخرة ، وإذا عاقبت من يستحق العقاب ، فلن يتسامى الى استقامتك أحد ، انظر : هل يختل ميزان اليد ، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون أخرى ، إذا حابى الاله « تحوت » جاز لك أن ترتكب سوء ، كن ثانى هؤلاء الثلاثة ، فان حابوا جاز لك أن تحابى ، لا تجعل السيئة مكان الحسنه ... لا تقل كذبا فانك كبير ، ولا تكن هينا فانك عظيم ، ثم يقول له فى تشبيه لطيف ، وتجسيم للصورة : « أنت رئيس وييدك ميزان ، إذا اختل الميزان فانت مختل ، ولسانك هو لسانه الصغير ، وقلبك صنجته ، وشفطاك كفته ، فاذا أدبرت وجهك شطر الظالمين ، فمن الذى يرد الضلال ، ويرفع العار » .

ويدرك القروى أن شكاياته لا طائل منها ، ومع ذلك يستمر فيها ، ولكنه يشتد على « رنسى بن مرو » فيقول له : « أنت قادر ومقتدر ، وذراعتك طائلة ، ولكن فؤادك قاس ، والرحمة قد تجاوزتك ، وما أتمس المخزون الذى تعظمه ، لكأنك رسول لرب التمساح ، بل انك زدت عن ربة الوباء ، وإذا كان العدم يرتجى منها ، ارتجى منك العدم ، وعندئذ يأمر « رنسى بن مرو » بضرب القروى بالسياط ، فينزعج القروى ويقول : « ضل ابن مرو طريقه ، انه أعمى عما يرى ، أصم عما يسمع ، سادر عما يروى له ، انك أشبه بقرية لا عمدة لها وجماعة لا كبير لها ، وسفينة لا ربان لها ، وعصبة لا هادى لها ، أنظر : انك لى ، حاكم يصادر أملاك

(١٥) يشبه القروى هنا « رنسى بن مرو » باله النيل حبى ، والمعروف أن المصريين قد أطلقوا على النيل (ايترو - عا = النهر العظيم) اسم « حبى » ، على أن حبى لم يكن هو النهر المقدس ، وإنما كان ذلك الاله أو الروح التى تكمن وراء هذا النهر العظيم ، والتى تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء ، وقد صور المصرى هذا الاله فى هيئة بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة فى هيئة صياد سمك يلتجئ باللحبة التقليدية للالهة ، له ثديا امرأة ، ويطن مترهل (محمد بيومى مهران : مصر ٢٩٨/١ - ٣٠٥) .

الفلاحين ، ورئيس مقاطعة وظيفته القضاء على النهب ، ولكنه يصبح نموذجاً لمرتكبيه ، لا تسرق وضيماً أملاكه ، ولا ضعيفاً تعرفه ، ان أملاك الفقير هي أنفاسه ، فمن أخذها منه فقد كتم أنفاسه ، لقد عينت لتسمع الشكايات ، وتفصل بين الخصوم ، وتقضى على اللصوص ، لقد وضع الناس ثقتهم فيك ، فأصبحت معتدياً ، وانما أقمت سداً منيعاً للفقير تحميه من الفرق ، أيها السمير الكبير ، أقم الحق ، ان زارع الشر يروى آثاره بالشر ، ولكن الحق باق أبداً ، وهو ينزل مع فاعله الى العالم الآخر . فلا يحى اسمه من الأرض ، ولكنه يذكر لصالحه ، وذلك ما ورد فى كلام الاله » .

ويستمر القروى فى شكائاته التى بلغت تسعاً ، وفى كل واحدة منها يتفنن فى المطالبة بحقه ، ويذكره بمسئوليته عما حدث له ، ويحذره من غضب الله تعالى عليه لمناصرته الظلم والظالمين ، ثم يقول له فى شكواه الأخيرة : « ان السنة الناس موازينهم ، ان الميزان هو الذى يبين السرقة فعاقب من يستحق العقاب » ، ثم يحذره فى نهليتها قائلاً : « لا تطعم قلبك ولا تخف وجهك عن عرفت ، ولا تكن أعمى عما رأيته ، ولا تنهر من آثاك مستجيراً ، أخرج من بطئك ، واقض ما أنت به قاض ، لا صديق لمن يصم آذانه عن العدل ، أنظر : الى تضرعت اليك ، وما أراك منصتاً لى أنظر : انى سأذهب الآن ، وسأرفع شكواى ضدك الى الاله « أنوييس » .

ويبدأ القروى يسير بعيداً عنه معتزماً تنفيذ ما هدد به ، وهو أنه ذاهب الى أنوييس ، اله الموتى ، غير أن « رنسى بن مرو » سرعان ما يرسل وراءه اثنين من رجاله عادداً به ، وكان خائفاً من أن يعاقبه « رنسى بن مرو » على ما بدر منه فى شكواه ، ولم يصدق فى أول الأمر ، عندما طمأنه « رنسى بن مرو » كبير الحجاب قائلاً : « لا تخف أيها القروى فقد أهملنا شكواك لتبقى معنا ، وسرعان ما يخرج له « رنسى بن مرو » قرطاساً من البردى ، قرأ فيه كل شكائاته ، ثم حمل هذا القرطاس الى الملك « ف كاو رع » الذى سر كثيراً بهذه الشكايات ، وأمر بأن ينتقم

للقروى من ظالميه دون وجه حق ، حتى ليعطى كل أملاك « تحوت -
نخت » ، بل ويسمح له بالإقامة فى العاصمة اهناسيا كذلك .

وقصة القروى الفصيح هذه ، كوثيقة تاريخية ، هامة جدا ، وذلك
لأنها تصور لنا الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة من تاريخ مصر، وتصور
لنا كيف يستغل بعض الموظفين ووظائفهم فى ظلم الفقراء من الناس ، بينما
يعنى كبارهم بتقبل شكوى المظلومين ورد حقوقهم اليهم ، لأنهم هم
المستولون عن ذلك ، وتصور لنا أن الوظيفة الكبيرة ذات المرتب
الضخم ، ليست فى كل الأحوال سياجا تحمى صاحبها من أن يظلم الناس
كما أنها ليست دائما درعا يحمى الفقراء من اضطهاد الحاكمين - وأحيانا
سلبهم أوقاتهم - وتصور لنا كيف ساء الحال ، وأهل الموظفون واجباتهم
وكيف اضطرب الأمن فى الطررق ، وانتشرت السرقات وتفشى الغش
والخداع ، وكيف فسد الحكم ، حتى وصل الأمر الى القضاء فانهرف
عن واجبه المقدس ، وتصور لنا مكانة الثقافة ، أو بعبارة أخرى ، مكانة
الفصاحة ، حتى أن مؤلف قصة الفلاح الفصيح لم يأبه أن يصور فرعون
عصره يستعذب فصاحة قروى من رعاياه ، ويتمنى أن يستزيد منها ،
ثم يأمر بالاحسان اليه فى عاصمته ، دون أن يعرف من هو المحسن اليه،
ودون أن يشعر بفضل أحد عليه فضلا عن الاحسان الى أسرته فى قريتها
والتكفل بأمر معيشتها .

على أن قصة الفلاح الفصيح ، لما تصور لنا - من ناحية
أخرى - كيف أثرت الثورة الاجتماعية الأولى فى المجتمع ، فأعلنت من
شأن الفرد ، وأعطت الفرصة لأهل الناس فى أن يتقدم - بكل جرأة
وشجاعة - ويطالب بحقه المهضوم ، بل ويتهم كبير حجاب قصر فرعون
بتهم أشد قسوة ، لأنه لم يأبه بتطبيق العدالة معه مع أن يعيد إليه بضاعته
التي سلبها إياه أحد موظفى كبير الحجاب هذا ، فهو يمثل به شخص
لا يهمه الا الكسب بأية وسيلة ، حيث يقول له : «أنظر انك غاسل ثياب
نفس ، جشع فى اضراءك بالصدق ، انك كمن يترك شريكه من أجل

عميل ، أفطر انك معداوى لا يعدى الا من كان معه اجرا ، انك تاجر ،
بارت تجارته ، أفطر انك ساقى لذته فى القتل ، وتثويه ما ليس
مسئولا عنه » .

ثم يعبر له عن أن الحكم السلبي الذي لا ينشد بحق فعل الخير ،
لا يمكن أن نسيه حكما . يقول القروى القصيح : « أفطر : انك
أشبه بقرية لا عمدة لها ، وجماعة لا كبير لها ، وسفينة لا ربان فيها ،
وتحالف بلا زعيم ، لقد أقمت سدا منيعا للفقير تحمي من الفرق ، ولكن
أنظر فقد أصبحت البركة التي يفرق فيها الناس » ، ثم يستمر فى شكواه
مناديا بأن الباطل دولته قصيرة الأجل ، أما دولة الحق فللابد ، يقول
القروى : « أفطر : اذا مشى الباطل يفضل الناس الطريق ، انه لا يعدى
فى قارب التعدي ، انه لا يتقدم ، ان الذى يغنى بالباطل لا أولاد له ،
وسيزول ورثته من الأرض ، أما « ماعت » فهي باقية الى الأبد ، وتصحب
من يفعلها الى القبر ، وعندما يموت ، ويدفن لن يسحق اسمه من الأرض ،
فأعماله الخيرة تذكره ، هذا هو المبدأ الذى أمر به الاله » .

وتصور لنا القصة اضطراب الأمور فى البلاد ، والخلل الموظفين ،
وبدهم عن الجادة من الطريق ، وأن اتقاء الشعب هذا الهوان واتقاده
منه ، لن يكون الا على يد ملك عادل حازم ، يماونه جمهرة من الموظفين
الأمناء الأكفاء العدول ، وتصور لنا أمر الخوف من عقاب المنتقم الجبار ،
وكيف كان القروى القصيح يكرر على مسمع رئيس حجاب القصر الملكى
بأنه سيقف يوما أمام الله تعالى الذى سيحاسبه عما فعل لرد الظلم عنه ،
ولارجاع الحق الى أصحابه ، فالحاكم راع مسئول عن رعيته ، مكلف
بالسهر على راحتها ، فان أحسن فله نعم الثواب ، وان أساء وأهمل فسوء
المصير ينتظره فى الحياة الأخرى .

وأخيرا ، فان صاحب قصة القروى القصيح قد شبه العدالة — ولأول
مرة فى تاريخ آداب العالم — بالميزان ، واتخذ من أجزائه استعارات
وأوصاف لنواحي العدالة ، ثم ساد هذا التشبيه فى جميع لغات العالم ،

وقد ظهر بصورة واضحة في القرآن الكريم ، يقول القروي : « تعذ العقاب فمن يستحق العقاب ... انظر : هل يختل ميزان اليد ، أو يميل ميزان القبان من ناحية دون الأخرى ... لا تقل كذبا فالك كبير ، ولا تكن هينا فالك عظيم ، ولا تنطق بالكذب لأن الموازين ... أنت رئيس ويملك ميزان ، اذا اختل الميزان فأنت مختل ، ولسانك هو لسان الصغير ، وقلبك صنعته ، وشفتاك كفته ، فاذا سترت وجهك عن يطفف ، فمن الذي يرد الضلال ، ويرفع العار » .

هذا وقد كان لهذه القصة مكانة عند المصريين ، حتى أنها لقد بقيت معروفة عند الأدباء حتى عصر الرعامسة ، فهناك قطعة بها مقالة مهلهلة لتلميذ كسول ، جاء فيها ما ترجمته العرفية : « أنت في حالة الذي يقول : أنت تقتل ، أنت تسرق حبيبي ، خذ التحذير من في » ، وهنا نجد اقتباسا خاطئا جدا في كلمات الفلاح أو القروي الفصيح التي تقول : ثم قال الفلاح : « أنت تضربني ، أنت تسرق بضاعتي ، وعندئذ خذ الشكوى من في » ، مما يدل بوضوح على أن قصة القروي الفصيح انما كانت تتمتع بشهرة عريضة في المدارس حتى عصر الرعامسة (١٦) .

(١٦) جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ٩٨ - ١٣٥ ، عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ١/٤١٤ - ٤١٧ ، الشرق الأدنى القديم ١/٣٦٢ - ٣٦٥ ، محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ١٥ - ٢١ ، ١٧٠ - ١٧٣ ، مصر ٢/٣١٥ - ٣٢٢ ، سليم حسن ١/٥٦ - ٧٠ ، وكذا

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 183-193.

A. H. Gardiner, JEA, 9, 1923, p. 5-25.

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 407-410.

A. Erman, LAE, 1927, p. 116-130.

O. R. Faulkner, Op-Cit, p. 31-56.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 170-183.

A. M. Blackman, JEA, 20, 1934, p. 218-219.

كانت قصة سنوهى من أحب القصص إلى نفوس المصريين طوال عهد الدولتين الوسطى والحديثة ، وقد وصل إلينا كثير من أجزائها مكتوبا على البردى أو على اللخاف (الاستراكا) ، مما يدل على إقبال الناس عليها ، وبخاصة المدرسين الذين كانوا يملونها على تلاميذهم ، وهناك إجماع بين علماء المصريات على أن قصة سنوهى إنما هى خير ما ورد فى القصص المصرى ، وأنها تتفوق على ما عداها بأسلوبها وتركيبها ولغتها ، وما اجتمع لها من العناصر للقصة الناجحة ، ولم يقتصر أمر الإعجاب بها على علماء المصريات ، بل إن غيرهم من رجال الأدب فى العالم يشاركونهم هذا الإعجاب ، ويذهب بعضهم مثل «روديارد كبلنج» إلى اعتبارها جديرة بأن توضع بين روائع الآداب العالمية^(١) .

وليس هناك من شك فى أن صاحب هذه القصة «سنوهى»^(٢) ، إنما كان شخصية حقيقية ، عاش على أيام الملكين «أمنمحات الأول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق م) مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وولده وخليفته «سنوسرت الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق م)^(٣) ، وكانت مقامراته موضع إعجاب معاصريه ، ومن جاءوا بعده ، وربما كانت نواتها الأولى هى تأريخ حياة سنوهى نفسه ، بغية أن تكتب على أحد جدران قبره ، أو على لوحة تقام فى ذلك القبر ، كما كانت عادة المصريين فى ذلك الوقت .

(١) انظر خطاب «كبلنج» إلى «سير الن جاردنر» المنشور فى كتاب (The Legacy of Egypt, 1943, p. 74)

(٢) الأصل المصرى لاسم «سنوهى» هو «سانهت» أى ابن الآلهة الجميزة ، ونظرا لأن التاء فى آخر الكلمة كانت تسقط ، وأن كلمة الجميزة كانت تنطق «نوهى» فى القبطية ، فقد نطق الكاريون الاوائل اسم «سانهت» ، «سنوهى» ، وهو أنسب نطق للاسم .

(٣) يلاحظ القارئ أن هناك تداخلا فى فترة حكم «أمنمحات الأول» وولده «سنوسرت الأول» ، والسبب فى ذلك فترة الحكم المشترك بينهما ، ذلك لأن مصر إنما عرفت الحكم المشترك على أيام الأسرة الثانية عشرة ، ذلك لأن الضرورة كانت ماسة لاتخاذ احتياطات واسعة للحفاظ على سلطان الملك ، وربما كان أمنمحات الأول فى أوسط العمر ، حين اعتلى العرش ، وقد أشرك معه ولده «سنوسرت الأول» فى العام العشرين (حوالى عام ١٩٧١ ق م) ، وحكما معا حشر سنوات بعد ذلك ، وقد اتبعت هذه السنة

هذا ويختلف المؤرخون في صلة «سنوهي» بالعائلة المالكة ، فهناك من يرى فيه مجرد شلب تربى في البلاط الملكي ، وهناك من يرى أنه يرتبط بالاسرة المالكة برابطه من قرابة ، وهناك من يرى فيه واحدا من رجال البلاط في عهد الملك أمنمحات الاول ، ولكنه كلن من الحزب المعارض للملأير «سنوسرت الاول» ، بل ان هناك من يرى فيه أحد أبناء الملك من أم غير ملكية^(٢) ، ويبدو لى أن «سنوهي» انما كان واحدا من رجال البلاط المشهورين في عهد أمنمحات الاول ، وأن هناك حزبا كان يعارض في تولية سنوسرت العرش ، بعد أبيه «أمنمحات الاول» (سحتب ايب رع) ، وأن سنوهي كان واحدا من رجال هذا الحزب الاقوياء ، حتى رأينا «سنوسرت الاول» يصحبه معه في حملته على ليبيا ، ربما خوفا منه ، وربما اضعاغا للحزب المعارض له عند غياب سنوهي *

وعلى أية حال ، فالنص الكامل لهذه البردية محفوظ في برديتين بمتحف برلين ، الاولى برقم ٣٠٢٢ ، والثانية برقم ١٠٤٩٩ ، وقد قام بنشر البردية جاردنر^(٥) وبلاكمان^(٦) وبارنز^(٧) ، وزيت^(٨) ، كما قام بترجمتها

بعد ذلك طوال عهد الاسرة الثانية عشرة ، ومع ذلك فربما لم يكن ذلك في بداية الامر تجسيدا كاملا ، لان لدينا ما يشير الى أن «ببى الاول» من الاسرة السادسة ، ربما فعل مثل ذلك الامر من قبل ، وأما في عصر الدولة الحديثة فقد ثبت فيه قيام عدة حالات من الحكم المشترك ، حدث ذلك بين بعض ملوك الاسرة الثانية عشرة والتاسعة عشرة (انظر :

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 97, 129.

D. B. Redford, History and Chronology of The Eighteenth Dynasty of Egypt, Tronto, 1967, p. 24-28)

J. H. Breasted, ARE, II, 1927, p. 74.

(٤) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٢١٥ ، تاريخ الحضارة المصرية القديمة ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وكذا

A. H. Gardiner, Op. Cit, p. 131.

A. H. Gardiner, Die Erzählung des Sinuhe und Hirengschichte, 1909. (٥)

A. M. Blackman, The Story of Sinuhe, BA, II, Brussels, 1932, p. 1-41. (٦)

J. W. B. Barns, The Ashmolean Ostrakon of Sinuhe, London, 1932. (٧)

K. Sethe, Lesestücke, p. 3-17, Idem, Erl, p. 5-21. (٨)

وتحليلها والتعليق عليها — كليا أو جزئيا — كثير من علماء المصريات ،
 من أمثال سير الن جاردنر^(٩) ، وهرمان جرابو^(١٠) وأدولف ارمان^(١١)
 وجوستاف لوفيفر^(١٢) وايدل^(١٣) وجون ويلسون^(١٤) وبوزنر^(١٥) وألت^(١٦)
 وبلاكمان^(١٧) ودي بك^(١٨) وبرونز^(١٩) وجدكه^(٢٠) وجان يويوت^(٢١)
 وبارنز^(٢٢) وكليز^(٢٣) وسحبسون^(٢٤) وغيرهم^(٢٥) ، هذا فضلا عن
 الترجمات العربية ، جزئيا أو كليا^(٢٦) .

A. H. Gardiner, Notes in The Story of Sinuhe, Paris, 1916. (٩)

H. Grapow, Der Stilistische Bau der Geschichte des Sinuhe, Berlin, 1952. (١٠)

A. Erman, LAE, 1927, p. 14-29. (١١)

G. Leobvre, Op-Cit, p. 1-28. (١٢)

E. Edel, in Textbuch zur Geschichte Israel, Tubingen, 1968, p. 1-12. (١٣)

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 18-22. (١٤)

G. Posener, Literature et Politique dans l'Egypte de la XIIIe dyansty, Paris, 1956. p. 87-115. (١٥)

A. Alt, ZAS, 58, 1923, p. 48-50, Idem, PJ, 37, 1941, p. 19 F. (١٦)

A. M. Blackman, JEA, 16, 1930, p. 63-65. (١٧)

A. de Buck, Griffith Studies, p. 57-60. (١٨)

H. Brunner, ZAS, 80, 1955, p. 5-11, Idem, ZAS, 91, 1964, p. 139-140. (١٩)

H. Goedicke, JEA, 43, 1957, p. 77-85, Idem, JEA, 51, 1965, p. 29-47. (٢٠)

J. Yoyotte, Kemi, 17, 1964, p. 69-73. (٢١)

J. W. B. Barns, JEA, 53, 1967, p. 6-14. (٢٢)

J. Clere, JEA, 25, 1939, p. 16-29. (٢٣)

W. K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 57-74. (٢٤)

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 222-235. (٢٥)

G. Lanczkowski, MDIK, 16, 1958, p. 214-214-218. وكذا

W. Westendorf, Schott Festschrift, p. 125-131. وكذا

(٢٦) سليم حسن : المرجع السابق ص ٣١ - ٤٦ ، أحمد فخري :
 المرجع السابق ص ٣٨٣ - ٣٩٠ ، عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص
 ٣٦٢ - ٣٦٥ ، عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ١٧٨/١ ، ٣٤٣ -
 ٣٤٤ ، محمد بيومي مهران : مصر ٢/٣٤٥ - ٣٤٧ ، أحمد بدوي : في
 موكب الشمس ١٠٥/٢ - ١٢٠ .

وتبدأ قصة سنوهى كالتالى : «الحاكم الامير ، مدير املاك الملك فى بلاد الاسيويين ، صديق الملك بحق ومحبيه ، الرفيق سنوهى يقول : كنت رفيقا يتبع مولاه ، وخادما للحريم الملكى للسيدة العظمى ، التى يكثر (الناس) من مدحها ، الزوجة الملكية لسنوسرت فى «خنم سوت» ، والابنة الملكية لامنمحات «كانفرو»^(٢٧) الملكة نفرو المبهلة » .

السنة الثلاثون، الشهر الثالث من فصل الفيضان، اليوم السابع ، صعد الاله الى أفقه ، ذهب ملك مصر العليا والسفلى ، سحبت ايب رع ، الى السماء ، واتحد مع الشمس ، وامتزج جسد الاله بمن خلقه ، فصل المصمت بلعاصمة ، وغلقت أبواب القصر ، وجلال الحزن القلوب ، وجلس رجال البلاط ورؤوسهم بين سيقانهم ، وحزن الناس » .

وكان جلالته قد أرسل جيشا الى أرض «التحنو»^(٢٨) فى ليبيا ، وكان على رأسه ولده الاله الطيب سنوسرت الذى أرسل ليضرب البلاد الاجنبية ، وليقوم باسر السكان فى أرض تحنو ، وكان فى طريق العودة ، ومعه أسرى احياء من التحنو ، وأنواع من الماشية بغير عدد ، وأرسل رفقاء القصر الى الجبهة الغربية لينهوا الى ابن الملك امر الموقف الذى جد فى القصر الملكى ، ولقيه الرسل على الطريق ، وكانوا قد وصلوا ليلا غلم يتكأ لحظة ، طار الصقر مع أتباعه ، دون أن يدع جيشه يعلم بالامر ، وأرسل فى طلب أبناء الملك الذين كانوا يصحبونه فى هذا الجيش ، ثم استدعى واحدا منهم » .

وكان سنوهى شابا نشىء فى القصر الملكى ، وتصادف أن كان واقفا حين أنهى السر الكبير ، فذعر أشد الذعر ، وأصابته القشعريرة كل أعضاء جسده ، ومن ثم فقد أخذ يعدو ليجد له مضبأ ، وسرعان ما وجده أخيرا

(٢٧) خنم سوت : اختصار من «خبر كارع خنم سوت» ، ومعناها «خبر كارع» (اسم سنوسرت الاول) هو الذى يضم نفسه الى اماكنه وهو اسم هرم هذا الملك فى منطقة اللشت، واما «كانفرو» فهو اسم هرم امنمحات الاول فى نفس المنطقة .

(٢٨) انظر عن «التحنو» (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث - الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٣٧ - ١٤٥) .

بين شجرتين ، ولعل ذلك انما يشير الى أن سنوهى انما كان هواليا لحزب يعارض فى تولية «سنوسرت الاول» عرش الكنانة بعد أبيه ، فلما علم بوفاة «أمنمحات الاول» - وهو فى قبضة سنوسرت - فر الى الشرق ، فقد خشى أن يصيبه الاذى ، بعد أن فقد أكبر معين له فى القصر وحام ، وربما خشى أن تنشب فتنة على العرش فى العاصمة ، يعز عليه أن يلتزم الجانب المصلح فيها ، فأثر البعد بنفسه ، واستخفى عن الجيش واعتزله ، وتخطى الحدود الشمالية الشرقية وهيدا . وربما كان فى بلاط أمنمحات الاول جنلحان ، الواحد على رأسه سنوسرت ، والاخر ، ربما زوجه التى لم تكن شقيقته ، ولكنها صاحبة الحق فى العرش ، وأن واحدا من أخوتها - من أبناء الاسرة الملكية السابقة - كان يناهس سنوسرت على العرش ، وأن سنوهى كان من أنصار الحزب الثانى ، فلما أخفق حزبه هذا ، وانتهت ولاية العرش الى سنوسرت خشى على نفسه ، وفر الى فلسطين .

وأيا ما كان الامر ، فان سنوهى قد واصل غرابه على طرف الصحراء ، فبلغ رأس الدلتا فى اليوم التالى ، وما يكاد يفعل حتى يقع على زورق على متن النهر ، وظلت تدفعه حتى بلغ محاجر الجبل الاحمر من وراء العباسية ، ممضى وجهه شمالا ، حتى بلغ حصنا يقال له «قلعة الحاكم» بالشاطيء ، وما يكاد يركبه حتى هبت ريح من المغرب فدفعته فى غير عسر أو «سور الامير» (١٩) ، ثم يستأنف سنوهى حديثه قائلا : هناك خبأت

(٢٩) بدأ أمنمحات الاول فى تنفيذ سياسة السلام المسلح القائم على التحصين واليقظة ، فاهتم بحدوده الشرقية ، ونعرف من «نبوءة نفرتى» انه قضى النصف الاول من حكمه فى طرد البدو الاسيويين الذين نزحوا الى الدلتا واستقروا فيها ، خلال فترة الاضطرابات التى كتب على البلاد أن تعيشها فى آخريات أيام الاسرة الحادية عشرة ، ورغبة من الفرعون فى عدم عودة الاسيويين مرة أخرى الى الدلتا ، فقد شيد أمنمحات الاول سلسلة من الحصون على حدود الدلتا الشرقية ، عرفت باسم «أسوار الحاكم» أو «قلعة الحاكم» ، ورغم أننا لا نعرف على وجه اليقين : أين كانت تقع تلك الاسوار ؟ غير أن ذكرها مرتين انما يكفى لجعلنا ندرك مدى الخطر المتوقع من هذه الناحية ، وهى ، على أية حال ، سلسلة من الحصون والتحصينات اقيمت للإشراف على الممرات التى تؤدى الى داخل مصر من ناحية حدودها الشرقية الشمالية ، وربما كان أكثرها فى وادى طميلات (محمد بيومى مهران : مصر ٢٨٧/٢ - ٢٨٨ ، وكذا

J. Vercoutter, in the Near East, London, 1967, p. 361-362.

نفسى بين الحشائش ، فقد خشيت أن يرانى الحارس المكلف بالمراقبة فى ذلك اليوم» ، ولما أمن عين الرقيب واصل سيره بالليل ، وعند الصباح بلغ البحيرات على طريق السويس ، وهناك غلبه الظما ، وجف حلقه ، يقول سنوهى : «لو عندما وقفت فى جزيرة «كم ور» (احدى البحيرات فى برزخ السويس) ، وقعت فريسة العطش ، فاكثويت بناره ، وجف حلقى ، وقتلت لنفسى : هذا هو طعم الموت ، ولكن قلبى انتعش ، وجمعت أعضاء جسمى ، عندما سمعت خوار الماشية ، ورأيت بعض البدو ، وعرفنى شيخ من بينهم ، كان قد زار مصر ، فأعطانى ماء ، وطبخ لى لبنا ، وذهبت معه الى قبيلته فأحسنوا معاملتى» .

ويستمر «سنوهى» فى قص مغامراته ، فيذكر لنا أن بلدا أسلمه الى بلد ، حتى وصل الى «جبيل» شمالى بيروت ، ثم غادرها الى «كوى» ، حيث أمضى بها ستة شهور ، ويبدو أن سنوهى كان يعرف تلك البقاع ، وكان يعرف بعض أهلها ، وفى ذلك ما يشير الى وجود صلة بين مصر وبين بقاع الشرق الأدنى القديم ، ولا غرابة فى ذلك ، فمصر كانت على اتصال دائم بجيرانها من قبائل الشرق ، تبعث بسفنها الى سواحل لبنان لاهضار الخشب من غاباتها — كما فعل سنفرو مؤسس الاسرة الرابعة — وترسل البعثات على البر والبحر لضرب المغيرين على حدود الوادى من بدو الصحراء — كما حدث فى حملة «لبنى» على أيام الاسرة السادسة — .

ويتجه سنوهى بعد ذلك الى مكان آخر يقضى فيه أيام منفاه — بعيدا عن سلطان الملك الجديد — يتجه الى «رتنو العليا»^(٣٠) ، وهى بلاد ينبت فيها التين والعنب وأشجار الزيتون ، فضلا عن الشعير والقمح ، وكان فيها أيضا قطعان الماشية ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت هروية من الصحراء

== A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105).

(٣٠) بلاد رتنو : هو الاسم الذى كان يطلق على فلسطين وسورية فى ذلك الوقت ، وربما كان المكان الذى استقر فيه سنوهى يقع الى الشرق من جبيل ، وعلى الأرجح فى «البقاع» على الطريق الرئيسى بين الشاطئ ودمشق .

وكان يمكن الصيد فيها ، وكان هناك مصريون آخرون يعيشون في تلك المنطقة ، وربما كانوا منفيين مثل سنوهى ، وعلى أية حال ، فإن سنوهى رغم أنه كان آمنا من أن يوقع به فرعون أى عقاب ، فإنه كان يكرم وفادة ناقلى الرسائل المصريين الذين كانوا يسافرون جيئة وذهابا ، الى العاصمة المصرية (المشت) ، ولعل ذلك انما يشير الى أن الارض التى اختارها سنوهى لنفاه ، انما كانت تقع قريبا من الطريق الرئيسى بين لبنان وشرقى سورية .

وعلى أية حال ، فبعد نزل سنوهى ضيفا على «عاموننشى» أمير رتنو العليا ، الذى حجب اليه الإقامة في جواره ، حيث قال له «ولسوف تجد ادى ما يطيب لك ، وتسمع عندى أخبار مصر» ، ويدهى أن الرجل لم يقل ذلك الا لانه عرف قدر سنوهى وقيمته في قصر فرعون ، فهو قد سمع عنه من أولئك الذين كانوا يقصدون وطنه أو يمررون به من أبناء البلاد ، وفي ذلك ما يدل على شهرة سنوهى التى لم يبلغها الا لانه كان يخدم في بلاط فرعون ، وأن أثر فرعون في بقاع الشرق قد كان عظيما ذا خطر .

ويمضى سنوهى في قصته فيقول : هنالك سألنى الرجل ، ما الذى جاء بك الى هنا ، هل وقع شيء في القصر ؟ فقلت : ان الملك أمنمحات قد لحق بالرفيق الاعلى ، وما يدرى امرؤ ماذا يكون بعد ذلك ، ونبأته مراوفا أننى تلقيت خبر ذلك عند عودتى من ابيدان الليبى ، فهلع فؤادى وطار ابنى ، وسرت على غير هدى ، أهيم مدلجا في رمال الصحراء ، ومع ذلك فلم يش بى انسان ، ولم يتجسس على أحد» ، وفي مقالة سنوهى هذه مايكفى دليلا على أنه كان صاحب أثر في شيء ما يتعلق بأخطر أمور القصر ولم يكن هناك أخطر من تلك المؤامرة التى دبرت لقتل الملك ، واقصاء سنوسرت عن العرش ، وليس معنى ذلك أن سنوهى قد شارك في تدبير قتل الملك ، أنظر اليه ، اذ يقول : «لم يش بى انسان ، ولم يتجسس على أحد» ، فالرجل قد ظل مراقبا بعد أن آلت ولاية العهد الى سنوسرت ، وكان يعلم أن من ورائه أناسا يراقبون حركاته ، وأن حياة الملك الشيخ كادت حرزه الوحيد ، ومن ثم فقد أكثر سنوسرت أن يأخذه معه الى ميدان القتال ، ليجعله تحت عينيه ، وليأمن أثره في القصر ، كما أشرنا آنفا .

وعلى أية حال ، فلان سنوهى ، بعد أن قص خبر وفاة أمنمحات ، وتولية سنوسرت خلفا له على عرش الفراعين ، انما يببالغ كثيرا فى مدح المعامل الجديد ، أملا فى أن يصل ذلك الى فرعون عن طريق أولئك الذين يجيئون الى فلسطين ، وينزلون ضيوفا على هذا الشيخ البدوى ، ثم يستطرد مع الشيخ فى حديثه عن نشاط الملك سنوسرت الاول وقدراته الحربية ، وضربه البدو الرحل ، ثم هو بعد ذلك يحاول أن يكون سفيرا لفرعون ، ولمصلحة مصر ، مما يدل على حبه والخلاصه لوطنه ، أيا كانت ظروفه ، فيقول للشيخ البدوى : «أرسل اليه عليك أن تعرفه باسمك ، ولا تقل شيئا ضد جلالته ، ولا شك أن جلالته سيعمل الخير لكل قطر يناصره» ، ثم يقول : ان مصر ستسعد فى أيامه .

وببالغ الشيخ البدوى فى أكرام سنوهى ، فينزله أكرم منزل ويوجعه على رأس أبنائه جميعا ، ثم يزوجه من كبرى بناته ، «ويهبه بعض أملاكه» ، فيقطع له بقعة من أحسن بقاع أرضه ، فيها تين وأعناب ، وفيها الخمر أكثر من الماء ، عسلها وفير ، وزيتها كثير ، وشجرها يحمل أطيب الثمر ، وفيها القمح والشعير ، وفيها الماشية يخطئها العدد من كل نوع» ، ثم يعينه قائدا لجيشه الملقى «عندما أصبح الاسيويون جريئين الى الحد الذى جعلهم يقررون مقاومة حكام البلاد الاجنبية ، كنت أقدم المشورة فى تمركلتهم» ، وربما يشير سنوهى بذلك — فيما يرى جون ويلسون — الى خطر معين جديد تعرض له الشرق الأدنى ، وهى مجىء جمافل مكونة من أجناس مختلفة ، من أقوام رحل ، انحدروا من الشمال ومن الشرق ، وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم «الهكسوس» ، فالكلمات المصرية لجملة حكام البلاد الاجنبية هى «حقاو — خسوت» ، وهى الاصل الذى اشتقت منه كلمة «هكسوس» ، ويتضح من الاشارة الى هجماتهم على الاسيويين المستقرين أن هؤلاء الغزاة كانوا ينحدرون من بلادهم متجهين الى الجنوب مخترقين سورية وفلسطين .

وهكذا لجأ سنوهى الى رتنو العليا فارا من سوء يحتمل أن يصيبه ، ولكنه لم ينس حبه لمصر وفرعون ، ومن ثم رغم الضيافة الطيبة ،

واللقاء الحسن ، والاقامة المريحة ، فاننا سوف نرى فيما بعد أنه يفضل العودة الى أرض النيل الطيبة ، كما أنه لم يتكلم بسوء ضد أحد ، وأما الكرم الذي لقيه من الشيخ البدوي ، فمرد ذلك أن الكرم وحسن الضيافة من طباع العرب الاصيلية ، وأهل البقاع الذين نزل عندهم سنوهي من هؤلاء العرب ، فضلا عن أن الشيخ البدوي انما قد أحس مما رآه من سنوهي أنه مدير ماهر ، أحسن تدبير ضيعته فأفاد منه اقتصاها ، كما كان يأمل ، ان عاد سنوهي الى مصر ، فيصبح صاحب مكانة ، وعندئذ سيذكره عند فرعون ، ومن ثم فإن الشيخ البدوي قد غنم غنما سياسيا بايوائه رجلا من بلاط فرعون ، وغنما أدبيا اذ زوجه من إحدى بناته ، وغنما اقتصاديا اذ أدار له مزرعته ، وغنما حربيا اذ استخدمه في كثير من الدفاع أو الهجوم على بعض الضياع ، وقد كان سنوهي بطلا ، وكثيرا ما نازل بعض فتيان القبائل فقهرهم ، وان عرضه ذلك لكثير من الاخطار .

وهكذا يحدثنا سنوهي أنه في يوم من الايام تحداه بطل من «رتتو» ، عرف بقوته وخضع له الناس ، وقد أقسم أن ينازل سنوهي ويقتله ، واستدعاه الشيخ البدوي وأبلغه بذلك ، فرد سنوهي : «اننى فى الحقيقة لا أعرفه ، ولست من ذويه ، ولم أذهب أبدا الى مضرب خيامه ، هل فتحت يوما بلبه ؟ هل هدمت سوره ؟ كلا انه الصمد ، لانه يرائى أنفذ ما تطلبه» ، ثم يفتن سنوهي حديثه الى صهره بقوله : « وما كنت الا كثور لقي رزقه فى غير مرعاه ، واننى لغريب لا يحبه أحد ، ومع ذلك ان كان هذا الفتى يقدر أنه غطل يهوى الصراع ، فاننى غطل نزال أيضا ، ولست أخشى لقاءه ، فاذا ما كانت نفسه تهوى الى النزال فليعمل اذا ما يريد» .

وليس هناك من شك فى أن تحدى هذا الفتى قد أغزع سنوهي وروع قلبه ، واقض مضجعه ، وأرق نومه ، فغزع الى مضيفه وصهره يشكو اليه أمر ذلك ، راجيا أن يستغل نفوذه فى رد الفتى عن منازلته ، ويبدو لى أن ذلك انما كان لكبر سن سنوهي ، وربما لانه أراد ألا يجعل بينه وبين إحدى القبائل المجاورة ثارا ، وأيا ما كان الامر ، فلننا نراه — وقد

أصر الفتى على منازلته ، يستعد للمراك دون خوف ، فلما جن الليل شد قوسه ، وجهاز سهامه وخنجره ، حتى اذا ما أصبح الصبح ، وحن موعد اللقاء ، وراه أهل الحى فى عدته وعتاده ، عطفوا أفئدتهم عليه ، واحتاجت لأمه نساء الحى ، وأشفقت عليه القلوب جميعا ، وبدأ الناس يثرثرون : أليس هناك رجل شجاع آخر يستطيع أن ينزل هذا الفتى •

وجاءت ساعة النزال ، والتقى الخصمان فى ميدان القتال ، وبدأ البطل الاسيوى فى اطلاق سهامه ، فتفادها سنووى ، ثم اقتربا من بعضهما ، وهجم الواحد منهما على الآخر ، واستطاع سنووى أن يطلق سهما استقر فى عنق غريمه ، فصاح وخر على وجهه ، ثم أهوى عليه بفأس فحضى عليه ، ثم وطئه بقدميه ، يهدئنا صاحبنا البطل المصرى عن ذلك بقوله : «وعندما اقترب كل منا من الآخر ، هجم على فأصبته ، واستقر سهمى فى عنقه ، فصرخ وارتمى على أنفه ، فأجهزت عليه بفأس قتاله ، وصرخت صرخة النصر ، وقد وقفت فوق ظهره» •

وهنا خج الاسيويون جميعا ، بينما أخذ سنووى يصلى شاكرا لرب الحرب «مونتو» ، وهنا أقبل صهره ، «عاموننشى» ، فضم سنووى الى صدره ، ثم أعلن نصره على خصمه ، فذهب متاعه وسلب أنعامه ، وأنزل به ما قدر لخصم أنه غافل به ، وأخذ كل ما كان فى مخيمه ، ونهب جميع ما كان فى منزله ، ثم يختم سنووى وصف هذا الحادث بالاشعار التالية :

فى يوم من الايام كنت أحد الهاربين —

ولكن صيتى الآن قد وصل الى القصر

فى يوم من الايام كنت ثقيلا أتضاعل بسبب الجوع —

والآن أعطى الخبز لجارى

فى يوم من الايام ترك شخص بلده بسبب العرى —

والآن اتلألا فى بيض الثياب وفى ملابس الكتان

فى يوم من الايام كنت اسرع السير لانه لم يكن لدى من أرسله —

والآن لدى عدد كبير من الأرقاء

ان بيتى جميل ومسكنى رحب — ويذكرنى الناس فى القصر

وتستد لوعة سنوهى الى ارض الكنانة — الى مصر وطنه الحبيب —
ويتمنى أن يראف الله تعالى به ويعيده الى القصر الملكى فى اللشت ، يبدو
ذلك واضحا من قوله : «يارب هل قدرت لى أن أرى الديار التى أحب ،
فليس أعظم عندى من أن أقبر فى الارض التى ولدت فيها ، معونتك اللهم
وعسى أن يكون الفرج قريبا ، وعسى ربى أن يرزقنى من فضله ، ألا غليغفر
لى فرعون حتى استطيع العيش فى ظله ، وحتى أمتع نفسى بخدمة ربة
القصر» •

ويصل رد الفرعون لسنوهى : «عد الى مصر حتى ترى الارض التى
ولدت فيها ونشأت ، وقبل الارض عند البوابة الثنائية العظمى ، والتحق
بالبلاط ، لقد هرمت الآن ، وعز نشاطك ، فتذكر يوم الدفن ، وليلة اعداد
الطيوب والاكتان ، ويوما يعد لك فيه موكب متهود ، وتلبوت ذهبى
بقناع من لازرد ... لا ينبغي أن تموت فى بلد غريب ، ولا ينبغي أن
يفرك البدو ، أو أن تكفن فى جلد ثاة ، هذا ليس لأوان الطواف فى
الارض ، فعد واحذر المرض» •

ويقول سنوهى أن الامر الملكى قد وصله ، وهو بين رجال قبيلته ،
والرى عليه ، فاستدت ممرحته ، ونسى فى تلك اللحظة فضل تلك البلاد
عليه كل هذه السنين الطويلة ، «فارتميت على بطنى وأمسكت التراب
وعفرت به شعرى ، وأخذت أجرى بين المساكن فرحا ، وأنا أقول : كيف
تحدث كل هذه الاشياء لأخادم أضله فؤاده ، فأتى الى بلاد متوحشة» ،
ثم يسرع سنوهى فى الرد على الملك «سنوسرت الاول» ، شاكرًا له فضله ،
مؤكدًا له ، مرة أخرى ، أن هربه من مصر لم يدبره ، ولم يفكر فيه :
«لست أدرى ما الذى جعلنى أفارق مكانى ، كان ذلك أشبه بالطعم ، كما
يحدث لشخص من أهل الدلتا عندما يرى نفسه فجأة فى «اليفانتين»
(جزيرة أسوان) ، أو أن شخصا من المستنقعات (فى الدلتا) يرى نفسه
فى النوبة ، لم يكن هناك ما أخافه ، ولم يضطهدنى أحد ، ولم أسمع قولا
جارحا» •

على أننا نقرأ فى نفس الرد شيئا آخر ، لقد هاجر سنوهى الى بلاد

«سورية — فلسطين» وكون لنفسه هناك مركزا ممتازا ، وأصبح كل ولد من أولاده زعيم قومه ، كما ارتبط برباط المودة مع كثير من الزعماء ، وفي خطابه هذا ، انما يعتبر نفسه وكأنما هو يحكم باسم ملك مصر ، ويستأذن سنوهى سنوسرت في العودة الى مصر ، ويقول له : أنه ترك عمله هنا تنفيذا لرغبة جلالته ، ويوصيه خيرا ببعض أمراء البلاد الذين كانوا موالين دائما لملك مصر ، ويسأله أن يدعوهم اليه .

ويعود سنوهى الى سرد قصته مرة أخرى ، فيقول : انه بعد أن تلقى عفو الملك عنه والسماح له بالعودة الى مصر ، لم يمكث الا يوما واحدا في «نيا» ، فأوصى بأملكه لأولاده ، وأقلم كبيرهم شيخا على الحى ، وعهد اليه بكل شئونه هناك ، وعندما وصل سنوهى الى «طريق حور» من وراء الحدود المصرية ، بحث ضابط الحدود بأمره الى فرعون ، فبعث فرعون بسفائن له تحت اشراف رجل من أمهر رجاله وحملها كثيرا من الهدايا الى أولئك الاعراب الذين رافقوا سنوهى ، والذين قدمهم فردا فردا الى الموظفين المصريين الذين جاؤا من القصر ، ثم ودعهم وعاد مع رجال فرعون الى القصر الملكى فى العاصمة .

وفى الصباح المبكر جاءه من القصر من يدعوه ، فسرعه أن يرى فى ركابه عشرات الرجال يرحلون ويقعدون بأمره ، وكان أبناء الملك ينتظرونه عند الباب الخارجى ، فلما دخلوا به الى قاعة العرش ، يقول سنوهى : ووجدت جلالته فوق عرشه العظيم فى البوابة الذهبية ، وعندما ارتفعت على بطنى ، تولى عنى ذكائى فى حضرته ، بالرغم من أن ذلك الاله (الملك) قد خاطبنى برفق ، فقد كنت كرجل خطفوه فى الظلام ، غرت روحى ، وارتعش جسدى ، ولم يعد لقلبى وجود فى جسمى ، ولم أعد أعرف أكنت حيا أم ميتا» ، ولعل ذلك انما يشير الى أن سنوهى انما كان جليزا يشعر بجبريته ، ويص لذلك ألما لاذعا أفقده صوابه فى حضرة فرعون ، وسواء أصبح هذا أم لا ، فان فرعون سرعان ما أمر بانهاضه ليتحدث اليه قائلا : «ها أنت قد عدت إلينا بعد أن طفت بأقطار الأرض ، والآن بعد أن بلغت من الكبر عتيا ، فلا أقل من أن يدفن جسدك فى أرض الوطن ، بدلا من أن يدفنه براهبة الامسيويين فى أرضهم» .

ويتحدث سنوهى بعد ذلك عن كرم الفرعون وعطفه — بعد أن طلب إليه أن يتحدث — فيصف كيف أنه لم يستطع أن يتحدث في سهولة : ما الذى يقوله لى سيدى ، ليتنى أستطيع الاجابة فلننى لا أقدر ، وأخيرا أمر فرعون بإدخال الاطفال الملكيين ، وقال للملكة : أرأيت كيف تغير سنوهى ، فأصبح كأحد الاسيويين ، فصرخت الملكة : وصرخ الاطفال الملكيون جميعا ، وقالوا لجلالته : انه ليس هو حقا يا سيدى الملك ، فرد الملك : انه هو حقا ، والواقع انه ليس عجيبا أن تنكر الملكة ، وأن ينكر الامراء مظهر سنوهى ، ذلك لانهم انما كانوا ، منذ أن سمعوا بقصته ، يقدرون أن يروا شيخا مصريا ، كانوا يعلمون مكانه من الماضى ، ويحسون ما كان له من هيمة وخطر ، فلما رأوه فى القصر رأوا شيخا بدويا ، أغمى أغبر أشعث ، أضناه البعاد ، وأتعبته الهموم ، وأحنت السنون ظهره ، ومن ثم فقد طلبوا أن يمنحهم «ذلك الشيخ ابن كلمة الشمال ، ذلك الهمجى الذى ولد فى مصر ، انه فر خوفا منك ، وترك البلاد رهبة منك ، ولكن الوجه الذى يرى جلالتك لن يجزع بعد ذلك ، والعين التى تقع عليك لن تخلف» .

ويرد الملك على أبنائه بأن سنوهى لن يخاف ولن يجزع بعد اليوم ، وأمر بتعيينه أمينا من أمناء القصر ، وجعل مكانه بين كبار الموظفين فى البلاط ، ويصف سنوهى بعد ذلك ما حدث له ، وكيف أخذوه الى بيت أحد الامراء ، وأعدوا له حماما ، وكيف عطروه والبسوه غلخر الثياب ، وكان الخدم يلبون كل اشارة له ، «وجعلوا السنين تغادر جسمى وانسلخت عنى ، وسرحوا شعرى ، وألقوا الى الصحراء الى الصحراء بحمل من القاذورات ، وألقوا بملابسى الى ساكنى الصحراء ، والبسونى أغبر الثياب ، وعطرونى بأحسن أنواع العطور ، ونمت على سرير ، وتركت الرمال لن هم فيها ، وزيت الخشب لم يلطخ نفسه به» ويطيل سنوهى فيها أعقد عليه الملك ، اذ أعطاه بيتا يليق بأحد أمناء القصر وزينه له ، ورتب له طعما من القصر «يأتون به ثلاث مرات وأربع مرات فى اليوم الواحد» ، ويصدر الملك أوامره الى كبير مهندسيه بلقامة مقبرة له ، وعينوا لها أمير الصناع ، وانتقوا أحسن الاثاث الجنازى ، وعينوا لها الكهنة اللازمين ، وأوقفوا

لها الحصول اللازمة ، ووضعوا له في المقبرة تمثالا منقش بالذهب ، وكانت نقبة ذلك التمثال مصنوعة من الذهب الخالص ، وأخيرا يختم سنو هي قصته قائلا : كان الملك هو الذي أمر بعمل ذلك ، ولم يحدث أن عملت هذه الاشياء لرجل بسيط مثلي ، وهأنذا أعيش يعمرني فضل الملك حتى يحين يوم وفاتي» .

واننى لأظن أنه يجب علينا — قبل مناقشة القصة وتقويمها كمصدر تاريخي — أن نناقش الدوافع التي كانت من وراء هروب «سنو هي» ، ومن ثم كتابة القصة نفسها، كان سنوسرت الاول اكبر أبناء الملك أمنمحات الاول ، ما في ذلك من ريب ، وربما ولد له حين كان يشغل منصب «الوزير» في بلاط المناطة من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، فلما دفعت الحوادث بأمنمحات الاول الى عرش الكنانة، جعلت منه ملكا لمصر العليا والسفلى، تزوج بامرأة أخرى — في غالب الظن — ولعلها كانت أرملة آخر فرعون المناطة ، ولعلها كانت إحدى أميرات البيت الملك الزائل ، تستطيع أن تجعل عرشه شرعيا — من جانب حزب الوراثة — وكان صاحبنا ، في أغلب الظن ، من أتباعها ، ثم رزقت بأبناء أصبحوا أصحاب الحق الشرعي في العرش المصري .

وهنا أصبح الموقف صعبا بالنسبة للامير «سنوسرت» ، فهو اكبر أبناء أبيه جميعا ، وهو قد شارك في جهاده العظيم ، حتى انتهى به الامر الى العرش ، في الوقت نفسه ، لم يكن صاحب الحق الاول في العرش ، وربما فكر أبوه في أن يجعل منه وليا للمهد ، ولكنه خاف أن يعطى ذلك ، خشية أن يخالف قانون الوراثة المعروف ، وليس من المستبعد أن تكون الاميرة التي تزوج منها أمنمحات الاول قد أحست بما انطوت عليه نفسه، وأدركت ما سوف يكون عليه مصير ولدها ، فامتلات نفسها ثورة عليه ، وشاركتها في ثورتها هذه ولدها ومن معه من الموالين والانصار ، وهكذا كانت المؤامرة المشهورة على أمنمحات الاول ، وحين خطب ظنهم وغشل سعيهم ، وانكشف أمرهم ، جمع الملك شجاعته ، وأعلن سنوسرت وليا للمهد ، وشريكا في الحكم ، وان كان هناك ما يشير الى أن مشاركة

سنوسرت الاول أباه في ادارة شؤون البلاد ، انما كانت طوال الاعوام
 العشرة الاخيرة من حكم أبيه ، أى منذ عام ١٩٧١ ، كما أشرنا من قبل .
 وعلى أية حال ، خلست اعتقد أن سنوهى قد شارك المتآمرين في قتل
 أمنمحات الاول ، ذلك لانه قد نجح فيه ، حين صعدت روحه الى بارئها ،
 ولم يأمن عواقب موته ، ومن ثم فقد كان هروبه الى فلسطين ، ولكنى
 أميل الى أن سنوهى انما خشى أن يفتك به الفرعون الجديد (سنوسرت
 الاول) كواحد من الموالين لمنافسيه ، ويبدو لى أن أمنمحات الاول بعد أن
 أعلن ولاية النبوت لولده سنوسرت قد زوجه من كبرى بناته من زوجه
 الملكية ، صاحبة الحق الشرعى فى العرش ، وكان سنوهى من أتباعها ،
 وأقباغ أمها من قبلها ، ومن هنا كانت شفاعتها له عند سنوسرت، فحفظت
 عليه حياته وردته الى الوطن ، وأعادته الى القصر ليستأنف خدمته فى
 البلاط .

هذا وتدل ظواهر الامور على أن المتآمرين انما كانوا يطمعون فى
 بلوغ مآربهم — بعد فشلهم الاول — من وراء موت الملك ، وأن أنصار
 سنوسرت قد تمكنوا من انتهاء خبر وفاة الملك اليه على جناح السرعة ،
 والظاهر أنهم استطاعوا أن يكتموا خبر الوفاة عن الشعب الى أن يعود
 سنوسرت الذى طار الى القصر سريعا ، وتمكن من الاستيلاء على ناصية
 الامور ، فصاحبنا سنوهى انما كان ضالعا مع الفريق الذى نافس
 سنوسرت ، وكره أن يؤول العرش اليه ، فاستراقه السمع عند مجيء
 الرسل ، وعلمه عند سماعه الخبر ، وفراره الى فلسطين ، كل تلك أمور
 تدل على أن له نصيبا فى المؤامرة التى استأنفها أصحابه لابعاد سنوسرت
 عن العرش .

وأما أهمية القصة — كوثيقة تاريخية — فهى تقدم لنا فكرة عن أن
 المصريين — رغم اعتقادهم بيداوة سكان الصحراء الشرقية — فإن هذا
 لم يمنع رجلا مثل سنوهى من أن يعترف لبعضهم بالكرم والمروءة
 والنجدة .

ولم تمنع العواصم المصرية من أن تستقبل وهودا منهم للتجارة أو

الريارة ، فيتعرفوا فيها على شخصياتها البارزة التي يسمعون عنها ، ونفهم من القصة كذلك أن اللغة المصرية — لغة سنوهى — كانت معروفة لبعض أهل الشام ، وأن التجار المصريين كانوا يترددون على تلك المناطق التي كان يقيم فيها سنوهى ، بل وقد كانوا يمرون بها الى أبعد منها ، وأن الحكام السوريين كانوا على اتصال بمجريات الامور في مصر ، ويحبون ان يستريدوا من أخبارها .

ويفهم من القصة كذلك أن سنوهى قد اشترك — مع فرقة من السكان المحليين — في مقلومة جماعات سمي رؤساؤهم باسم «حقاو — خسوت» ، وربما كانت اشارة سنوهى الى هؤلاء آل «حقاو — خسوت» ، فضلا عن الاشارة الى القلاقل التي كانت تسود منطقة «فلسطين — سورية» انما هي بداية الاضطراب الذي سيسود المنطقة في أعقاب هجرة قبائل من وسط آسيا ، أخذت منذ ذلك العهد تهاجر في موجات لتستقر في مختلف بلاد الشرق الادنى القديم وفي غيرها ، وهي المسماة بالشعوب «الهندو — أوربية» التي كان لها أثر كبير فيما بعد ، مع ملاحظة أن هذه الهجرات كانت وقت ذلك ماتزال قليلة ضعيفة .

وأما أهمية القصة من الناحية الادبية ، فهي من حيث الشكل قصة واقعية لتجربة شخصية حدث في زمان ومكان محددين ، ولها بداية ونهاية كذلك ، ثم هي قد تضمنت في سياقها معلومات بسيطة مشوقة عن فلسطين وسورية وأهلها ، كما تضمنت من شعر المدايح والامثال الجارية ، ومن صيغ التراسل ، ولياقة الاستعطاف ، ورقة الاعتذار ، ما كان المعلمون والطلبة المصريون يلذ لهم الاستشهاد به ، وترصيع كتاباتهم به ، ثم هي من الناحية الفنية قد أبدعت في تصوير مشاعر الايمان ، ومشاعر الخوف ، ومشاعر الغضب بالنصر ، وأخيرا في تصوير أسمى المشاعر وهي — فيما اعتقد — مشاعر الوطنية ، والحنين الى الوطن ، وطننا العظيم ، مصر ، كنانة الله في أرضه (٣١) .

(٣١) أحمد بدوى : في موكب الشعب ١٠٥/٢ - ١٢٠ ، أحمد

ترجع هذه القصة الرمزية الى أيام الدولة الوسطى ، وهى الفترة التى أغرم القوم فيها بحب المغامرة ، وتسمى هذه القصة بقصة البحار أو قصة الملاح والجزيرة النائية أو قصة الملاح الفريق ، بل ويسمىها البعض قصة الجزيرة المسحورة ، وهى على أية حال ، تشبه الى حد كبير قصص «السندباد البحرى» فى «الف ليلة وليلة» وقصة «روبنسون كروزو» فى الادب الانجليزى ، وتحدثنا عن بحار حملته الامواج — بعد أن تحطمت سفينته — الى جزيرة نائية ، بها حية ضخمة أكرمته وحنته ، وظلت ترعاه حتى عاد الى وطنه ، وقد وضعت القصة فى أسلوب رقيق يعبر عن أجمل العواطف ، ويستثير روح البطولة والمجازفة ، ويصور حياة الملاحين تصويرا دقيقا ، وهى تشير كذلك الى حب الوطن الذى ملا قلوب المصريين ، بحيث أضفى لديهم من قواعد الايمان^(١) .

هذا وقد وصلت اليينا هذه القصة كاملة فى بردية اشترها الاثرى الروسى «فلاديمير جولينشف» من مصر ، وان لم يعرف على وجه اليقين المكان الذى عثر عليها فيه (ربما فى وادى الحمامات أو فى سيناء) ، وتعرف البردية باسم (بردية ليننجراد رقم ١١١٥ = P. Leningrad 1115) وهى

فخرى : المرجع السابق ص ٣٨٤ - ٣٩٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٨ ، عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٦٢ - ٣٦٥ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٣٤ - ٤٦ ، محمد بيومي مهران : مصر ٣٤٥/٢ - ٣٤٧ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ٣٩ - ٦٨ .

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p.

130-132.

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 58-74.

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 18-22.

A. Erman, LAE, 1927, p. 14-29.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 223-233.

J. B. Barns, JEA, 53, 1967, p. 6-14.

J. Clere, JEA, 25, 1929, p. 16-29.

A. Blackman, BA, II, p. 1-14.

G. Posener, Op-Cit, p. 57-115.

(١) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٧٣ .

الآن في موسكو ، وقد قام بنشرها جولينشف^(٣) وارمان^(٤) وبلاكمان^(٥) كما ترجمها ارمان^(٦) ولوفيفر^(٧) وسيمسون^(٨) ، وغيرهم^(٩) .

ومسرح أحداث القصة هو البحر الاحمر ، ومن المعروف أن المصريين كانوا يرسلون الحملات الى بلاد «بونت»^(١٠) عبر البحر الاحمر ، منذ أيام الحولة القديمة^(١١) ، للحصول على خيرات تلك البلاد ، وعلى الاخص البخور وأنواع العطور المختلفة ، وكل ما يجدونه في تلك البلاد ، سواء مما كانت تنتجه أو مما كان يأتي اليها كسلع تجارية . وتطور أحداث هذه القصة الرمزية في جزيرة نائية في البحر الاحمر يسميها النص «جزيرة الروح» ، وهي جزيرة مسحورة خالية من البشر ، وان كانت تعمر بكل أطايب الدنيا ، ويسكنها ويحكمها كائن غير عادي ، ثعبان هائل الحجم ، يستطيع أن يتحدث وينبئ عن الغيب ، ولكنه غير شرير ، بل يساعد الذين في حاجة الى المعونة ويندق عليهم عطاياء ، ومن ثم فهي أقرب الى الاسطورة منها الى القصة الحقيقية .

W. Golenischeff, Recueil des Travaux, 1906 p. 753. (٢)

W. Golenischeff, le Conte du Naufrage, Bibliothéque d'étude 2, Le cairo, 1912.

E. Erman, ZAS, 43, 1906, p. 1-26. (٣)

A. M. Blackman, Middle Egyptian Stories, Bibliotheca (٤)

Aegyptiaca, II, Brussels, 1932, p. 41-84.

A. Erman, LAE, 1927, p. 29-35. (٥)

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 29-40. (٦)

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 50-56. (٧)

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 211-215. (٨)

H. Brunner-Traut, Op-Cit, p. 5-10. وكذا

(٩) أنظر عن بلاد بونت (محمد بيومي مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة - الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٧ - ٣١٠ ، مصر ٢٤٥/٢ .

(١٠) أنظر : محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجي في عصر رمسيس الثالث ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٥٢ ، جورج فضل حوراني : العرب والملاح في المحيط الهندي ص ٣٠ ، وكذا

J. Hornell, Sea-Trade in Early Times, 1941, p. 240-246.

E. Naville, The Temple of Deir-El-Bahari, III, London, 1898, Pls. 69-85.

وتحكى قصة البحار هذه قصة رجل كان في طريق عودته بالنيل من مهمة كلفه بها فرعون عصره ، وان لم يكتب له فيها نصيب من نجاح ، وعندما اقترب من العاصمة جاءه تابع وفي له يهنئه بسلامة العودة ، «ليطمئن قلبك أيها الأمير ، انظر لقد وصلنا إلى الوطن ، لقد أمسكوا بالمطرقة ودقوا الوتد ، ومدوا حبل المقدمة (مقدمة السفينة) على الأرض ، وأقيمت الصلوات ، وعانق كل رجل أخاه ، لقد علد بحارتنا سالمين ، ولم ينقص من حملتنا أحد . لقد وصلنا آخر بلاد «إووات» (المنطقة ما بين أسوان وكورسكو) ومررنا بجزيرة «السمنت» (جزيرة بيجة أمام جزيرة فيلة جنوبى أسوان) ، انظر : لقد عدنا ووصلنا أرضنا» ، غير أن الرجل انما ظل مهموما يتخوف عاقبة فشله ، فانه يرى الملاح يسرى عنه ويهون عليه ، ويبعث الامل في نفسه ، وقص عليه قصة تداولت عليه فيها شدايد ، ظن أنه لا نجاة له منها ، ولكنه نجى وسلم وعاد الى وطنه ، واستمتع باجتماع شمله بأهل بيته . قال الملاح : نزلت الى الاخضر العظيم في سفينة بحرية ، بلغ طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبلغ عرضها أربعين ذراعا ، واستقلها مئى مائة وعشرون بحارا من خيرة البصرة في مصر ، اذا نظروا الى السماء أو نظروا الى الأرض فكلوبهم أقوى من الاسود ، كانوا يستطيعون التنبؤ بالرياح قبل أن تاتي ، وبالعاصفة قبل أن تهب ، وفجأة هبت الرياح ، ونحن في الاخضر العظيم (الواسع) قبل أن نصل الى الشاطئ ، عصفت الرياح ثم عصفت ، فارتفع الموج الى ثمانية أذرع ، فضربت الصاري وضربها الصاري ، فغرقت السفينة بمن كان فيها ، وأما أنا فقد ألقنتى موجة من أمواج الاخضر العظيم على جزيرة أمضيت بها ثلاثة أيام في دغل لا أنيس لى فيه ولا معين ، ثم أخذت طريقى في أرضها أبصت عن شىء أضمه في لى ، فوجدت تينا وعنبا ، وكثيرا من الخضر بأنواعه المختلفة ، وكذا جميزا وخيارا ، وأسماكا وطيورا ، فطعمت وشربت ثم أخذت عصا وأشعلت نارا وقدمت للارباب قرايينا ، وفجأة سمعت ديبيا قاصفا يقبل على ، فظننت أنه موج من أمواج الاخضر العظيم ، وعندما أرصت الغطاء عن رأسى وجدت أنه أفعوانا ضخما ، طوله ثلاثين ذراعا ويزيد أثر ديبية على الأرض عن المترين عرضا ، وجسده مغشى

بالذهب . وحاجباه بلون الزبرجد ، ففتح فمه نحوى ، وكنت ساجدا على
بطنى فسألنى : من أحضرك هنا ؟ من أحضرك هنا أيها الصغير ، ان تأخرت
فى أن تخبرنى بمن أحضرك الى هذه الجزيرة ، سأحملك شملة نار ، فقلت :
أنت تكلمنى ، ولكنى لست أسمع ما تقول ، أنا أمامك وليسكنى غائب
عن الوعى .

وحمله الثعبان فى فمه الى جحره ، وترفق به حتى أفرخ روعه ، ثم
أعاد عليه سؤاله ، فقص عليه البحار قصته ، وهنا همون عليه الثعبان
القضية ، وذكره بالآء ربه ، الذى قدر له الحياة وأرساه على « جزيرة
الروح » التى تمتلئ بكل الانبياء الجميلة ، ثم بشره بأنه سيعود الى
وطنه ، وأن سفينة مصرية سوف تاتى اليه بملاحين يعرفهم ، ولكن ذلك
لن يكون الا بعد أن تمضى أشهر أربعة ، وعندئذ يرجع الى بلده ويموت
فيها ، وسرعان ما يستأنس الثعبان بالرجل ويقص عليه قصته ، فإذا
ببلواه لا تقلل عن بلواه ، فقال له : كنت أقيم مع اخوانى وأولادى ، وكانت
عدتنا سبعة وثلاثين ، عدا حلفلة رزق بها بعد أن ارتجأها طويلا ، وفجأة
سقط شهاب من السماء فاحترقوا بناره جميعا ، ولم ينج منهم سواه .
فكاد يموت حزنا عليهم بعد أن وجدهم جميعا جثثا لا حياة فيها ، وأبى
الثعبان أن يعكس حزنه على ضيفه ، فقال له مشجعا : اذا تشجعت
وشددت قلبك فليسوف تملأ حضنك بأولادك ، وليسوف تقبل زوجك وترى
دارك ، وليسوف تصل الى العاصمة وتعيش بين اخوانك .

وأكبر الملاح الثعبان ، وأبلغه — ان تصققت مقالته ، وعاد الى وطنه —
أن يقص قصته على الملك ، وأن يسأله أن يرسل له الهدايا من الزيوت
العطرة ، ويخور المعبد التى تشر الالهة ، وسوف يروى للناس مارآه من
قوته ، وسوف يثنى عليه فى العاصمة أمام العظماء ، وسوف يضحى من
أجله بثور ، وسوف يرسل له من مصر سفينا محملا بكل ثمين فى أرض
مصر ، ولكن الثعبان سخر منه ، وأعلنه أنه هو أمير بلاد بونت (١١) . وأنه

(١١) لقد قام جدل طويل بين العلماء حول موقع بلاد بونت (بوينى

صاحب كل ما فيها من العطور والبخور ، كما أخبره أنه بمفادته لهذه الجزيرة ، فلن يصبح لها وجود يوسف تصبح ماء ، بعد أن يتلعمها الموج . وما أن تمضي الشهور الأربعة حتى يتحقق وعد الثعبان ، وتقبل سفينة ، ويتعرف الملاح على من فيها ، فنزل اليهم مزودا بكميات هائلة من المر والتوابل وخبول الزراف والمصموغ والبخور وأنياب المساج . والفهود والنسانيس ، وكل النفائس الطيبة ، وعاد الرجل الى بلده بعد شهرين ، يعلاه الأمل بما وعده الثعبان من سمادته في داره ، ولقائه لأطفاله ، ووقاته في وطنه .

ويضتم الملاح قصته بأن ينبه الأمير الى ما ناله ، ويوصيه بأن يستمع

فيما يرى جاردنر) ، ولعل أهم الآراء تدور حول اتجاهات أربع : أولها : أنها بلاد العرب الجنوبية (اليمن ومجاوراتها) ، وثانيها : أنها على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر ، وثالثها : أنها كلمة عامة تشمل الأقاليم الاستوائية في نظر المصريين ، ورابعها : أنها تقع على الساحل - الاسيوي والأفريقي للبحر الأحمر ، على مقربة من بوغاز باب المندب . ويذهب «ادوارد نافيل» الى أنه من الخطأ تعيين موقع بونت بمنطقة محددة بعينها ، لأنها لم تكن تدل على بلاد ذات حدود واضحة ، وإنما كانت اسما لسلسلة بشرية انتشرت في بلاد العرب الجنوبية - وحتى الخليج العربي - فضلا عن الساحل الشرقي لأفريقيا ، وأن المصريين ينتمون الى هذه السلسلة ، وكذا الفينيقيين الذين هاجروا من سواحل الخليج العربي الى سواحل الشام ، كما أن اسم «بونت» دل في المقام الأول على البلاد المنتجة للبخور ، وكان المصريون يحصلون عليه من بلاد بونت ، وأن خير أنواع البخور إنما كانت تنبت في بلاد الشجر والمكلا وظفار وجزيرة موقطرة وكلها على الشاطئ الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، كما أن الأشجار المرسومة على معبد الدير البحري إنما تنبت في ظفار ، وإن كان بعضها بنبت في الصومال (انظر :

R. P. Dougherty, The Sealand of Ancient Arabia, New Haven, 1932, p. 170-72.

K. A. K. Kitchen, Punt and How to get there, 1971, p. 188 F.

P. K. Hite, A History of the Arabia, 1960, p. 34-35.

وانظر : أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٢٨-١٤٠ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٢١٨/١ - ٢١٩ ، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٠٧ - ٣١٠ - عبد المنعم عبد الحليم : محاولة لتحديد موقع بونت ص ٥ - ٣٤ .

لنصيحته ، ولكن الامير يجيبه : لا تكن مختالا يا صديقي ، فمن ذا الذى يعطى الماء لطائر سيفيج فى آخر النهار •

والقصة — كما يقول أستاذنا الدكتور عبد العزيز صالح — لا يزان تحديد جانب الحقيقة وجانب الخيال منها ، موضعاً لجدل طويل ، وان ذهب الخان الى أن مغامرة الملاح فيها كانت قرب «جزيرة الزبرجد» فى البصر الاحمر ، وان ما يعنينا من القصة غلبة روح التفاؤل فيها ، وحرص كاتبها أو راويها ، على أن يفترض لكل مصيبة ما هو أشد منها ، كما يفترض لكل مصيبة مفرجا منها ، ومن هنا فقد أملت هذه الروح على الملاح صاحب المغامرة على أن يشجع أمير سفينته الذى تخوف غضب فرعون ، بقوله : استمع ايها النبيل ، وثق انى رجل برىء من المبالغة ، اغتسل وضع الماء على أناملك حتى تهدأ أطرافك ، وأجب اذا سئلت ، وتحدث الى الملك وذهنك معك ، أجب دون تردد ، فمنطق الرجل يحميه ، وحديثه يكفل له ما يصون به وجهه ، وتصرف ما يميله عليك عطفك» (١٢) •

(١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤١ - ٢٤٣ ، أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية ص ٣٩٠ - ٣٩٣ ، مغير مجلى : الجزيرة المسحورة ص ١٠٥ - ١١٠ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٥٠ - ٥٤ ،
G. Lefebvre, Op-Cit, p. 29-40. وكذا
M. Lichtheim, Op-Cit, p. 212-215. وكذا
A. Erman, LAE, p. 29-35. وكذا
W. K. Sempron, Op-Cit, p. 50-56. وكذا

٥ - قصة فتح يافا

وجدت هذه القصة في بردية هاريس رقم ٥٥٠ المحفوظة الآن في المتحف البريطاني تحت رقم ١٠٠٦٠ ، وقد عثر عليها في طيبة (الاقصر) ، وترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وربما الى أيلم رععمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) ، وقد نشرت وترجمت عدة مرات ، لعل من أهمها ترجمات : جاردنر^(١) وبييت^(٢) وارمان^(٣) ولوفيفر^(٤) وويلسون^(٥) وجدكة^(٦) وغيرهم^(٧) ، وأما الترجمات العربية فأهمها ترجمات سليم حسن وأحمد فخري وعبد العزيز صالح ، والترجمة العربية لكتاب جوستاف لوفيفر^(٨) .

هذا وكانت قصة «فتح يافا» هذه من القصص الشعبى الذى تناقلته الاجيال ، جيلا بعد جيل ، وقد ظهرت فكرتها في أدب أمم أخرى كثيرة ، وتتلخص القصة في السطور التالية :

كان «لتحتي» - أحد قواد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م) - يحاصر مدينة «يافا» الفلسطينية وقد ثار حاكمها على

A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, BA, 1, Brussels, 1932, (١)
p. 82-85.

T. E. Peet, in JEA, XI, 1925, 225-227, 336-337. (٢)

A. Erman, LAB, 1927, p. 167-169, The Ancient Egyptians, (٣)
p. XXXIII.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 125-127. (٤)

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 22-23. (٥)

H. Goedicke, The Computre of Joppa, Chronique d'Egypte, (٦)
43, 1968, p. 219-233.

E. F. Wente, in The Literature of Ancient, London, 1977, (٧)
p. 81-84.

H. P. Blok, De beide Volksverhalen Van Papyrus Harris 500 وكذا
Verso, Leyden, 1925.

G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 108. وكذا

(٨) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١٢ ، أحمد فخري :
المرجع السابق ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص
٣٣٧ - ٣٣٨ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٨٨ - ١٩٢ .

السيادة المصرية ، واعتصم بمدينة ، ولم يستطع القائد المصرى أن يخضعه ، وأن يستولى على المدينة ، ويعيدها الى حظيرة الامبراطورية المصرية ، بل ان الحاكم الفلسطينى انما حاول أن يستميل اليه القائد المصرى (تحتوى) ضد الفرعون ، أو يخدعه ويوقعه فى حباله ، ومن ثم فقد دعاه الى الانضمام اليه هو وأهله ، فرد تصوتى على مكروه بمكر يساويه ، وأظهر له أن يميل الى مصادقته ، ودعاه من نالحيته الى مقابلاته فى معسكره ، فلما لبى الحاكم الفلسطينى دعوة تحوت أكرمه ، وأسر اليه أنه يريد أن يلجأ اليه هو وأسرته ، وطلب اليه أن يبعث بفرسانه «المريانو» لرعاية خيولة خشيه أن يعتدى عليها لصوص الخيل من العلبيرو (٩) .

وفى أثناء وجود الحاكم الفلسطينى فى خيمة القائد المصرى طلب منه أن يرى مقمعة الفرعون تحوتمس الثالث (صولجان تحوتمس الثالث) التى كان من عادته أن يعطيها لقواده عند خروج أحدهم لقيادة الجيش ، فوجدها تحوتى فرصته ، وعاد اليه بمقمعة غليظة ، وقال وهو يواجهه : أنظر يا عدو يافا ان «(من خبر رع) الاسد العصور ، ابن «سفمت» (ربة الحرب)» (١٠) ، قد وجهه أبوه أمون التأييد» ، وعاجله بضربة منها على جبهته أردته منشيا عليه ، فشد وثاقه واثقل على قدميه بأربعة أوزان من المعدن ، وتخير مائتين من جنوده المصريين بأمر زملائهم بأن يقيدوهم تقيدا خفيفا ، وأن يضموهم فى جوارق كبيرة يفتمون عليها ليصكبوا حيلتها ويحرسها خمسمائة جندي وأوحى اليهم ببقية الحيلة : عندما تدخلون المدينة يجب عليكم أن تطلقوا سراح رفاقكم الذين فى الجوارق (الفرارات) وتقبضوا على كل رجل فى المدينة وتضموهم فى الاغلال .

ثم أرسل سائق عربة أمير يافا الى زوجته يبلغها أن زوجها الامير قد منحه ربه «(سوتخ)» النصر على عدوه فأسر القائد المصرى «تحتوى» ، وأن رجال الجيش المصرى قد انضموا اليه ، فيما عدا قلة منهم وأسروهم

(٩) أنظر عن العلبيرو (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢٢/١ - ٢٨ الاسكندرية ١٩٧٨) .
(١٠) أنظر الالهة سفمت (محمد بيومى مهران - الحضارة المصرية القديمة ص ٣٤٨ - ٣٤٩ الاسكندرية ١٩٨٤) .

وكتبهم بالاغلال ، وهكذا تقدم سائق الامير الفلسطيني الوكب ، وهو يصيح : أسرنا تحوتى ، نفتحت له المدينة أبوابها ، ودخل الجنود المصريون يحملون زملاءهم فى الجوالق ، فما أن جاوزوا الابواب حتى انقضوا على حراس المدينة وأسروهم ، ثم تنتهى البردية بهذه الكلمات : «وهكذا الساعد القوى لمرعون مصر أن يستولى على المدينة ، وفى الليل أرسل تحوتى رسالة الى سيده فى مصر ، الملك تحوتمس ، يقول له : أنعم بالا ، فقد أعطاك أمون ، أبوك الطيب ، أمير يافا وجميع رجاله وكذا مدينته ، ابعث بالرجال ليقودهم أسرى لكى تملأ بيت أبيك أمون بالعبيد والجواري الذين يرتعون تحت قدميك الى الابد» .

وأما تحوتى — صاحب القصة — فهو أحد قواد تحوتمس الثالث العظيم ، وقد كشف عن مقبرته فى طيبة الغربية ، وقد وصف نفسه بأنه كان موضع ثقة الملك فى كل الاصقاع الاجنبية وفى جزر البحر المتوسط ، وأنه كان المشرف على الممالك الشمالية ، وأنه كان أول قائد صاحب الملك فى كل الارضين الاجنبية ، ومن ثم فيبدو أنه كان ذا شخصية عظيمة ، ولهذا فقد كان اسمه يتردد على ألسنة الناس دهرا طويلا بعد ذلك ، وهناك فى متحف «دارمستاد» خنجر له ، فضلا عن طبق من الذهب فى متحف اللوفر كان قد أهدها اليه تحوتمس الثالث .

وأما القصة نفسها ، فليس هناك شئ معروف على وجه اليقين عن مدى صدق أحداثها ، وإن لم يطل هذا دون الاعتراف بخصوصية خيال صاحبها أو مؤلفها ، بحيث يمكن اعتبارها سلفا قديما لحيلة قصيرة مع الزباء ملكة تدمر (١١) ، وقصة على بابا واللصوص الاربعين فى الادب العربى القديم ، وتنتم القصة من ناحيتها عن اعتقاد أهل زمانها بأن أسلحة فراعينهم الكبار أهل النصر والفتح ، انما كانت مؤيدة بقوة سحرية خفية ، أو قدرة ربانية مباركة ، وأنهم كانوا يتوهمون أن قادتهم كانوا

(١١) انظر قصة قصير والزباء (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم — الرياض ١٩٨٠ ص ٥٤٨) .

يستعينون بها ليردوا فضل النصر الى أربابها ، ثم هي تتم أخيرا عن
اعتقادهم بأن الفتن التي تنشب خارج الحدود تصدر في معظمها عن
ذرائع الهكسوس الذين ناصروا الاله «سونخ» (أى ست) واستعانوا
به (١٢) .

-
- (١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، أحمد
فخرى : المرجع السابق ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ، سليم حسن : المرجع السابق
ص ١١٠ - ١١١ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩٢ ،
ارمان ورائكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ٤١٧ ، وكذا
E. F. Wente, Op-Cit, p. 81-84. وكذا
J. A. Wilson, ANET, p. 22-23. وكذا
H. Goedicke, Op-Cit, p. 219-233. وكذا
G. Lefebvre, Op-Cit, p. 125-127. وكذا
A. Erman, Op-Cit, p. 167-169. وكذا

اشتهرت قصة الاخوين هذه بين الآثاريين بتسمية أخرى هي «بردية أوربيني» Papyrus D'Orbigny نسبة الى السيد «اليزابيث أوربيني» التي ابتاعها من ايطاليا ، ثم باعها للمتحف البريطانى عام ١٨٥٧م ، بعد أن أعلن متحف اللوفر عجزه عن الحصول عليها ، وعلى أية حال ، فالبردية محفوظة الآن بالمتحف البريطانى تحت رقم ١٠١٨٣ ، ويمكن تأريخها بعصر الاسرة التاسعة عشرة (حوالى عام ١٢٥٠ ق.م) ، وقد نقلها عن الهيراطيقية من الهيروغليفية «سير آلن جاردنر»^(١) ، كما اعتنى بها كثير من علماء المصريات - من أمثال هول^(٢) ، ولوفيفر^(٣) وسكوت^(٤) وبرونر - تروت^(٥) ، ووينتى^(٦) ، ويويوت^(٧) وفاندييه^(٨) وغيرهم^(٩) ، هذا فضلا عن عدة ترجمات عربية للقصة ، جزئيا أو كليا^(١٠) .

A. H. Gardiner, LES, in BA, I, 1932, p. 9-29 (١)

G. Moller, Hieratische Lesestücke ..., II, Berlin, 1927, p. 1-21. (٢)

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 137-158. (٣)

S. Schott, Altägyptische Liebeslieder..., Zurich, 1950, p. 193-204. (٤)

B. Brunner - Traut, Op-Cit, p. 28-40 (٥)

E. F. Wente, Op-Cit, p. 92-107. (٦)

J. Yoyotte, RdE, 9, 1952, p. 157-159. (٧)

J. Vandier, Le Papyrus Jumilhac, Paris, 1961, p. 45-46, 105-106, 114-115. (٨)

Jan Assmann, in ZAS, 104, 1977, p. 1-35. (٩)

B. Sieradzinski, in GM, 4, 1973, p. 35-40. وكذا

A. Erman, LAE, 1927, p. 150-161, The Ancient Egyptians. وكذا

N. Y., 1966, p. XXXII.

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 23-25. وكذا

M. Lichtheim, Op-Cit, II, 1976, p. 203-211. وكذا

F. Jesi, Aegyptus, 42, 1962, p. 276-296. وكذا

E. Blumenthal, ZAS, 99, 1973, p. 1-17. وكذا

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٩ - ٣٤١ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٨٧ - ٩٩ ، عبد الحميد زايد : الرمز والاسطورة الفرعونية - مجلة عالم الفكر ١٩٨٥ ص ٥٣ - ٥٩ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٠٩ - ٤١٢ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠٣ - ٥٠٤ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٩٨ - ٢١٧ .

والقصّة تصور ما يمكن أن تأتية الانثى الملعوب ، كما تصور الحياة الريفية وقت ذاك ، وقد جعلت أبطالها ثلاثة : انبو ، الاخ الاكبر ، ثم زوجته ، ثم شقيقه الصغير «باتا» وان كان هناك من يذهب الى أنها تحتوى على بعض الاساطير المصرية القديمة ، وأن الاخوين - انبو وباتا ، ايسا سوى الالهين المعروفين بهذا الاسم ، وعلى أية حال ، فيمكن تلخيصها في السطور التالية :

كان «باتا» الاخ الاصغر ، شابا قويا مفتول العضلات ، هخلما لأخيه الاكبر ، خبيرا في شئون الزراعة والمرعى ، عارفا بمنطق الحيوان ، لا يوجد له مثيل في جميع أنحاء الارض ، وقد اعتاد أن يخرج بمائشيه أخيه مع الفجر فيحرث أو يحصد ، ويرعى قطيعه ، ثم يعود في المساء محملا بخيرات الحقل ، واللبان البقر ، ويقدمها راضيا بين يدي أخيه وزوجه ، وما أن يتناول عشاءه حتى ينطلق الى حظيرة المائشيه فينام فيها وحيدا قانعا ، فإذا ما اقترب الفجر أعد افطار أخيه وقدمه اليه ، ثم أخذ افطاره وساق مائشيته الى الحقل والمرعى ، وكان يحدث أحيانا أن تتسار المائشيه فيما بينها ، بأن الكلا في مكان بعينه وغير نصير ، فيفهم «باتا» قولها ، ويحقق لها رغبتها ، وينتجع بها ما توده من العشب والمرعى ، ومن ثم فلا كانت المائشيه التي في رعايته تزداد جمالا ، وقد تعددت مواليدها الى حد كبير .

ولما حل موسم الزراعة قال له أخوه : هلم أعد الثيران للحرث ، فقد انحسر الماء عن الارض وتهيأت للزراعة ، ثم احضر لنا البذور حتى نغرسها مبكرين ، فأطاع «باتا» وصحب أخاه الى الحقل ، وانشغلا في الحرث ، ولكنهما اضطرا بعد فترة الى التوقف لتنفيذ البذور ، فأرسل «انبو» أخاه «باتا» الى الدار لاجتار المزيد من البذور ، وما أن بلغ «باتا» الدار حتى ألغى زوج أخيه مشغولة بتصفير شعرها ، فناداها قائلا : انهضى واعطنى بعض الحبوب لان أخى ينتظرنى ، فأجابته قائلة : اذهب واحتج المومعة وخذ ما تريد ، لا تفسد على تصفير شعرى ، ثم ذهب للشباب وعاد ومعه حمل كبير من الشعير والقمح ، فتساعت امرأة

أخيه : ما وزن ذلك الذى تحمله على كتفك ، فرد قائلا : ثلاثة أكياس من القمح ، و كيسان من الشعير ، أى خمسة فى مجموعها ، فردت المرأة قائلة : انك تتمتع بقوة عظيمة ، وانى أرى كل يوم ما يحل على قوتك ؟ وأرادت المرأة أن تعرف قوته كرجل .

وأسرت المرأة أمرا فى نفسها ، ثم هبت واقفة وتعلقت بالفتى اليافع وقالت : هيت لك مدعا نمرح ساعة ونضطجع معا ، فذلك خير لك ، ولسوف أخيط لك ثيابا حسانا ، وفوجئ الفتى بما حدث ، فأجفل وبدا فى هيئة عهد الصعيد الغضوب ، وأربد وجهه من هول ما دعتة اليه ، فأجفلت المرأة بدورها وخشيته خشية شديدة ، ثم تمالك الفتى نفسه ، واتجه الى هذه المرأة المداعة قائلا : اسمعى ، أنت بالنسبة لى فى منزلة الام ، وزوجك فى منزلة الاب ، فهو أكبر منى ، وهو الذى ربانى وليدا ، فلم كل هذا العار الذى تدعيننى اليه ، اياك أن تفتاحينى فيه مرة أخرى ، وأنا أعدك ألا أتحدث به لأحد ، ولن أدعه يخرج من فمى لأى شخص ، واحتمل «باتا» حمولته ، وانصرف الى الحقل ، فلما بلغ أخاه استأنف العمل كدأبه ، دون أن ينبس ببنت شفة .

وحان المساء وعاد الاخ الاكبر الى داره ، وبقي باتا فى الحقل يتمهد الماشية برعايته . حتى أكمل حمولته من خيرات الارض ، ثم ساق الانعام أمامه ليبيت بها فى حظيرته ، وخشيت المرأة عاقبة زلتها ، فاستعانت بمعار (دهنا وشحما) جعلها كالمريضة أو المضروبة ، حتى يتسنى لها أن ترغم لزوجها بأن أخاه قد اعتدى عليها ، فلما عاد زوجها وجدها نائمة تدعى المرض ، فلم تصب الماء على يديه كمادتها ، ولم توقد المصباح قبل مجيئه ، فبات ليلته فى ظلام حالك ، بينما كانت هى تقى ، ولما اقترب منها زوجها وسألها عن أساء اليها ، قالت : لم يسيء لى أحد سوى أخيك الأصغر ، فلقد أتى يأخذ البخور ، فلما وجدنى وحيدة راودنى عن نفسى ، وأمسك بشعري ، فأبيت طاعته ، وقلت له : أأست كأمك ، أوليس أخوك الاكبر كأبيك ، هكذا أجبت ، فارتعد منى خوفا وضربنى ، حتى لا أخبرك بما حدث ، فاذا تركته يعيش مت أنا ، وأخشى انما رجع فى المساء وفتاحته فى

عاره ، نسب السوء الى ، وأربد وجه الزوج ، وشحذ خنجره ، واختبأ وراء باب الحظيرة ، ونوى أن يقتل أخاه حين رجوعه .

وعاد «باتا» في الغروب ، محملاً بخيرات الأرض كعادته ، فلما دخلت أولى بقراته الحظيرة همست له : احذر ان أخاك واقف هناك ينتظرك ليقتلك بخنجره ، فاهرب من أمامه ، وفهم باتا قولها ، ثم سمعه من البقرة التي تليها ، وتطلع أسفل الباب فرأى قدمي أخيه ، فالتقى حصله على الأرض ، وشرع يدعو هرباً من أخيه ، فجرى أخوه وراءه ، وهنا استغاث «باتا» بالمعبود «رع حار أختي» (رع حور سيد الاق) ، فقال : مولاي الرحيم ، أنت تفصل بين الآثم والبريء ، فاستجاب رع لدعائه ، وفصل بين الاخوان ببخيرة ملأى بالتماسيح ، ووقف الاخوان أمام بعضهما ، وقال باتا لأخيه كل شيء ، واعلم أخاه بجريمة زوجته ، وأراد أن يثبت له برأته وعزوفه عن النساء ، فاستل بوصة حادة ، وقطع احليله ، ورماه في الماء ، حتى يؤكد لأخيه زهده في الخنا وأهل الخنا ، وكاد يغشى عليه من حرط الألم ، وندم الاخ الاكبر على ما فعل بأخيه ، ولم يتمالك نفسه فبكى ، ولكنه عجز عن أن يصل الى أخيه خوفاً من التماسيح ، ثم أخذ «باتا» يذكر أخاه «انبو» بكل ما فعله من أجله ، ثم علمه آخر الامر أنه سوف يترك مصر نهائياً ، ويذهب الى وادي الارز ، وسيضع قلبه فوق شجرة أرز فان أحداً قطع الشجرة سقط قلبه ومات ، فإذا ما عرف «انبو» بوفاته فليذهب وليبحث عنه ويعيده الى الحياة ، ولا يمل البحث عنه ، وان أنفق في ذلك سبع سنين ، وأما كيف يعيده الى الحياة ، فليضعه في ماء بارد ، ولسوف يعلم آية سقوطه حين تقدم اليه كأس جمعة ، فسوف يجدها قد أزيحت وأعتكرت ، ويعد أن سمع «انبو» (أنوبيس) مقالة أخيه الحزينة ، عاد الى بيته ، وقد وضع يديه على رأسه ، ولوثه بالتراب ، وما كاد يصل الى داره حتى بادر بقتل زوجه الداعرة ، ورمى بها الى المكاب ، ثم جلس يبكي رحيل أخيه الصغير .

وهكذا فارق باتا مصر — كما أراد مؤلف القصة — الى وادي الارز في لبنان ، وهناك أسفقت عليه الالهة ، فقال «رع حار أختي» لخنوم :

اخلق لـ «باتا» زوجة حتى لا يظل وحيدا ، فخلق له خنوم صاحبة تؤنسه في وحشته ، وكانت هذه صاحبة ذات جسد بديع يفوق جماله وحسنه نظيره عند أى امرأة أخرى في البلاد كلها ، وكان بها بخرة من كل من الالهة ، وأتت الحوريات السبعة (ماتحور) لتراها فقالت في صوت واحد : ستموت تلك المرأة بحد السيف» .

وأحب «باتا» هذه المرأة وأخلص لها ، ولكنها عاشرتة على خذل ، ربما لانه أصبح عنيئا ، ثم نقل البحر خصلة من شعرها الى فرعون مصر ، فسحره عطرها ، وأرسل رسله يدهشون عنها ، فقتلهم «باتا» الا واحدا عاد اليه بخبر بمقتل زملائه ، فأرسل اليها الفرعون جماعة أخرى ، ومنهم امرأة عجوز ، تحمل هداياه اليها ، فقبلت الزوجة هداياه وأنجذبت الى سلطانها ، وصصبت رسله وسافرت اليه وتقربت منه ، وأوعت اليه باهلاك زوجها باتا ، وقطع الشجرة التي ائتمنها على قلبه ، فاستجلب الفرعون لكيدها ، وأمر بقطع الشجرة فمات «باتا» ، ولكن أخاه تنبى الى آية اعتكار كأس الجعة ، فظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى وجده ، ودعا الارباب فبعثوه في خلق جديد .

وأراد «باتا» أن يرد على زوجته عاقبة غدرها ، فنتكر لها في هيئة فحل شديد ، مزودا بكل الألوان ، وعرفت زوجها التي أصبحت حظية فرعون بذلك ، فنهضت الملك أن يقتله ففعل ، ولكن نقطتين من الدم سقطتا على الارض وصارتا شجرتين عظيمتين عند بوابة القصر ، فأغرت الملك بقطعهما ففعل ، وعند صنع أثاث منهما طارت شظية فحملت منها وأنجبت طفلا صار وليا للعهد ، ومات الملك ، وعوض الارباب «باتا» بعرش مصر وملكها العريض ، وانتقم من زوجته الخائنة فقتلها ، واستدعى أخاه الأكبر ونصبه أميراً وراثيا في البلاد جميعا ، ولا قضى على عرش مصر ثلاثين عاما ذهب الى الحياة (يعنى الحياة الآخرة) وصعد أخوه على العرش ، وأصبح ملكا بعده .

والقصة ، كما نرى ، مليئة بالألوان السحر ، وهى تعالج أمر الزوجة الخائنة مرتين ، وتنتهى في المثلتين بأن يقتل الزوج زوجته ، وفي الواقع ،

فلقد عالج القصص المصري القديم موضوع الزوجة الخائنة بمهارة ، فاضفى عليها لهجة مسرحية ولوحات تتحرك فيها شخصيات تنبض بالحياة وفيها مشاهد تشع بقوة الشهوة والالام والغضب والاعتقار ، استطاع القصص أن يعرضها ويقربها الى حد كبير من حياة الناس ، وكما يقول جوستاف لوفيفر ، كان ينبغى لهذه القصة التى تتروم على أسس نفسية ، لكى تكون ذات طابع مصرى ، أن يتدخل فيها عنصر الخيال ، وهذا ما حدث إذ نرى الحيوانات تتكلم ، والآلهة تتدخل ، والشخصية الرئيسية تتنبا بما سوف يحدث ، بل أن للاخوين أسماء آلهة ، إذ كان من المعروف عن اسمى «انبو» (أنوب = أنوبيس) و «باتا» أيام الدولة الحديثة أنهما كان موضع عبادة فى إقليم «انبو» ، وهو الاقليم السابع عشر من أقاليم الصعيد ، وكانت عاصمة «كاسا» (ليتوبوليس الاغريقية) وهى «القيس» الحالية ، على مبعده ؛ كيلا جنوبى بنى مزار ، بمحافظة المنيا ، وكان معبودها الرئيسى «انبو» (ابن آوى) *

هذا وقد تميزت حوادث الجزء الثانى من القصة بالسحر فى سلسلة من المعجزات ، فالاخ الاصغر (باتا) ينزع قلبه ويخفيه فى زهرة أرز ، بعد أن ينفى نفسه فى واد فى لبنان ، وعندما يصبح جسدا بلا روح يندفع لمساغله اليومية حتى يأمر «رع حار اختى» الاله «خنوم» أن يصنع له زوجة ، أجمل من أية امرأة أخرى ، ويعلم فرعون بأمر تلك المرأة ، وهى من بنات الآلهة ، عن طريق خصلة من شعرها أخذها للبصر وجاء بها الى مصر ، فبرسل اليها من يحضرها من لبنان لتكون محظية له ، وسرعان ما تنكر فى خيلته زوجها ، وتلعب نفس الدور الذى لعبته زوجة أنوبيس فى الجزء الاول من القصة ، فتطلب من فرعون أن يقتلع شجرة الارز التى تضم قلب باتا ، ولكنه يعود الى الحياة ثانية بفضل دعوات أخيه انوبيس ، إذ يعثر على قلبه ويضعه فى وعاء من ماء ، ثم يتحول «باتا» الى ثور ، ولكن زوجه تنكر عليه وتأمر بذبحه ، ولكنه يعود الى الحياة من جديد حيث يتحول الى شجرة «لبخ» وتأمر ثانية باقتلاع الشجرة ، ويصمم باتا على العودة الى الحياة ثانية فى صورة قطعة من الشجرة تتطاير فتدخل فم امرأته المخادرة ، فتحمل منه وتضع طقلا هو «باتا»

الصغير الذى ينشأ فى قصر فرعون ويعيش فيه حتى يموت الفرعون فيخلّفه على ملك مصر .

هذا وتروى القصة أحداثا تذكرنا بقصة أوزير ، فجزء جوهرى من القصة — وهى تجارب باتا فى بيلوس وقصر فرعون شبيهة بقصة «بلوتارخ» لما وقع لايّزة ، عندما كانت تبصّث عن أخيها وزوجها أوزير فى تلك المواقف نفسها ، على أننا يجب أن نلاحظ أنه على نقيض هذا التشابه فى السياق ، فقد سلكت زوجة «باتا» طريقا آخر ، غير الذى سلكته ايّزة التى كلّفت وفية لزوجها .

وأما أسلوب القصة ، فأضعف من أساليب كثير من القصص غيرها ، وإن وافقت الخيال الشعبى وتمست مع مقتضياته ، ورغم ضعف الأسلوب وخلوه من الرشاقة التى يتسم بها عادة أسلوب العصر فى التعبير ، إلا أن الحبكة القصصية هنا متوفرة ، فهى تدأب على تشويق القارئ أو السامع بمفاجآت تتردد فى ثناياها تعتمد جميعا على مؤثرات خارجية لم تكن فى الحساب ، هى مخرج للقصص يعتمد فيه على خوارق الطبيعة أو يد القدر (١١) .

(١١) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٥٤ - ٦٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٩ - ٣٤١ ، نجيب ميخائيل ، المرجع السابق : ص ٥٠٣ - ٥٠٤ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ٢٠٢ - ٢١٧ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٠٩ - ٤١١ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٩١ - ٩٩ .

A. Erman, LAE, p. 150-161.

J. A. Wilson, ANET, p. 23-25.

E. F. Wente, Op-Cit, p. 92-107.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 203-213.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 137-158.

J. Yoyotte, RdE, 9, 1952, p. 157-159.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

سجلت هذه للقصة أو الرحلة على بردية عثر عليها في بلدة «الحبيبة»^(١) في عام ١٨٩١م ، واشتراها المسلم الروسي «فلاديمير جولينشف»^(٢) بمتحف موسكو (رقم ١٢٠) بولكن «جولينشف»^(٣) أول من نشرها ، ثم «جاردنر»^(٤) كما ترجمها وعلق عليها كثير من علماء المصريات ، من أمثال ارمان^(٥) ولوفيفر^(٦) وويلسون^(٧) وجاردنر^(٨) وايدل^(٩) ووينتلي^(١٠) ونمس^(١١) وغيرهم .

(١) كانت مدينة «الحبيبة» الحالية عاصمة للأقاليم الثامن عشر من أقاليم الصعيد ، وتقع على مبعدة ٥ كيلو جنوبى مدينة الفشن ، بمحافظة بنى سويف ، وهى «سبا» المصرية ، وربما كانت هى نفسها «حت نبو» (مفرطائر مالك الحزين) ، ومعبودها الرئيسى هو الإله «حور» ، كما عبد فيها كذلك الإله أنوبيس وسوكر .

H. Gauthier, Dictionnaire des Noms Géographiques, I, p. 84, IV, IV, p. 27, p. 193).

P. Lacan and H. Chevrier, une Chapelle des Sesostri Ier n وكذا
Karnk, le caire, 1956, p. 224).

V. S. Golenishchev, RT, 21, 1899, p. 74-102. (٢)

A. H. Gardiner, LBM, in BA, 7, 1937, p. 61-76. (٣)

A. Erman, in, ZAS, 38, 1900, p. 1-14. (٤)

A. Erman, in, LAE, 1927, p. 174-185. وكذا

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 204-220. (٥)

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 25-29. (٦)

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 306-313. (٧)

E. Edel, in Gallig Textbuch, p. 41-48 (٨)

E. F. Wente, Op-Cit, p. 142-155. (٩)

C. F. Nims, in JEA, 54, 1968, p. 161-164. (١٠)

M. A. Korostovtsev, Puteshestvie un-Amwna V Bibl., Mos- (١١)
cow, 1960.

E. Pest, Op-Cit, p. 47 F. وكذا

G. Maspero, Op-Cit, p. 202 F. وكذا

J. H. Breasted, ARE, IV, p. 274 F. وكذا

Wiedmann, Altägyptische Sagen und Märchen, Leipzig, 1900. وكذا
p. 94-113.

هذا فضلا عن الترجمات العربية للبردية ، وأهمها ترجمة سليم حسن (١٣) وأحمد فخري (١٣) ونجيب ميخائيل (١٤) وعبد الحميد زايد (١٥) .
وأما نص البردية — كما يقدمه لنا سير آلن جاردنر (١٦) — فهو كالآتي :

«المعلم الخامس ، الشهر الرابع من فصل الصيف ، اليوم السادس عشر ، في اليوم الذي ارتحل «نون أمون» كبير المشرفين على ضيعة أمون سيد عروش الارضين ليحضر الخشب للسفينة الكبرى لامون رع ملك الآلهة وهي التي على النهر وتسمى «أمون وسرحي» . وفي يوم وصولي الى تانيس مقر «نس بلنب دد» و «تنت أمون» أعطيته رسائل أمون رع ملك الآلهة وقد قرئت في حضرتيهما وقالوا : «حقا اذا ستفعل كما قال ملك الآلهة أمون رع» .

وقد مكثت حتى الشهر الرابع من الصيف في تانيس (١٧) ، ثم أرسلني «نس بلنب دد» و «تنت أمون» مع قائد السفينة «منجبيت» وفي الشهر الاول من فصل الصيف نزلت بحر سورية العظيم ووصلت الى « دور » مدينة « الزكر » وأمر أميرها «بدير» بأن يؤتى لى بضعسين رغيفا وجرة نبيذ وفخذ ثور ، وهرب أحد رجال «سفينتي بعد أن سرق اذاء من الذهب يساوي «٥ دبنات» وأربعة أولان من الفضة قيمتها عشرون دبنا وكيسا به فضة تعدل ١١ دبنا وكان مجموع ما سرقه ٥ دبنات من الذهب ، ٣١ دبنا من الفضة وقمت في الصباح واتجهت الى حيث الامير وقلت له : لقد سرقت في مينائك وأنت أمير هذه البلاد وضابط أمورها غابحت

(١٢) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٦١ - ١٧٠ .

(١٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(١٤) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(١٥) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٧٩٠ - ٧٩٨ .

(١٦) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 306-313.

وانظر الترجمة العربية (سير آلن جاردنر : مصر الفراعنة - ترجمة نجيب ميخائيل ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر - القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٣٦ - ٢٤٢) .

(١٧) التواريخ المكتوبة في الاصل يتناولها الشك .

لى عن مالى ، لانه مال أمون رع ملك الآلهة وسيد البلاد حقا وهو مال
 «نفس بانب دد» وهو يخص «ولاي» (حريحور) وكذا عظماء مصر الآخرين .
 انه مالك كذلك ، وانه مال «وارت» انه مال «ميكلامر» انه مال «زكا بعل»
 أمير جبيل . . فقال لى : «أأنت صادق أم مدع ؟ لأأنى لا أعرف شيئا عن
 هذه الرواية التى تذكرها لى . . لئن كان لصا من بلادى ذلك الذى اتجه
 الى سفينتك وسرق مالك فانى أعوضك اياه من مخازنى حتى يتر على
 اللص مهما يكن ولكن الواقع أن الذى سرقك . . هو رجلك وهو يخص
 سفينتك . . فاقض معى هنا بضعة أيام حتى ابصث عنه . . ومكثت تسعة
 أيام راسيا فى الميناء تم اتجهت اليه وقلت له «مالك انك لم تجد مالى» .

وتلى ذلك فقررات مشومة يفهم منها أن «ون أمون» يرغب فى الرحيل
 مع بعض أصحاب المراكب الذين يزمعون ذلك ولكن الأمير يحرضه على
 البقاء موهما اياه انه سيستولى على بضائع المشبهوهين حتى يثر على
 اللص .

ولكن «ون أمون» فضل متابعة رحلته ، وبعد أن وصل الى صور
 غادرها عند الفجر وسرعان ما وصل الى جبيل حيث أميرها «زكلر بعل»
 ووجد هناك سفينة بها ٣٠ دبنا من الفضة وقال ان هذا المال سيبقى معه
 حتى يقبض من لجأ اليهم على اللص .

وارتطوا وبقيت فى خيمة على المشاطىء فى ميناء جبيل واستطعت أن
 اصل الى مكان أخبىء ، فيه «أمون — الطريق» ، ووضعت مقتنياته
 فيه . . . وأرسل الى أمير جبيل قائلا : «غادر مينائى» فأرسلت أقول له :
 «الى أين أذهب ؟ ان وجدت سفينة تحملنى فليعودوا بى الى مصر»
 وقضيت تسعة وعشرين يوما فى مينائه وكان يرسل الى كل يوم يقول :
 «أترك مينائى !» .

وبينما كان يقدم القرابين لالهة أمسك الاله بشاب من رجاله وأصابه

بالخبيل فقال له : «أحضر الآله هنا واحضر الرسول الذى يحمله • انه آمون الذى أرسله ، انه هو الذى جاء به» وظل المخبول طيلة الليل فى خبيله ، فى حين وجدت سفينة متجهة الى مصر وضعت فوقها كل متاعى وكنت أترقب الظلام قتلا : «حين يحل ، سيأتى بالآله إليها وسوف لاتراه عين أخرى • وجاء رئيس الميناء إلى قائلا : «انتظر للغد • • هذه هى رغبة الامير» فقلت له : «أأست أنت الذى كنت تكرر لى كل يوم قولك» اترك مينائى ؟ أولا تقول ابق هنا الليلة حتى تدع السفينة التى أراها مرتحلة ترتحل ، وعندئذ ستأتى الى مرة أخرى وتطلب إلى الرهيل ؟» وذهب الى الامير ورد قولى فأرسل الى الامير قائد السفينة يقول : «انتظر الى الغد هذه هى رغبة الامير» •

ولما جاء الغد أرسل فى طلبى ، وكان الآله يستريح فى الخيمة التى على شاطئ البحر • ووجدته جالسا فى غرفته العلوية وظهره الى النافذة وأمواج البحر السورى العظيم تتلاطم خلف رأسه • قلت له : «ليكن آمون رحيمًا ؟» وقال لى : «ما المدة حتى الآن» وقال لى : «لنفترض أنك صادق فأين هى رسالة آمون التى فى حوزتك وأين خطب الكاهن الاول لآمون الذى فى يدك ؟» فقلت له : «لقد أعطيتها الى «نيس بانب دد» و «لنتت آمون» فاجتلمحه الغضب وقال لى : «والآن : انك لا تحمل رسالة أو خطابا ، ولكن أين سفينة الصنوبر التى أعطاك أياها «نيس بانب دد» وأين بحارتها السوريون ؟ ألم يسلمك لربان هذه السفينة البربرى ليذهبك ويلقى بك فى الماء ؟ قال لى فأجبت : «أليست سفينة مصرية وبحارة مصريون الذين يحملون «نيس بانب دد» ؟ انه ليس لديه بصارة سوريون فقلت لى : أليس هناك عشرون قاربًا فى مينائى تتجر مع نس بانب دد وكسدا فى صيدا ، ذلك المكن الأخضر الذى مررت به ، أليس هناك كذلك خمسون سفينة أخرى تتجر مع «وارا كثير» وتعمل من أجل بيته ؟

فحرت صمتا فى هذه اللحظة الرهيبة :

وتابع هو حديثه قائلا لى : «فى أية مهمة قدمت ؟ فقلت له : «جئت سعيا وراء الخشب من أجل السفينة العظيمة لآمون رع ملك الآلهة • •

ان ما فعله أبوك وجنك مستعمله أنت !» هكذا قلت له فأجابني قائلا :
«حقا لقد فعلا ذلك ، وأنت ان دفعت لى الثمن سافط ! وفي الحق ان
قومي قد انجزوا هذا الامر ولكن بعد أن أمر فرعون بإرسال ست سفن
محملة بالبضائع المصرية لأفرغوها في مخازنهم .. وأنت بم جئت لى
شخصيا ؟» وأمر أن يؤتى بسجلات آبائه وأن تقرأ محتوياتها أمامى ..
وقد وجد بها أنه دفع ألف دين من الفضة وسلما من كل نوع فقل لى :
إذا كان حكمكم مصر سيد أملاى وكنت أنا خادمه أيضا لم يكن لازما عليه
أن يرسل فضة أو ذهباً حين يقول : نفذ أمر أمون ! على أنها ليست هديه
ملك التى أعطوها لوالدى .. وأنا كذلك لمست خادمك ولا خادم من أرسلك
وأنا ان أرسلت مرختى الى لبنان^(١٨) فان السماء تفتتح وترى الأخشاب
ملقاة على شاطئ البحر .. أعطنى الاشربة التى جئت بها لتقلع بسفينتك
التى تحمل أخشابك الى مصر .. اعطنى الجبال التى أحضرتها لتربط
بأحطكم أخشاب الارز التى ساقطها حتى لا تتكسر قلوبات الاشربة
فتتحطم وتهلك فى وسط البحر .. هاك : ان «أمون» يرعد فى السماء وهو
الى جانب «سوتخ»^(١٩) . حقا ان أمون أسدى الخير لكل البلاد عما لمصر
التى أتيت منها حين أسداه اليها قبل غيرها .. لان دقة الامر فيها قد
وصلت الى مقرى ، والعلم جاء منها الى حيث أقيم .. فما هذه السياحات
المزائفة التى دفعت الى القيام بها ! نقلت له : زائفة ؟ ان رحلتى ليست
زائفة ! ليست هناك سفن على النهر لا تخفى أمون ! وإن البحر له ولبنان
التى تزعم أنها بلادك .. له أيضا ! انها مزرعة ! «أمون — أوسرى»
سيدة السفائن قاطبة ! حقا انه أمون رع ملك الآلهة ذلك الذى قال لمولاي
حريصور «ابعث به» وهو الذى جعلنى أحضر بهذا الاله العظيم .. ولكن
انظر الآن .. لقد جعلت هذا الاله العظيم يقضى تسعة وعشرين يوما

(١٨) يزعم زكار بعل انه ما عليه الا أن يفتح فمه فتمطر كتلا من
الأخشاب .

(١٩) سوتخ هنا هو اله الرعد ويبدو أن حجة الأمير غير واضحة
تماما ، وهى أن ونامون جاء غير مستعد تماما مما قد يعرضه للغرق فلا
يملك أمون إذن الا أن يرعد - ويسلم زكار بعل بعد ذلك بأن أمون وهو
الذى برز فى بلاده فى عالم الفن والعلوم وأنها انتشرت من هناك الى البلاد
الآخري ولكن أمون بعد أن أعطى ما أعطى ليس له هنا من جدوى .

راسيا في مينائك دون علمك ! اليس هو هنا ؟ اليس هو ما كان ؟ وأنت تقف
 مسنوما على لبنان مع ربها آمون ! وأما ما نقوله بصدد الملوك السابقين
 الذين طلبوا الفضة والذهب ليؤتى بها اليهم فانهم لو رزقوا الحياة
 والصحة لما جعلوا السلع يؤتى بها ! انهم بدلا من الحياة والصحة جعلوا
 هذه الاشياء ترسل الى آبائك .. أما آمون رع ملك الآلهة فهو سيد هذه
 الحياة والصحة وءى كان سيدا لأبائك .. لقد قضوا حياتهم يقدمون
 الترابين لأمون ، وأنت كذلك خادم لأمون .. ان قلت «نعم سأفعل ذلك
 لأمون .. وتتم هذه المهمة فانك ستعيش وستكون موفقا وستحيا في عافية
 وستكون خيرا لكل بلادك وشعبك .. ولكن لا تستول شرها على متعلقات
 آمون رع ذلك الآلهة » حقا ان الاسد يصب مقتنياته .. مر كاتبك ان يأتى
 الى حتى ارسله الى «نس بانب دد» و «ننت آمون» الحكام الذين منحهم
 آمون شمال الارض . وسيرسلان لك كل ما تحتاج اليه وسارسل لهم قائلًا :
 «أرسلوها حتى أصل الى الجنوب وسأطلب ارسال كل ما أنا مدين به» ..
 هكذا تحدث اليه .

ووضع خطابين في يد رسوله ثم وضعوا الخشب في فراع المراكب
 والمقدمة والمؤخرة كذا أربع قطع اخرى .. ومجموعها سبع قطع وأمر
 بارسلها الى مصر . وذهب رسوله الى مصر وعاد الى سورية في الشهر
 الاول من فصل الشتاء ، وأرسل معه «نس بانب دد» و «ننت آمون»
 أربع جرار من الذهب واثنا «كاكمن» من الذهب كذلك ثم خمس جرار من
 الفضة وملابس من الكتان الملكي عدتها عشر قطع ، وعشر قطع نسيج من
 كتان الصعيد الرقيق ، وخمسمائة حصير ، وخمسمائة قطعة من جلود
 الثيران ، وخمسمائة حبل وعشرين زكية من المعدس وثلاثين سلة من
 السمك ، كما أرسلت (٢٠) الى خمسة أغطية من كتان الصعيد الرقيق
 وزكينة عدس وخمس سلال سمك .. وفرح الامير وخصص ثلاثمائة رجل
 وثلاثمائة ثور على رأسهم مسرفون لقطع الاخشاب وقطعوها وبقيت ملقاة
 طيلة الشتاء . وفي الشهر الثالث من الصيف سحبت الى شاطئ البحر

(٢٠) ننت آمون من غير شك .

وجاء الأمير وشهدها وأرسل في استدعائى وحسين جىء بى في حضرته سقط ظل مروحة اللوتس الخاصة به على ، ولكن «بن أمون» مساقيه اقترب منى قتلا : «ان ظا فرعون ربك قد سقط عليك» (٢١) وغضب منه الأمير وقال دعه وشأنه . وجىء بى في حضرته وقال لى هلك ان المهمة التى أداها أبائى من قبل أديتها أنا كذلك ولكنك لم تقل لى شخصيا ما فعله أبائك ؟ .. هلك ان آخر كتلة من الخشب قد جىء بها الآن وهى في مكانها .. نفذ رغبتى لشحنها فانها لك حقا .. ولكن لا تأت لتشاهد أهوال البصر فان كان لك أن تشاهد أهوال البصر فلتشاهد أهوالى كذلك .. حقا اننى لم أفعل بك ما فعل برسل «خج أم واسة» حين قضوا سبعة عشر عاما في هذه الارض وماتوا فيها . وقال لسائيه : «خذ ليشهد قبور عمى» ولكننى قلت له : لا تدعى أشهدا وأما بالنسبة لـ «خج أم واسة» (٢٢) فان من أرسلهم لك كانوا رجالا ، وهو نفسه كان رجلا .. وأنت ليس لديك الآن واحد من مبعوثيه حين تقول اذهب واشهد رفاقك ! ألا تسعد حين تفكر في أن تصنع لك لوحة يسجل فيها : أمون رع ، ملك الآلهة ، أرسل الى مبعوثه أمون الطريق مع مبعوثه البشرى «ون أمون» سحيا وراء الاخشاب لأجل القارب العظيم أمون رع سيد الآلهة ، وقد قطعها وحملتها وزودتها بسفنى وبحارتى وجعلتها تصل الى مصر تلتمس لى من أمون خمسين عاما من الحياة فوق أجلى الحدود ! وسيحدث حين يأتى مبعوث من مصر ملم بالكتابة ويقرأ اسمك على اللوحة التذكارية فانك ستتلقى ماء في القرب مثل الآلهة الذين هناك ! وقال لى هذا حديث شهادة مذكرته لى فقلت له : أما من جهة الاشياء العديدة التى قلتها لى فاننى اذا وصلت الى مقر كاهن أمون الاكبر وشهدت ما قمت به فان ذلك سيعود عليك بالفائدة .

وذهبت الى شاطئ البحر حيث الاخشاب وشهدت احدى عشرة

(٢١) تعبى ينم عن الاهانة من غير شك يعنى أن ونامون وفرعون كانا على السواء «تحت سحابة» .

(٢٢) ربما رمسيس التاسع ، ومن المؤكد ملك ، وكان رد ونامون على هذه الحجة أنه حتى الملوك انفسهم بشر ، أما هو ففى خدمة الاله .

سفينة قادمة وتنسب الى زاكار وهم يقولون «اسجنوه ولا تدعوا سفينته تتجه الى ارض مصر» فجلست وبكيت وجاعنى ككتب الخطاب لدى الامير وقال لى : «ماذا يحزنك ؟» فقلت له : ألتستشهد الطيور المهاجرة مرتين الى مصر ، انظر اليها كيف تأتى الى المياه الباردة ! حتى متى أترك هنا ؟ أو لست ترى من جاؤا ليقبضوا على مرة أخرى ؟ .. وذهب وأنهى نبأ ذلك للامير مما قيل له .. وكان أليما .. وأرسل لى كاتب خطباته بقدهين من النبيذ ونعجة وجاعنى هذا كذلك بـ «ثنتتة» وهى مغنية مصرية قتل لها : غنى له ولا تدعى قلبه يمتلىء شجنا . وأرسل الى يقول : كل واشرب ولا تقلق وستسمع غذا كل ما أقول لك . وفى الصباح استدعى مجلسه ووقف فيه وقال للزكاريين : ما معنى رحلتكم هذه ؟ فأجابوه قائلين «جننا ساعين وراء سفن الحرب التى جهزتها لمصر مع خصومنا فقتل لهم » أنا لا أستطيع أن أسجن مبعوث أمون فى ارضى .. فلأطلقه ثم تسعون وراءه لسجنه» وأطلقنى الى ميناء البحر وسأقتنى الريح الى ارض الآشيا (٢٣) ، وجاء الى القوم هناك ليقبضونى ولكننى استطعت أن أشق طريقي فى وسطهم نحو «حاتيا» أميرة المدينة ، ولقيتها خارجة من إحدى دورها الى دار أخرى ، وحييتها وقلت للواقفين من حولها : أليس بينكم من يفهم لغة مصر ، وقال أحدهم : أنا أفهمها ، فقلت قل لسيدتى حتى «نى» (اختصار نى ريسة ، أى المدينة الجنوبية = طيبة) والى حيث مقر أمون ، اعتدت أن أسمع أن الظالم كائن فى كل مدينة ، ولكن العدالة تقوم فى ارض «الآشيا» ، أفهتك ظلم يحيق هنا كل يوم ؟ فقلت ، ماذا تعنى بذلك ، فقلت لها : ان غضب البحر ، وسأقتنى الريح الى ارضك ، أفستسلمينى لأقتل ، رغم انى مبعوث أمون ؟ ، أما بالنسبة لى فسيبحثون عنى حتى نهاية الزمان ، وأما بالنسبة لبحارة أمير جبيل الذين يسعون وراء قتلهم ، أفسوف لا يجد مولا هم عشرة من ملاحيههم ويقتلهم مقابل ذلك ، وأمرت باستدعاء القوم وأصغوا اليها ، وقالت لى : اقض الليل .

(٢٣) تعرف عادة بانها قبرص .

وأما البقية فمفقود ، ولابد أن «نؤمن» نجسح في العودة الى الوطن ، والا فانه لم يكن يقدر لتقريره أن يكتب» .

وإذا ما أردنا مناقشة قصة «نؤمن — أمون» هذه ، فلعل أول ما يلفت النظر أنها تقدم لنا حوارا أدبيا ممتازا نرى ذلك واضحا حين تحل الكارثة الأولى بالكاهن «نؤمن — أمون» ، ويسرق في مدينة «دور» ، فانه يقول لأميرها : «لقد سرقت في ميناك ، ولكن أنت أمير هذا البلد وأنت راضيه» ثم يصل الى قوم «ثيكر» (٢٤) (زكار) ، فانهم يقولون : اسجنوه ولا تدعوا له سفينة تبحر الى أرض مصر» ، ويخرج «نؤمن أمون» من المازق الاول بأن يأخذ ثلاثين دبنا من الفضة رهينة حتى ترد اليه بضاعته ، وفي المازق الثاني نراه يستخدم في الخروج أسلوبا عاطفيا ، اذ يقول : ألم تر الطيور المهاجرة الى مصر مرتين ، أنظر اليها كيف ترد المياه الباردة ، وحتى متى سأظل مهملًا هنا ، وقد كان لحديثه أثر كبير ، حتى نرى الأمير يبيكي متأثرا بما قيل له ، ... وأرسل الى كاتب الرسائل ، ومعه قدحان من نبيذ وخروف ... ومغنية مصرية ... بغية أن تسترضيه .

هذا وتبدو حجة «نؤمن — أمون» واضحة قوية ، وذلك حين يسأله أمير جبيل (ببيلوس) عن تلك الرحلة الساخنة التي كلف بالقيام بها ، فيرد عليه بحجة قوية ، منها أنه لم يأت في رحلة ساذجة ، لان «أمون رع» ملك الآلهة وسيد الكون ، هو الذي أرسله — كما أرسل معه كذلك «تتمثال أمون الطريق» ، ومن ثم فيجب على «بعل زكار» ألا يطلب بذهب أو فضة ، لان «أمون رع» يستطيع أن يكافأ بالحياة والصحة ، ومع ذلك فان أمير ببيلوس يستطيع أن يرسل أحد رسله الى مصر ، فيدفعون له الدين ، وكان من نتيجة تلك المناقشات المفذة أن الأمير المعنيد لم يوافق فقط على إرسال أحد رسله ليحصل على الثمن ، وانما أرسل كذلك سبع كتل من خشب الارز مقدما قبل الدفع ، كما يبدو ذكاء «نؤمن — أمون» وقوة اقناعه في اقناع أمير ببيلوس بأن يقدم لوحة يسجل فيها ما قلم به نحو أمون ،

(٢٤) انظر عن الثيكر (محمد بيومي مهران : مصر والعالم الخارجى في عصر رمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٧٢ — ١٧٤) .

بل وبعد استطاع «ون - أمون» أن يوضح لأمير جبيل مدة قوة سيده «د. يحور» ومكانته ، بيدو ذلك واضحا من أن أمير جبيل يقول له في أول حديثه : لست خادما لمن أرسلك ؟ ، ثم هو في نهاية الحديث ، وبعد أن بين له خلويرة عدم امداده بما يطلبه أمون ، فإذا به يقنعه بضرورة انجاز ما يطلبه ويقول له : اذا ما وصلت الى المكان الذي فيه الكلعن الاكبر لأمون (يقصد حريحور) ، ويأى أن طلبه قد انجز فسوف تقال جزاء ما أدبت» .

ثم تظهر له القصة مدى اهتمام المصريين بأعيادهم الوطنية - حتى في أرض الغربة - وما يدل على تمسكهم بالتقاليد حتى في السفر ، اذ يقول «ون - أمون» : احتذلت بعيد في فساط على شاطئ البحر في ميناء كبن . هذا فسطا عن الاشارة الى عالمية أمون ، واعتراف أهل الشرق بسلطانته العالمي ، يقول أمير بيلوس (جبيل = كبن) على لسان «ون - أمون» : لقد أنشأ أمون كل البلاد ، بعد أن أنشأ أرض مصر من قبل ، وهدمى أن هذا انما هو اعتراف صريح من الاجانب بسلطان أمون ، فضلا عن اسبقية مصر على غيرها من الارضين ، وأخيرا يشير النص الى قوة أمون ومدى سلطانه ، يقول ون أمون لأمير جبيل : ان البحر ملك لأمون ، وان لبنان التي تقول أنها ملك لك انما هي ملك لأمون ، ثم يقول : أمون سيد لنا ، وما أنت الا خادم لأمون» .

هذا ويظهر النص كذلك مكانته الثقافية والفنية ، ومن ثم نرى (تكرار بل) انما يوافق على أن أمون هو سيد الكون ، وخالق كل المدينيات ، وأن المدينية انما جاءت الى فينيقيا (لبنان) من مصر ، وأن أمون قد أسدى الخير لكل البلاد ، ومن قبل أسداه الى مصر التي أتيت منها ، لقد أتت الممنون منها الى مكاني ، لقد أتت الحكمة منها الى مكاني (بلاد) ، كما توضح القصة العلاقات التجارية بين مصر ودول الشرق الادنى القديم ، ذاك أن أمير بيلوس انما يخبر «ون - أمون» انه توجد في مينائه عشرين سفينة تقوم بربط العلاقات التجارية مع «سمندس» (نسي بالغب دد) ، ثم كان في مصر ممثلون تجاريون ، اذ أن هناك خمسين سفينة تعمل مع «كلمن» - وهو اسم أحد الفينيقيين الذين كانوا يقيمون في «تانيس»

ويعملون في التجارة وشحن وتفريغ السفن ، ثم هناك سجلات كانت عند أمير بيلوس خاصة بعمليات الاستيراد ، أما عن المنتجيات التي كانت تصدر من مصر ، فقد عددها «(ون أمون)» ، ونستنتج منها أن مصر كانت تتمتع بمحاصيل مختلفة ، يمكن تصديرها إلى الخارج ، وعلى رأسها المواد الغذائية (٢٥) .

ولكن القصة — من ناحية أخرى ، انما تدل على مدى انهيار النفوذ المصري في غربي آسيا ، فلقد أنتهى الوقت الذى كان يسجد فيه أمراء غربي آسيا أمام ملك مصر ، ويمرغون جباههم في التراب ، طالبين منه أن يمنحهم نسيم الحياة ، وانتهت أيضا تلك الايام التى كان فيها سكان تلك البلاد يبادرون لتلبية أية اشارة تأتي من مصر ، فقد كانت آخر أيام عهد فلسطين بمصر وفينيقيا بالنفسوذ المصرى ، أيام أن كانت جيوش رمسيس الثالث (١١٨٢ — ١١٥١ ق.م) تجول خلال الديار الشمالية وتحميها من اذلال شعوب البصر لها ، وحبهم لنهب أموالهم وسفك دمائهم ، وهانحن الآن في أخريات أيام الاسرة العشرين (١١٨٤ — ١٠٨٧ ق.م) ولم تكتمض سبعون عاما على وفاة رمسيس الثالث ، حتى نرى مبعوث مصر عرضة للسخرية ، بل وسرقة أمواله وأمتعته ، فإذا ما أشر إلى حق مصر ، وحق أمون ، لم يجد الا ابتسامة الاستهزاء من حاكم جبيل ، الذى رفض مساعدته ، بعد أن نهب اللصوص ، وأخذوا الاشياء التى كانت معه ، والتى جاء بها من مصر ليقدمها ثمنا للاخشاب التى كان يود الحصول عليها .

وفي الواقع أن القصة رائحة ، ما في ذلك من ريب ، فقد صورت لنا طالة البلاد السياسية والاجتماعية والتجارية ، فهي مرآة لذلك العصر وما فيه من أحداث في الداخل والخارج ، وبالاختصار فهي تصور مدى ضعف فرعون مصر «(رمسيس الحادى عشر)» (١١١٤ — ١٠٨٧ ق.م) ، وانقسام سلطاته بين حريحور في طيبة وسمنديس في تانيس ، كما أنها توضح إلى أى مدى أصيب النفوذ المصرى في الخارج ، وضياع

الامبراطورية المصرية التى أقامها المتحامية ، وجهد الرعامة فى الحفاظ عليها .

وإذا ما أردنا شيئا من الايضاح لهذه الظروف التى كتب على الكتانة أن تمر بها فى هذه الايام النكدية ، فيمكن القول أن السلطات فى مصر كانت فى أخريات أيام رعميس الحادى عشر وقد قسمت بين « حريحور » و « نسي بانب دد » (سمندس) ، وأن رعميس الحادى عشر كان قد استقر غالبا فى « منف » ، حيث بقى هناك الى وفاة حريحور ، ثم عاد الى طيبة حيث استرجع بعض سلطته ، وإن كان هناك من يرى أن « نسي بانب دد » قد طرد الفرعون من عاصمته فى الدلتا ، وبسط نفوذه عليها بأكملها ، فهرب رعميس الحادى عشر الى عاصمته الدينية « طيبة » (الاقصر) وذلك فى السنة الخامسة من الحكم (حوالى عام ١١٠٩ ق م) وتعلون هناك مع رئيس الكهنة على بسط نفوذه على الصعيد والنوبة ، بينما رجع فريق ثالث فرار رعميس الحادى عشر من الشمال بواغتناب حريحور المرتس ، اعتمادا على أن زوجته من أصل ملكى (٢٦) .

وأما من الناحية الخارجية ، فليس هناك من دليل واضح على أن مصر قد احتفظت بسلطانها كاملا على فلسطين وسورية ، بعد وفاة رعميس الثالث ، صحيح أنه قد عثر على جدارين لرعميس الرابع (١١٥١ - ١١٤٥ ق م) فى تل الصافي وتل زكريا وتل جازر ، ولرعميس السادس (١١٤١ - ١١٣٤ ق م) فى تل أسانة بسورية ولكنه صحيح كذلك أن وجود مثل هذه الاشياء الصغيرة لا تدل على معان قوية لها من قيمة من ناحية سلطان مصر فى غربى آسيا ، ونفس الشيء يمكن أن يقال على وجود قاعدية تمثل من البرونز لرعميس السادس فى « مجدو » ويبدو أن فلسطين (خارو) ظلت تابعة لمصر لفترة من الوقت بعد عهد رعميس الثالث ، ولكن الفراعين لم يتمكنوا من منع « البابست » (الفلسطينيين

(٢٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٦ ، وكذا

J. Corny, Hrihor, and Ramesses, XI, in The Cambridge

Ancient History, Vol, II, Part, 2B,, Cambridge, 1975, p. 635-643.

الهنحدو - أوروبين) الذين تسمت البلاد باسمهم ، من احتلال المدن الساحلية لأرض كنعان ، كما تمكن «الثيكر» (زكار) من تكوين دويلة صغيرة في تالحية «دور» جنوبي الكرمل .

وعلى أى حال ، فإن الامور قد تغيرت في آسيا بالنسبة لمصر ، وحتى رأينا حاكم جبيل (بييلوس) يعقل رسل مصريين في عهد رمسيس التاسع مدى سبعة عشر عاما ، دون أن يسمح لهم بالعودة الى مصر ، وان يغير وجود قطعة من آثار رمسيس التاسع في جازر ، حقيقة أن العلاقات بين مصر ومستعمراتها الاسيوية شديدة الضعف ، بل ليس هناك من دليل على وجود فعلى لهذه المستعمرات في تلك الفترة ، نرى ذلك واضحا في «رحلة ون - أمون» موضوع الدراسة ، والذي ذهب ، كما رأينا ، مبعوثا عن كهنة آمون لشراء خشب الارز من بييلوس في عهد رمسيس الحادى عشر ، ولم ينجز مهمته الا بعد مسلومات مهيئة مع أمير بييلوس ، وهكذا تقدم لنا قصة «ون - أمون» دليلا على اضمحلال النفوذ المصرى في غربى آسيا ، بل على سرعة التدهور الداخلى بعد موت رمسيس الثالث ، مما يدل على ضياع النفوذ المصرى في سورية وفينيقيا أما نفوذ مصر في فلسطين فقد كان سوريا تتناقله السنة حاشية فرعون في البلاط الملكى المصرى (٣٣) .

كتبت قصة هذا الامير المقدور عليه ، أو الامير الذي تلاحقه يد القدر ، على بردية هاريس رقم ٥٠٠ والمحفوظة الآن بالمتحف البريطاني ، وترجع الى أيام الدولة الحديثة - عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وقد تيشمت نهايتها ، وأما أسلوبها فيشبه أسلوب «قصة الاخوين» ، والتكرار في عباراتها واضح ، شأن قصص الدولة الحديثة ، وعلى أية حال . فهي قصة خرافية ، وإذا حذفنا منها التماسيح وغيرنا الاسماء كانت أشبه بقصصنا الخرافية الحديثة .

هذا وقد اهتم بنشر القصة كل من « بدج »^(١) و « مولر »^(٢) و « جاردنر »^(٣) ، كما قام بترجمتها والتعليق عليها كثير من علماء المصريات من أمثال بييت^(٤) وجريفت^(٥) وماسيرو^(٦) ولوفيفر^(٧) وسكنوت^(٨) وبرونر - تروت^(٩) ، ووينتى^(١٠) ونسبيجلبرج^(١١) ، وارمان^(١٢) وبيير^(١٣) وهرمان^(١٤) وبوزنر^(١٥) وغيرهم^(١٦) . هذا فضلاً عن عدة ترجمات

-
- | | |
|---|------|
| B. A. W. Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in The British Museum Second Series, London, 1923, Pls. 48-52. | (١) |
| G. Moller, Leestucke, II, 1961, p. 21-24. | (٢) |
| A. H. Gardiner, LES, 1932, p. 1-9. | (٣) |
| T. E. Peet, in JEA, 11, 1925, p. 227-229. | (٤) |
| F. L. Griffith, in The World's Best Literature, p. 52 F. | (٥) |
| G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 185-186 | (٦) |
| G. Lefebvre, Op-Cit, p. 114-124. | (٧) |
| S. Schott, Op-Cit, p. 188-192. | (٨) |
| E. Brunner-Traut, Op-Cit, p. 24-28. | (٩) |
| E. F. Wente, Op-Cit, p. 85-91. | (١٠) |
| W. Spiegelberg, ZAS, 64, 1929, p. 86-87. | (١١) |
| A. Erman, LAE, 1927, p. 161-165, and The Ancient Egyptians, p. XXXII. | (١٢) |
| M. Pieper, ZAS, 70, 1934, p. 95-97. | (١٣) |
| A. Hermann, in Mélanges Maspero, I, p. 313-325. | (١٤) |
| G. Posner, JEA, 39, 1953, p. 107. | (١٥) |
| J. Cerny, in ASAE, 41, 1942, p. 336-338. | (١٦) |
| Girgis Mattha, ASAE, 51, 1951, p. 269-272. | وكذا |

عربية للقصة ، كليا أو جزئيا (١٧) .

وتتلخص القصة في أن أحد ملوك مصر لم يرزق بولد ، فلبثت إلى الله أن يرزقه صبيا ، فأجاب الاله سؤله بعد أمة . ولكن قدر على الصبي أن يموت بحادث من حوادث ثلاثة ، يكره الناس أن تصيبهم ، فاما أن يبتلعه تمساح ، واما أن تنهشه حية ، واما أن يعضه كلب ، وكان أبوه يعرف ذلك ويشفق من وقوعه ، فاحتاط لئلا يراها وسعته الحيلة ، حتى أنه بنى لولده هذا قصرا في الصحراء ليكون بعيدا عن أعدائه ، ولما بلغ الصبي أشده سعد ذات يوم على سطح القصر فلمح كلبا يسير وراء رجلا ، وطلب أن يأتوا له بواحد مثله ، وظل حزينا حتى سمح له أبوه بأن يحضروا له كلبا صغيرا .

وشب الصبي وأصبح رجلا ، وأراد الخروج يضرب في أرض الله حيث يشاء ، وانتهى به المطاف إلى وادي النهرين ، في نهارينا ، وعليها يومئذ ملك له بنت جميلة أقسم ألا يزوجها إلا لمن يمهرا بضرب من ضروب البطولة ، وذلك أن يقفز طالب يدها إلى شرفة قصرها التي ارتفعت عن الأرض ستة وخمسين ذراعا ، واستعصى أمر ذلك على جميع المدين طلبوها من أبناء الملوك والأمراء من أبناء الشرق ، إلا على ذلك الأمير المصري ، ولما وصل الخبر إلى أبيها الملك سال عنه ، فقيل له : أنه ضابط مصري ، هرب من وجه زوجة أبيه ، فاستولى الغضب على زعيم نهرين وقال : وهل يظن ذلك الهارب من مصر أنى سأزوجه ابنتي ، لابد أن يرحل في الضل ، فذهبوا ليخبروا الأمير بذلك قائلين : عليك أن ترحل إلى حيث كنت ، ولكن الفتاة أمسكت به وأقسمت بالاله قائلة : أقسم بالاله «رع» هار أختي» بأننى سأمتنع عن الأكل ، وسأمتنع عن الشرب ، حتى أموت إذا انتزعوه منى ، وذهب رسول يخبر الأب بما قالت ابنته ، فأرسل الأب رجالا ليقتلوه ، ولكن الفتاة قالت لهم : أقسم بالاله رع بأنهم إذا قتلوه

(١٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٢٧ - ٩٢٨ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠٥ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٠٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٠٤ - ٥٠٥ ، جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٧٨ - ١٨٧ .

لأكونن في عداد الاموات عند غروب الشمس ، فأنا لا أطيق أن أظل على قيد الحياة لحظة واحدة بعده ، فذهب الرسول ليخبر الاب بما قالت ابنته فلم يجد الاب مفراً بعد ذلك من أن يوافق على الزواج ، فأحضر الشاب وابنته أمامه وأظهر لهما احترامه وتقديره ، وقبل الشغب وضمه الى صدره ثم قال له : أخبرني بحالك ، لانك أصبحت بعثابة ابن لى ، فأجلب الشاب : أنا ابن ضابط مصرى ، ماتت أمى واتخذ أبى زوجة أخرى ، أخذت تسومنى سوء المذاب ، حتى لم أعد استطيع العيش معها في بيت واحد ، فهربت من وجهها ، وبعد أن استمع الملك له أعطاه ابنته زوجة له ، ومنحه منزلاً وحقولاً وقطعنا من الاغنام وكل ما كان يشتهى» .

وهكذا تزوج الامير المصرى بأميرة نهرين ، التى أحبته وأخلصت له ومن ثم فقد كشف الامير المصرى لزوجه عن سوء مصيره الذى خط له في لوح القدر ، وأنه سيموت عن طريق تمساح أو حية أو كلب ، فطلبت منه زوجته أن يقتل الكلب الذى معه فأبى ، وسهرت الاميرة على حياة زوجها ، وبذلت في سبيل ذلك كل ما استطاعت ، ولكن الحذر لا يغنى من وقوع القدر ، فمات الامير من عضة كلب .

وتشير وقائع القصة بعدئذ الى أثر الصلة بين مصر وبلاد الشرق يومئذ ، فالامير المصبي قد لقي في البادية أناساً يفهمون عنه ، ويتكلمون بلسان مصر ، وليس هذا بغريب ، فقد كان مما يعاب عند الكتّاب المصريين وقت ذاك أن يجهل أحدهم طرق السفر أو لغة التخاطب مع جيرانه ، ونقرأ في ورقة انستاسى الاولى عن كاتب يلوم زميله ويميره بأنه لا يعرف الطريق الذى يخترقه الى سورية ، وفي القصة أيضاً ما يصور آمال الوالد ولهفته حين ينتظر الولد ، وقد طال شوقه اليه ، ثم حلمه واشفاقه حين تصدته النفس بما يمكن أن يصيب الولد من مكروه ، وتصور حياة الفروسية التى كان يحياها امراء الشرق في ذلك الوقت ، فهم لا يطمعون كثيراً في المال وانما تستهويهم البطولة ، فيجدون أصحابها ، وينتظرون منهم أن يأتوا بكل معجز من الامر ، وأخيراً فان القصة انما تصور كذلك أخلاق الامير وزوجه ، فالامير يعرف نوع الميتة التى تنتظره على يدي

تمساح أو كلب ، ومع ذلك تأبى أخلاقه ويأبى وفاؤه أن يقتل الكلب لما عرض عليه ذلك ، حرصا على حياته ، حتى بعد أن أعدم التمساح والثعبان لان الكلب قد تربى في ظله فلم ير من الشبهة أن يزهق روحه ، وقد اظلهما سقف واحد ، والزوجة تمثل الاخلاص النقي الطاهر ، فما هي تسهر على حماية زوجها ، وتحرص على حياته ، وتنتظر رحمة ربه ، في الوقت الذي أسلم نفسه لمصيره المحتوم ، وطبقا لما جاء في القصة ، فالزوجة هي التي قتلت الثعبان الذي كان يتربص به المنون ، وهي التي اشارت عليه بقتل الكلب فأبى ، وهي التي كانت تبحث فيه الامل فتقول : ان ربك قد خلصك من أحد أعدائك ، وسينجيك من الآخرين .

ويدهى أن من يرى هذا الموقف الطاهر النبيل الذي وقفته هذه الزوجة من زوجها يقرنه بموقف الخسة الذي وقفته الزوجة مع زوجها «باتا» في قصة الاخوين ليأخذهم العجب من الاختلاف الكبير بين الموقفين تبعا لاختلاف المعدنين ، فالناس دون شك معادن ، ولا يبعد أن يكون كاتب هذه القصة هو نفسه كاتب قصة الاخوين ، وقد صور لنا التناقضين ليرينا أن المرأة لا تكون دائما شرا ، ولا تكون دائما خيرا ، بل انه اذا صفا جوهرها كانت مخلصا شديدة الاخلاص ، واذا خبت معدنها كانت خائنة ، بل هاجرة في الخيانة ، وأن الطبائع البشرية تختلف باختلاف الانسان وأصله (١٨) .

(١٨) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٢٧ - ٩٢٨ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠٥ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٠٩ .
جوستاف لوفيفر : المرجع السابق ص ١٨٢ - ١٨٧ وكذا

G. Mattha, Op-Cit, p. 269-272.

A. Erman, Op-Cit, p. 161-165.

E. F. Wente, Op-Cit, p. 85-91.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 117-124.

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 1-9.

G. Posener, Op-Cit, p. 107.

Mirian Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1976, p. 200-203.

الفصل الرابع

ادب الاناشيد

كان للدين أثر كبير في مصر القديمة ، وقد أدى ذلك — في موضوعنا — الى وجود الكثير من الاناشيد التي كان القوم يرددونها في المناسبات الدينية المختلفة ، والتي وجدت مسطرة على بعض المقابر والاهرامات ، فضلا عن نصوص التوابيت في الدولة الوسطى ، وكتاب الموتى فيما اتى بعد ذلك من عصور ، الى جانب العديد من الاناشيد التي قيلت في مدح المعبودات المختلفة ، وسوف نكتفى هنا ببعض الاناشيد التي قيلت في آمون وآتون .

اولا : من اناشيد آمون

كان «آمون رع» في عصر الدولة الحديثة هو اله الامبراطورية المصرية التي تكونت تحت لوائه ، وسيد الآلهة طرا ، ومن ثم فقد نسب اليه انتصاره كل ما يليق به ، فاعطوه الصفة العالمية ، وردوا اليه ربوبية النشأة الاولى ، كما ردوا اليه ربوبية النشأة الاخيرة ، واعتبروه ربا للوجود ، ذلك أن «آمون»^(١) انما قد أصبح — طبقا لتعاليم مدرسة طيبة ، التي تأثرت بمدرسة الاشمونين^(٢) — هو الاله الذي خلق بقية التاسوع — مع اله آهد الآلهة الثمانية في الاصل — .

ولما ابتغى شعراء القوم أن يمجّدوه نسبوا اليه صفات الاله «مونتو»^(٣) — اله الحرب القديم — ونعوت الاله «تحت»^(٤) — رب الدولة وحامي عرشها القديم ، ونسبوا اليه سيطرة وهيمنة على ما امتدت

(١) انظر عن «آمون» (محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية ٣٠٧/٢ - ٣١٣ - الاسكندرية ١٩٨٤) .

(٢) انظر عن نظريات المدارس المصرية (عين شمس والاشمونين وطيبة) عن فكرة الخلق في مصر القديمة (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٤٣ - ٢٦٥) .

(٣) انظر عن «مونتو» (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣٢١ - ٣٢٢) .

(٤) انظر عن «تحت» (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٣١٣ - ٣١٥) .

اليه آفاقهم السياسية والحضارية من انظار المعلم القديم^(٥) ، ومن ثم فقد وصف بأنه : «سيد بلاد المدجا ، وحاكم بونت ، أتوم الذى خلق البشر ، ونوع هياكلهم ، وصنع حياتهم ، وفرق ألوانهم ، جعل للوجه الذى جاء من أرض الاله فى الشرق لك ابتهالات كل بلد أجنبى . حتى غنان السماء ، وإلى آخر الأرض ، وإلى أعماق البحر الأخضر الكبير ... الواحد المنفرد ، الذى لم يكن له كفواً احداً .. الذى يعيش على الحق كل يوم»^(٦) .

ومنك من عهد الملك «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ - ١٤١٣ ق م) بردية محفوظة فى المتحف المصرى وتحتوى على «نشيد أمن رع الكبرى» ، وعنوانها : «نصية أمن رع ، ثورايون ، سيد جميع الآلهة ، الاله الطيب المحبوب ، الذى يعطى الحياة لكل من تدب فيه ، ولكل كائن صالح» ، وقد جاء فى المقطوعة الاولى منها :

«الحمد لك ، يا أمن رع ، يارب الكرنك ، المسيطر فى طيبة ، ثور أمه ، والاول فى حقله ، واسع الخطى سيد الصعيد ، ورب أرض الماتوى (قوم فى بلاد النوبة) وأمير بونت ، أكبر من فى السماء ، وأسن من فى الأرض ، رب الكائنات ، حافظ كل شيء ، وبناق فى كل شيء ، الوحيد فى طبيعته ... بين الآلهة ، ثور تاسوع الآلهة ، كبير كل المعبودات ، رب الحق ، والد الآلهة ، الذى برأ البشر ، وخلق الحيوانات ، رب كل ما هو كائن ، الذى ينبت الفاكهة فى الشجر ، وينشىء الاعشاب الخضراء للماشية» .

«وهو الصورة البهية التى خلقها بتاح ، جميل الطلعة ، الولد المحبوب الذى تمتحه الآلهة ، هو الذى صنع ما على الأرض ، وخلق ما فى السماء ، هو الذى يضىء الأرضين (مصر العليا ومصر السفلى) ويخترق السماء

(٥) عبد العزيز صالح : الوجدانية فى مصر القديمة - المجلة - العدد ٣١ - القاهرة ١٩٥٩ ص ١٤ .

(٦) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 211.

وكذا A. Erman, The Literature of Ancient Egyptians, London, 1927, p. 283.

في سلام ، ملك مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا) ، رع
المبجل ، زعيم الارضين ، عظيم القوة ، رب المقدرة ، صاحب الامر ، الذي
برأ الارض قاطبة ، أقوى من كل اله آخر ، الذي تبتهج الآلهة بجماله ،
الذي يقدم له الحصد في البيت العظيم (هيكل في نخن = البصيلية) ،
المتوج في بيت النلر (هيكل في بونتو = ابطو) ، الذي تحب الآلهة رائحته
الطيبة ، عندما ياتى من بونت « ، الذي تتضوع رائحته عندما ياتى من
أرض الملتوى ، جميل الحيا عندما ياتى من أرض الآله » . « وهو الذي
يسجد الآلهة عند قدميه ، عندما يعلمون أن جلالاته ، هو سيدهم ، رب
الخوف والرغبة ، ذو الارادة القوية ، والمطلعة للبهية ، من كثرت لديه
الاقوات ، الذي يخلق ما يعيش عليه الناس ، الإبتهال لك يا من خلقت
الآلهة ، ورفعت السماء ، وبسطت الأرض » (٧) .

وهناك أنشودة أخرى من عصر «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ — ١٣٦٧
ق م) ، كتبها شقيقان توأمان — هما سوتى وحوير — كانا يعملان مهندسين
معماريين في طيبة ، الواحد في طيبة الشرقية ، والاخر في طيبة الغربية ،
ويتعبدان فيها للاله آمون ، وقد جاء فيها :

« لك الحصد يا شمس كل نهار ، يا من تشرق في غير فتور في كل صباح ،
أنت «خبرى» الذي يجهد نفسه في العمل ، يفوق جمالك أشحتك بريق
الذهب الوهاج ، أنت «بتاح» صانع مصور لنفسك بنفسك ، أنت من تفرد
بذاته وصفاته ، مخترق الابدية ، ومرشد الملايين الى سواء السبيل ،
يراك المخلق عندما تذرع في السماء ، ولا يدركون كيف مسيرك ، انك
تذرع للكون بغير قيد ، ونهار الناس من تحتك ، لذا ما استويت في غرب
الدنيا ، دانت لك ساعات الليل ، واذا ما طويتها استقبل الكون نورك ،
وسمى المخلق في الدنيا بأمرك » .

(٧) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤١٥ — ٤١٧ ، سليم حسن :
الادب المصرى القديم — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٤٥ ص ٩٤ — ١٠٠ ،
A. Erman, Op-Cit, p. 282-288.
G. Roeder, Urkunden Zur Religion des alten Agyptens, p. 4F.
A. Scharff, Ag. Sonnenbeder, p. 61 F.

«ذلك المجد يا أتون للنهار ، يا خالق الخلق ورازقهم ، أنت أيها الصقر الكبير ، ذو الريش المختلف الالوان ، الذي ولدت لتتشيء نفسك ، الذي جئت من نفسك بنفسك دون أن تولد ، أي حور المسن في وسط آلهة السماء ، ذلك الذي تصعد نحوه البهجة في شروقه وغرويه مما ، يا خالق ما تنتجها الارض ، أنت خنوم امون البشر ، الذي تملك القطرين من أكبر الاشياء الى أصغرها» .

«أنت أم نافعة للآلهة والبشر ، أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته ، راع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدبر حياتها الرب الاوحد الذي يصل الى أطراف الكون كل يوم ، يراعى كل ما فيه من دابة ، أنت يا من تشرق في السماء ، يا من ينير العالمين بكوكبه ، سبدع الفصول والآلهة ، فالحرارة عندما تريد والبرد عندما تشاء ، أنت يامن يطوى الاعضاء ويحتضنها ، كل بلد يتوسل اليه عند طلوعه ، ليسبح بحمده» (٨) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن الاخوين — سوتي حور — انما يصفان اله الشمس — والذي أخذ أمون رع صفاته — بصفات ذات علاقة بعصر الثورة الاجتماعية الاولى ، ومن ذلك وصف الاخوين لأمون في صورة اله الشمس بأنه « راع شجاع يسوق ماشيته ، وهو ملاذها ومدبر حياتها » ، وهو وصف يرجع بنا الى عصر النصائح التي وجهت الى الملك الامناسي «لمرى كارع» ، حيث وصف الناس هناك

(٨) أدولف ارماني : ديانة مصر القديمة ص ١٢٣ — ١٢٤ ، أحمد بدوي : في موكب الشمس ٨٠٥/٢ ، وكذا

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 275-276.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 217. وكذا

F. Daumas, le Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 315. وكذا

BIFAO, XLI, p. 25 F. وكذا

J. A. Wilson, Op-Cit, p. 211. وكذا

بأنهم «رعيا الآله» (قطمان الآله)^(٩) ، كما يرجع بنا مرة أخرى الى نفس العصر ، حيث نرى في «تحذيرات الحكيم ايبو — ورا» وصف الآله بأنه «راعى للناس كافة»^(١٠) .

والامر كذلك بالنسبة الى ذلك النعت الخطير ، الذى يصف اله الشمس بأنه «أم نافعة للآلهة والبشر» ، ذلك لانه يحمل بين ثناياه فكرة مشابهة تشعر بالاهتمام ببنى البشر ، أى أن النواحي الانسانية فى سلطان اله الشمس ، الذى اشتبك فى ايحداها بوجه خاص رجال الفكر فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى لم يختلف بين العوامل السياسية القوية لذلك التسلط العالمى الجديد^(١١) .

ثانيا : من أناشيد اخناتون لاله اتون

١ - الانشودة الصغرى :

ليس هناك مقابر فى مصر أكثر ازدهاما بالنصوص المنقوشة من مقابر العمارنة ، التى كان أصحابها من أشرف البلاط الاخناتونى مولعين بأن يرسموا فوق جدرانها ما كانت عليه علاقاتهم مع ملوكهم ، ومن ثم فلن كثيرا ما كانوا يشيرون الى ذلك المذهب الجديد ، بفقرات وجمل كانت شائعة الاستعمال وقت ذاك ، أصبحت فى نهاية الامر تكون مجمل مذهب اخناتون ، كما فهمه الكتاب والرسمون الذين قاموا بزخرفة تلك المقابر . ومن هنا فقد كان علينا ألا ننسى أبدا ، أن البقية الباقية من مذهب

(٩) يقول النص : «البشر رعيا الآله ، خلق السماء والارض وفق رغبتهم ، وأجرى المياه دافقة لهم ، وخلق الهواء لتحييا به أنوفهم ، وهم الصورة التى خرجت من أعضائه ، وهو يرتفع فى السماء ليلبى رغبتهم ، وخلق العشب والماشية والطيور والاسماك ليقتاتوا بها ، وهو الذى ذبح أعدائهم ودمر أطفالهم ، بسبب مادبروه حينما قاموا بالعصيان ، ويشعر بالفجر حسب رغبتهم ، ويعبر السماء ليراهم ، ويسمعهم حين يكون ، ويعمل لهم حكاما فى البيضة (أى تعهدهم منذ صغرهم) ليكونوا سندا لظهور ضعفهم» (انظر

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 417.

A. H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 34.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 167. (١٠)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, p. 277. (١١)

آتون — والتي وصلت إلينا عن طريق جبانة العاصمة أخيتاتون — إنما قد مرت بشكل ألى بأيدي فئة قليلة من الكهنة المهملين غير المحققين ، ذوى العقول الخاوية الفاترة ، ممن لم يخرجوا عن كونهم أذنا لحركة عقلية دينية عظيمة (١٢) .

وليس هناك من شك فى أنه — ماعدا الانشودة الكبرى ، التى وجدت منقوشة على مقبرة «آى» (الملك آى فيما بعد) — فإن الرسامين إنما كانوا قلنمين فى غالب الامر ، بالقطع والذئف التى نقلت فى بعض الاحايين من الانشودة الكبرى نفسها ، أو من قطع أخرى ، ويضعونها مرتفعة فى هيئة أنشودة صغرى ، أصبحت الآن ذات قيمة علمية كبرى بسبب مسألة معلوماتنا عن دعوة اخناتون .

وعلى أى حال ، فلقد عزيت تلك الانشودة فى أربع حالات الى الملك نفسه ، أى أن الملك يشاهد ، وهو ينشدها أمام آتون ، وهك نصها :

«أنت تشرق فى بهاء أفق السماء ، أى آتون الحى ، أنت متللىء وقوى وجميل ، وحبك عظيم وكبير ، أشعتك تمتد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك ، ولونك الملتهب يجلب الحياة الى قلوب البشر ، عندما تملأ بحبك الارضين ، ايه أيها الاله الذى سوى نفسه بنفسه ، خالق كل أرض ، وبلىء كل من عليها وما عليها ، أن الناس وقطعان الماشية والغزلان والاشجار التى تنمو فوق البرية إنما تحيا جميعا عندما تشرق عليهم» .

«أنت أب وأم لكل من خلقت ، عندما تشرق فإن عيونهم ترى بواسطتك ، أن أشعتك تضىء العالم كله ، وعندما تشرق ينشرح كل قلب لانك سيدهم ، وعندما تغرب فى أفق السماء الغربى ، فإنهم ينامون وكأنهم أموات ، يلفون رؤوسهم بالغطاء ، ويتقف أنوفهم عن العطس ، حتى يعود شروقك فى الصباح فى أفق السماء الشرقى ، فيرفعون أذرعهم اليك تحبدا» .

J. N. Breasted, The Dawn of Conscience New York, London, (١٢)
1939, p. 287.

• وانظر محمد بيومى مهران : (اخناتون ص ٢٥٩ - ٢٦٢) .

«أنت تجعل قلوب البشر تحيا بجمالك ، لان الناس تحيا عندما ترسل أشعتك ، ويكون الكون كله في عيد ، لان الغناء والوسيقى وتهليل الفرح ، انما يكون في بيت «بن بن» في معبدك في أخيتاتون ، مكان الصديق الحائز على رضاك ، حيث يقدم لك الطعام والمؤونة ، ويؤدى لك الطاهر احتفالاتك السارة» .

«يا أتون الحى في مواكبك البهيجة ، كل ما خلقت يطرب أمامك ، ويفرح ابنك الجليل ، وقابه مفعم بالسرور ، يا أتون الحى ، المولود كل يوم في السماء انه يلد ولده الجليل «وع ان رع» مثل نفسه تملأ ، ابن رع ، المرتدى جماله ، «نفر ، خبرو ، رع ، وع ان رع» .

«أنا ابنك الذى تسر به ، والذى يحمل اسمك ، ان قوتك وبطشك انما يسكنان في قلبى ، أنت يا أتون الحى دائما وأبدا ، خلقت السماء العليا لتشرق فيها ، وتشاهد كل ما صنعت عندما كنت وحيدا (ولا شيء غيرك) ، آلاف الآف من الانفس ، موجودة فيك لتحفظها حية ، لان مشاهدة أشعتك هي نفس الحياة الأخرى في الآتوف» .

«ان جميع الازهار تحيا ، وكل ما تنبت الارض ينمو ، لانه تشرق عليهم ، كل الماشية تطفر على أقدامها ، والطيور تخرج من أعشاشها فتطير لمرحا ، وأجنحتها التى كانت مطوية تنتشر ، متعبدة لأتون الحى ، أنت يا خالق (١٣)» .

٢ - النشيد الكبير :

عثر على هذا النشيد في عام ١٨٨٣م في مقبرة «آي» (الملك آي فيما

(١٣) سليم حسن : المرجع السابق ص ٣١٠ - ٣١٢ ، محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق في مصر القديمة ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، وكذا Norman de Garis Davies, the Rock tombs of El-Amarna Vol, I, London 1903, p. 49-50. Vol, IV, London, 1906, p. 28-29, Vol, VI, London 1908, Pl. XV.

M. Sandman, Texts from the Time of Akhenaton, Brussels, 1938, p. 15 F.

بعد ١٣٣٩ - ١٣٣٥ ق.م) ، وهى المقبرة رقم (٢٥) فى جبلنة العمارنة^(١٤) وقد كان صاحبها «آى» واحدا من رجالات الدين الجسديد ومن أشد المتحمسين له على أيام «أخناتون» ، وقد لقى هذا النشيد الكبير اهتماما كبيرا من جانب العلماء المحدثين ، لانه يمثل النص الكامل ، الذى امكن العثور عليه حتى الآن ، لأنشودة اخناتون التى كانت حوت شك من عمل اخناتون نفسه . ومن ثم فهو يعتبر مصدرا أساسيا لذلك المعتقد الجديد .

ولعل هذا كله ، انما كان السبب فى أن علماء الايجبتولوجى - المصريين منهم والاجانب - قاموا بترجمته من النص المصرى الاصلى الى اللغة العربية ، فضلا عن كثير من اللغات الاوربية الحديثة ، ولعل من أشهر من قام بترجمة هذا النص من العلماء المصريين انما كانوا اساتذتنا الاجلاء : الدكتور سليم حسن^(١٥) ، والدكتور أحمد فخرى^(١٦) ، والدكتور عبد المنعم أبو بكر^(١٧) - طيب الله ثراهم - والدكتور أحمد بدوى^(١٨) ، والدكتور نجيب ميخائيل^(١٩) ، والدكتور رشيد الناضورى^(٢٠) ، والدكتور عبد العزيز صالح^(٢١) ، أطال الله فى أعمارهم وأفادنا بعلمهم . ووفقهم الى خدمة وطنهم .

(١٤) J.D.S Pendlebury. Tell El-Amarna, London, 1935, p. 54-56

N. de G. Davies, Op-Cit, VI. p. 29-31.

(١٥) سليم حسن : مصر القديمة - الجزء الخامس ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٠١ - ٣٠٩ .

(١٦) أحمد فخرى : مصر الفرعونية : القاهرة ١٩٧١ ص ٣٠٩ - ٣١٤ .

(١٧) عبد المنعم أبو بكر : اخناتون - القاهرة ١٩٦١ ص ٩٤ - ١٠٢ .

(١٨) أحمد بدوى : فى موكب الشمس - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٥٠ ص ٨١٦ - ٨٢٢ .

(١٩) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢١٠ - ٢١٤ .

(٢٠) رشيد الناضورى : جنوب غربى أسبأ وشمال افريقيا - الكتاب الثالث - بيروت ١٩٦٩ ص ٩٣ - ٩٨ .

(٢١) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - الجزء الاول - مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٣١٠ - ٣١٣ .

وأما العلماء الأجانب فمثل من أشهرهم «نورمان دي جاريس ديفز»^(٢٢) و «جيمس هنري بريسستد»^(٢٣) ، و «أدولف ارمان»^(٢٤) ، و «آرثر ويجسال»^(٢٥) ، و «هـ. ر. هول»^(٢٦) ، و «هـ. شيفر»^(٢٧) ، «م. — سفدمان»^(٢٨) ، و «جورج شتاندورف وكيث سيللي»^(٢٩) ، و «سير آلن جاردنر»^(٣٠) ، «جون ويلسون»^(٣١) ، «فرانسوا دوما»^(٣٢) ، و «الينور بل دي موت»^(٣٣) ، و «سيريل الدرد»^(٣٤) وغيرهم^(٣٥) .

Norman de Garis Davies, the Rock Tombs of El-Amarna (٢٢) VI, London, 1908, p. 29-31.

James Henry Breasted, The Dawn of Conscience. New York, (٢٣) London, 1939, p. 281-286.

J H. Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, p. 371-376. وكذا

Adolf Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, (٢٤) London, 1927, p. 288-291.

والنظر : أدولف ارمان : ديانة مصر القديمة، ترجمة ومراجعة عبدالمعزم أبو بكر ، ومحمد أنور شكرى ، القاهرة ١٩٥٢ ص ١٢٧ — ١٣٠ .

Arthur Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, (٢٥) p. 139-140.

A. Weigall, The Life and Times of Akhenaton, Pharaohs of (٢٦) Egypt London, 1934. وكذا

H. R. Hall, The Ancient History of the Near East, London, (٢٦) 1963, p. 306-307.

H. Schafer, Amarna in Rel und kunst, 1913, p. 63-70. (٢٧)

M. Sandman, Texts from the Time of Akhenaton, Brussels, (٢٨) 1938, p. 93-96.

Goerge Steindorff and Keith C. Seele, When Egypt Ruled The (٢٩) East, Chicago, 1963, p. 214-215.

Sir Alan Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, (٣٠) p. 225-227.

John A-Wilson, The Hymn to Aton, in ANET, 1966, p. (٣١) p. 369-371.

Francois Daumas, La Civilisation De L'Egypte Pharaonique. (٣٢) Paris 1965, p. 322-325.

Eleonoer Bille - De Mot. The Age of Akhenaton, Tranlated (٣٣) from the French, by Jack Lindsay, London, 1965, p. 84-89.

Cyril Aldred, Akhenaten, Pharaoh of Egypt - anew study, (٣٤) London, 1972, p. 131-134.

(٣٥) انظر : أدولف ارمان ، وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية

وهناك ترجمة للنشيد الكبير :

«تجليك في أفق السماء بديع ، أى أتون الحى ، يا أصل الحياة وبدئها ،
انك حين تشرق من جبل النور المشرقى تملأ الارض بجمالك ومحبتك ، انك
بوصفك رع تصل الى حدودهم ، وتخضعهم لابنك المحبوب» .

«انك أنت الاله الذى دان الجميع بحبه . أنت عال جدا ، ومع ذلك
فان أشعتك تشرق على الارض ، أنت فى وجوه البشر ، ومع ذلك فلا
يستطيع الواحد منهم أن يتكهن بسر قدومك ، حين تغيب فى الافق الغربى ،
وأن الارض تكون فى ظلام كالموات ، الليل ينقضى فى غرف النوم ،
والرؤوس منطاة ، لا ترى أعين أصحابها ، تسرق أمتعتهم — حتى وان
كانت تحت رؤوسهم — فلا يدركون» .

«الاسود تخرج من أوجارها ، والشعابين تنساب لتلدغ ، والظلام هو
المضوء الوحيد ، بينما الارض فى صمت ، لان صانعها يستريح فى الافق ،
وتصبح الارض زاهية عندما تشرق فى الافق ، وعندما تضىء فى النهار
كأتون ، وأنت تقضى الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل أشعتك ، فان
الارضين (مصر) تصبغان فى عيد ، يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم
عند احتفاظك إياهم ، فينظفون أجسامهم ويرتدون ثيابهم ، ويرفعون أكفهم
تعبدا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون فى الارض ، ليياشر كل منهم عمله» .

«الزهر ونبت الارض ينفث لمرآك ، وتتملكه النشوة لمحيالك بالانعام
تتراقص على أقدامها ، والطيور فى أوكارها تطسوى أجنتها وتشرها
تسبيحا لآتون الحى خالقها ، والحملان تقفز على أقدامها ، وكل ما يطير
أو يحط تهتر أعطافه لانك تشرق من أجله ، ومن ثم فالارض يأسرها
عامرة بحبك» .

«السفن تبحر شمالا وجنوبا ، وتعج الطرق بالنفاس ، والعشب

فى العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٤٤١ —
وانظر (محمد بيومى مهران : اخناتون — القاهرة ١٩٧٩ ص ٤٥٩-٤٥٦) .

والشجر يتمليل عند ظهور محياك ، والاسماك في النهر تتراقص لمراك
وأشعثك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم (البحر) •

« أنت يا من تجعل مسائل الذكر ينمو في المرأة ، ومن يصنع الماء في البشر ،
أنت يا من يأتي بالحياة للوليد ، وهو في بطن أمه ، أنت يا من تسكته
بتوقف دمعه ، أنت يا من رعيته في الجسد ، ثم تعطى الهواء ليتنفس كل
من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس في يوم مولده ، أنت يا من تفتح
فمه ، وتخلق له مقومات الحياة » •

« أنت يا من جعل الكنكوت يشقشق في قشرته ، أنت يا من منحته
الحياة ليسيش فيها ، وقدرت له ميقاتا في البيضة يخرج بعده ، وهو يصيح
(يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابلن خروجه من
البيضة » •

« ما أكثر أعمالك ، انها على الناس خافية ، أنت الاله الواحد الاحد ،
الذي ليس معه سواء ، وليس له من نظير ، برأت الدنيا حسب رغبتك ،
وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسمى على الارض بقدم ،
ويخلق في الفضاء بجناح ، خلقت بلاد خارو (سورية وفلسطين) وكوش
(النوبة) وأرض مصر ، ووجهت كل فرد الى موطنه ، ودبرت للجميع
شئونهم ، فأصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد أجله ، ولظلت الالسنه
بينهم في النطق متباينة ، والالوان متمايضة ، لانك ميزت بين بلاد وبلاد » •

« أنت تصنع فيضان النيل في العالم السفلى ، وتأتي به كـرغبتك ،
لتهب الحياة لأهل مصر ، أولئك الذين صنعتهم لذاتك أنت مولاهم جميعا ،
أولئك الذين تنهك نفسك من أجلهم ، أنت مولى كل أرض تشرق من أجلها » •

« آتون يا ضوء النهار ، يا عظيم المجد ، بلدانا نائية تهبها الحياة ،
وترسل الغيث من أجلها ، لقد صنعت نيلا في السماء (المطر) حيث يموج
الغيث فوق الجبال كالأخضر العظيم (البحر) ، ويسقي الحقول بين
القرى ، ما أجل تحبيرك رب الخلود ، فيضان في السماء لأهل القفـل
وحوان الفلا ، وما يرب على قدم ، وفيضان سواء لأرض مصر ، يأتي

اليها من دنيا العدم، الألسنة تغذى كل امرئ، وحين تشرق يضيون وينمون من أجلك» .

«أنت تجعل الفصول منتظمة لينجح كل ما صنعت ، جعلت هناك شتاء ليتعرفوا برحك ، وصيفا ليتذوقوا حرارتك ، خلقت السماء بعيدة لتضئ فيها ، ولتري كل ما صنعت ، وأنت وحيد تضئ في مختلف صورك كآتون الحى ، وتبدو رائعا ومشعا ، وأنت بعيد وقريب ، أنت تجعل من ذاتك وحدك ملايين الصور ، مدنا وقرى ، حقولا وطرقا وأنهارا ، كل العيون ترنو اليك لأنك أنت آتون ، الذى يشرق في النهار على الارض» .

«ليس هناك من يعرفك سوى ابنك «نفر ، خبرو ، رع ، وع ان رع» ، فقد جعلته عليا بمقاصدك وقوتك ، انك أنت الذى وهبته الحكمة ، أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ، وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم ، اذا ما أشرقت عايش الناس ، واذا ما غربت فانهم يموتون ، انك أنت الحياة ، ولا حياة للناس الا بك ، الحيون تستمتع بجمالك حتى تغيب ، فاذا ما غربت في الافق الغربى ترك الناس أعمالهم كلها ، ولكك عندما تشرق ثانية يزدهر كل شيء من أجل الملك» .

«الحركة في كل ساق منذ أن خلقت الارض ، أنت ترفعها من أجل ابنك الذى خرج من صلبك ، الذى يعيش على الحق ، سيد الارضين ، «نفر ، خبرو ، رع وع ان رع ، ابن رع» ، الذى يعيش على الحق ، سيد المظهر ، البهى ، اخناتون العظيم في خلوده ، مع زوجة الملك العظيمى التى يحبها ، سيدة الارضين «نفر ، نفرو آتون ، نفرتيتى» ، ألا غلتعش ولتزدهر الى ابد الآبدين» (٣٦) .

مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد

هذا هو نشيد اخناتون — كما جاء في مقبرة «آي» في جبانة العمارنة

(٣٦) اعتمدت هذه الترجمة على الترجمات الحديثة ، سواء اكانت هذه الترجمات باللغة العربية أو باللغات الاجنبية ، وللتى قام بها العلماء الذين اشرنا اليهم من قبل .

ولعلنا نستطيع — قدر الطائفة — أن نستخلص منه — وكذا من المنشيد الصغير — عدة حقائق ، تميز دعوة اخناتون ، وفكره الدينى ، عما كان شائعا فى مصر حتى أيامه ، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق م) ، وربما الى ما بعد أيامه كذلك ، ولعل من أهم هذه المميزات :

١ - الدعوة الى التوحيد :

ان من يقرأ أناشيد «اخناتون» بعناية ، ويقارنها بأناشيد الآلهة المصرية الاقدم منها الباقية لدينا ، انما يستطيع أن يشعر — بالرغم من بعض أوجه التشبه البسيطة — بمقدار الهوة السحيقة التى تفصلها بعضها عن بعض ، فمن كل الأحوالى الاسطورية التى غطت تعالما فى الاناشيد القديمة ، قبل اخناتون ، على مجد الآله نفسه ، لا يوجد منها أثر باق ، ذلك لان الامر كله فى أناشيد اخناتون انما ينصرف لأول مرة الى الوحدة وتوحيد الآله الجديد بصفة جدية حقا ، أو بمعنى آخر الى الوجدانية ، حتى انه لممكننا دون تردد أن نضمه الى جانب الاناشيد الكبرى لأية أمة أخرى (٣٧) .

وعلى أى حال ، فإن الوجدانية انما تبدو واضحة فى أناشيد اخناتون ، فى تلك الصفات التى يصف بها الفرعون الاله «آتون» ، فهو عنده الاله واحد أحد ، وذلك حين يقول : «أنت الآله الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواء ، وليس له من نظير» ، ومن ثم غائنا نرى بوضوح أن الاله اخناتون هذا ، انما هو الآله الاوحد ، يعمل وحده دون آلهة وسطاء معه ، ليس له عائلة (٣٨) أو حاشية ، وأن دور اخناتون فى الدعوة ، ربما لا يعدو دور النبى الذى يتلقى الوحي دون وسيط ، «أنت فى قلبى ، ليس هناك من يعرفك سوى ابنك ، قد جطته عليما بمقاصدك وهوتك ، انك أنت الذى

(٣٧) أدولف ارماني ، وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٨١ ، ٤٤١ .
(٣٨) يختلف آتون فى هذا عن الآلهة المصرية الاخرى ، التى كانت تكون لها عائلة مكونة من ثلوث يتكون من الآله الاب ، والآلهة الام والآله الابن ، كما فى «طيبة» حيث يوجد الآله آمون (الاب) والآلهة موت (الام) والآلهة خونسو (الابن) ، وكما فى «منف» حيث يوجد الآله بتاح (الاب) والآلهة سخمت (الام) والآله نفر توم (الابن) ، وكما فى اليفانتين حيث يوجد خنوم وعنت وتوسات ، وكذا عائلة أوزير وايزة وحوور ... وهكذا .

وهبته الحكمة» ، وحتى هذه «البنوة» ، فليست من نوع بنوة أسلافه الجسدية لربهم «آمون» ، عن طريق الزواج الالهي — كما كان البعض منهم يزعمون — وإنما هي في غالب الظن بنوة رمزية ، وهكذا كان «آتون» — في نظر اخناتون — الخالق الاوحد الذي يوزع القوى الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر (٢٩) .

وفي الواقع ، فإن الآتونية — كما يقول سير آلن جاردنر — لم تكن مجرد نظرية طبيعية ، ولكنها كانت توحيدا أصيلا ، وأن العظمة الحقيقية لهذا المصلح تكمن في الشجاعة المخلقية — وفي جهاده حتى آخر لحظة من حياته — ليزيح عن كاهل المجتمع المصري تجمعت النفائات الاسطورية الموروثة من الماضي ، والتي تراكمت على عقله ووجدانه ، حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره السليم ، ورغم أن هناك من يعتبرها عظمة سلبية ، ولكنها — على أي حال — عظمة ، ليس من العدل أن ننكرها عليه ، فإنه لا يمكن مناقضة القول بأن سلوك اخناتون كان أكثر الامور غامعية في اثاره سخط أعدائه ، وكان كلما ازداد قوة ، ازدادت الحماسة التي يعمل بها على اضطهاد التقاليد البالية ، التي ظلت دهرًا موضع التمجيد (٤٠) .

٢ - الدعوة الى دين عالمي :

وفي هذا المجال ، نرى اخناتون إنما يحاول أن يقدم للبشرية دينًا يعتنقه الناس في كل البلاد ، بإذلا الجهد — كل الجهد — في أن يحل هذا الدين محل القومية المصرية التي التزمها أهل مصر منذ أقدم العصور ، فعاشوا عليها قبل عصر اخناتون ، بحوالي عشرين قرنا مضت من قبل ، ومن ثم فلا غرابة إذا اعتبرنا اخناتون قد سبق العصر الملائم لظهوره بعدة قرون ، ولا غرابة أيضا إذا كان المصري في ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانة اخناتون ، ولم يستطع التعرف على كنهها ، وهكذا يمكن القول

(٢٩) أندريه ايمار ، وجانين أوبوايه : الشرق واليونان القديمة ، ترجمة فريد داغر ، وفؤاد أبو ربحان ، بيروت ١٩٦٤ ص ٩٧ .
(٤٠) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 227- (٤٠)

أن اخناتون انما يمثل عبقرية تم نضجها في وقت سابق لاوانها وأن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، انما كان ميلادا مبكرا جدا لها (٤١) .

ولعل السبب في ذلك ، أن أحدا لم يكن يفكر وقت ذاك في أن العالم وحدة ، أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه ، غير أن فكرة الصلة الدولية انما كانت قد نضجت في مصر في أوائك القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وسرعان ما تمت معها فكرة وحدة العالم ، وللمرة الاولى في تاريخ هذه الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطوري ، وتلك هي أقدم صورة في التاريخ لفكرة التوحيد ، كما وصلت اليها خبرة الشرق القديم .

وفي هذا الوقت الحرج ، تولى «أمنحتب الرابع» حكم مصر (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق م) وكان شابا كثير التفكير ، شجاعا لا يخاف ، أصر على اجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة ، وأن يغري الناس بمباداة إله واحد ، فكان هذا العمل من جاذبه حدثا جديدا لا مثيل له في التاريخ البشري ، ومن ثم فقد أصدر أوامره الى جميع شعوب الامبراطورية المصرية - بما فيها آسيا وافريقيا - ليعبدوا إلهها واحدا أسماه «آتون» ، وأغلق المعابد وطرد الكهنة ، ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم ، وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا ، وبخاصة في نقوش المعابد ، وكره الشرك فأمر بتكسير علامة الجص أينما وجدت في أى نص يذكر كلمة الإله في صيغة الجمع (٤٢) .

ويؤكد العلامة «برستد» أن الاجل لو امتد باخناتون لأقام عقيدة دينية عالمية مركزها مصر ، ثم تنتشر في جميع أنحاء العالم ، ويحلل المسالم

(٤١) عبد المنعم أبو بكر : المرجع السابق ص ١٠٢ - ١٠٣ ، وكذا

J. W. Breasted, The Dawn of Conscience, 1939, p. 289-290

A. Weigall, Histoire De L'Egypte Ancienne, 1968, p. 140.

C. Aldred, Op-Cit, p. 63.

(٤٢) جيمس هنرى برستد : انتصار الحضارة ، ترجمة أحمد فخري ،

القاهرة ١٩٦٦ ص ١٣٧ .

الامريكي الشهير على رأيه هذا ، باقامة اخناتون معابد لمعبدته الدينية في جميع أنحاء الامبراطورية المصرية (٤٣) .

على أن هناك من الباحثين من يذهب الى أن عالمية الدعوة في ديانة اخناتون ، انما كان الهدف منها سياسيا أكثر منه دينيا ، اذ ربما كان المخطط السياسي لـ اخناتون توحيد جميع رعايا الامبراطورية المصرية وحل عقيدة مقبولة من الجميع تستند الى قوة الشمس نفسها (٤٤) ، حتى أن اسم اله الشمس الجديد (آتون) ، انما كان يوضع في الطمراء الفرعوني باعتباره شعارا ملكيا مزدوجا (٤٥) .

هذا وربما كن من دوافع اخناتون السياسية ، أن الرجل تطلع الى ما وراء حدود بلاده ، فإذا بالروابط التي استنتها أجداده وآبائوه لتوطيد صلات مصر بطفاتها وجيرانها ، عن طريق التلويح لهم ببأسها تارة ، وتنشئة أمرائهم في العواصم المصرية تارة أخرى ، والاصهار اليهم تارة ثالثة ، قد أوشكت جميعها على الوهن ، ولم يعد بد من أن يحل محلها روابط جديدة (٤٦) .

٣ - القضاء على التفرقة العنصرية :

وتبدو هذه الفكرة بوضوح — لا لبس فيه ولا غموض — في قول اخناتون : «خلقت بلاد خارو ، وكوش ، وأرض مصر» ، ذلك أن الداعية العظيم لم يجد أي حرج في أن يذكر اسم مصر العظيمة بعد ذكره الشام والسودان ، وهما من موالي مصر ، مادام الخالق الرازق واحدا ، رحيمنا هنا ، ورحيما هناك ، جوادا هنا ، ومنعما هناك ، خلق الجميع على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومواطنهم ، وتكفل برزقهم ، وكان ممجزا حين وهب

J. H. Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt London, 1959, p. 332. (٤٣)

جان يويوت : مصر الفرعونية ص ١٣٠ وهكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, p. 320. (٤٤)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York. London, 1939, p. 296. (٤٥)

(٤٦) عبد العزيز صالح : الوجدانية في مصر القديمة ص ١٧ .

ومن ثم فقد تخلى اخناتون في دعوته عن الكبرياء ، التي كان ينظر بها المصريون الى تلك الشعوب . اذ كانوا يعتقدون أنهم وحدهم الناس (أو الرجال) أما الاجانب فلا ، ومن ثم فقد كانوا ينظرون اليهم باذراء ، ويطلقون على رؤسائهم لقب «نوغد» (٤٨) — كما أثّرنا من قبل — ذلك لان الاله الخالق — فيما يرى صاحب الدعوة — انما خلق الناس جميعاً ، وأن ظلت الالسنه بينهم في المنطق متباينة ، والهيات والالوان متميزة ، ومن ثم فهم يتساوون في الحقوق والواجبات (٤٩) ، ولهذا — وكما يقول اخناتون في النشيد الكبير «ما أجل تدبيرك رب الخلود ، فيضان في السماء لأهل القفار وحيوان الفلا ، وما يدب على قدم ، وفيضان سواء لأرض مصر ، ياتي اليها من دنيا المدم» (٥٠) .

وهكذا لم تقدم لنا نصوص اخناتون فكرة عالمية الاله الخالق فحسب ، وإنما تقدم كذلك الرعاية العالمية لهذا الاله الخالق وعدالته ، التي تجعله

(٤٧) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ص ٣١١ .

A. H. Gardiner, in *EA*, I, 1914, p. 30, *Egypt of the Pharaohs*, (٤٨) 1964, p. 37, *Egyptian Grammar*, 1966, p. 361.

(٤٩) لاشك ان هذه المساواة لاتبدو واضحة ، الا في الاسلام ، ولنقرأ في هذا المجال ، قول جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس ان الله قد اذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاضلها بابائها ، فالناس رجالان ، رجل بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، ثم قرأ قوله تعالى : «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم» (أنظر : سورة الحجرات : آية ١٣ ، وكذا : تفسير القرطبي ٣٤١/١٦ ، وتفسير ابن كثير ٢٦٦/٧ ، سيرة ابن هشام ٤١٢/٢ ، طبقات ابن سعد ١٠٣/٢ ، مجمع الزوائد للهيتمي ٢٦٦/٣) ، ويروى عنه — ﷺ — انه قال : «ان الله لا ينظر الى اجسامكم ولا الى انسابكم ولا الى احسابكم ولا الى اموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحن الله عليه ، انما انتم بنو آدم ، وأحبكم الى الله اتقاكم» (أنظر : تفسير ابن كثير ٢٦٥/٧ ، تفسير القرطبي ٣٤٢/١٦ ، صحيح مسلم : كتاب البر ١١/٨) ، كما يروى عنه — ﷺ — قوله لابي ذر : «انظر فانك لست بخير من احمر ولا اسود» .

(٥٠) أنظر : أدولف ارمان : المرجع السابق ص ١٣٠ ، وكذا

F. Daumas, *Op-Cit*, p. 326.

يعنى بكل مخلوقاته في هذا العالم ، وعن هذا يقول «الكسندر موريه» (١٨٦١ - ١٩٣٨) : انه للمرة الاولى ينظر الى الديانة كخير عالمي بين اقوام يختلفون في اجناسهم ولغاتهم ودياناتهم ، فانه اخناتون لا يفرق بين المصريين وغيرهم من البرابرة ، فالناس عنده سواء ، وهو ربهم جميعا ، وهكذا تقدم لنا نصوص العمارنة الها للناس كافة ، يمد اليهم جميعا رحمته ، بل انما يمد هذه الرحمة الى الحيوان والنبات ، وكل ما يدب على الارض بقدوم ، ويخلق في الفضاء بجناح (٥١) .

وتضيف «الينور بل دي موت» انه للمرة الاولى في التاريخ ، نرى هرعونا يدعى الاجانب في صراحة تامة الى عبادة اله يتعبد اليه شعبه ذاته ، كما انه للمرة الاولى كذلك تفهم الديانة كرباط يوحد بين البشر ، على اختلاف اجناسهم واللوانهم ولغاتهم ، فانه اخناتون لا يفرق ابدا بين المصريين وغيرهم . ممن كان القوم يطلقون عليهم اسم برابرة — لان البشر امامه سواسية ، ومن ثم فيجب عليهم ان ينظروا الى انفسهم ، وكأنهم جميعا اخوة (٥٢) ، ومن ثم فان هذه العقلية الغريبة — فيما يرى برستد (٥٣) — هي التي جعلت الاثريين يعتبرون اخناتون النبي الاول في التاريخ (٥٤) .

وهكذا لم تكن ديانة آتون لحصر وحدها ، بل كانت للعالم كله ، فيسبب

(٥١) محمد عبد اللطيف : فكرة الخلق في مصر القديمة من ٢٦٦ ،

A. Moret, *Rois et Dieux d'Egypte*, Paris, 1923, p. 70, 74.

Eleonore Bille - De Mot. *The Age of Akhenaten*, London, (٥٢) 1965, p. 89.

J. H. Breasted, *A History of Egypt*, N. Y., 1946, p. 377. (٥٣)

(٥٤) لاشك في ان اول نبي انما كان «آدم» عليه السلام . فقد جاء في حديث ابي ذر المشهور ، انه دخل المسجد النبوي الشريف ، فوجد رسول الله ﷺ ، جالسا وحده فسأله عن اشياء منها الصلاة والهجرة والصيام والصدقة ثم سأله : كم الانبياء ؟ فقال : مائة الف واربعة وعشرون ألفا ، قال : قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير ، كثير طيب ، قال : فمن كان اولهم ؟ قال آدم ، قلت انبي مرسل ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وسواه قبيل (انظر : تفسير ابن كثير ٢٢/٢ - ٤٢٦ ، ثم قارن مسند الامام احمد ٢٦٥/٥ - ٢٦٦ تفسير روح المعاني ٨٨/٢٤ ، مجمع الزوائد ٢١٠/٨ ، واما اول رسول فهو «نوح» عليه السلام (تفسير المنار ٥٠٣/٧ ، ٤٣٦/٨) .

هذا الاله عاشت الاسماك في البحار والوحوش في الادغال ، والزواحف في جحورها ، والنبات في الحقول ، بل ان هذه الفكرة من ديانة آتون انما قد امتدت آثارها الى ما بعد عصر الداعية العظيم ، وذلك في الاناشيد التي تلت عصره ، كما في أنشودة لآمون موجودة في ليدن ، وأخرى من عصر الرعامسة ، وثالثة من نفس العصر كذلك (٥٥) .

٤ - التركيز على قدرة الخالق :

يركز اخفائون في نشيده الكبير على الاله الخالق ، الذي يهب قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشرا ، ويهب الحياة للجنين وهو في بطن أمه ، واذا ولد أنطقه ودبر أمره ، ثم هو يعنى بأفراخ الطير ، كما يعنى بأجنة البشر ، فالفرخ يكون على أهبه «الصورة» وهو في البيضة المحكمة ، ويقدر الاله أنفاسه وهو فيها ، ويهبه القدرة على نقيها وهو فيها ، وكلا منطلق هذا الوصف أن يقول : لها، هناك اله يعبد غير هذا الاله القادر (٥٦) .

ولنقرأ هذا النص في النشيد الكبير : «أنت يا من يجعل سائل الذكر ينمو في المرأة ، ومن يصنع سائلا في الرجل ، أنت يا من تأتي بالحياة للوليد ، وهو في بطن أمه ، أنت يا من تسكته بتوقف دمعه ، أنت يا من رعيته في الجسد ، ثم تعطى الهواء ليعيش كل من خلقت ، انه ينزل من الجسد فيتنفس في يوم مولده ، أنت يا من تفتح فمه ، وتخلق له مقومات الحياة ، أنت يا من تجعل الكتكوت يشعلق في قنصرته ، أنت يا من وهبت الحياة ليعيش فيها ، وقدرت له ميقاتا في البيضة يفرج بعده ، وهو يصيح

(٥٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٣٠٨ ، محمد عبد اللطيف : المرجع السابق ص ٢٦٢ ، وكذا

A. H. Gardiner, *Historical Popri in the British museum. Third Series* Chester Beatty Gift, London, 1934, P. 32-34.

Jean Capart and others *Thebes, The Glory of the Great past*, p. 79-80.

A. Erman, *Op-Cit*, p. 203.

(٥٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ .

(يصوصو) بكل ما لديه من قوة ، ثم يسير على قدميه ابان خروجه من البيضة» •

• - اظهار الرحمة في صفات الاله الخالق :

جهد اخناتون على أن تقدم دعوته الاله الخالق في صورة الاله الرحيم بمخلوقاته جميعا ، ومن ثم فقد تخيرت الدعوة الجديدة روابط العطف والمحبة ، دون الجبروت والبطش ، وأعلنت أن ربها عظيم المحبة ، تفيض الآؤه على العالم بأسره ، ويضفي على الدنيا كلها بهاء وجماله ، وليس من شك في أن هذا التفكير الجديد في الآتونية ، انما يرفع من شأنها الى حد بعيد ، يرق كل ما كانت وصلت اليه ديانة المصريين القدامى ، أو ديانات الشرق بأجمعه حتى ذلك الوقت •

صحيح أن الحكيم المصري «اييو - ور» (من عصر الثورة الاجتماعية الاولى) قد صور اله الشمس من قبل ، على أنه الراعى الرحيم بعباده ، وصحيح أن الناس انما كانوا في نظر النصائح الموجهة الى «مرى كارع» ، «قطمان الاله التي من أجلها صنع الماء والهواء والطعام» ، ولكنه صحيح كذلك أن اخناتون انما يذهب في دعوته الجديدة الى أبعد من ذلك ، حيث يصف الهه في الانشودة الصغرى بقوله : « أنت أب وأم لكل من خلقت» (٥٧) ، بعد أن كان الملوك السابقون يعتقدون أن الاله الاعظم هو الذي يهب النصر ويسحق الاهالى ، ويسوقهم حاملين الجزية أمام عجلة فرعون ، أما اخناتون فقد رأى في الاله رأفة ورحمة لخلقه جميعا على السواء ، ويعتبر هذا المذهب أقدم ما عرف من علم التوحيد (من غير الانبياء) ، ولاشك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله ، وبرحمته ورأفته ، ووجود سره المكنون في كل مخلوقاته (٥٨) •

J. H. Breasted, The Dawn of conscience, p. 288, 201-292.

(٥٧)

C. Aldred, Op-Cit, p. 63.

N. de G. Davica, Op-Cit, IV, Pl. 32.

وكذا

A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 34.

وكذا

The Admonitions of an Egyptian Sage Leplig 1909.

وكذا

J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 377.

(٥٨)

وهكذا كان جميع العالم الحي — في نظر تلك الروح الصالحة التي كانت تملا قلب الداعية العظيم — يماؤه شعور قوى بوجود «آتون» ، والاحساس بتسفتته الابوية ، فمستنقعات السوسن ، بأزهارها النشوانة التي تينع بأشعاع آتون الاخاذ ، وطيورها التي تنشر أجنحتها تبعدا لآتون الحي ، والماشية التي تطفر فرحة في ضوء الشمس ، والسماك الذي يثب في النهر مرحبا بالنور العالى الذي تنفذ أشعته حتى في وسط الاخضر العظيم ، كل ذلك يكشف لنا عن مدى ادراك اخناتون لذلك الوجود العالى للاله ، وسيطرته على الطبيعة ، وعن ادراك باطنى لذلك الوجود عند كل المخلوقات (٥٩) .

ولنقرأ هذه الفقرات من أنشودة اخناتون : «الزهر ونبت الارض يزدهر لراك ، وتتملكه النشوة لمحيك ، والانعلم تتراقص على أقدامها ، والطيور في أوكارها تطوى أجنحتها وتنتشرها ، تسببها لآتون الحي خالقها ، والحملان تنقفز على أقدامها ، وكل ما يطير أو يحيط تهتر أعطافه لانك تشرق من أجله ، الارض عامرة بصبك ، والعشب والشجر يتمايل عند ظهور محياك ، وأسماك الماء تتراقص لراك ، وأشجنتك تنفذ الى أعماق الاخضر العظيم» (٦٠) .

وهكذا يبدو واضحا مدى بساطة وجمال ايمان هذا الشاب الفرعون بالاله الواحد الاوحد ، والتي أوصلته عقيدته الى الايمان بأن الاله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط ، بل انه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، بما فيهم المصريون والاجانب ، وكان «آتون» أبا رحيم ، يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته ، حتى الطيور التي تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته ، فترفع أجنحتها كما يرفع الانسان ذراعيه شكرا له (٦١) .

وفي الواقع ، أننا لو تتبعنا تطور الانسان وتقدمه خلال آلاف السنين،

J. H. Breasted, The Dawn of conscience, p. 292. (٥٩)

(٦٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٩ .

(٦١) جيمس هنرى برستد : انتصار الحضارة ص ١٢٨ .

فاننا لن نرى - من غير الانبياء الكرام - أحد قبل «اخناتون» عرف الصورة الصحيحة للاله الواحد الرحيم بكل الكائنات^(٣٣) ، وهذا الاله الخالق ، المعين الرحيم ، قد أعطى نعمه للبشر أجمعين ، فضلا عن جميع المخوقات الحية في كل مكان ، ولم يقتصر ذلك على المصريين وحدهم ، ومن أجل هذه النعم كثر العابدون يرفعون شكرهم وخضوعهم للاله «أتون»^(٣٤) .

٦ - التفسير العلمى لفيضانات النيل :

من المعروف أن مصر انما تعتمد في حياتها على النيل ، ومن ثم فقد كان من المسخيل تجاهل ذلك المذبح الحيوى للحياة في عقيدة «أتون» ، والواقع - فيما يرى برستد - أنه لا شئ يكشف لنا بوضوح قيمة عقيدة اخناتون ، وميله الى الاعتماد على العقل ، أكثر من أنه مما بلا تردد تلك الطائفة من الاساطير التي كانت محل تبجيل القوم واحترامهم ، وتلك التقاليد التي كانت تتلألأ كل احترام عند القوم ، والتي تذهب جميعها الى أن «النيل»^(٣٥) انما هو الاله «أوزير» لعدة زمان مضت ، فجاء اخناتون ونادى في دعوته الجديدة ، بأن الفيضان انما يرجع الى أسباب طبيعية ، يسيطر عليها الاله «أتون» ، وهو الذى خلق كذلك - وبمثل ذلك

(٦٢) نفس المرجع السابق ص ١٣٨ - ١٣٩ .

J. H. Wilson, The Culture of Ancient Egypt Chicago, 1963. (٦٣) p. 229.

(٦٤) كان المصرى القديم يطلق على النيل اسم (ايترو - عا) أى «النهر العظيم» ، أما لفظة «النيل» فهي تصحيف لفظ «نيلوس» التي أطلقها اليونانيون على هذا النهر ، أما النيل كاله ، فقد أطلق عليه المصرى اسم «حعبى» ، ولم يكن «حعبى» هذا هو النهر المقدس ، وانما كان ذلك الاله أو الروح التي تكمن وراء النهر العظيم ، والتي تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنعاء ، وصور المصرى هذا الاله في هيئة بشرية تجمع بين الانوثة والذكورة في هيئة صياد السمك ، يلتحى باللحية التقليدية للآلهة ، له ثديا امرأة وبطن مترهل .

هذا وكان لانتشار عقيدة «أوزير» ، وكان من بين ما أطلقوا على النيل من أسماء «وذن نفر» ، وهو من أسماء أوزير ، كما وحد المصرى بين النيل وبين بعض الآلهة الأخرى التي كانت لها صلة بخصوبة الأرض ، أو المياه مثل «خنوم» الذى كان يطلق عليه «رب المياه الطاهرة» (الموسوعة المصرية ١٠٥/١ - ٢١٦) .

الاهتمام — نيلا آخر في السماء (أى المطر) لغير مصر من الاوطان^(٦٥).

٧ - الدعوة الى الصدق :

كان الداعية العظيم شغوفاً ، أشد الشغف بالصدق — قولاً وفعلًا — يبدو هذا واضحاً في فنون ذلك العصر — كما سوف نرى بوضوح فيما بعد — ويبدو كذلك في أقواله التى منها : «اننى أعيش على الصدق ؛ وأترود من صدق (أو عدالة) قلبى» ، بل ان الرجل لنما قد ذهب في هذا الى أن يسمى عاصمته الجديدة «أخيتاتون» كما جاء في الانشودة الصغرى «مكن أو مقر الصدق»^(٦٦) .

هذا فضلاً عن أن الداعية العظيم لم ير ، هو وأسرته ، غائبة من الاحتجاب عن رعيته ، وكان شديد الشفقة بأطفاله ، ويظهر في كل الاختلافات مع زوجته وبناته ، وكأنه كاتب صغير في معبد آتون ، وقد رسم نفسه وهو يعامل أسرته ببساطة وبدون تكلف ، ذلك لأنه إنما قد اعتقد أن الطبيعة قد غطرت على الحق والصواب ، ومن ثم فقد أجهد نفسه في إعلان صدق هذا الرأى ، كلما اقتضت الظروف التخلّى عن عادات أجداده السابقين^(٦٧) .

هذا وقد انتشرت مبادئ الصدق بين رجالات بلاط فرعون الذين كانوا يطعون مدى اعتقاد اخناتون الشديد في «ماعت» (الصدق — العدالة — الحق) ، ومن ثم فقد كانوا — كسيدهم الفرعون — يعظمون الصدق كثيراً ، وهكذا رأينا «آى» يقول عن الملك : «انه قد أحل الصدق في جسمه ، وأن الذى كان يمهته إنما هو الكذب ، واننى أعلم أن (نوع) ان رع» (أى اخناتون) يمرح في الصدق» ثم يؤكد «آى» بعد ذلك ، أن «أتون» إنما هو «واحد أحد ، قلبه مستريح للصدق ، وأن الذى يلعبه إنما هو الكذب» ، ويقول موظف آخر — في مقبرته بالعمارة — « اننى

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 291.

(٦٥)

F. Daumas, Op-Cit, p. 326.

(٦٦)

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 288, 299.

(٦٧)

J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 378.

لا أفعل ما يكرهه جلالته ، لان ما يمقته انما هو طول الكذب فى جسمى ،
لقد قررت لجلالته الصدق ، لأننى أعرف أنه يسكن فيه» (٦٨) .

٨ - تجاهل المرأة فى الحياة الجديدة :

لعل هذا التجاهل انما ييسدو بوضوح فى أن «أتون» لم يتخذ له
زوجة — كما فعل أمون مثلا ، عندما اتخذ من موت زوجة له — كما أن
النساء لم يكن لهن شأن به ، أو حتى فى كهنوته ، وبالرغم من أن هناك
من الباحثين من يذهب إلى أن «نفرتيتى» انما كانت القوة الكامنة وراء
الحركة الآتونية (٦٩) ، ورغم أن «مشروع اخناتون» (الذى تقوم به
جامعة بنسلفانيا تحت اشراف مستر اى سمث ، ثم الدكتور دونالد
ردفورد) (٧٠) وقد نجح — عن طريق الصور — فى إعادة بناء صالة
للأعمدة ، خصصت «ناظرها للملكة «نفرتيتى» — وكذا أبنتيها مريت
أتون ، ومكث أتون — دونما أية اشارة الى « اخناتون » (٧١) فلن اسم
«نفرتيتى» لم يقرن بأية وظيفة فى معبد أتون ، ولم يكن لها فى هذا الدين
المجديد شأن خاص أكثر من أنها زوج الداعية العظيم ، وأن كل ما جاء
عنها فى «الانشودة الكبرى» ، أنها «زوجة الملك العظيم ، التى يحبها ،
سيد الأرضين ، نفر ، نفرو ، أتون ، نفرتيتى ، ألا فلتعش ولتتردهر الى
أبد الأبدين» (٧٢) .

هذا مع العلم ، بأن المرأة المصرية انما قد شغلت وظائف كهنوتية ،
من قبل عصر اخناتون ومن بعده ، فهناك من عهد الدولة الحديثة (أو عهد
الامبراطورية ١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق م ، كما يسمى عادة) ، تلك الوظيفة التى

(٦٨) سليم حسن : المرجع السابق ص ٣٢٤ — ٣٢٦ ، وكذا

C Aldred, Akhenaten, 1972, p. 63-64.

(٦٩) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٧٠) انظر : عن مشروع اخناتون : سيد توفيق : مجلة كلية الآثار —
العدد الاول — كلية الآثار — جامعة القاهرة — يناير ١٩٧٦ ص ١٣٢ — ١٣٦

(٧١) سيد توفيق : المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٧٢) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٠٩ ، وكذا

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, p. 28.

Sir Alan H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p 227

كانت تسند الى ملكات البلاد ، وأعطى بها «زوجة آمون» ، ومن ثم فقد أصبح ينلن — الى جانب حقوق الوراثة — مركزا دينيا معتزا ، يتصل باله الدولة الرسمي «آمون رع» ، هذا وقد نشأت هذه الوظيفة — أول ما نشأت — في السنوات الاولى من عصر الاسرة الثامنة عشرة ، وكانت الملكتان «إيمح حوتب» و «أحمس نفرتارى» أول من شغلتا هذا المنصب الدينى الهام ، وان بدا في عصور متأخرة أن اللاتى كن يشغلنه أميرات — ولسن ملكت — كما أصبح له فيما بعد أهمية سياسية عظيمة (٧٣) .

وهناك من عهد «أحمس الاول» (١٥٧٥ — ١٥٥٠ ق م) — جد اخناتون البعيد ، ومؤسس الاسرة الثامنة عشرة — لوحة غير عادية من الكرنك ، تصور فيها الملك «أحمس الاول» ، وبمع زوجته «أحمس نفرتارى» ، وابنتهما «أحمس عنخ» ، مقدمين خبزا للاله «آمون رع» ، وقد منح أحمس زوجته — أو باعها — في سنة غير محددة من حكمه ، وظيفة «الكاهن الثانى لآمون رع» في الكرنك ، لتكون لها ونسلها من بعدها ، وتظهر الملكة في المنظر المصاحب للنص في نفس حجم الملك والاله ، فضلا عن اشارة اضافية تدل على سمو مكانتها الخاصة (٧٤) .

وهناك «تويا» أم الملكة «لتى» — زوج أمحبت الثالث ، وأم اخناتون التى كانت تشغل وظيفة «رئيسة حريم الاله مين في أخميم» (٧٥) .

وهناك منظر هام في المتاربخ الفرعونى في عصوره المتأخرة من الناحية الزمنية ، وأعطى به تلك الاهمية التى اكتسبتها الاميرات الملكيات اللواتى حملت القلب «زوجة الاله آمون» ، و «عابدة الاله» ، «يدالاله» ، وكان اللقب الاول في العصور السابقة مقصورا على زوجات الفراعين ،

J.G.H. James, *Egypt from the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I*, in CAH, II, Part, I, Cambridge, 1973, p. 307. (٧٣)

محمد بيومى مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص (٧٤)

٢١٩ ، وكذا

T.G.H. James, Op-Cit, p. 307-308.

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 206.

B. Porter and R.L.B. moss, Op-Cit, I, p. 30-31.

(٧٥)

وكذا

وكان يتضمن من غير شك دلالة دينية لاتزال غير محددة ، ومنذ الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٧ - ٩٤٥ ق م) ، نجد أن هذا العنت ينتقل الى ابنة الملك التي أصبحت الزوجة الملكية المكرسة للاله آمون ، ولم يكن من المسموح به اطلاقا ، بل كان من المحرم عليها أن يتصل بها أى رجل اتصالا جنسيا (٧٦) .

وكانت زوجة الاله هذا تمارس سلطانا ضخما ، وكانت تسوى الملك اباها في كل الاهداف والمقاصد ، فهي لم تكن تمتلك الضياع الضخمة ، وتشرف على موظفين خامسين بها فحسب ، وانما كانت تتخذ مجموعة من الالقب ، وتحيط اسمها بالخراطيش ، وتخلع على نفسها صفات ملكية ، وتحفل بأعياد «اليوبيل» ، وتقيم نصبا وآثارا باسمها ، هذا فضلا عما كان لها من السلطة التي تفولها حق تقديم القرابين للالهة ، وهو حق ظل في الامكان الاخرى من خصائص الفرعون وحده (٧٧) ، وهكذا أصبح لزوجته الاله كل هذه الحقوق ، مما دفع فرعين الاسرتين الخامسة والعشرين (٧٥٠ - ٦٥٦ ق م) والسادسة والعشرين (٦٤٦ - ٥٢٥ ق م) الى فكرة تبني زوجة الاله لابنة الملك لتخلفها في وظيفتها ، وقد فعل ذلك «كاشتا» و «نوبمهي» ، و «بسماتيك الاول» ، «بسماتيك الثانى» الذى نالت ابنته لقب «الكاهن الاول لآمون» ، وهي وظيفة لم تحصل عليها آية «زوجة اله» من قبل (٧٨) .

وهكذا يبدو واضحا أن المرأة انما كانت تشغل وظائف هامة في كهنوت آمون ، منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة على الاقل ، وحتى نهاية الأسرة السادسة والعشرين «أى طوال فترة تزيد عن الالف عام» ، الامر الذى لم تشغله أبدا على أيام ثورة اخناتون الدينية (٧٩) .

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 343. (٧٦)

(٧٧) جان يويوت : المرجع السابق ص ١٧٧ ، وكذا

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 343-344.

J. H. Breasted, ARB, IV, uarag. 933 F. (٧٨)

ASAE, V, P. 84 F.

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 354-355.

John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt Chicago, (٧٩)

1963, p. 229.

٩ - اخراج الدين الى العلانية :

لاريب في أن من مميزات دعوة اخناتون ، أنها أخرجت الدين الى العلانية ، وحاولت أن تقضى على ما كان في الديانات القديمة للالهة الاقوياء الاثرياء من اعتماد عن الناس ، وما أحاطوها به من أسرار ، ومن ثم فقد كانت المراسيم الدينية تقام في المعبد ، وكان هيكله مفتوح في الهواء الطلق ، لا يحوى أية تماثيل للاله أتون ، وهو أمر كان يعد غريبا عن التقاليد المتوارثة بالنسبة للطقوس التي لم تعد تتبع كما كننت من قبل لانه لم يعد هناك تماثيل للمعبود ، لكى يخرج في موكب ، كما كان يحدث من قبل ، وقد ألف الملك الداعية واحدا من هذه الاناشيد ، التي تنبث منها دعوة التوحيد بطريقة متلنة ، وقد كان أسلوب النشيد من القوة ، لدرجة جعلته يوحى ببعض أجزاء الزمور (١٠٤) — الامر الذى سوف ننقله فيما بعد ، — بل ان هذا النشيد انما يعد من روائع الادب العالمى الخالدة (٨٠) .

١٠ - تقدير تجلى قدرة الاله فى العالم الحسى :

لعل من أهم ما تشير اليه أناشيد الدعوة الجديدة ، التقدير العظيم لتجلى قدرة الله — سبحانه وتعالى — فى العالم الحسى ، ويبدو هذا واضحا فى أنه من أعمق المصادر لدعوة اخناتون — بالرغم مما يقال عن أصلها السياسى — اعتمادها على التأمل فى عالم الطبيعة ، ولان اخناتون انما كان رجلا مأخوذا بالاله ، فقد انعاد عقله بحساسية وادراك مدهشين، الى ما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الاله ، فقد كان الرجل مأخوذا بجمال النور الابدى العالمى ، ومن ثم فلننا نرى أشعته تنعمره فى كل أثر صور عليه ، من آثار بقيت لنا (٨١) .

هذا وقد ادعى اخناتون لنفسه علاقة خاصة مع الهه ، لا يشركه فيها

Francois Daumas. la Civilisation De L'Egypte Pharaonique, (٨٠)
Paris, 1965, p. 321-22.

James Henry Breasted, The Dawn of Conscience N. Y. 1939, (٨١)
p. 292-293.

أحد ، وأنه إنما يمرح في ذلك النور الابدي ، الذي وحده أكثر من مرة مع الحب والجمال ، باعتباره البرهان الظاهر الدال على وجود الاله ، وذلك بنشوة قل أن يكون لها نظير ، وفرح يبلغ حد اللوله ، وقد استمدت هذه الظاهرة الجديحة في عصر اخناتون الهامها من جمال الطبيعة وفيضها (٨٢) .

نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ :

كلن العالم الأمريكي الدكتور « جيمس هنري برستد » (١٨٦٥ - ١٩٣٥م) ، أول من أشار الى المطابقة بين نشيد اخناتون والمزمور (١٠٤) من أسفار التوراة ، ثم قام بعمل مقارنة بين النصين - المصري والعبراني - فخرج من بحثه - أو أبحاثه - بأن ذلك لا يمكن أن يكون سبب توارد المخطوط بحال من الاحوال ، وإنما المرجح أن العبرانيين إنما كانوا على علم بأنشودة اخناتون العظيمة التي وضعها لاله الشمس .

ومن المحتمل كثيرا أن يكون الاصل المصري القديم لأنشودة اخناتون قد انتشر في فلسطين أو شينيقيا قبل ظهور المزامير العبرانية بزمان طويل ، فقد انتهى اخناتون (١٣٦٧ - ٣٥٠ ق م) من اخراج أنشودته هذه قبل منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد (١) .

وبدهى أن أعداء الفرعون العظيم الصاندين عليه ما كانوا يتركون أنشودته تنتشر في مصر ستة أو سبعة قرون (أى الى ما بعد عام ١٠٠٠ ق م بكثير) وهو الوقت الذي بدأ العبرانيون يبدون اهتمامهم بأنشودة آتون هذه ، ومن ثم فيجب التسليم بأن تلك الانشودة قد انتقلت الى

Ibid., p. 293-295.

(٨٢)

(١) قارن ذلك بحقيقة أن المزامير رغم أنها تنسب في معظمها الى داود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م) ، فإن بعضها منها قد كتب في عصر الملكية (١٠٢٠ - ٥٨٧ ق م) ، أما معظم أسفار المزامير فقد كتب بعد عهد السبي البابلي ، وربما في الفترة (٤٠٠ - ١٠٠ ق م) ، ثم ضمت بعضها الى بعض - فيما يرجح - في القرن الثالث قبل الميلاد ، وهى - على أى حال - صورة صادقة للآثار البعيدة التى اقتبسها العبريون مستقرين أو مسبيين من مصر أولا ، ثم من بابل وآشور ثانيا (فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ١٣٩ ، حبيب سعيد : المرجع السابق ص ١٤٥ ، وكذا

Merrill F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 898-899.

آسيا في عهد «اخناتون» (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق م)^(٣) نفسه ، وأنها أفلتت هناك من الحصار المحقق على يد أعدائه في مصر^(٤) .

هذا وقد حدث في أنشودة آتون تغيير عظيم ، بعد أن ترجمت الى بعض اللغات السامية من لغات آسيا الغربية — كاللغات الفينيقية أو الآرامية أو العبرية على الأرجح ، على أنه بفحص الفقرات المشابهة لها في الزمور (١٠٤) يظهر لنا مدى التشبه بين الصورتين ، لا من حيث مضمون أنشودة اخناتون لمحسب ، بل أننا كذلك إنما نجد هذا التشبه في تتابع الأفكار ، وترتيبها الظاهري ، الذي بقى في الرواية الآسيوية العبرية ، كما كان في أنشودة اخناتون ، وبدهى أن تلك التشابهات لا يمكن أن تكون بصل من الاحوال — من قبيل المصادفة البحتة ، بل انها بالعكس دليل على وجود جزء عظيم من الانشودة المصرية الدينية القديمة منشورا بشكل معدل في الزمير العبرانية^(٥) .

وبعد أن أعلن «برستد» رأيه هذا في كتابه «تاريخ مصر» في العقد الاول من هذا القرن العشرين ، توالت الاكتشاف بعد ذلك ، وأصبح لدينا النص المصري الهيروغليفي ، الذي ترجمت ونشرت منه فقرات كاملة برمتها في كتاب العهد القديم (التوراة) ، فقد تعرف الاستاذ « هوجو

(٢) هناك ما يشير الى ان اخناتون قد أقام ثلاثة مراكز لنشر دعوته في أنحاء الامبراطورية المصرية في «اخناتون» (تل العمارنة) و«جم آتون» في «كاوا» وراء الجندل الثالث في مقابل بلدة «دلمجو» الحالية ، وأما المركز الثالث فقد كان في غربي آسيا (ربما في اورشليم أو بيت شمس) ، وعلى أي حال ، فرغم أننا لا نعرف مكان هذا المعبد الآسيوي على وجه اليقين ، فهو لم يكن أقل منزلة من معابد أجداد الفرعون التي شيدت لئلا آمون H.R. Hall, The Ancient History of the near East, London, 1963, p. 300.

B. Gunn, JEA, IV, 1917, p. 169.

وكذا

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 223.

وكذا

ومن ثم فربما قد انتقلت أنشودة اخناتون الى العبرانيين عن طريق هذا المعبد الآتوني ، الذي ربما كان في اورشليم أو في بيت شمس ، أو في أي مكان في غربي آسيا .

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., p. 367.

(٣)

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 367-368.

(٤)

على الانبياء العبرانيين ، بسبب حرج الموقف الذى وجد فيه شعبهم ، حيث قد صاروا العوبة فى أيدي الممالك العظيمة وقتتذ ، وقد بقيت حالتهم تزداد حرجا ، الى أن غيروا نظرتهم الى ربهم «يهوه» الذى كان يوما ما معبودهم المحلى^(٨) ، فصار فى نظرهم الها مسيطرا على كل الامم^(٩) ، ويُدير حركات جميع ملوك الارض ، ويستطيع السيطرة على كل مقاصدهم العدائية ، وتمويلها لخير بنى اسرائيل^(١٠) ، ثم لخير جميع العالم فى النهاية^(١١) .

وبدهى أن هذا الاتجاه الجديد فى الابحاث ، والذى يذهب الى أن نشيد اخناتون ، انما كان قوى التأثير فى أفكار العبرانيين ، بل انه ليذهب الى أبعد من ذلك ، الى أن العبرانيين انما كانوا قد اطلعوا على الادب الخلقي والدينى عند الامم الاخرى ، ونقلوا ما عثروا عليه من أفكارهم ، بل انهم انما كانوا ينقلون هذه الافكار أحيانا بنفس التعبير التى صيغت فيها تلك الاصول الاجنبية — كما نرى فى نشيد اخناتون والمزمور (١٠٤) ، ومن ثم فقد وجد هذا الاتجاه معارضة شديدة من بعض المتعصبين لليهودية .

ورغم أن كثيرا من الباحثين — غير العالمين الكبيرين جيمس هنرى برستد ، وهوجو جرسمان — يعضدون اتجاه تأثير نشيد اخناتون فى أفكار العبرانيين الحديثة — ومنهم «آرثر ويجال»^(١٢) و «هـ ر هـول»^(١٣)

(٨) انظر : تكوين ١٢ : ١ - ٣ ، ١٣ : ١٤ - ١٨ ، ١٥ : ١٨ - ١٨ ، ٢٠ : ٢٦ : ٢٢ ، ٢٤ : ٢٨ ، ١٣ : ٤٦ ، ٤ : ٤ ، خروج ٢ : ٦ ، ١٥ : ٦ ، ٧ : ١٦ : ٣٦ ، ول ديورانت : المرجع السابق ص ٢٤٣ ، صبرى جرجس : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٩) انظر : محمد بيومى مهران : النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٨٧ - ٨٨ .

(١٠) انظر : اشعيا ٤٩ : ٦٠ ، ٢٣ : ١١ - ١٤ ، ٦١ : ٦٥ .

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 369. (١١)

Arthur Weigall, Histoire le L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, (١٢)

H. R. Hall, The Ancient History of the near East, London, (١٣)

1963, p. 306.

و « سير آلن جارفز » (١٤) ، و « فرانسوا دوما » (١٥) و « جان يويوت » (١٦) و « الكسندر شارف » (١٧) . بل ان «وليم هيز» ، انما يتساءل — مع صعوبة كبيرة ، وقليل من الرضى النفسى ، أو حتى عدمه — أن نرى كيف يمكن أن نفترض أن عبادة آتون انما كانت الاساس السابق لليهودية والنصرانية (١٨) . وانطلاقا من هذا ، فان اتجاها يذهب الى تأثير نشيد اخناتون في افكار العبرانيين الدينية ، لا يمكن أن يطيب قبوله — كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد فخري (١٩) — (١٩٠٥ — ١٩٧٣) من امتلأت نفوسهم تعصبا للكتاب المقدس فأخذوا يتشككون في ذلك ، ويقولون ان آراء اخناتون لم تكن جديدة على الديانة المصرية ، بل وان تعبيراته عن وحدانية الله كانت معروفة قبله ، واستمرت قسرونا طويلة بعده ، ويقولون اننا لو فرضنا أنه كان يوجد في مصر جنود أرقاء من الاسرائيليين في أيام العمارنة ، فلم يكن ميسورا لهم أن يعرفوا تعاليم الآتونية ، بوجود الله واحد ، الله للعالم كله ، خلق الحياة وحافظ عليها ، وأحسن عباده نحوه بشعور قوى لتكرانه (٢٠) .

ثم يذهب بعد ذلك «جون ويلسون» — صاحب هذا الاتجاه — الى أنه لم يكن من بين هؤلاء العبرانيين من تسمح له حالته بأن يتعلم من مصر أنانيتها في التفكير ، أو ما وصلت اليه في الدين أو الفلسفة ، اذ أن هذه الفرصة لا يمكن أن تيسر لجموع الأرقاء الذين يعملون في أحد المشروعات الحكومية ، لكي يتناقشوا مع الكتبة أو الكهنة ، فان أرواحهم

A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 227. (١٤)

Francis Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 322. (١٥)

جان يويوت : مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر — القاهرة ١٩٦٦ ص ١٢٩ . (١٦)

الكسندر شارف : تاريخ مصر ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر — القاهرة ١٩٦٠ ص ١٤٠ . (١٧)

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959, p. 281. (١٨)

أحمد فخري : مصر الفرعونية — القاهرة ١٩٧١ ص ٢٢٨ . (١٩)

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt. p. 226. (٢٠)

البسيطة المعتادة على الحياة في الصحراء كانت تنظر بوجل الى بعض
مسلوىء المدنية المنهكة القوى ، وتشتاق الى الهرب من تلك العبودية
القاسية ، ومن كلثوا في مثل هذه الحالة لا نتوقع منهم أن يعجبوا بما
حققتة مدنية أرض العبودية (٢١) .

وفي الواقع — لأنه بصرف النظر الان عن تأثير نشيد اخناتون في
أفكار العبرانيين الدينية ، أو عدم تأثيره — فأننى ألاحظ أن « جون
ويلسون » قد نسي — أو تناسى — عدة عوامل ، تتف عتبة كؤود في طريق
وجهة نظره هذه ، منها (أولا) أن ديانة اخناتون انما كانت ديانة بسيطة
في كل شيء — في عقيدتها وفي شعائرها — نهى تدعو الى عبادة الله واحد
أحد ، وتلك وليم الله ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وليس فيها شيء
من تعقيدات كهانة آمون وغيرهم من رجال الكهنوت المصرى .

ومنها (ثانيا) أن المستضعفين في كل أمة ، انصا هم — في أغلب
الاحايين — أول من يؤمن بأصحاب الديانات ، وتاريخ النبوات شاهد على
ذلك ، ومن ثم فكون العبرانيون مستضعفين في مصر ، ليس بالضرورة أن
يكون ضعفهم هذا — أو استضعافهم — سببا يحصل بينهم وبين تلبية
دعوة الوجدانية التي نادى بها اخناتون ، ومنها (ثالثا) أن العبرانيين لم
يعودوا — بعد اقامتهم في مصر قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن — بدوا ،
وانما أصبحوا أثبة بالمصريين ، يعيشون حياة أثبة بحياتهم ، ويمبدون
بعض آلهتهم .

ومنها (رابعا) أن الاحداث التاريخية تشير الى أن الاسرائيليين انما
قد تعلموا كثير من أفكار المصريين الدينية ، وقصة الخروج من مصر
وما حدث بعدها في سيناء ، يفهم منه بوضوح أن القوم ودوا لو أنهم
يعودون الى مصر ، ويعبدون مراسيمها الدينية ، وتشير التوراة (١٢)

والقرآن الكريم^(٢٣) الى «قصة العجل الذهبى»^(٢٤) الذى عبده بنو اسرائيل فى سيناء ، والتي تدل على تأثير الديانة المصرية فى بنى اسرائيل ، ذلك أن عبادة العجل فى مصر ، انما هى جد عسيقة الجنود ، اذ ترجع الى ما قبل عصر موسى (القرن الثالث، عشرين قبل الميلاد) بكثير — الى أيام الاسرة الاولى المصرية^(٢٥) ، حوالى عام ٣٣٠٠ ق م — ثم استمرت حتى ناهور المسيحية وغلبتها عليها ، وليس من شك ان بنى اسرائيل باتخاذهم العجل من بعد موسى ، انما كانوا لما اعتادوا فى مصر من الآلهة مرتدين .

وسكذا يبدو واضحاً مدى تأثير الديانة المصرية فى بنى اسرائيل ، تلك الديانة التى تمكنت من نفوسهم ابان اقامتهم الطويلة فى مصر — والتي جاوزت أربعة قرون — لدرجة انهم ما كانوا بقادرين على الايمان بموسى ودعوته ، اما خوفاً من فرعون ، واما خوفاً من سيوخ بنى اسرائيل ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «فما آمن لموسى الا خرية من قومه على خوف من فرعون وملئيه»^(٢٦) . باعتبار أن الضمير فى «ملئيه» يرجع الى قوم موسى .

وعلى أى حال ، فلقد غالى بعض المتعصبين ضد اخناتون كثيراً ، حتى ترك غريق منهم موضع الدفاع الى موضع الهجوم — وكما يقول أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر (١٩٠٧ — ١٩٧٦ م) ، طيب الله ثراه — يأتى آخر الامر من يذهب الى أن ديانة اخناتون لم تكن وليدة تفكيره ، ووحى فلسفته ، بل هى مأخوذة من التوراة ، زعماء منهم ببداية ظهورها قبيل عصره ، واستنادا الى التشابه بين بعض فقرات أنشودة آتون والمزمور (١٠٤) (٢٧) .

(٢٣) سورة البقرة : آية ٩٢ ، سورة الاعراف آية ١٨٤ — ١٥٢ ، سورة طه آية ٨٣ — ٨٦ .

(٢٤) انظر عن القصة : محمد بيومى مهران : اسرائيل — الكتاب الاول — التاريخ ص ٤٦٢ — ٤٧٩ (الاسكندرية ١٩٨٧) .

(٢٥) W. B. Emery, Archaic Egypt, (Penguin Books), 1963, p. 124. (٢٥)

(٢٦) سورة يونس : آية ٨٣ ، وانظر تفسير المنار ٣٨٣/١١ — ٣٨٤ ،

تفسير ابن كثير ٢٢٢/٤ — ٢٢٣ ، معانى القرآن لأفراء ٤٧٦/١ — ٤٧٧ ، تفسير القرطبي ص ٣٢٠٨ — ٣٢٠٩ ، تفسير الطبرى ١٦٣/١٥ — ١٦٧ .

(٢٧) عبد المنعم أبو بكر : اخناتون ، القاهرة ١٩٦١ ص ٤٠ — ٤٢ .

غير أن حجج هذا الفريق من العلماء انما هي جد واهية لأسباب كثيرة ، منها (أولا) أن «هوجو جرسمان» انما يذهب الى أن أنشودة اخناتون وصلت الى العبرانيين في فلسطين عن طريق فينيقية^(٢٨) ، وربما عن طريق المعبد الآتوني الذي بناه اخناتون في اورشليم أو في بيت شمس^(٢٩) .

ومنها (ثانيا) أن كثيرا من المزامير انما تنسب الى داود^(٣٠) ، عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م) - أي في القرن العاشر قبل الميلاد ، ربما على الأكثر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد^(٣١) ، بينما عاش اخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق م)^(٣٢) ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أي قبل أيام داود بما يقرب من قرون أربعة ، بل أن بعضا من المزامير انما يرجع الى أيام السبى البابلي (٥٨٧ - ٥٣٩ ق م) ، وبعضها الآخر الى الفترة فيما بين عامي ٤٠٠ ، ١٠٠ قبل الميلاد^(٣٣) ، ومنها (ثالثا) أن كثيرا مما جاء في التوراة

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, p. 368. (٢٨)

H. R. Hall, The Ancient History of the near East, London. (٢٩)
1963, p. 300.

(٣٠) يحتوى سفر المزامير على ١٥٠ مزمورا ، ينسب الى داود منها ٧٣ مزمورا فقط ، وخمسون مجهولة المؤلف ، والبقية ترجع الى مؤلفين مختلفين (حسن ظاهرا : الساميون ولغاتهم ص ٨٤) .

(٣١) يختلف المؤرخون في فترة حكم داود ، عليه السلام ، فهناك من يجعلها في الفترة (١٠١٢ - ٩٧٢ ق م) (I. Epricin, Op-Cit., p. 35) ومن يجعلها في الفترة (١٠١٠ - ٩٥٥ ق م)

G. Roux (Ancient Iraq, 1966, p. 454).

ومن جعلها في الفترة (١٠٠٤ - ٩٦٣ ق م) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، ومن يجعلها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق م) (W. F. Albright, The Biblical Period, 1963, p. 120-121)

ومن يجعلها في الفترة (٩٨٥ - ٩٦٣ ق م) (Historical Atlas of the Holy Land, N. Y., 1959, p. 81)

A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, p. 443. (٣٢)

(٣٣) حبيب سعد : المرجع السابق ص ١٤٥ ، وكذا

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, p. 898-899.

Sigmund Freud, Moses and Monotheism, Translated from the German, by K. Jones, p. 21-32.

— أو العهد القديم — انما يرجع في أصوله الى الادب المصرى القديم ،
كما سوف نرى في تعاليم «أمنؤوبى» وسفر الامثال ، ومنها (رابعا)
ماذهب اليه «سيجموند فرويد» (١٨٥٦ — ١٩٣٩م) في نظريته المشهورة
من أن موسى ذو الذى نقل أفكار اخناتون الى الاسرائيليين عندما خرج
بهم من مصر^(٢٤) ، (حوالى عام ١٢١٦ ق.م ، أو ١٢١٤ ق.م) .

ومنها (خامسا) — وربما كان أدهمها جميعا — أن مقارنة سريعة بين
المزمور (١٠٤) ونشيد اخناتون ، انما تدل بوضوح على أن نشيد اخناتون
— فيما ترى جمهرة العلماء — انما كان دون شك، هو أصل المزمور (١٠٤) .

(٢٤) انظر عن «تاريخ الخروج والاراء التى دارت حوله» ، محمد
بيومى مهران : اسرائيل — الكتاب الاول — التاريخ — الاسكندرية ١٩٧٨
ص ٣٥٧ — ٤٣٩ .

(١) تجعل ظلمة فيكون
ليل، فيه تدب كل حيوان وعمر
(المزمور ١٠٤ : ٢٠)

(٢) الاشبال تزمجر لتخيف
ولتلتطمس من الله طعامها
(المزمور ١٠٤ : ٢١)

(٣) تشرق الشمس
فتنصرف ، وفي ماويها تريض ،
الانسان يخرج الى عمله والى
شغله الى المساء
(المزمور ١٠٤ : ٢٢ - ٢٣)

(٤) هذا البحر الكبير
الواسع الاطراف ، هناك
دبابات بلا عدد ، صغار
حيوان مع كبار ، هناك تجري
السفن « لويانان »
هناك خلقته ليلعب فيه
(المزمور ١٠٤ : ٢٥ - ٢٦)

(٥) ما اعظم اعمالك يارب ،
كلها بحكمة يارب ، كلها بحكمة
صنعت ، ملانة الارض من غناك
(المزمور ١٠٤ : ٢٤)

(١) حين تغرب في الافق الغربى تصبح
الارض في ظلام كالموات ، الليل ينقضى في
غرف النوم ، والرؤوس مغطاة ، ولا ترى
اعين اصحابها .

(٢) الاسود تخرج من اوجارها ،
والثعابين تنساب للتدغ .

(٣) الارض زاهية حينما تشرق في
الافق ، وتضوء في النهار مثل اتون ، أنت
تقصي الظلمة الى بعيد ، وعندما ترسل
اشعتك ، فان الارضين (مصر) تصبحان
في عيب ، يستيقظ الناس ويقفون على
اقدامهم عند ايقاظك اياهم ، فينظفون
اجسامهم ، ويلبسون ثيابهم ، ويرفعون
اكفهم تعبدًا لطلعتك البهية ، ثم ينتشرون
في الارض يباشرون كل منهم عمله .

(٤) السفن تبحر شمالا وجنوبا ، وتنج
الطرق بالناس ، الاسماك في النهر تقفز
امامك ، واشعتك تنفذ الى أعماق الاخضر
العظيم .

(٥) ما اكثر اعمالك ، انها على الناس
خافية ، أنت الاله الواحد ، الذى ليس معه
سواه ، وليس له من نظير ، برات الدنيا
حسب رغبتك ، وكنت فردا ، خلقت البشر
والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ،
ويحلق في الفضاء بجناح ، خلقت بلاد
خور وكوش وارض مصر ، ووجهت فيها كل
فرد الى موطنه ، ودبرت للجميع شئونهم ،
فاصبح لكل فرد رزقه ، وتعين لكل فرد
اجله ، وظلت الالسنه بينهم فى النطق
متباينة ، والهيئات والالوان متمايزة .

الفصل الخامس

أدب المدائح والملاحم والغناء والغزل

خلف لنا المصريون القدامى من تراثهم الادبى الذى يرجع الى أيام الدولتين الوسطى والحديثة نوعا من الادب يمكن أن نسميه «أدب المدائح والملاحم والغناء» ، امتاز بأسلوبه الشعرى الذى يجعله أقرب الى النظم منه الى النثر ، ولعل من خير ما يمثله تلك القصيدة الرائعة التى صور فيها الشاعر بأس الملك «سنوسرت الثالث» وقوته الخارقة ، فشبهه بالسد الذى يمنع النهر من ثورة غيضه ، وبالنظر الخليل الواقى الذى ينحش أيام الصيف ، وبالركن الدافئ أيام الشتاء ، وبالجبل تتقى به العواصف يوم تتور السماء .

هذا وقد وصف الفراعين حروبهم على أيام الامبراطورية وصفا رائعا ، وقد أجلدوا — بصفة خاصة — وصف معركة قادش ، والتى من خير أجزائها وصف الشاعر لموقف رمسيس الثانى فى محنته الكبرى ، عندما أحاطت به قوات العدو ، فأخذ يستغيث بأبيه أمون ويطلب منه العون ، ولما استبطأ معونته ضاقت نفسه ، وأخذ يناجيه معلنا إياه ، عتابا يصور ما فى نفسه الملتاعة فى صراحة وإيمان .

هذا وقد عرف المصريون القدامى فى عهد الدولة الحديثة لونا من الادب ، يتمثل فى أغانى الحب التى يتغزل فيها المحب بهبيته ، غزلا ساذجا ، مرسلا ، خاليا من الصنعة والتكلف .

اولا : من ادب المدائح

١ - مدائح سنوسرت الثالث

أحدث «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق.م) مكانة ممتازة فى تاريخ مصر الفرعونية كله ، حتى أنه لم تمض بضعة قرون على وفاته ، الا ونراه يعبد فى بلاد النوبة كله ، وذلك على أيام «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق.م) ، ذلك لان تحوتمس الثالث — أعظم الفراعين المحاربين على الاطلاق — انما كان بطلا يقدر البطولة ، أو كما يقولون : لا يحسن الفضل الا خووه ، ففى معبد «عمدا» بالنوبة ، الذى شيده تحوتمس الثالث ، نراه يأمُر بتقدیس «سنوسرت الثالث»^(١) ، وكذا فعل

H. Gauthier, le Temple d'Amada, Cairo, 1931.

A. Weigall, Op-Cit, p. 104.

«ظهرانا» (٦٨٩ — ٦٦٤ ق م) ، والامر كذلك في يوهن والليسيه ، بل حتى المعامة من القوم قد قدسوا سنوسرت الثالث ، ففى أحد المناظر على صفور أسوان منظر يمثل عائلة قام أفرادها باحضار قربانين للالهة ، ومن بينها سنوسرت الثالث (٣) .

وأما عن شهرته الحربية ، فقد تضخمت لدرجة أن أطلق عليه «هيريودوت» و «ديودور الصقلي» لقب «البطل قاهر العالم» ، ثم خلطوا بين حروبه وحروب «سنوسرت الاول» ، فضلا عن الرعامسة ، ومن ثم فقد نسبوا اليه فتوحات في آسيا الغربية وأوربا الشرقية ، بل ان المؤرخ المصرى «مانيتو» انما يذهب الى أن «سنوسرت الثالث» قد أخضع كل آسيا قى تسع سنوات ، وكذا أوربا حتى تراقيا ، وانه اهتم بتسجيل أحوال الناس أينما ذهب ، ويذهب «ديودور الصقلي» الى أنه فتح بلاد العرب والحبشة والهند ، وبلغ البحر الاسود ، ووصل الى تراقيا وجعلها حدود مملكته ، وهو أمر جد مبالغ فيه ، وقد اختلط الخيال فيه بالحقيقة ، صحيح أن سنوسرت الثالث هو المؤسس الحقيقي للإمبراطورية المصرية ، فى النوبة ، وصحيح أيضا أنه قام بحملة كبيرة على آسيا الغربية ، وصل فيها الى منطقة السطرة الجبلية ، ولكنه صحيح كذلك ، أن الرجل لم يركب البحر فى حروبه ، وانما ركب النيل ليخضع العصاة فى بلاد النوبة (٣) .

وعلى أية حال ، وانطلاقا من كل ذلك ، فليس غريبا أن تظل ذكرى «سنوسرت الثالث» حية فى نفوس القوم ، والتي تتمثل فى تلك القصيدة الرائعة التى عثر عليها بين انقاض «اللاهون» ، والتي تعتبر ذات أهمية كبرى ، لانها الانشودة الوحيدة التى وصلت الينا من الدولة الوسطى

D. Randall-Maciver and C. L. Woolley, Buhen, Philadelphia, (٢) 1911, p. 41-42.

(٣) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر والشرق الأدنى القديم - الجزء الثانى - مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٠٨-٤١١ - عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ١٨٢/١ ، وكذا

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 439.

Diodorus, I, 53 F.

في المديح لللكي ، وستكون مثالنا الوحيد لهذا العصر ، حتى تجود أرض
الكتانة الطيبة بأمثالها أو خير منها •

هذا وتتكون الانشودة من ستة مقطوعات ، وقد اهتم بنشرها -
وترجمتها والتعليق عليها كثير من العلماء من أمثال : جريفت^(٢) وهولر^(٥)
وزيته^(٦) وجرابو^(٧) وارمان^(٨) وجدكه^(٩) وبوزنر^(١٠) وسبسون^(١١)
وغيرهم^(١٢) ، فضلا عن ترجمات العلماء المصريين ، من أمثال سليم
حسن^(١٣) وأحمد بدوى^(١٤) •

ولنحاول الآن أن نترجم لأهم أجزاء هذه القصيدة :

١ - المقطوعة الاولى :

«لك الحمد يا «نخ - كاو - رع» ، يا حور ، أيها الصقر المقدس» •
«يا حامى الوطن ، وماد حدوده ، يا قاهر البلاد الاجنبية بقوة تاجه» •
«يا من ضم الارضين (مصر) بين يديه ، ممسك البلاد الاجنبية بقوة ذراعيه» •
«مجنبدل أصحاب السهم ، دون ضربة عصا»
«يا من يفوق سهمه دون أن يشد وتر القوس»
«المخضع أصحاب القوس في ديارهم»
«يا من سحق رعبه اقوام الاقواس التسع»

F. L. Griffith, Hieratic Papyri from Kahun and Gurob, London, (٤)
1898, Pls. I-III, p. 1-3.

G. Moller, Lesestucke, I, Berlin, 1961, Pls. 4-5. (٥)

K. Sethe, Agyptische Lesestucke, Leipzig, 1924, p. 65-67. (٦)

H. Grapow, in MIO, I, 1953, p. 189-209. (٧)

A. Erman, LAE, 1927, p. 134-137. (٨)

H. Goedicke, JARCE, 7, 1968, p. 23-26. (٩)

G. Posener, Op-Cit, p. 128-130. (١٠)

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 279-284. (١١)

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 198-201. (١٢)

(١٣) سليم حسن : الادب المصرى القديم ١٨٠/٢ - ١٨٤ •

(١٤) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٤٧ - ٢٥١ •

«يا من أمات خنجره ألوغا من الرماة قبل أن تطأ أقدامهم حدوده»
 «يا من يفوق سهمه مثل «سحمت»»
 «يا من قهر الآلاف ممن لا يعرفون بطشه»
 «ان كلمة من جلالته لتخضع أهل النوبة»
 «ان منطقته ليجعل البدو يولون الادبار»
 «هو الواحد الفرد ، ذو القوة الفتية ، الذائد عن حياضه»
 «مذهب ألوهن عن شعبه»

«جاعل الناس ينامون في أمان حتى طلوع الفجر»
 «شباب جنوده ينامون لان قلبه هو المدافع عنهم»
 «أوامر جلالته كبحت جماح النوبة ، وهزمت الاسيويين»
 ٢ - المقطوعة الثانية :

«ألا ما أشد اغتباط الآلهة لانك ثبت قرايينهم»
 «ألا ما أشد أفراح بلدك لانك ثبت حدوده»
 «ألا ما أشد اغتباط آباءك لانك زدت في عطائهم»
 «ألا ما أشد اغتباط مصر بقوتك لانك حميت النظام القديم»
 «ألا ما أشد اغتباط شعبك بحكومتك لانك قضيت على السلب»
 «ألا ما أشد اغتباط جنودك ، لانك أسعدتهم»
 «ألا ما أشد اغتباط شيوخ قومك لانك جندت شبابهم»
 «ألا ما أشد اغتباط (مصر) بقوتك لانك حميت أسوارها»

٣ - المقطوعة الثالثة :

«ما أعظم سيد وطنه ، انه يعدل آلاف الالوف ، وآلأما غيرهم ، وما هم
 بالنسبة اليه الا قليل»
 «ما أعظم سيد وطنه ، فهو السد الذي يمنع النهر من ثورة فيضه»
 «ما أعظم سيد وطنه ، فهو القاعة الرطبة تبعث النوم لكل الناس حتى
 مطلع الفجر»

«لما أعظم سيد وطنه ، فهو حصن جدران من نحاس جوشن»
 «لما أعظم سيد وطنه ، فهو الحمى الذى لن يدرك اللاجئ الىه عدوه»
 «لما أعظم سيد وطنه ، فهو الظل الوارف الذى ينبعث أيلم الصيف»
 «لما أعظم سيد وطنه ، فهو ركن الدفء والجفاف أيلم الشتاء»
 «لما أعظم سيد وطنه ، فهو الجبل الذى يمنع المواسف يوم تثور السماء»
 «لما أعظم سيد وطنه فهو شديد مثل سخمت على من تملأ أقدامهم حدوده»
 ٤ - المقطوعة الرابعة :

«جاءنا فولى أمر الصعيد ، ووضع التاج المزوج على رأسه»
 «جاءنا فوجد القطرين ، وضم رمزي الوجهين (البوصة والنقطة)»
 «جاءنا فحكم المصريين ، وضم اليه الارض الحمراء»
 «جاءنا فحمى القطرين ، ومنح أرضهما السلام»
 «جاءنا فأحيا أهل مصر ، ومحا آلامهم»
 «جاءنا فمد الحياة للناس ، وجعلهم يتنفسون»
 «جاءنا فوطىء بقدميه أرض الاجانب ، وكبل أصطاب الاقوانس ، وكانوا
 لا يعرفون الخوف من قبل»
 «جاءنا فخصى الحوض ، وأغاث المهوف»
 «جاءنا فوفر الوقار للشيخ»
 «جاءنا فأعاننا على تربية أبنائنا ، ودفن الطاعنين من شيوخنا»
 ٥ - المقطوعة الخامسة :

«أنت تعب «لخا - كاو - رع» الذى يعيش الى أبد الأبدين
 «هو يعطيك الخذاء والخلاص»
 «أنت راعينا الذى يمنح النفس»
 «أنت تعطينا اياه فى سعادة وفى مرات يخطئها المحدث»
 ٦ - المقطوعة السادسة :

«ثناء لـ «لخا - كاو - رع» الى أبد الأبدين» (١٥)

(١٥) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٤٧ - ٢٥١ ، سليم حسن :
 المرجع السابق ص ١٨٠ - ١٨٤ ، وكذا =

٢ - قصيدة مديح تحوتمس الثالث

هذه القصيدة وجدت على لوحة بمعبد الكرنك بالاقصر ، ومحفوظة الآن بمتحف القاهرة برقم ٣٤٠١٠ وتحتوى على مديح وجهه الاله نفسه لابنه الفرعون «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق م) ، والذي كان يدخل المعبد منتصرا بعد كل غزوة مظفرة ، وتشتمل على مقدمة وخاتمة مكتوبتين بلغة شعرية ، وأما الجزء الاوسط من القصيدة فانه شعر مقفى .

هذا وقد اهتم كثير من العلماء بنشر اللوحة وترجمتها والتعليق عليها ومنهم بيير لافو^(١٦) ، وجيمس هنرى برستد^(١٧) ، وأدولف ارمان^(١٨) ، وجون ويلسون^(١٩) وفولكنر^(٢٠) وغيرهم^(٢١) ، هذا فضلا عن ترجمة المصريين^(٢٢) ، ونظرا لاهمية هذه القصيدة ، فقد انتطها ثلاثة من ملوك الدولة الحديثة ، وهم أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق م) و «سيتي الاول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق م) و «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) تقول القصيدة :

«يقول آمون رع ، رب العروش فى الارضين ، تعال الى لتحظى بنورى ، أى بنى ونصيرى «من - خير - رع» (منخبرج) الباقى أبدا ، اننى أشرق من أجل حبك ، ان قلبى ينشرح بمجيتك الميمون الى معبدى ، ويدأى تمزحك الحملى والحياة ، ما أرق الشفقة التى تظهرها نحوى ، ولهذا سأثبتك فى معبدى ، وأمنحك الخير كله» .

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 198-201.

وكذا

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 279-284.

وكذا

H. Goedicke, Op-Cit, p. 23-26.

وكذا

A. Erman, Op-Cit, p. 134-137.

وكذا

P. Lacau, Steles du Nouvel empire, I, Cairo, 1909, p. 17-21.

(١٦)

J. H. Breasted, ARE, II, Chicago, 1907, Parag., 655-662.

(١٧)

A. Erman, Op-Cit, p. 254-258.

(١٨)

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 373-375.

(١٩)

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 285-288.

(٢٠)

M. Lichtheim, Op-Cit, II, p. 35-39.

(٢١)

(٢٢) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ : أحمد بدوى :

المرجع السابق ص ٤٩٨ - ٥٠١ .

«لقد رزقتك القوة والنصر على أهم الارض جميعا ، ويسطت سلطانك ورهبك في كل بلد ، وجعلت الرعب منك يمتد حتى عهد السماء الاربعة ، ووضعت احترامك في كل جسد ، نذاؤك الحربى يمتد بين اقوام الاقواس التسعة ، وجمعت أمراء الارضين جميعا في قبضة يمينك ، ومهدت يدى لمقيدهم جميعا ، سعدت لك الالوف وعشرات الالوف من عصاة الجنوب (اهل القوس) ، ثم مثلت الالوف من أهل الشمال ، وطارحت أعدائك تحت قدميك ، لتهلك منهم العصلة والثائرين ، حتى دان لك أهل المشرق والمغرب في طول البلاد وعرضها ، تستطيع أن تضرب فيها مغتبط القلب حيث تشاء ، دون أن تجد في ربوعها من يعصيك» .

«وأعبرت ماء الفرات الى «النهرين» قويا مظفرا بتأييد من عندى ، يسمعون صيحتك فيلوذون بالكهوف والمخابىء ، على حين كنت أسلب أنوفهم نسمة الحياة ، وألقى في قلوبهم الرعب من بأسك ، وجعلت الصل على جبينك نائرا ياكلهم ، ويحرق بناره أهل المناقع ، ثم يأتى على الخارجين من الاسيويين فيما يبقى ولا يذر ، وهيات لك النصر تتغلغل به في الارض جانعا كل من يشرق عليه نورى من رعيتك وعبيدك ، ولم يبق تحت السماء من يعصيك ، يجيئونك بأمرى مطعين ، مقنمى رؤوسهم ، يحملون اليك جزى بلادهم ، وأتيت لك بالخارجين على سلطانك صاغرين تلتاع نفوسهم ، وترتمش أبدانهم» .

«واقيتك مؤيدا لتسحق أمراء «زاهى» (فينيقيا) ، فجعلتهم تحت قدميك ، ثم ألقيت عليك من نورى ما جعلهم يرونك في صورتى ، وواقيتك لتسحق الاسيويين ، فضريت أمراء العامو في أعلى فلسطين ، وأطلقتك عليهم في زينة الحرب ترديهم من فوق ظهر فرسك ، وواقيتك لتسحق المشرق ، ثم سقتك على أرض الآله فأريتهم اياك شهابا رسدا ، وواقيتك لتسحق المغرب ، وجعلت أهل «كليتو» (كريت) و «آشى» (الآشيا = قبرص) تحت سلطانك ، يرون فيك فحلا ظافرا فتيا صحيح القرنين ، لا يخلبه غالب ، وواقيتك لتسحق أهل المناقع والاخوار ، فبكت أهل ميتانى يهترون أمامك رجبا وفرقا ، وأريتهم اياك في صورة تمساح يملأ الماء رجبا ، فلا يدنو منه أحد» .

«ووافيتك لترهب أهل الجزائر في قلب اليم ، تروعهم صيحتك في ساحة
الوغى ، وأريتهم اياك كالظافر يصول فوق ظهر غريمه ، ووافيتك لتهلك
«التحنو» (الليبين) و «الاولتتيو» تصرعهم قوتك ، وأريتهم اياك في
أقصى الارض ، وجعلت ما يحيط بالاقيانوس في قبضتك ، وأريتهم اياك
في صورة «فهد» ثائر يذرع شطرى الوادى ، ووافيتك لتسحق النوبة ،
وجعلت بقاعها في يمينك حتى «اشك» (مكان غير معروف في النوبة) ،
وأريتهم اياك في صورة أخويك (حور وست) ، ووضعت أختيك (ايزة
ونفتيس) خلفك لصمايتك ، على حين أن ذراعى جلالتي كانتا مرفوعتين
لنتقبضا على كل شر» .

«اننى أمدك بحمايتى يا ابنى ، يا أيها الثور القوى الذى يسطم في
طبية ، الذى أنجبته أعضائى الإلهية ، تحوتس المظد أبدا ، الذى عمل
لى كل ما تتوق اليه نفسى (كا) ، لقد أقمت لى بيتا ، وهو عمل سيبقى
أبدا ، وجعلته أطول وأعرض مما كان عليه من قبل ، والباب العظيم
(من خبر رع - أعياد أمون رع) ، أن آثارك أعظم من آثار كل ملك سلف ،
اننى راض عنها ، لقد ثبتك على عرش مصر للملايين السنين ، حتى ترعى
الاحياء الى أبد الأبدين» (٢٣) .

(٢٣) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٤٩٨ - ٥٠١ ، سليم حسن :
المرجع السابق ص ١٨٥ - ١٨٩ ، وكذا

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 286-288.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 35-38.

A. Erman, Op-Cit, p. 254-258.

ثانيا : من ادب الملاحم

ملحمة معركة قادش (١٢٨٥ ق م)

بدأ ملوك الاسرة التاسعة عشرة يعملون على استرداد الامبراطورية المصرية المفقودة في آسيا ، ومن ثم فقد بدأ «سيتى الاول» (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق م) بحملات ثلاث في فلسطين وسورية ، حتى اذا ما كلفت الحملة الاخيرة حدثت المواجهة بينه وبين الحيثيين ، وطبقا لنصوص الكرنك ، فقد كتب لفرعون النصر ، كما حصل على كثير من الاسرى والغنائم ، وأجبر الحيثيين على العودة الى بلادهم .

وهكذا نجح «سيتى الاول» في أن يجعل حدود امبراطوريته تمتد شرقا من نهر الليطاني ، وأن صورو مجدو ، وربما بيسان ، قد استمرت كقواعد عسكرية ، وأن الرجل وأن لم يستطع أن يحرز تقدما بعيدا في سورية ، فإنه قد نجح في أن يفرض هيبة النفوذ المصرى في كل فلسطين ، وربما في سورية الجنوبية ، وأن يهزم الجيش الحيثى ، وأن يسيطر على اللّليم «بنتسينا ، أمير امور ، ومولى الحيثيين»^(١) .

ويخلف «رعسيس الثانى» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق م) أباه «سيتى الاول» على عرش الفراعين ، ويبدأ حكمه بأن يوالى الانتصارات التى حققها أبوه في فلسطين ، ثم مدها نحو الشمال ، الى سورية ، التى كان النفوذ الحيثى قد تغلغل فيها منذ أيام العمارنة ، ومن هنا بدأ الصدام بين مصر وخاتى ، وفي العام الخامس من عهد رعسيس الثانى (حوالى عام ١٢٨٥ ق م) حدثت معركة قادش المشهورة ، حيث كتب النصر فيها لفرعون ، بعد أن تعرض لكمين كاد أن يقضى عليه وعلى جيوشه ، ولكنه استطاع بفضل شجاعته النادرة ، أن يحول الهزيمة الى نصر ، وأن كلنت النتائج السياسية للمعركة لم تكن في مستوى النصر العسكرى ، ومن ثم

(١) انظر :

R. O. Faulkner, JEA, 33, 1947, p. 37-38.

J. H. Breasted, ARE, III, Parag. 140-141.

فان كثيرا من الباحثين انما يذهبون الى ان الحدود بين الدولتين بقيت في موقعها عند نهر الكلب في فينيقيا تماما ، كما كانت قبل المعركة (٣) .

هذا وقد سجل الفرعون نصره هذا في ملحمة شعرية رائعة ، جعلته من تروم الحرب ، وأبطال المعارك ، وان نسبت خطأ الى كاتبها «بنتاؤر» الذي لم يقل شيئا سوى تدوينها ، وهكذا أعطت الايام لـ «بنتاؤر» ما ليس من حقه ، بينما أخفت الايام شاعر الملحمة الاصيل ، فبقى محجوبا عن عيون التاريخ حتى اليوم .

هذا وقد سجلت قصيدة معركة قادش هذه ، على سبع واجهات وجدران مختلفة ، منها بوابة معبد الاقصر ، والجداران الجنوبي والشرقي لردفة المعبد ، والحائط الخارجى من الجدار الغربى لردفة أمنتب الثالث من نفس المعبد ، والجدار الخارجى لقاعة المعبد العظيمة بالكرك ، وكذا على الجدار الخارجى من البوابتين التاسعة والعاشر من معبد الكرك ، وعلى الجدار الشمالى الغربى لمعبد رعمسيس الثانى فى أبيدوس ، وعلى البوابة الثامنة لمعبد الرمسيوم فى طيبة الغربية ، كما رسمت المعركة بتفاصيلها فى الصالة الاولى من معبد أبو سمبل على الجدار الايمن (٢) .

هذا وقد اهتم بهذه القصيدة كثير من العلماء ، فقاموا بنشرها وترجمتها ، والتعليق عليها ، ولعل من أهمهم كوينتر (٤) وسليم حسن (٥)

(٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٧٤ - ٩٣ .

وكذا A. H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses, II, Oxford, 1960, p. 7-9.

H. Goodicke, JEA, 52, 1966, p. 72-92.

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 38-39.

J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 423-441.

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 5-7.

(٣) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٢٦٨/٢ ، ولعل من الجدير بالإشارة أن هناك نصا للملحمة على بردية اقتسمها متحف اللوفر والمتحف البريطانى ، وما زالت محفوظة بهما .

(٤) C. Kuentz, la Bataille de Qadech, Memoires de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale, Vol. 55, (Cairo, 1928-1934).

(٥) S. Hassan, Le Poeme did de Pentaour et la rapport officiel

وكتشسن^(٧) وبرستد^(٨) وويلسون^(٩) وفولكنر^(١٠) وجاردنر^(١١) وبيرن^(١٢)
والث^(١٣) وايدل^(١٤) وشولمان^(١٥) وجدكه^(١٦) ، هذا الى جانب عدة
ترجمات عربية^(١٧) .

وفي الواقع فلقد سجل شاعر الفرعون ، الذي لا نعرفه على وجه
اليقين ، أخبار معركة قادش في ملحمة شعرية رائعة ، أشاد فيها بشجاعة
الفرعون وبأسه ، وببطولته الفذة ، ثم بصبره وثباته وحسن بلائه ،
فصوره لنا في ساعة الكرب ، وقد اندفع في صفوف العدو ، حتى اذا
ما توسطها أو كاد ، أحاطت به عجلات الحرب ، يعلوها فوارس الأعداء
من كل قرم ، وهنا يترك الشاعر فرعون يتحدث عن نفسه فيقول : «للم
يكن ممى أمير ولا فارس ولا راجل ، فلقد تولى عنى فرسانى ورجالتي ،
وتركونى نهبا للعدو ، اذ لم يستطع واحد منهم أن يثبت لضرباته .

وقد أرخت الملحمة : «السنة الخامسة ، الشهر الثالث من فصل
الصيف ، اليوم التاسع من عهد جلالة الملك رع دار أختي ، الثور القوي،

sur la Bataille de Qadesh, Cairo, 1929 .

K. A. Kitchen, *Ramesseid Inscriptions, Historical and Biographical*, Oxford, 1969, II, p. 2-124 (٦)

J. H. Breasted, *ARE*, III, Chicago, 1907 (Reprint N.Y., 1962). Parag. 298-327. (٧)

J. A. Wilson, *AJS*, 43, 1927, p. 266-287. (٨)

R. O. Faulkner, *MDIK*, 16, 1958, p. 93-111. (٩)

A. H. Gardiner, *The Kadesh Inscriptions of Ramses*, II, Oxford, (١٠)

1900.

A. H. Burne, *JEA*, 7, 1921, p. 191-195. (١١)

A. Alt, *ZDPV*, 55, 1932, p. 1-25, 66, 1943, p. 1-20. (١٢)

E. Edel, *ZA*, 15, 1949, p. 195-212, *AEO*, I, 188-189. (١٣)

A. R. Schulman, *JARCE*, I, 1962, p. 47-53. (١٤)

H. Goodicke, *JEA*, 52, 1966, p. 71-80. (١٥)

M. Lichtheim, *Op-Cit*, II, p. 57-70 وكذا

(١٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٨٦٠ - ٨٧٥ ، سليم حسن :

المرجع السابق ص ١٩٢ - ٢١٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص

٢٢٩ - ٢٣٢ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

محبوب معلت ، ملك مصر العليا والسفلى ، وسر ماع رع ، ستب ان رع ،
ابن رع ، رعسيس ، محبوب أمون ، معطى الحياة أبدا ، والان لسان
جلالته فى زامى فى حملة نصره الثانية ٠٠٠» .

وأما القصيدة فتبدأ كالتالى :

«بداية انتصارات ملك مصر العليا والسفلى ، وسر ماع رع ، ستب
ان رع ، ابن رع ، رعسيس ، محبوب أمون ، معطى الحياة أبدا ، التى
أحرزها على بلاد خاتى ، ونهرين ، ربلاد أرزاوا ویداسا ، ودردىنى ،
وبلاد ملسا ، وبلاد كلركيشا ولوكا ، وقرقميش وكدى وبلاد قادش ،
وبلاد أوجاريت وهوشلنت» .

«لوكان جلالته شابا يافعا نشيطا لا نظير له ، قوى الذراعين ، جسور
القلب ، قويا كمونتو فى وقته ، كامل كأكثوم ، يعم السرور عند رؤية بهائه ،
عظيم الانتصارات على كل البلاد ، لا يؤسر فى القتال ، جدار قوى حول
جنوده ، ودرعهم فى يوم المعركة ، رام لا نظير له ، وقوته تفوق الكثيرين ،
وهو الزاحف قدما ٠٠٠»

وتستمر القصيدة فى وصف المعركة ، ولعل من أروع أجزائها أن يكون
وصف الشاعر لموقف رعسيس الثانى فى محنته الكبرى ، عندما أحاطت
به قوات العدو ، فأخذ يستنيث بأبيه وربه «أمون» ، ويطلب منه العون ،
ولما استبطلت معونته ضاقت نفسه ، وأخذ ينجيه معاتبيا إياه ، عتابا يصور
ما فى نفسه الملتاعة من صراحة وإيمان .

«وقلم جلالته مثل مونتو ، واندفع وسط المبحو ٠٠٠ الحيشين
الانبياء ٠٠٠ وكان وحيدا ، ولم يكن معه أحد ، والتفت الملك خلفه ،
فوجد حوله ٢٥٠٠ عجلة حربية ، وكل جيوش الحيشين الانبياء بكل
حلفائهم ٠٠٠ ولم يكن معى أحد من قوادى ، بينما كان كل ثلاثة منهم
على عجلة معا ، لم تكن معى عجلة واحدة ، أو راكب عجلة ، أو ضابط
من الجيش أو خيل ، فسألت أمون ربى : ما معنى هذا يا أبى أمون ؟ هل
من شأن الوالد أن يتخطى عن ولده ، هل أتيت أمرا من وراء علمك ، ألم

أمش وأقف بوحى من ارادتك ، وطبقا لأوامرك ، ما أجل رب مصر العظيم ، حين يسمح للجانب أن يقتربوا من حماه ، ما الذى غير نفسك يا أمون ، وما قيمة هؤلاء الجانب يا أمون ، وهم يكفرون بالرب ؟» . «أو لم أقم لك الآثار الكثيرة ، وأملأ معابدك بالعبيد والاماء ، انى بنيت لك البيت العظيم الخالد ، ونحرت لك فيه عشرات الالوف من الاضحيات ، وتركت الفلك تجرى بأمرك ، ووضعت بين يديك الكوز الكثيرة ، اننى ادعوك واستتصرحك أبى أمون ، وأنا بين أجانب كثيرين لا أعرفهم ، وقد تضافرت الاقطار الاجنبية ضدى ، وأصبحت وحيدا وما من أحد حولي ، أنا حارس نفسى وليس معى أحد ، تركنى جنودى الكثيرون ، ولم يلتفت الى واحد من خيالى ، أنادى على عرباتى ورجالى فلا يرد واحد على ندائى ، فدعوتك أنت ربى يا أمون ، مؤمنا بأنك أجدى على من ملاين المشاة ومن مئات الالوف من الفرسان ، ألا انى أدعوك يا أمون من تلك البقاع النائية ، مؤمنا بأن دعائى سوف يبلغك فى طيبة» .

ويستجيب أمون الى دعوات ابنه رعسيس ، ويسمع الملك صوت أمون ، وهو يهتف به مليا ، آمرا آياه أن «أقدم ، وانى لأبوك ، وانى لأكثر نفعا لك من مئات الالوف من الرجال ، أنا رب النصر الذى يحب الشجاعة» ، ويتشجع الفرعون عندما يحس أن ربه أمون معه يدفعه الى الجهاد ، فينشط على جماعات كثيرة من الاعداء ، ويبدى شجاعة خارقة فى تلك اللحظات العصيبة ، ويستطيع أن ينفذ نفسه من هذا المازق الخطير ، الذى وضعه فيه ملك الحيثيين وجنده ، عندما أحاطوا به من كل جانب ، فى وقت تفرق عنه جنوده وتركوه وحيدا فى ساحة الوغى .

وقد تمثل عون أمون لولده الفرعون فى فرقة «النهرين» الذين أتوا عن طريق أرض أمور ، واقتحموا الميدان ، وكانت قلوبهم واثقة من قوة الفرعون ، «لوكان هو لهم كجدار من النحاس ، وكجدار من الحديد» ، وشدد فرعون هجومه ، فلم يجد أعداء أمامهم سوى النهر ، وألقوا أنفسهم اليه ، وغرق بعضهم فيه ، وإلى هذه اللحظات العصيبة يشير رعسيس بقوله : «هناك وجدت نفسى ، ففاضت نفسى غبطة وسرورا ،

وأعست أننى قادر على الجهاد ، فخدوت مثل اله الحرب مونتو ، وأخذت أرمى باليمين ، وأضرب بالشمال ، كأننى «بعل» فى ثورته ، وبحث لى الخمسمائة ألفا (٢٥٠٠) عجلة من عجلات الحرب التى أحاطت بى ، وكأنها حطام عديم الخطر ألم خيلى ، وأولئك أعدائى قد أصبحوا عاجزين فلا يستطيعون حربا ، لقد وهنت نفوسهم ، وكلت أيديهم ، فما يستطيعون أن يطلقوا سهامهم ، أو يقدفوا رماحهم ، فدفعتهم الى اليم يفوضون فيه كالتماسيح ، بعد أن كجكوا على وجوههم ، فاضطربوا وأخذ بعضهم يموج فى بعض ، وأخذت أتصيد من جسمهم كيف أشاء ، ووقف الملك الحيثى ينظر ذلك : «ه ، فاستدعى كل قواده وأحلافه ، واتجهت نحوهم أسرع من النار ، وحملت عليهم مثل مونتو وأدققتهم طعم يدى فى لحظة ، وكان الواحد منهم يصيح لآخيه ، ما هذا بشرا ، ان هذا الا «سوتخ» انه بعل مجسدا ، وانه لذو قوة طاغية ، وفعله لا تتفق لبشر ، ألا فلننقذ أنفسنا ، وننجوا بحياتنا ، ألا تبون كيف يأخذ الشلل أبدان من يقتربون منه»

«وانطلق وراءهم وكاد يقتلهم ، وكان يصيح بالجند وراكبى العجلات ألا فلتثبتوا ، ولتثبت قلوبكم ، أى جندى وعرباتى ، أنا وحدى ، وأمون سئدى ، وتحدث «مننا» الى جلالته يمدح شجاعته ، ويثبت الملك قلب «مننا» قائد عربته ، وهو يقول : ماذا فى قلبك عن هؤلاء الاسيويين ؟ سوف أذبهم وألقى بهم فى الرغام ، أقسم بأمون انهم أشرار ، لانهم ينكرون الاله (الله) الذى سوف لا يضىء وجهه على ملايين منهم ، واخترق الملك صفوف العدو ست مرات ، وكان يذبهم ، ولم يفلت من أراد قتله منهم» .

وهنا أقبل جند الفراعون ، وأخذوا يصفسون بركبته ، هناك خاطبهم بأغلظ القول ، ووجهه اليهم أعنف اللوم ، لما كان من انصرافهم عنه وانفضاضهم من حوله ، وه حاولا فى الوقت نفسه أن يستفزهم الى حسن البلاء ، أنظر اليه اذ يقول متحصرا : «من هم اذا عظمائى وفرسانى ورجائتى الذين يعرفون القتل ؟ أوليس يجدر بالرجل أن يسعى الى الجد ليلقاه جزاء ما يعدى بين يدى سيده من شجاعة ، فيغدو بذلك طيب السيرة

لانه قاتل بما في وسعه من شدة وبأس ، ولان الشجاعة حلية الرجل منذ القدم ، كانى لم اعمل صلاحا ترضونه ، حتى نبذتمونى وحيدا بين جموع البدو ، وكانكم استمراتم طيبات الحياة أو استمتعتم بنعيمها من دونى ، الا ترون اننى سباجكم القوى ؟ لسوف يتحدث الناس بترككم اياى وحيدا لا يؤنسنى رفيق ، ولا يؤيدنى محارب ، ولكنى حاربت الملايين من الاجانب وحيدا ، لا املك غير فرسى ، وسائق ركابى ، ومن كانوا فى معيتى من خدام قصرى» •

ثم يتعمد الفرعون أن يذكرهم بما وفره لهم فى مصر من مآثر طيبة ، ومعاملة حسنة ، ثم كيف قربهم اليه وأحبهم ، وقال لهم : «لعله ما من أحد منكم الا أسحيت له فضلا فى وطنى ، اذكروا انكم كنتم فقراء فأغنيتكم ، بأفضالى المستمرة ، وأقمت الابن منكم على أملاك أبيه ، وحرصت على أن أبعد كل شر عن مصر ، وتجاوزت عن ضرائبكم ، ولم يحدث أن اغتصب أحد شيئا منكم ، وكل من أعلن منكم شكايته زكيتة تاما ، تذكروا أنه ما من مولى قدم لجنوده ما قمت به لارضائكم ، فقد سمحت لكم بالاستقرار فى بيوتكم ومدنكم ، كلما أعفيتم من القيام بمهام الجيش ، وهكذا كان شأن خيالى يسرت لهم السبل الى قراهم» • ثم يقول : ها أنتم أولاء سوف تعودون عودة تعة ، كلكم جميعا لا يعود أحد منكم ، فيقف ليمد يده الى ••• لقد كنت أحارب ، وأقسم على ذلك بـ «كا» أبى أمون ، الذى عاد فرأى فوق مصر ، كما كان آبائى من قبل ، أولئك الذين لم يرو السوريين •••» ثم يختم حديثه بقوله : «انى حاربت وحدى ملايين البشر ، لا املك غير فرسى هذين (النصر فى طيبة — والالهة موت) ، وانى لجاعل علفهما بين يدى وتحت عينى ، عندما أعود الى طيبة ، وذاكر منا سائق عجلتى ، لانه بقى الى جانبى مع خدم قصرى ، كل هؤلاء شاهدوا الواقعة معى ، تأمل : لقد وجدت أنهم أظهروا لجلالى الشجاعة والنصر ، بعد أن خذلت بساعدى القوى مئات الالوف مجتمعين معا» •

وفى اليوم التالى يوالى رعسيس وجنده هجعتهم على الحيثيين ، (ولما انفلق الصبح واصلت الحرب ، وكنت مستعدا للمعركة مثل الثور

اليقظ المتأهب للفرار ، وقد ظهرت عليهم وكأنى «مونتو» ، ومعى محاربون أقوياء ، وقد اخترقت وسط المعمة مثل الصقر عند انقضاضه على الفريسة ، والصل الملكى على جبهتى ينفت النار فى وجه أعدائى ، وأما أنا فكنت مثل «رع» عندما يشرق فى الصباح ، فكنت أشعنى تحرق أوصال العدو ، وكان الواحد منهم ينادى الآخر : خذوا حذرکم ، اجمعوا أنفسکم ، تأملوا فان «سخت» معه على جواده ، فإذا اقترب منه أحد ، فان لهيب النار يمتد اليه ويحرقه» .

ويرسل ملك الحيثيين الى فرعون قائلاً : «انك رع حار أختى ، وأنت سوتخ العظيم البطش بن نوت ، وان «بعل» فى أوصالك ، والفرع سرى منك الى أرض خاتى ، وقد كسر الى الابد ظهر أمير خاتى» ، ثم يرسل ملك الحيثيين رسوله يستعطف فرعون بعبارات لا تخلو من ألم ومذلة : «هل من الخير أن تبطش بعبيدك ، ووجهك الكريم يلاحظهم دون أن ترحم ، تذكر ما فعلته بالامس حين قتلت منا مئات الالوف ، أتأتى اليوم أيضا ، ولا تبقى من رجالنا باقية ، لا تكن قاسيا فى حكمك أيها الملك الهمام ، فالسلام خير من الحرب» ، «هناك غاض قلب فرعون اشفاقا ورحمة ، ولكنه قبل أن يقبل ضراعة العدو ، أراد أن يعرف رأى رجاله ، الذين أجابوه فى صوت واحد : الصلح خير عظيم ، وليس فى السلام من بأس ، ان أنفذته ، ومن الذى لا يهاب يوم نقتلك» ، وسرعان ما غلبت على الفرعون سماعة المصرى ، «فأذن فرعون بالاستجابة الى دعاء العدو ، وبسط يديه من أجل السلام ، وقفل راجعا مع جنوده فى أمان الى أرض مصر» .

«ووصل سالما الى «بيت رع» عيسى عظيم الانتصارات» (العاصمة قنتير) ، ومكث فى قصره ممتلئا حياة مثل «رع» على عرشه ، وقد رحبت الآلهة بحضوره قائلين : مرحبا بأبننا المحبوب ، رع عيسى محبوب أمون» ، ثم منحوه آلاف آلاف الاعياد والخلود على عرش والده «أتوم» وكل البلاد والأراضى الاجنبية أصبحت تحت قدميه» (١٧) .

(١٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٨٦٨ - ٨٧٤ ، سليم حسن :

بقيت الإشارة الى أن هناك بعضا من الباحثين انما يتهمون الفرعون بالبلغة في وصفه لحواره في معركة قادش هذه بل ان هناك آخرين يذهبون الى أبعد من ذلك ، حيث يرون أن الفرعون لم يحقق نصرا في معركته هذه .

وأما أن هناك مبالغة في وصف دور الفرعون ، فنحن لا نبرأ النص من ذلك ، وأما أن الفرعون لم يحقق نصرا في معركة قادش هذه ، فتلك مبالغة من الذين يتهمون الفرعون بالبلغة ، ذلك لان نصر الفرعون في المعركة انما هو حقيقة ، لا ريب فيها ، وأن هناك عوامل كثيرة من وراء نصر الفرعون ، منها :

أولا : تباطؤ جيش الحيثيين ، وانهمالهم في جمع الاسلاب والغنائم من هيلق رع .

ثانيا : وصول فرقة «نعرين» الى ميدان المعركة في الوقت المناسب .

ثالثا : شخصية الملكين - المصري والحيثي - كفائدين .

والرأى عندي أن أهم الاسباب جميعا ، انما كانت شخصية الفرعون الشاب - والذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره بالكاد ، ان لم يكن قد وصلها - فلقد لعبت شجاعة رعمسيس الثاني النادرة ، وصموده أمام أعدائه ، واستبساله في القتال ، قبل وصول فرقة نعرين ، الدور الاساسي والحاسم في النصر .

والا فخيرني بربك : ماذا ستكون فائدة قوة فرقة نعرين ، لو أن الفرعون الشاب قد تفاخل عن القتال - كما فعل كثير من جنده - ومن

المرجع السابق ص ٢٠١ - ٢١٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٣١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، وكذا

H. Goedicke, Op-Cit, p. 71-80.

J. A. Wilson, Op-Cit, p. 266-287.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 62.

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 93-111.

A. H. Burne, Op-Cit, p. 191-195.

هنا ملفتنى أميل الى أن موقف رعمسيس الثانى ، التاجر الشجاعة ، انما كان العامل الاول والحاسم فى احراز النصر ، وأما الملك الحيثى ، فلم يكن كفؤا لإدارة المعركة ، يبدو ذلك واضحا ، عندما نراه يقف عاجزا ، دون أن يرسل مشاته ، بعد أن قضت عجلاته على فيلق رع ، نتيجة الكمين الذى أحكم تدبيره ، بل وكاد أن ينشر الرعب فى قلوب المصريين ، وأن يشيع روح الهزيمة بينهم ، وأن يجعل الفرعون محصورا بين جنود الحيثيين .

وقد نلتش الميجر «برن» ذلك ، وخلص منه الى أنه ربما كانت مخاضة «تسبتونا» (التى أعد الكمين فيها للقضاء على الجيش المصرى) أعمق مما يجب على المشاة ، وأن الملك الحيثى لم يستطع أن يقنع مشاته بعبورها ، وربما كان الرجل يفقد تلك الهبة فى القائد ، فضلا عن الحزم وحسن التصرف فى اللحظات الحاسمة ، ومن ثم فإن فرقة خيالاته التى كثر عددها قد اختفت فى غبار التراب ، وأصبح الموقف مظلما ، وضاع النصر ، ومع ذلك كله ، وكما أشرنا من قبل ، فإن النتائج السياسية لم تكن فى مستوى النصر العسكرى ، حتى أن الحدود بين الدولتين بقيت فى مكانها عند نهر الكلب فى خينيقية تماما ، كما كانت قبل المعركة ، وعلى أية حال ، فإن الفرعون ظاهرا أرجع النصر الى عون ربه آمون أولا ، ثم الى شجاعته وجهده الشخصى ثانيا (١٨) .

(١٨) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٨٤ - ٩١ ، وكذا

A. Burn, JEA, 7, 1921, p. 194-195, The Art of War on Land, p. 36-47.

A. Gotz, LDZ, 32, 1929, p. 832-838.

J. Kuentz, BIFAO, 55, p. 14.

F. Daumas, La Civilisation de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 409.

A. Weigall, Op-Cit, p. 157-159.

وانظر عن «تعرين»

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 263.

J. A. Wilson, ANET, p. 256.

H. Goedicke, Op-Cit, p. 79-80.

A. Burn, Op-Cit, p. 194.

أولا : أغاني الغزل

عرف المصريون القدامى على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م) لونا من الادب يتمثل في أغاني الحب التي يتغزل فيها الحبيب بمحبوبته ، غزلا ساخجا مرسلا ، خاليا من التكلف والصنعة ، وعلى أية حال ، فلدينا مجموعات كاملة من قصائد الحب ، ورغم قلتها - بالنسبة الى غيرها من فنون الادب الاخرى - فانها تبين فيما يرى بعض الباحثين^(١) ، أن شعر الغزل قد وصل الى شكل ربما يدل على ممارسة ، ليست ، على أية حال ، قصيرة ، كما يشير الى ذلك ، اختيار اللفظ وتكوين العبارة ، واذا قارنا لغة الشعر بلغة النثر ، لوجدنا أن الاولى ، انما تتميز على الثانية برقة اللفظ وموسيقيته وانسجامه ، وأما الصورة الشعرية فربما قد وصلت الى مستوى قريب مما وصلت اليه الصورة في الشعر الحديث غير المقفى ، وليس من المستبعد أن ذلك للشعر ، بما فيه من قوة المعنى وجمال الاسلوب وصدق التعبير ، انما كان يؤثر في عواطف السامعين ويشجيههم ، عندما يسمعون غناء يوقع المغمنون والجواري أنغامه على أوتار العود ، وأى نغم تشجى النفوس ، وتحرك فيها المواطف ، أقوى من تلك النغم التي يطنها الرجل الذي يضنيه الحب ، فيلتبس منها شفاء الروح في عيني حبيبته ، ويستقطر الدواء من شفيتها ، وأى وصف أجمل وأوفى من ذلك الذي يخلعه الحبيب على من يحب ، فهو يجد في طلعتها طلعة الزهراء في باكورة العام السعيد ، تضيء بأشراقها دنياه ، وتجعلها جميلة وضاعة ، ويرى الجمال في عينيها ينبعث منها كلما مدت الطرف اليه ، ويرى الحلاوة في شفيتها سيالة بكلماتها العذاب اللطاف ، وهى - الى كل ما ذكر من محاسنها - طويلة الجيد ، ناعمة الثدي ، سوداء الشعر ، يلعم سواده في عينية فيبهره ، وعلى ذراعها طلاوة تفوق

(١) منير مجلى : الجزيرة المسحورة - نصوص من الادب المصرى القديم ص ٢٣ .

طلاوة الذهب^(١) ، ثقيلة الردف ، دقيقة الخصر ، في سلقها جمال يزيدما
رشاقة ، كلما تهادت على الأرض^(٢) .

وهناك مجموعة من أشعار الحب مكتوبة على بردية هيراطيقية من
عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٩ - ١١٨٤ ق م) ، وهي محفوظة الآن
بالمتحف البريطاني برقم ١٠٠٦٠ ، وتعرف عند العلماء باسم « بردية
هاريس رقم ٥٠٠ »^(٣) ، وان كان البعض يفضل تسميتها باسم « مجموعة
منف » لذكر اسم المدينة فيها ، وعنوانها « بداية الاغنى الجميلة لصبيبتك
التي يحبها قلبك والتي تأتي اليك من المرج » ، وتتحدث فيها الفتاة التي
وقعت في الحب عن الطائر والشرك والطعم والعبير والتعويذة وصيحات
الطير والطيب الذي يحمله في مخالبه^(٤) . الخ ، هذا وقد تعرض كثير
من الباحثين لاغنى الحب ، نشرا وترجمة وتطبيقا^(٥) .

(٢) كان ذلك اللون القمعي الفاتح هو لون النساء في مصر الفرعونية ،
وهو ما يزال كذلك بين سكان الريف حتى اليوم - وخاصة في الصعيد - ولولا
الذي أدخل على دماء المصريين من مختلف الشعوب التي صاهرتهم منذ
نهاية العصور الفرعونية ، لاستطاع القوم أن يحتفظوا بالوان بشرتهم
القديمة التي تبدو لنا في صور القبور ورسومها ، ولم ير الشاعر المصري
طلاوة يكسو بها جمال ما يبدو من لون بشرة الحبيب خيرا من لون الذهب
(أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٢٩ ، هامش ٢) .

(٣) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٢٨ - ٩٢٩ .

(٤) انظر : منير مجلى : المرجع السابق ص ٢٧ - ٤٨ ، وكذا

A. Erman, LAE, 1927, p. 244-246.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 189-192.

(٥) منير مجلى : المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٧ .

E. F. Wente, in JNES, 21, 1962, p. 118-128.

H. Briner, JNES, 25, p. 130-131.

M. Lichtheim, in JNES, 4, 1945, p. 178-212.

W. K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 296-326.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1976, Vol. II, p. 179-193.

S. Schot, Altägyptische Liebeslieder, Zunch, 1950, p. 39-69.

P. Gilliert, La Poesie égyptienne, Brussels, 1949, p. 42-79.

هذا الى جانب عدة ترجمات عربية للاستاذة : سليم حسن وأحمد بدوى
وأحمد فخري ونجيب ميخائيل وعبد العزيز صالح وعبد الحميد زايد ومنير
مجلى وغيرهم .

١ - ومن أغاني هذه المجموعة :

حبيبي قلبي يتمنى حبك
وكل ما تفكر فيه هو لك
انظر ماذا فعلت
جئت اصطاد بشرك في يدي
تهبط طيور بونت سملة بالطيب في مصر
وأول طائر يهبط يأكل طعمي
وأظافره فيها عبير
لكم أود أن نطلقها معا
وحيدة أنا بجوارك
حتى تسمع صيحات طائري المعطر
كم يحلو لي أن تكون معي وأنا أنصب الشرب
لما أطيّب الذهاب للخرج مع المحبوب
سأسحب شبلكي وأعود ، ولكن ماذا أقول لأمي
وكل مساء أعود اليها محملة بالطيور
لسوف تقول لي : ماذا ألم تنصبي اليوم أي شراك ؟
آه أدار حبك رأسي
أوز البري يطير ويهبط جميعا
وماهي الطيور ، ولكنها لا تهمني
فلدي حبك ، لي أنا وحدي
وقلبي يواظم قلبك تماما ولن أبعد عن جمالك
يا حبيبي يتوقف قلبي في الكعك اللذيذ أمامي
ولكن مذاقه كاللح في فمي
الشرب الذي كان حلوا له الآن طعم مرارة الطير
عبير أنفاسك ، هو ما يحيي قلبي
يا أجمل كل الناس كم أود أن أشاركك بيتك
زوجة لك ، كي تضع على ذراعي ذراعك
ولكنك أدت عني حبك

أقول لقلبي بداخلي
 غلب غنى حبيبي هذه الليلة
 وأصبحت كمن في القبر
 أنت الصحة والحياة
 ألا تأتي الى ومعك الفرح ، ألا تهلك صحة قلبي
 أظل على بلب دارى أنظر ، آيات حبيبي الى
 عيائى على الطريق وأذنأى تسمع
 حب حبيبي لى هو همى الوحيد
 وقلبي معه لا يسكت
 ها هو ذا يبعث لى رسولا
 يجىء ويمضى مهرولا ليقول أصابنى مكروه
 قل انك وجدت حبيبة أخرى
 لماذا تجعل قلب امرأة أخرى يتألم وأموت أنا
 ويسترجع قلبي حبك ، وينصف شعري مصفف
 امرع لأبحث عنك لا يهمنى تصفيف شعري
 لسوف أصفه ان كنت ماتزال حيا
 حتى أكون على استعداد لك ، فى أى وقت

٢ - ومن أغانى هذه المجموعة :

تسعد قلبي فافعل بى ما تريد
 حينما أكون بين ذراعيك
 حبيبي دواء عيني ، رؤياك نور عيني
 أتمكن بجوارك هادئة لانى أرى حبك
 يا من تسكن قلبي ، يا أعظم الرجال
 يا لهناء ساعتى التى أرتاح فيها معك
 آه لو دامت الساعة الدهر كله
 أنت حياة قلبي ، ولكنى حزينة فقد يهجرنى
 أنا حبيبتك الاولى ، حديقتك
 زرعت فيها الزهور والنباتات ذات العبير

يصفو جدولها الذى حفرته يداك
 حين تهب ريح الشمال المنعشة فهو المكان الجميل
 الذى أقتزه فيه ، وعلى يدي يدك
 جسدى مستريح وقلبي منتعش
 عندما نسير معا عذب أن أصغى لصوتك
 وأنا أحيا لأنى أسمع
 عندما أراك كل نظرة
 أطيب لى من أى طعام أو شراب
 عندما تعود منتشيا وتنام على سريرك
 أمسح قدميك ، فالصحة والحياة عندها ترجع
 وهناك مقطوعة غزلية جاءت على «بردية شستر بيتى الاولى» بيتنزل
 فيها لحتى بغتة فيقول :

حبيبتي درة فريدة لا مثيل لها فى حسنها
 هى أكثر جمالا من كل النساء
 انها كنيسة الزهراء فى مطلع العام السعيد
 ضياؤها ساطع وبشرتها وضاءة
 جميلة المئين حين تنتظر ، عذبة الشفة حين تتحدث
 تنطق على شفيتها الكلمات المحرصة
 طويلة العنق ، جميلة اللدين ، شعرها أسود غامق
 فراعاما أبدع من الذهب فى طلاوته
 أصابعها مثل براعم اللوتس
 ثقيلة الازداف ، نحيلة الخصر
 ينبىء ساقاها عن جمالها
 ما أرشق قدما عندما تسير
 سلبت قلبي مع قبايتها
 انها تجعل أعناق الرجال تتثنى
 مستديرة نحوها عند رؤيتها

ما أسعد من يلثم لهاها ، انه يصبح أقوى من غيره (٧)

وهناك أغنية جاءت على «أوستراكا» في متحف القاهرة ، برقم ٢٥٢١٨
يتناجى فيها فتى وفتاة ، حيث تقول الفتاة له «يا أخى» ، وهو يناجيه
بـ «يا أختى» (٨) ، ويبيث كل منهما الآخر ما يعتمل في نفسه من شوق ،
وما يلاقيه من أوة ، حتى يحين وعد الزواج .

وقد جاء في هذه الاغنية :

تقول الفتاة :

«أخى : انه لجميل أن اذهب الى البحيرة لاستحم أمامك ، حتى ترى
مفاتنى في ثوبى الكتانى الجميل ، وهو مبتل ملتصق بجسدى ، أنزل معك
الى الماء ، ثم أعود اليك بسمكة حمراء وقد استقرت جميلة بين أصابعى ،
تعالى وانظر الى»

ويجيب الفتى :

«هناك على الشاطئ الآخر حب أختى (حبيبتى) ، وبينى وبينها الماء
وتمساح على الشاطئ الآخر ، ولكنى حين أنزل ، فإن قلبى تملؤه الشجاعة
وإذا الماء أرض لقدسى ، فحبها يقوينى ، هى تعويذة سحر لى فى الماء»

«عندما أرى حبيبتى قادمة ، تنفتح ذراعى لاحتضانها ، ويفرح قلبى
فى مكانه مثل ... عندما تأتى سيدتى الى ، وعندما أعانقها ، وتفتح لى

A. H. Gardiner, The Chester Beatty Papyri, No. 1, p. 227-228. (٧)
Miriam Lichtheim, Op-Cit, P. 182.

(٨) كان المصريون القدامى يطلقون على الزوجة فى لغتهم - فضلا
عن «حمة» و «ست حمة» - لفظ «الاخت» أى «سنة» أو «سونة» (ولعلها
تشبه اللفظ العربى صنو) ، وكان ذلك نوعا من التعبير عن المحبة والاعزاز
للزوجة ، وكان الزوج يوصف بالنسبة لزوجته «هى» بمعنى «البعل» ،
و «نبت» أى ولى الامر ، و «سن» أى أخ ، وكانت الانثى بالنسبة لزوجها
«رحمه» أى حرمه ، و «مره» أى حبيبة و «سنة أو سونة» أى أخت ، وإذا
تحدث الناس عنها قالوا «نبت بر» ، بمعنى ميدة البيت (عبد العزيز
صالح : الاسرة فى المجتمع المصرى القديم ص ٦)

ذراعيها ، أحس كأننى فى «بونت» محاطا بالمطور ، وعندما أقبليها وتفرج
شفقتها ، انثنى بلا شراب ، وددت لو كنت جارية بين يديها ، حتى أرى
لون جسدها كله ، ليمتنى كنت غاسل ثيابها ، لاغسل الغطر الذى فى ثيابها ،
وددت لو كتبت خاتما فى أصبعها ٥٥» (٩)

وأخيرا هذه القصيدة من أغانى الغزل :

«سبعة أيام حتى أمس لم أر فيها أختى (حببتي)»
«تملكنى للداء ، وثقلت أطرافى ، وصرت أنسى نفسى»
«إذا عادنى مهرة الأطباء لا يرتاح قلبى الى علاجهم»
«إذا عادنى مهرة السحرة فمرضى لا يستجيب لسحرهم»
«ان ما يحينى هو أن يقولوا لى : انها هنا فاسمها هو منقذى»
«ان رسولها يأتى ويذهب ، لينعش قلبى»
«أختى أنفع لى من كل علاج ، انها أنفع لى من كل دواء»
«ان حضورها لى هو تعويذتى»
«لو نظرت لى أفسر جسمى ، واشتد ساعدى»
«حديثها يقوينى ، وحضنها ينعشنى»
«ولكنها مضت منذ سبعة أيام» (١٠) ٥

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 193.

A. Erman, Op-Cit, p. 243-244.

W. M. Muller, Liebesposie der alten Aegypten, Leipzig, 1899.

(١٠) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٣٤ ، أحمد فخرى :

المرجع السابق ص ٤٢٦ ، وكذا

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 185.

ثانيا - الغناء

اغنية الضارب على العود

توجد لدينا نسخة من هذه الاغنية محفوظة في «البردية هاريس رقم ٥٠٠» ، والتي توجد الان في المتحف البريطاني في لندن (تحت رقم ١٠٠٦٠) ، وترجع الى حوالي عام ١٣٠٠ ق م^(١) ، وهناك نص آخر وجد في مقبرة «با - أتون - حب» في سقارة ، وترجع الى أيام العمارنة ، وهي الان بمنصف ليدن^(٢) ، وان كانت تختلف عن الاولى الى حد ما .

هذا والبردية مكتوبة كذلك بمقبره «نفر حتب» في طيبة الغربية (رقم ٥٠) ، وترجع الى الفترة (١٣٥٠ - ١٣٢٠ ق م) على رأى «جون ويلسون»^(٣) ، وان كان الدكتور أحمد فخري يرجع بمقبرة «نفر - حتب» هذه الى الاسرة الحادية عشرة^(٤) (الدولة الوسطى) ، وهناك كذلك رواية للاغنية منقوشة على قبر الملك «أنتف» من الاسرة الحادية عشرة ، ويذهب «جيمس هنري برستد» الى أن أنشودة كاهن أمون «نفر حتب» من طيبة ، لا تكاد تماثل مقبرة «أنتف» ولا تعادلها في التأثير ، وان كانت تحتوى على بضعة أسطر قيمة يجب الالتفات اليها^(٥) .

هذا وقد قام بنشر هذه الاغنية وترجمتها وشرحها والتعليق عليها كثير من العلماء من أمثال - جاردنر^(٦) ، وميلر^(٧) ، وشستياندورف^(٨)

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 467.

Ibid., p. 467.

Ibid., p. 467.

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٢٢

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939. p. 166.

A. H. Gardiner, in PSBA, 35, 1931, 165-170.

W. M. Muller, Die Liebespösie der alten Aegypter, Leipzig, 1932.

K. Sethe, Op-Cit, p. 94.

وزيتة^(٩)، وارمان^(١٠)، وويلسون^(١١)، وسيمبسون^(١٢)، وإن كان
(Miriam Lichtheim) من أكثر العلماء اهتماماً بهذه الأغنية^(١٣)، هذا
وقد كتبت «أغنية الضارب على العود» على أيام الدولة الوسطى، وكانت
من الأغاني المحبوبة لدى المصريين القدماء حتى أخريات الدولة الحديثة،
حتى أننا نجد لها نسخاً من عهد الدولة الوسطى، ومن عهد الدولة الحديثة
سواء بسواء.

وهي تعتبر، دونما ريب، من أجمل الأغاني المصرية، وتمثل نوعاً من
الاناسيد الدينية، وكانت تنشد بمصاحبة «الجنك» في حفلات الأمراء،
وهي على نقيض الدعوة إلى السرور والابتهاج، تدعو الضاربين إلى تذكر
الموت القريب، وقد جاء في المصادر اليونانية أنه كان يعرض في مجالس
الشرب في مصر صور لموميا، حثاً على الاستمتاع بالحياة القصيرة عن
طريق تذكر الموت، وليس من شك في أن أغنية الضارب على العود، إنما
تصور لنا هذه الفكرة تصويراً غنياً جميلاً^(١٤).

وأما أهمية الأغنية — كمصدر تاريخي — فهي تصور لنا ناحية من
التفكير الجديد الذي بدأ ينتشر في تلك الطبقة من تليخ البلاد، منذ
أيام الثورة الاجتماعية الأولى، ذلك التفكير الجديد، هو الشك، فلقد
بدأ القوم يتشككون في العقائد التي توارثها القوم عن الأجداد، جيلاً
أثر جيل، والتي كانت تجعل من الوسائل المادية طريقاً للخلود، ووسيلة
للسعادة في الآخرة، وربما دفعهم إلى ذلك ما أصاب جبانة الجيزة الفخمة

G. Steindroff, in ZAS, 32, 1894, p. 123-126.

A. Erman, LAE, 1927, p. 253-254.

J. Wilson, in ANET, p. 33-34.

W. K. Simpson, Op-Cit, p. 306-307.

M. Lichtheim, JNES, 4, 1954, p. 178-212, Pls. 1-VII.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, 1975, p. 193-197.

II, 1977, p. 115.

وانظر: سليم حسن: المرجع السابق ص ٢٢٤ - ٢٢٥، أحمد فخري:
المرجع السابق ص ٤٢١ - ٤٢٣، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى
القديم ٢٧٧/١ - ٢٧٨.
(١٤) ارمان ورائكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة
ص ٤٣١.

ومعابدها الرائعة ، من تخريب ، حتى أصبحت خرائب مهجورة ، حتى من كهانتها ، فضلا عن الذين أوكل اليهم أمر العلنية بها .

ولم يقف الشك عند زعزعة الايمان بقيمة هذه الاضرحة المفضية ، بل تعداها الى الشك فى الحياة الآخرة نفسها ، وكما كانوا يقولون : وهل عاد اليها واحد من الراحطين .

وهنا قامت دعوة جديدة تنادى بأن يترك القوم لأنفسهم الحرية فى أن يتمتعوا بالدنيا — ما استطاعوا الى ذلك سبيلا — فإن الواحد منهم لن يأخذ — الى الآخرة شيئا مما اقتناه فى دنياه ، ومن ثم فقد كان شعارهم : «امرحوا ولا ترهقوا النفس ، هل للإنسان أن يأخذ شيئا مما اقتناه معه» ، وهكذا كانت هذه الاغنية تدعو القوم الى الاستمتاع بالدنيا ونبذ الهموم ، بل والتشكيك فيما ينتظر الناس فى العالم الآخر (١٥) .

وهكذا فإن أغنية الضارب على العود ، انما تمثل عصرا بعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية ، دون معارضة فيها ، كما ورثت عن الآباء ، فإن عقيدة الشك انما تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة ، ويحشا مستمرا فيما كان معتزها به حتى ذلك الحين دون تفكير ، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشيء وانكاره ، وهى تعد خطوة مميزة الى الامام فهو نمو الرعى النفسى ، والوازع الشخصى ، على أن عقيدة التشكيك هذه لا تنمو الا بين أفراد شعب له مدنية ناضجة ، ولا تنبت فى الاحوال الفطرية ، ولذا فإن هذا العصر (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) والذي يمثل قمته المتشككون الذين جاؤوا عقب سقوط الوحدة الثانية ، يعد عصرا هاما فى تاريخ التقدم العقلى عند البشر (١٦) ، وفى أغنية الضارب على العود ، دعوة الى أننا لا نعرف شيئا عن الحياة فيما وراء الموت ، لان واحدا من الراحطين لم يأت ليقص علينا ما رآه هناك ، واذا هلا طريق أمامنا سوى أن نمتع أنفسنا بأكبر قسح من الملذات

(١٥) انظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢١ — ٢٣ (رسالة ماجستير) .
J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y, 1939, p. 162 (١٦)

الحسبية ، ذلك لاننا لن نأخذ من ممتلكاتنا في هذه الدنيا شيئاً معنا الى
الآخرة (١٧) .

تقول أغنية الضارب على العود :

«هذا خير للامير النبيل ، فقد مر بالنهاية السعيدة ، تمر أجيال وتأتى
في مكانها أجيال منذ زمن الاوائل ، يوقظه الاله رع عند الصباح بويغيب
الاله أتوم في الغرب ، يتناسل الناس ، وتحمل النساء ، وتستتشق كل
أنف من الهواء ، وعندما يشرق الصباح ترى أولادهم في أملكهم» .
«الآلهة الغابرون (الملوك القدماء) يستقرون في أهراماتهم ، وكذا
يستقر الاشراف الامجاد في مقابرهم ، لقد شادوا القصور التي لا أثر
لها اليوم ، فماذا حل بهم ؟ لقد استمعت الى كلمات «ايمحوتب» و «هور-
ددف» اللذين يتغنى الناس بأقوالهما في كل مكان ، أين مكان كل منهما
الان ، لقد تهدمت جدرانهما ولا أثر لكانهما بعد ، كأنهما لم يعيشا على
هذه الارض على الاطلاق» .

«لا أحد يعود من هناك (من عند الموتى) حتى يقص علينا ماذا في
الآخرة ؟ وحتى يحدثنا عما هم في حاجة اليه لتطمئن قلوبنا ، حتى تلك
اللحظة التي نرحل فيها نحن أيضا ، الى حيث «ذهبوا»

«ألا غلبت هج ، ارم بكل الاحزان وراء ظهرك ، افرح وفكر في السرور
ولتشبع رغباتك طالما أنت حى ، ادهن رأسك والبس اللكنان الجميل ،
وتعطر بالروائح الزكية ، دع الغناء والموسيقى أملم نلظريك ، أكثر مما
لديك من ملذات ، اعمل ما أنت في حاجة اليه على الارض ، ولا تضجر
قلبك الى أن يدركك وقت الندب» .

«ان القلب الساكن (أوزير) لا يسمع عويلا ، والبكاء لا يوقظ أحدا
من عالم الموت ، لذلك غلبت هج لليوم السعيد ، ابتهج دائما ، ولا تشعر
بكل من ابتهاجك ، استمع الى : لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه ،
ولا أحد من الراحلين يعود ثانية» .

(١٧) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٦٨ .

الفصل السادس

من أدب الحوار

عرف الادب المصرى القديم من فنون الحوار محاوراة الانسان
للانسان ، ومحاوراة الانسان لروحه أو ذاته ، ومحاوراة بعض جسم
الانسان للبعض الآخر ، ومحاوراة الحيوان للحيوان ، والطيور للطيور ،
والنباتات للنباتات ، فضلا عن محاوراة المعبودات للمعبودات ، ولنأخذ مثالا
لهذا النوع من الادب «بردية اليائس من الحياة» .

بردية اليائس من الحياة

لاريب فى أن «بردية اليائس من الحياة» انما تمثل نوعا من أدب
الحوار ، كما أنها تمثل واحدة من أهم وثائق عصر الثورة الاجتماعية
الأولى فى مصر الفرعونية ، وتسمى أحيانا «تنزاع رجل مع روحه» ،
وأحيانا «شجار بين انسان سيئم الحياة وبين روحه» ، وأحيانا «حديث
نسو مع روحه» ، وعلى أية حال ، فالبردية محفوظة فى متحف برلين تحت
رقم (٣٠٢٤) .

هذا ، وكان «أدولف ارمان» أول من نشر البردية فى عام ١٨٩٦م^(١) ،
ثم أعاد ترجمتها ، مع ادخال تحسينات فى كتابه عن أدب المصريين
القدامى ، الذى نشره بالالمانية عام ١٩٢٣م ، والذى ترجمه الى الانجليزية
«بلاكمان» فى عام ١٩٢٧م^(٢) ، كما نشر فولكر فى عام ١٩٥٦م^(٣) ،
و «بارتا» فى عام ١٩٦٩م^(٤) ، وهانز جديك فى عام ١٩٧٠م^(٥) .

وقد اهتم أيضا بترجمة البردية وتطيلها كثير من العلماء من أمثال :

A. Erman, Gespräch eines Lebensmuden Mit Seiner Seele, (١)
APAW, Berlin, 1896.

A. Erman, LAE, London, 1927, p. 86-92. (٢)

R. O. Faulkner, JEA, 42, 1956, p. 21-40. (٣)

W Barta, Das Gespräch eines Mannes Mit Seinem Ba, Mun- (٤)
chner agyptologische Studien, 18, Berlin, 1969.

H. Goedicke, The Report about The Dispute of a Man With (٥)
His Ba, Baltimore, 1970.

الكسندر شلرف^(٧) ، وجيمس هنرى برستد^(٨) ، و هـ هـرمان^(٩)
 و دى بك^(١٠) وريموند فيي^(١١) ، وهرمان يونكر^(١٢) ، وجلكبسون^(١٣)
 وفون بسنج^(١٤) وجون ويلسون^(١٥) و سـ هـرمان^(١٦) و رـ وليسامز^(١٧)
 وفولكر^(١٨) وغيرهم^(١٩) ، فضلا عن ترجمات عربية عدة^(٢٠) .

هذا ويرجع تاريخ النسخة التى تحت أيدينا الى الاسرة الثانية عشرة
 (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق م) ، وهناك اتجاه الى أنها منقولة عن نص أقدم ،
 يرجع الى ما قبل أيام الدولة الوسطى ، وربما الأرجح الى وقت
 الاضطرابات فيما بين الدولتين القديمة والوسطى ، أى عصر الثورة
 الاجتماعية الاولى (نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد)^(٢١) .

وتتكون البردية من مقدمة طويلة بليغة ، ثم أربع قصائد شعرية ،

-
- A. Schorff, SBAW, Munich, 1937. (٦) =
 J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, (٧)
 p. 168-181.
 H. Hermann, OLZ, 42, 1939, p. 141-153. (٨)
 A. de Buck, EX. Oriente Lux. 7, 1947, p. 9-32. (٩)
 R. Weill, in BIFAO, 45, 1947, p. 89-154. (١٠)
 H. Junker, AOAW, Phi-hist, KI, 1948, No. 17, Vienna, 1949. (١١)
 H. Jacobsohn, in Zeitliche Dokumente der Seele Studien aus (١٢)
 dem C. G. Jung Institut Zurich, Vol. 3, 1952, p. 1-48.
 F. W. Von Bissing, Altgyptische Lebensweisheit, Zurich, 1955, (١٣)
 p. 124-128.
 J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 405-407. (١٤)
 S. Hermann, Untersuchungen Zur Überlieferungsgestalt Mittela- (١٥)
 gyptischer Literaturwerke, Berlin, 1957 p. 62-79.
 R. Williams, JEA, 48, 1962, p. 49-56. (١٦)
 R. O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London, (١٧)
 1977, p. 201-209.
 Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, Londo, (١٨)
 1975 I, p. 163-169.
 F. Brunner-Trant, ZAS, 94, 1967, p. 6-15. وكذا
 G. Thausing, MDIK, 15, 1957, p. 262-267. وكذا
 (١٩) سليم حسن : المرجع السابق ٢٨٢/٢ - ٢٨٩ ، نجيب ميخائيل :
 الحضارة المصرية ص ٥١٨ - ٥٢٥ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص
 ٤٤٧ - ٤٤٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٧ ،
 J. A. Wilson, Op-Cit, p. 405. (٢٠)

يذكر صاحبها في الاولى ، كيف قل تقدير الناس للرجل الفقير ، ثم يروى في الثانية بعضا من مأساته ، مبينا مدى ضيقه بالانفس وبدنياهم ، ورأيه هذا لاشك في انه ملىء بالتشاؤم ، جذير بتسخن يثخن من حياته ، وصمم على ازهلق روحه ، وأما في الثالثة ، فاننا نرى «نسو» (صاحب القصيدة) انما يشيح بوجهه عن شرور الدنيا ، ثم يتاهل الموت كمفجأة مباركة له ، وهذا الجزء الثالث من القصيدة ، انما هو — فيما يرى للدكتور أحمد فخرى (٢١) — أجمل ما في البردية ، وأما في القصيدة الرابعة فخرى «نسو» يضيف امتيازات الموتى الذين لهم القدرة على مقاومة الشر ، وحرية الاتصال بالالهة .

وأما أهمية البردية — كوثيقة تاريخية — فيرجع الى اننا انما تقدم للباحث صورة لهذا العصر — عصر الثورة الاجتماعية الاولى — الذي سادته الشك واليأس ، فمصاب البردية (نسو) انما يدعو الى ترك الحياة ، والالتجاء الى الموت ، نتيجة لما لاقاه في حياته من ظلم وقسوة ، ومن ثم فهو في الواقع انما يصف الحالة الفعلية والتجارب الباطنية لنفس معذبة ، تتالم مما حاق بها من المظلم وسوء الطالع ، وانطلاقا من كل هذا ، فان «جيمس هنرى بوستد» ، انما يذهب الى أن هذا الموضوع ، انما يعد أقدم قطعة أدبية تتناول موضوع الخبرة ، والتي تعد أقدم مثال يمثل لنا صورة مما ورد في سفر النبي «أيوب» — كما جاء في توراة يهود المتداولة اليوم (٢٢) — وقد كتبت بردية «اليابس من الحياة» هذه ، قبل أن تظهر التجربة الماثلة المتضمنة هذا الشعور في سفر مماثل بين العبرانيين بنحو ألف وخمسمائة سنة (٢٣) .

هذا ويدعو «نسو» كذلك الى الاستغناء عن الطقوس الجنازية المعتادة ، كما تدعو روحه الى أن يعيش الانسان ناسيا حزنه ، منعسا في السرور الى أفضيه ، ولعل هذه الدعوة التي تنادي بأن يأكل الانسان

(٢١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٤٨ .

(٢٢) أنظر عن «سفر أيوب» — كما جاء في التوراة — (محمد بيومي

مهران : اسرائيل ٦٧/٣ - ٧٣) .

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 168-169.

(٢٣)

ويشرب ، وأن يكون فرحا في يومه ، لأنه سيموت في غده ، انما تتفق مع ما ناحت به من قبل «أغنية الضارب على العود» ، وإن اختلفت معها في أمر هام وخطير ، إذ أخفت تبين أن الحياة فوق أنها ليست فرصة للسور ، والاسراف في اللذات ، فهي عبء أثقل حملا من الموت ، وهكذا دار حديث «نسو» حول السؤال الخالد عن معنى الحياة ، وهو سؤال يبرز للمرة الاولى — فيما نعلم — في تاريخ الآداب عامة ، وحديث الرجل ، على أية حال ، قطعة أدبية من خير القطع الأدبية التي حفظت لنا من تاريخ مصر القديمة (٢٤) .

هذا فضلا عن أن قصيدة «نسو» هذه ، والتي مدح فيها الموت ، انما أقدم صيغة وصلت إلينا ، عبر الفرد عما أصابه من العذاب ظلما وعدوانا ، وأول صرخة من متالم برئء وصلتنا في عصور ذلك العالم القديم ، وهي تعد بحق ذات فائدة فريدة ، ولا تخلو من جمال حقيقي بما احتوته من حرارة نفسية خلابة (٢٥) .

وموضوع البردية حوار فلسفى بين «نسو» وبين روحه ، ذلك أن «نسو» انما قد يثس من حياته بعدما أصابه فيها من نكبات ، وبعد أن تنكر له أقرب الناس إليه ، وبعد أن حرم من الدفاع عن نفسه ، وبعد أن حكم عليه ظلما ، وصار اسمه نتنا في أنوف الناس ، وبعد أن خربت الذمم ، وفسدت الضمائر ، وكفر الناس بالله وصدوا عن سبيله «نصرفين عن جد الامور لينغمسوا في الشهوات ، وليتورطوا في كبائر الاثم ، وقد قست القلوب وأفكر الناس ما تقدم لهم ربهم من خير ، وفي لجج هذه الغمرة النفسية أخذ الرجل يسبح في ظلمات اليأس ، ويلتمس منها المخرج ويبحث عن أسباب الراحة ، فلا يكاد يهتدى إليها الا بالانتحار والتخلص من هذه الحياة التعسة .

غير أن روحه قد التزمت جانب الرضا بدينها ، والتغاضى عما وراءها ومن ثم فقد احتدم الجدل بينهما ، حتى تحدثه بأن يقدم على الانتحار

(٢٤) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٢٧٥/١
J. H. Breasted, Op-Cit, p. 173-174. (٢٥)

حرقا ، ان كانت علما عن الدنيا ، راغبا في الموت ، فما جرؤ صاحبها في بداية الامر ، ولا امتنع عليها في الحالتين - الرضا بالواقع أو الرضا بالموت - امتنت هي الأخرى عن مناقشته ، ولكنه سرعان ما عود التفكير ثانية فيما دعه اليه ، واعتزم أن ينتقل هو وأياها الى عالم الآخرة ، وبدأ يسترجعها في الحديث عما تشجعه ، وأشهد عليها جمعا تخيله من الناس ، فما جلوبته بغير رد مقتضب عاتبها في اثره قائلا :

«عزيز على ألا تجلوبني روحى في يومى هذا ، أنها تهرب في يوم الشقاء ، أى روحى انه لغباء أن تصدى امرأ يملؤه الشجن ليحيا ، خذيني الى الموت قبل أن يأتينى ، واجطى من الغرب (عالم الآخرة) مكان سرورى ، فقد يثيننى في الآخرة «تحت» ، مرضى الارباب بقضائيه ، وينالغ عنى «خونسو» الكاتب بعدالة ، ويستجيب «رع» لابتها لاتي ، لعنائى قد ثقل وطؤه» .

وتصنعت الروح الغضب مرة أخرى ، وأجابته مرة ثانية بلقتضاب وهي تؤنبه «أبست رجلا ؟ لقد ابتغيت الحياة من قبل ، فماذا أنجزت ، ثم تأخذ الان تتأسى على الحياة شأن رب النعمة ؟ فأجلبها : «إذا أصاغت لى روحى ، ولا خطيئة لى ، وكان هؤلاءا معى ، فليسوف تهنا ، ولأجعلنها حينذاك تبلغ الغرب ، شأن من أقام في هرمه ، ووسده وريثه . . . » ، فإذا حلت بينى وبين الموت على هذا الوضع ، فلن تجدى ما تصطن عليه في عالم الغرب ، تجلدى لذن روحى ، وقومى منى مقام الوريث ، يقدم المقربان ، وينهض على مئوى يوم الدفن ، ويهين مضجع الآخرة (٣) .

وقد يبدو ذلك غير متوقع من رجل اتضح أنه يشك كثيرا في فائدة المعدات المادية التي كانت تعمل للمتوفى ، حين ينتقل الى العالم الآخر ، الا أننا نكشف السر بعد ذلك ، فنرى أن ذلك حيلة أدبية ، أراد الكاتب عن طريقها أن يندد بالمعدات الجنائزية (٣) ، ثم أخفت روحه تتردد في

(٣٦) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ٣٤٤/١ - ٣٤٥ .

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y, 1939, p. 169. (٣٧)

الموافقة على مراقبته ، ثم تحاول أن تنفرد عن الموت ، فأخذت تصف له
مظالم القبر ، «ثم فتحت روجي فمها وأجابت : اذا تذكرت المدفن فانه
حزن ، وذكراء تثير الدمع ، وتغعم القلب حزنا ... فهو ينتزع الرجل من
بيته ، ويلقى به على الجبل ، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس» (٢٨) .

وهكذا لم تستقر الروح على رأى ثابت في فكرة المخلود التي كانت
تسيطر على القوم وقت ذلك ، فدراما تشككه في تلك الفكرة الخالدة في
أذهان الناس ، هؤلاء الذين بنوا لانفسهم مقابر فضمة ، انما هم والذين
لم يبنوها سواء بسواء ، فلكل تحت حرارة الشمس ، والكل تعتد معه
الاسماك الاحاديث « عندئذ فتحت روجي فمها لتجيبني : لن تعود ثانية
لتشهد الشمس ... ان من شادوا الباني الفضة من أحجار الجرانيت
الصلبة ، وخصصوا لانفسهم قاعة في الهرم ، وقدمت لهم كل الخدمات
المجيدة ... أصبحت موائد قرايينهم خالية ، بعد أن صاروا آكله (أى
ماتوا) ، وأصبحوا سواء ، والمتعبين الذين قضوا على ضفاف القنوات ،
نال الفيض مقصده منهم ، وكذا حرارة الشمس ... أما الاسماك على
ضفة النهر ، فتجلس اليهم تعتد معهم الاحاديث» (٢٩) .

وتتجه روحه اليه بعد ذلك ، ناصحة اياه بأن ينسب الهموم ، ويأخذ
من الله نصيبه «اصنع الى وانه لجدير بالناس أن يصفوا ، تمتع بيوم
المسرة ، وانس الهموم» (٣٠) ، ولكنها بعد ذلك توافق على البقاء بجانبه
— حتى ولو انتحر — ذلك أن الحياة — بجانب أنها فرصة للمسور
واللذات — فهي عبء أثقل من الموت نفسه ، وأنها سيئة لدرجة تجعل
الموت خلاصا للإنسان من سيئاتها ، ولذا فهي ترحب بالموت ، « مرحبا

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, (٢٨)

1927, p. 87-88.

R. O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, (٢٩)

1977, p. 203-204.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 165.

A. Erman, LAE, 1927, p. 88.

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 204.

وكذا

وكذا

(٣٠)

بالموت ، انفى في شوق للمقائه ، كشوق الرجل الى بيته ، بعد أن يقضى
سنينا طوالا في الاسر والعناء» .

وهكذا نرى الروح التي حاولت أن تبعد صاحبها عن الموت ، لم يكتب
لها نجحا في مساعيها ، بل على العكس هو الذي نجح آخر الامر في أن
يضمها الى رايه ، مما يدل على مدى ضيقه بالحياة ، ورغبته في التخلص
منها ، ولكن علينا ألا نتوهم أن ما دفع «نسو» الى كره الحياة ومحاولة
التخلص منها ، انما كانت آلامه الشخصية ، وما لاقاه من عناء في حياته ،
ذلك لان الرجل انما قد استطاع أن يسمو على آلامه الشخصية ، ويلم
بأطراف المجتمع اذ ذاك ، ويحيط بأحواله ، وبذا لم تكن آلامه الشخصية
الا نموذجا لما يلاقيه المجتمع الذي يعيش فيه ، ويؤيد ذلك قوله : لن
أتحدث اليوم ، فليس هناك عدول ، والارض قد تسلمها الظالمون» (٣١) ،
وأن هؤلاء الظالمين قد أجزموا في حق كل مقدس ، وداسوا بأقدامهم
القانون ووطئوا مجد وتاريخ مصر ، ومن ثم فهو لا يود أن يعيش في هذا
الجو ، ولعل في هذا شبه بما جاء في تحذيرات الحكيم المصري «ايو -
ور» «آه لو يدنى الناس ولا يعود هناك حمل ولا ولادة ، ليت العالم
يتخلص من الخوغاء ، وتنقضى المشاحنات» (٣٢) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا الحوار بين «نسو» وبين
نفسه (روحه) انما يتناول السؤال عن معنى الحياة من ناحيتين ، تتعلق
احدهما بما اذا كان هناك معنى للحياة اذا اختفى كل ما كان من شأنه أن
يجعل الحياة سعيدة ، والاخرى أكثر عمقا وأوسع مدى ، فلم يكتب
الكاتب فيها باستمرار ذلك العراك بين الافكار والرغبات ، وانما عمد
الى موازنة بين وجهتي النظر المختلفتين اللتين سادت الحياة في ذلك العصر
بينما نجد روح «نسو» تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة وتدعو
ألا يفكر كثيرا في الآخرة ، وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة ، ويمثل
الكاتب ذلك الفريق من المصريين الذين احتفظوا بجائسهم ، والذين

Ibid., p. 207.

J. A. Wilson, ANET, p. 442.

(٣١)

(٣٢)

محصلتهم الآلام والنكبات ، وطهرتهم من أردانها ، فأكسبتهم بصيرة وزادتهم إيماناً بالآخرة ، وبقيمة أعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا .

وانطلاقاً من كل هذا ، انما يبدو واضحاً أن ما حدث انما يتكرر حدوثه في الانسانية ، وان فرط النكبات والمساوىء الاجتماعية المنتشرة ، وازدياد البلاء ، انما يحدث أثراً مزدوجاً ، ففريق ممن تصيهم النكبات — وهم أكثرية — يجرفهم تيار الاحداث ، بينما يفترض أن تدعو تلك الاحداث الى التبصر ، وأحياناً الى التشكك» (٣٣) .

وعلى أية حال ، فالنص فريد في نوعه بين النصوص المصرية ، حتى ذهب بعض الباحثين الى أنه غير مصرى في روحه ، فهو يدعو الى ترك الحياة ، والالتجاء الى الموت ، كما أنه غير مصرى في استغنائها عن الطقوس الجنازية المعتادة وما يتبعها من أثر نفسي ، وفيما أباح فيه الفرد لنفسه من حرية في مناقشة العقيدة السائدة ، وأن من حق الانسان أن يجد حلاً لمرديا في أخطر المشكلات .

غير أننا لو بحثنا في آداب الامم الاخرى لما وجدنا أصلاً له فيها ، وطبيعة «الباء» مصرية صرفة ، كما أن الوثيقة تتفق وروح العصر الذي كان يخيم عليه روح التشاؤم (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) ، انه غير مصرى لأن مصر لم تعرف ذلك اليأس الروحي والمادى ، وربما كلن ذلك بالمصادفة ، وربما كذلك أن المصريين — فيما تلا ذلك من عصور — لم يحبوا هذا النوع من اليأس عند ظهور العقبات ، وأنهم اهتموا الى حلول أخرى للتغلب على ما أصابهم من مآزق (٣٤) .

هذا وتتكون الوثيقة — كما أشرنا من قبل — من مقدمة بليغة ، فيها حوار بليغ ، كما رأينا في السطور السابقة ، يرى فيها صاحب الوثيقة (نسو) الموت منقذاً من حياته البغيضة الشقية ، بعد أن ذاق مرارة البؤس ، وهجره خلانه ، وأزرى به الهوان ، فهاشرف على الانتحار ليضع

(٣٣) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٢٧٥/١ - ٢٧٦

(٣٤) J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 113.

بيده خاتمة لحياته فيحرق نفسه ، فلقد دفعته حيلته الى أن يخطو هذه الخطوة ، ولكنه عاد فاحجم عنها ، فلا قبر يأويه ، ولا عقب يتردد عليه بالقرابين ، ومن ثم فسوف يقضى هناك جوعا وبردا ، وهكذا نراه يمرض روحه على ألا تتخلى عنه عند الموت .

« ثم فتحت فمى لروحي حتى أجيب عما سألت ... ان روحي ستسندنى هناك ، انها تهرب في يوم الشقاء ، ان روحي تعطلنى ، وأنا لا أكثرث بها ، وتجذبنى الى الموت قبل أن ألقاه ، وتلقى بى في النار لتحرقنى ... أى روحي انه لعناء أن تصدى أمرا يملؤه الشجن ليحيا ... وينافح عنى «خونسو» الكاتب بعدالة ، ويستجيب «رع» لابتهاالاتى ، فعنائى قد ثقل وطؤه » .

«وأجابت روحي : أنت بمثابة لا شيء ، ثم تتحدث عن الأشياء الطيبة كما لو كنت تملك الكتوز»

«قلت : سوف لا أذهب طالما هذه روحي ، باقية على الارض ، ان نصيبك الموت ، لو أن روحي تصفى الى ستكون منعمة ، سأجعلها تصل الى الغرب ، كروح من دفن في الهرم ، وفتحت روحي لها وأجابت : اذا تذكرت الدفن فانه حزن ، وذكره تثير الدفع ، وتغعم القلب حزنا ... فهو ينتزع الرجل من بيته ، ويلقى به على الجبل ، ولن يصعد ثانية ليرى الشمس ، أين بناء الاحرام من زينوا الابهاء ، وشادوها بأحجار الجرانيت الصلبة ، وخصصوا لأنفسهم قاعة في الهرم ، وقدمت لهم كل الخدمات المجيدة ، أصبحت موائد قرابينهم خالية ، بعد أن صاروا آلهة (أى ماتوا) ، وأصبحوا سواء هم والمتعبدون الذين قضوا على ضلالتهم ، نال الفيض مقصده منهم ، وكذا حرارة الشمس ... أما الاسماك على ضفة النهر فتجلس معهم تعقد الأحاديث ، استمع الى ... فخير للمرء أن يستمع .. تلعب ملذات اليوم ، وانس الهم ...»

وعندئذ فتحت فمى الى روحي لأقول :

للقصيدة الاولى :

انظر : ان اسمى أصبح كريها أكثر من رائحة اللحم النتن في أيام الصيف ، والسماء حارة

انظر : ان اسمى كربه أكثر من صيد السمك في يوم صيده ، والسماء صارة

انظر : ان اسمى كربه أكثر من رائحة الطيور ، وأشد من تل منصفاف مزدحم بالأوز

انظر : ان اسمى كربه أكثر من رائحة الصيادين ، وأكثر من شيطان المستنقعات حين يصيدون

انظر : ان اسمى كربه أكثر من رائحة التماسيح وأكثر من الجلوس حيث تكون

انظر : ان اسمى كربه أكثر من زوجة ردد عنها الناس البهتان أزوجها

انظر : ان اسمى كربه أكثر من مدينة ٠٠٠ وأكثر من نائر مدبر

القصيدة الثانية :

ان أتحدث اليوم ، فلقد أصبح الرفاق شرارا ، وأصحاء اليوم غير جديرين بالحب

ان أتحدث اليوم ، فالقلوب ملأى بالجشع ، وكل شخص يأخذ متاع جاره

ان أتحدث اليوم ، وقد وفر الناس على السوء ، وأهملت الحسنى في كل مكان

ان أتحدث اليوم ، وقد استحال الرجل الطيب الى سريير ، والخير مكروه في كل مكان

ان أتحدث اليوم ، فمستثير الحليم بشروره ، يدع الناس يسخرون منه حين تشدد وطأة عصفه

ان أتحدث اليوم ، فالناس يسرقون ، وكل امرئ يغتال متاع جاره

ان أتحدث اليوم ، فليس للمريض صديق يوثق به ، وأخوه أصبح عدوه

لن أتحدث اليوم ، فلا أحد يذكر ألامى ، وليس هناك اليوم من يجازى بالخير من قدمه

لن أتحدث اليوم ، وما عاد أحد يذكر الماضى ، ولا معونة لأحد في هذه الايام

لن أتحدث اليوم ، فالأخوة شرهم المرء يعامل كمعو ، رغم نقاء سريرته
لن أتحدث اليوم ، فالوجوه محبوبة ، وكل امرئ يولى وجهه عن اخوانه

لن أتحدث اليوم ، وما من أحد رضى الفؤاد ، ومن كان يرافق لم يعد له وجود

لن أتحدث اليوم : فليس هناك عدول ، والارض قد تسلمها الظالمون
لن أتحدث اليوم ، فالصديق الصدوق قد اختفى ، والمرء يعامل كمجهول رغم اعلان نفسه

لن أتحدث اليوم ، فليس هناك مسلم ، والصاحب لا وجود له
لن أتحدث اليوم ، وأنا مثقل بالتعاسة ، وفي حاجة الى صديق صدوق
لن أتحدث اليوم بالخطيئة التى تطل بالارض تبدو وكأنها لانهاية لها
القصيدة الثالثة :

الموت أمامى اليوم يبدو كالبرء للسقيم ، والفروج الى الفضاء
بعد حجز

الموت أمامى اليوم كمبير «المر» وجلسة تحت ظله في يوم ربيع مر
الموت أمامى اليوم كرائحة اللوتس تخدرنى كما لو كنت جالسا على شاطئ الانشراح

الموت أمامى اليوم كالسما غدما تصفو ، وكحصول المرء على ما لم يكن يتوقعه

الموت أمامى اليوم كشوق الرجل الى بيته بعد قضاء سنين طوال في الاسر والعناء

القصيدة الرابعة :

ويم الحق من وصل هناك ، سيكون ربا يحيا ، يرد الشر على من أتاه
ويم الحق من وصل هناك ، سيقف في قارب رع ، وسيعين الاشياء
المختلة للمعبود

ويم الحق من وصل هناك ، سيكون عالما بالامر ، ولن يصرف عن
شكواه لرع اذا ناجاه

ثم تستمر القصيدة بعد ذلك ، وتأخذ الروح تخفف آلام صاحبها ،
فتطلب منه أن يترك المـزن والاسى ، وتؤكد له أنهما سيكونان معا :
«سيهدأ بالى بعد أن يستقر أمرك (فى الموت) وسنعتس معا» (٣٥) .

(٣٥) نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ص ٥١٩ - ٥٢٢ ،
احمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٤٧ - ٤٤٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع
السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٧ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٩ ،
وكذا

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 202-209.

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 164-169.

A. Erman, Op-Cit, p. 86-92.

J. A. Wilson, ANET, p. 405-407.

J H. Breasted, Op-Cit, p. 168-181.

R. Williams, Op-Cit, p. 49-56.

الفصل السابع

من أدب الحكمة والنصائح

كانت كتب الحكم والنصائح — ومازالت حتى اليوم — من أحب الاشياء الى قلوب المصريين ، كما كانت تحتل مكانة عظيمة بين كتب القدماء لانها تقدم للناس خلاصة تجارب الحياة ، وترسم لهم طريق السعادة ، وتضع بين أيديهم المثل العليا لكل من يبغي النجاح في هذه الدنيا ، فضلا عن الآخرة ، كما أنها تنظم صلات الناس بعضهم ببعض الآخر ، وإذا تصفحنا هذه الكتب ، فأننا نقبل عليها بنفوس راضية ، سواء أكانت مما أتت به الأديان ، أم وردت في كتب الحكماء ، وذلك لأنها تكشف لنا عما في قرارة النفس البشرية ، نقرأها ثم نقف قليلا لننتأكد من صداها في نفوسنا ، وكثيرا ما نجد — مهما بلغت الشقة بيننا وبين زمان كتابتها — أننا مازلنا في حاجة اليها ، وأنها نتعلم منها الكثير ، وكان المصريون القدماء يهتمون كثيرا بهذا النوع من الأدب الذي كلن يكتبه الحكماء على لسان أب ينصح ابنه ، ويرشده الى حسن السلوك ، كيما يصل الى أعلى المراتب ، أو على هيئة تعاليم ووصايا يوجهها فرعون — أو واحد من رجاله البارزين — معتمدا على تجاربه وخبرته الى ابنه أو أحد تلاميذه .

وليس هناك من ريب في أن هذا النوع من الأدب ، انما هو أرفع أنواع الأدب المصري القديم ، ولدينا منه ، على سبيل المثال ، كتب الحكم والنصائح للوزير «بتاح حوتب» الذي عاش في الأسرة الخامسة ، وقد اتفد المصريون هذا الكتاب أساسا لقواعد السلوك وأصول التربية ، ثم استمرت الاجيال تتناقله حتى العصر اليوناني الروماني ، والواقع أن من يقرأ هذه النصائح ، وتلك التعاليم ، انما يستطيع أن يحكم في ضوءها على أهداف الأدب الفرعوني في هذا العهد ، وأن يرى فيه ما يشير الى ارتفاع مستوى الحياة المصرية ، وتقدير هذا الشعب النبيل الاصيل لبناء القيم الانسانية النبيلة .

وهناك من عهد الدولة الوسطى كثر ضخم من البدائع والروائع من تلك التعاليم والنصائح النبيلة ، جاءت اثر حوادث الايام . فاصطبغت بصبغة سياسية كان لها اثرها في حياة الشعب المصري القديم ، ومن ذلك تلك النصائح التي وجهت للملك «مرى كارع» ، ثم ما جاء على لسان الملك

«أمنمحات الاول» — مؤسس الاسرة الثانية عشرة — من تلك الدور التي تركها لولده وولى عهده «سنوسرت الاول» ، لتكون لديه بمثابة دستور يسترشد به في حكم البلاد وسياستها ، أضاف الى ذلك ، ماخضر به أدب الدولة الحديثة والمصر الذي تلاها ، بالتعاليم والحكم ، ومن أهمها تعليم «آنى» من الاسرة الثامنة عشرة ، وتعاليم «أمنمؤوبى» والتي ترجع في الغالب الى أيام الاسرة الثانية والعشرين ، ولنتحدث الان بشئ من التفصيل عن أهم أدب الحكمة والنصائح .

١ - تعاليم بتاح حوتب

لا ريب في أن هن أروع وأشهر أدب الحكمة والنصائح ، انما كانت «تعاليم بتاح حوتب» وزير الملك «جد كارع — اميسى» من الاسرة الخامسة (٢٤٨٠ — ٢٣٤٠ ق.م) وله مقبرة معروفة في جبانة سقارة^(١) ، هذا وقد توغر لهذا الوزير «بتاح حوتب» نصيب واسع من الشهرة ، وقدر لاسمه أن يخلد في عالم الادب المصرى القديم قرونا طويلة ، وسجل له خلفاؤه نصائحه في آداب المعاملة والسلوك نصح ولده بها ، وابتغى أن يتأدب بها بقية الشبان في مثل سنه ، وحاول خلالها أن ينظم علاقة ولده بقرارة نفسه وأسرته وعمله ومجتمعه ، وأن يجعله على تقى من ربه ، فيما دعاه ، الى أن يراعى التوسط في الاختيار مناسبات صحته ومناسبات كلامه ، ويراعى التوسط في معاملته لنفسه ومطالب بدنه ، ويراعى التوسط في معاملة رئيسه ومؤسسه .

(١) يذهب بعض الباحثين الى أن «بتاح حوتب» انما كان مربيا للملك «جد كارع» ، كما يظهر أنه كان من أفراد العائلة المالكة ، وربما كان عمًا للملك ، كما كان رائدا له ورأى بعضهم أنه كان وزيرا للملك «وناس» ، ورأى فريق ثالث أنه كان وزيرا ، ولكن دون تحديد للملك الذى عمل له وزيرا ، وان كان هناك شبه اجماع على أنه كان وزيرا للملك «جد كارع اميسى» ، وقد تميزت مقبرته — كما تميزت مقبرة «تى» أحد رؤساء الكتاب في عصره ، وغيره من أفراد الطبقة العليا في عصر الاسرة الخامسة — بما يدل على ما كان ينعم به أفراد هذه الطبقة من حياة رغبة ، ومن رعاية الخدم والاتباع ، ومن امتع ما يستشهد به من مقابرهم من حيث أسلوبها المعماري والفنى ، ومن حيث تنوع مصدرها التى تصور الحياة اليومية داخل البيوت وخارجها (نجيب ميخائيل : مصر ١٩٤/١ عبد العزيز صالح حضارة مصر القديمة وأثارها ١/٢٧٦) .

هذا ويبدو أن تعاليم «بتاح حوتب» هذه ، إنما تمثل أقدم نص موجود في آداب العظام كله ، عبر في قوة وبلاغة عن قواعد السلوك المستقيم ، وهي ، بما في مادتها من غزارة ، تلخص لنا مقداراً كبيراً من أدب ذلك العصر ، وقد وصلت إلينا هذه التعاليم في أكثر من نص واحد ، أقدمها من الأسرة الثانية عشرة ، أي بعد موت مؤلفها بأكثر من ستة قرون ، ونرى فيها كثيراً من الكلمات والتعبيرات التي لم تكن معروفة على أيام الدولة القديمة ، ولهذا يرجح الاثاريون أنه قد دخل على البردية الأصلية اصطلاحات وإضافات كثيرة ، ولكنهم ظلوا ينسبونها إلى الوزير «بتاح حوتب» .

وتتكون هذه التعاليم من ٣٧ حكمة ، والنسخة الكاملة من هذه البردية موجودة الآن في متحف اللوفر في باريس ، وتعرف باسم Papyrus Prisse D'Avannes ، وكان هذا العالم الفرنسي «أبريس» قد اشتراها من أحد الفلاحين في الأقصر ، وأهداها إلى المكتبة الإلهية بباريس عام ١٨٤٧م ، ويبلغ طولها نحو ثمانية أمتار ، وهي في حالتها الحاضرة تتكون من ثمان عشرة صفحة ، مكتوبة كتابة واضحة بالقلمين الأسود والأحمر ، بالخط الهيراطيقي . وهي من الأسرة الثانية عشرة ، شأنها في ذلك شأن برديتين أخريين في المتحف البريطاني في لندن ، برقمي (١٠٣٧١ ، ١٠٤٣٥) من الدولة الوسطى ، ولكن هناك بردية أخرى في المتحف البريطاني أيضاً برقم (١٠٥٠٩) من الدولة الحديثة ، وتوجد مقتطفات منها على ألواح بعض التلاميذ (٣) .

وكان أول من اهتم بنشر هذه التعاليم هو العالم الفرنسي «جيكيه» (٣) ثم «زابا» (٤) و «وزيته» (٥) ، وإن كان (Devaud) أول من درسها

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٦ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، وكذا

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 61-62.

R. O. Faulkner, Op-Cit, p. 159.

G. Jequier, Le Papyrus Prisse et ses Variantes, Paris, 1911. (٣)

Z. Zaka, les maximes de Ptahhotep, Prague, 1965. (٤)

K. Sethe, Agyptische Lesestücke, Leipzig, 1924, p. 36-42. (٥)

E. Devaud, Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916. (٦)

دراسة وافية ، وقارن بين نصوصها المختلفة ، كما اهتم بترجمة الوثيقة وتحليلها والتعليق عليها كثير من العلماء من أمثال جن^(٧) وارمان^(٨) ولكسا^(٩) وويلسون^(١٠) وشبيجل^(١١) وفون بسنج^(١٢) وفولكر^(١٣) وجدكه^(١٤) وفولتن^(١٥) وغيرهم^(١٦) ، هذا الى جانب بعض الترجمات العربية — كلياً أو جزئياً — (١٧) .

B. Gunn, The Instruction of Ptah-Hotep and the Instruction (٧)

of Kagemni, The Oldest Book in The World, London, 1909.

A. Erman, IAE, 1937, p 54-67. and The Ancient Egyptians, (٨)

p. XXVI, 54-66

F. Loxa, Enseignement de Ptahhotep et fragment de L'enseig- (٩)

nant de Kagemni, Prague, 1928.

F. Loxa, Quelques Corrections, Griffith Studies, p. 111-118. وكذا

F. Loxa, in Archiv Orientalni, 7, 1935, p 200-207. وكذا

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 412-414. (١٠)

J. Spiegel, Das Werden der Altägyptischen Hochkultur, (١١)

Heidelberg, 1953, p. 455 F.

F. W. Von Bissing, Altägyptische Lebensweisheit, Zurich, (١٢)

1955, p. 45-51.

R. O. Faulkner, in Ägyptologische Studien, p. 81-84. (١٣)

R. O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, وكذا

1977, p. 159-176.

H. Goodicke, JARCE, 5, 1966, p. 130-133, 6, 1967, p. 97-102. (١٤)

A. Volten, in Miscellanea Grégoriana, p. 371-373 (١٥)

G. Fecht, Der Habgierige und die Mant in der lehre des (١٦)

Ptahhotep, 1958

G. Fecht, Literarische Zeugnisse..., Heidelberg, 1965, p. 125-130 وكذا

P. Seibert, Die Charakteristik, I, Wiesbaden, 1967, p. 71-84. وكذا

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, I, London, 1975. وكذا

p. 61-80

T. E. Peet, A Comparative Study of The Literature of Egypt, وكذا

Palestine and Mesopotamia, London, 1931, p. 100 F.

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N Y, 1939, p. 129 F. وكذا

Meyer, The Oldest Books in The World, N. Y. 1900. وكذا

(١٧) محرم كمال : الحكم والامثال والنصائح عند المصريين القدماء —

القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧ — ٤٢ ، احمد فخري : المرجع السابق ص ٤٣١ —

٤٣٥ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ١٧٦ — ١٨٧ ، نجيب ميخائيل :

المرجع السابق ص ٥٠٩ — ٥١١ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق

ص ٣٧٦ — ٣٧٨ .

وأما عنوان هذه البردية — كما جاء في النسخة القديمة — فهو «تعاليم حاكم المدينة ، الوزير بتاح حوتب ، في عصر ملك مصر العليا والسفلى ، اسيسى ، المستمتع بحياة خالدة أبدية» .

وأما في النسخة الحديثة فتبدأ : «هكذا قال بتاح حوتب ملك مصر العليا والسفلى ، اسيسى ، لقد أقبلت الشيخوخة . وبدأ خرفها ، وسرت الالام في الاعضاء ، وتبدى الهرم وكأنه شيء جديد ، بصرى يضعف ، واذنأى تكاد تتوقف عن السمع ، قوتى تضعف ، وذهنى يكل ، فمى يخرس ولا يتكلم ، وذاكرتى تهرب منى ، ولا تقوى على استذكار الامس الدابر . عظامى تتوجع ، والسرور ينقلب فى نفسى الى غم ، ورائحة كل شيء تتلاشى» .

«فمرنى حتى اتخذ لى سندا فى شيخوختى ، وحتى أجعل من ابنى خليفة لى ، يحتل مكانى ، فأعلمه عظات من يسمعون ، وآراء من سبقوا ، وهم المدين خدموا السلف فى العصور الماضية ، لئيتهم يعملون لك مثل ذلك حتى يزول النزاع من بين الناس» .

«فأجاب جلالته : طمه العظة أولا ، حتى يكون قدوة لأولاد العظماء ، ويتعلمى بالطاعة ، ويدرك كل رأى صائب فمن يتحدث اليه ، فليس هناك من أوتى الحكمة من تلقاء نفسه» .

وهنا تبدأ الحكم والعظات ، حيث يقدم فيها «بتاح حوتب» خلاصة تجاربه ، وثمره تفكيره لولده ، حتى يعدو حكيما ، حين يرث منصبه بعد موته ، وهى ليست مرتبة ترتبها منطقيا ، أو مبوبة ، وانما سجلت كما ورحت عفو خاطر ، ومن ثم فكثيرا ما نراه يذكر أمرا من الامور ، ثم ينتقل منه الى ثان وثالث ، ثم يعود من جديد الى الموضوع الاول ، مما ينقص من قيمة هذه النصائح كمصل أدبى ، ذلك لان محتويات هذه النصائح ، فيما يرى بعض الباحثين ، الذين عنوا بدراسة هذه البردية ، أقرب الى مقالة خطيب يتحدث مرتجلا ، مايرد على خاطره ، «تتقلا من موضوع الى آخر ، هذا فضلا عن أن هذه الحكم والنصائح ، رغم أنها

كتبت للخاصة من الناس ، فان الاقبال عليها في عهد الدولتين — الوسطى
والحدیثة — فضلا عن املائها لتلاميذ المدارس كمحفوظات يتعربون على
حفظها وكتابتها ، الى جانب تناولها لموضوعات عامة يتعرض لها كل
انسان — أيا كانت طبقتة — انما جعلتها حكما علما .

وأيا ما كان الامر ، فهي لاشك انما قد شملت أهم ما أراد «بتاح
حوتب» أن يلقنه لولده من وصايا ، وما أراد أن يتصف به من سجايا
جميدة ، حتى يكون جديرا بمنصب الوزير — أعلى المناصب وأسمها —
والذى سوف يشغله بعد وفاة أبيه ، أو اعتزاله الخدمة ، ومن المعروف
أن منصب الوزير انما كان منتهى آمال الموظفين الكبار طوال العصور
الفرعونية ، كما كان الوزير أكثر موظفى الدولة محبة في نفوس الشعب ،
ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أنه هو الذى يقوم الحق ، ويمحق
الباطل ، وكان الشاعر اذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف الى وصفه
«أن فيه وزيرا يتولى الحكم ، عطوفا على مصر» .

يقول «بتاح حوتب» في نصائحه لولده :

«لا تزه بمعارفك ، ولا تصبى نفسك عالما ، ولكن اجعل الامر شورى
مع الجميع ، خذ نصيحة الجاهل ، كما تأخذ نصيحة العالم ، لان حدود
العالم لا نهائية ، وليس هناك من يبلغ الكمال في أحاديثه ، والقول الحكيم
أشد ندرة من الحجر الأخضر ، ومع ذلك فقد تجده الاماء اللائى يجلسن
الى الرهى» .

«اذا وجدت رجلا يتكلم ، وكان أكبر منك وأسى حكمة ، فاصغ اليه،
واحن ظهرك أمامه ، ولا تنضب الا اذا تفوه بالسوء ، وعندئذ سيقول عنه
الناس : تبا له من جاهل — اذا وجدت رجلا مساويا لك يتجادل ، وأثار
حديث السوء فلا تسكت ، بل اظهر حكمتك وحسن أدبك ، فان الكل
سيثنون عليك ، وسيحسن ذكراك عند العظماء — اذا وجدت رجلا فقيرا
(ليس مساويا لك) يتكلم فلا تحتقره لانه أقل منك ، بل دعه وشأنه ،
ولا تصرجه لتسر قلبك ، ولا تصب عليه جام غضبك فاذا بدا لك أن تطيع
أهواء قلبك فتظلمه ، فاقهر أهواءك ، لان الظلم لا يتفق مع شيم الكرام» .

«إذا كنت في صحبة جماعة من القوم ، وكنت رئيسا عليهم فعاملهم بالحسنى حتى لا تلام ، وليكن مسلكك معهم لا يشوبه نقص ، ما أعظم الحق ، فان قيمته خالدة ، ولم ينل منها أحد منذ أيام الاله «أوزير» . من يخالف الحق يعاقب ، ومن استطل حقوق الناس حراما ، أخذ الحرام معه الحلال وذهب ، الحق خير وجزاؤه دائم ، وقد تجنى ثراء من وراء الشر ، ولكنه لا يدوم كما يدوم الخير ، فالحلال بين والحرام بين ، والمرء يفعل ما تعلمه من أبيه» .

«ولا تحاول أن تنتشر الرعب بين الناس ، فهذا أمر يعاقب عليه الرب ، ولا تحاول أن تخدع الناس ، فذلك لا جدوى منه ، فما أراد الله سيكون ، فعش آمننا مطمئنا ، راضيا بحاضرك ، واثقا بمستقبلك ، فسوف يأتي اليك رزقك من حيث لا تدري ولا تحتسب» .

«إذا دعيت الى مائدة عظيم من العظماء ، فخذ مما يقدم اليك ، ولا تمدن عينيك الى ما هو أمام غيرك ، بل انظر الى ما قدم اليك ، ولا تحسب اليه نظراتك ، لان النفس (كا) تشعثر عندما يصطدم المرء بها ، غض من بصرك حتى يحييك ، ولا تتحدث اليه الا اذا حيأك ، اضحك عندما يضحك ، فان هذا مما يبهج قلبه ويجعل ما تخطه مقبولا لديه ، لان المرء لا يعلم ما في القلب» .

«إذا جلس الرجل العظيم الى الطعام ، فان مسلكه وأعماله تجيء من وحي روحه ، فقد تمتد يده بالطعام الى من يجلس بجواره ، وقد تتجاوز الى البعيد بوحي من الروح (كا) والخبز يرزقه الرب لمن يشاء» . «إذا كلمك نبيل برسالة الى نبيل آخر ، فادها كما أخذتها تعلمنا ، دونما أى تحريف أو تبجيل ، ولا تثر عداوة بكلماتك ، ولا تؤلب نبيلاً على نبيل ، بقلب الحقائق والمباس الباطل ثوب الحق ، ولا تكن تعلمنا فالنميمة تمجها النفس ، وتأباها الروح» .

«إذا كنت مزارعا فاحصد نتاج حقلك ، وسيلارك لك الرب فيه ، ولا تملأ فمك على مائدة جارك» .

«لا تجعل الرجل الذى لا ولد له حسودا ، ولا تنبذه وتجعله مغموما محسورا من أجل ذلك ، فالرجل ذو الولد قد يعقره الهم ، رغم عظم مكانته ، وأم الأولاد نصيبها من راحة البال قليل ، والرب هو خالق الانسان ، وهو الذى يقدر له نصيبه فى الحياة» •

«إذا كنت فقيرا وتعمل تابعا لرجل مشهور ممن يشغلهم رضا الاله (الملك) ، فلا تحاول أن تعرف شيئا عن ماضيه عندما كلن مغمورا ، لا تجعل قلبك يتعالى عليه بسبب ما تعرفه عن ماضى أيلمه ، احترامه بقدر ما صار اليه ، ان الثروة لا تاتى وحدها ، انها تقدر على من يريدوها ويعمل لها ، فإذا عملت لها وسميت وراءها ، فان الرب ينيلك اياها ، أما اذا قعدت وتواذيت وتمسكت بأهداب الكسل والخمول ، فان الرب لك بالمرصاد ينزل عليك غضبه وعقابه» •

«إذا أصبحت عظيما ، بعد أن كنت وضيعا ، وصرت غنيا بعد أن كنت فقيرا ، فلا تنس ما كنت عليه فى الماضى ، ولا تفخر بثروتك وتستكبر ، فانك لست بأحسن حالا من رفاقك الذين حل بهم الفقر» •

«إذا كنت رجلا عاقلا ، فليكن لك ولد تقوم على تربيته وتنشئته ، فذلك أمر يسر الآلية ، فإذا اقتدى بك ، ونسج على منوالك ، ونظم من سلوكك ورعاها ، فاعمل له كل ما هو طيب ، لانه ولدك ، وقطعة من نفسك وروحك ، ولا تجعل قلبك يجافيه ، فإذا ركب رأسه ولم يأبه لقواعد السلوك فطنى ويمنى ، وتكلم بالالفك والبهتان ، فقسوه بالضرب حتى يعتدل شأنه ويستقيم قوله ، وباعد بينه وبين رفاق السوء حتى لا يفسد ، أما اذا تحدى قولك فاطرده ، لانه ليس ابنك ، ولم يولد لك» •

«إذا كنت تقف فى بهو أحد العظماء فانظر حتى يأتى دورك ، وانتبه للخادم الذى يعلن الحاضرين بالدخول ، فالبهو تقاليد المريعة ، وعندئذ كن مستعدا للدخول ، دون دفع أو تراحم ، فالماكن رحب ، وقاعة المجلس يسيطر عليها نظام دقيق ، انه هو الرب الذى يهب المرء مقعدا فيها يجزى به المستحقين ، ولا يناله المعتدون» •

«إذا كنت بين جماعة من الناس ، فاجعل حب الناس هدفك ومنيتك ، ومبتغى قلبك وهواك ، فيقول من يراك ، هذا رجل ناجح وغنى ، فسوف أقلده ، فيحسن ذكرك دون أن تنتظم ، ويعلو قدرك بين جيرانك ، ويكتمل من أمرك ما ينقصه ، أما من قسى قلبه وضل فؤاده ، وأطاع جسده فإنه يكون قد أطل صناره محل حبه ، وتعمس عقل صاحبه ، وساء وجهه بما جرت عليه نفسه ، ولقد غرت نفوس أتباع الرب ، فالقلب إنما يشعر بالدفع من فضل الرب وحده ، ومن أطاع بدنه كان عدو نفسه» .

«كن صريحا ولا تخف من أعمالك سيئا ، بل صارع بها رئيسك في مجلسه ، حتى ولو كان يعلم بها ، فلا يضير المرء أن يقال له : ان هذا نسيء أعلمه» .

«إذا كنت سيد قوم فتصرف في شؤونهم طبقا للقوانين والانظمة ، وانظر الى مستقبل الايام ، حين يأتى وقت لا يفيد فيه الكلام» .

«إذا كنت فى منصب بحيث يتقرب الناس اليك ، فكن مؤدبا واضح الى شكاة الشاكي فى رفق ، ولا تعترض كلماته ، حتى يخرج كل ما فى قلبه ، وكل ما جاء ليقوله ، فالرجل المهموم يحب الموظف الذى يتقبل شكاته ، ويتحدث عن متاعبه كلها له ، فالكلمة الطيبة تضىء قلبه ، ولكن اذا تردد فى أن يفضى اليك بما يجيش فى صدره ، قيل ، ان القاضى يظلم من لا يستطيع لظلمه دفعا» .

«إذا كنت ترد أن تعيش موفور الكرامة فى أى منزل تدخله — سواء أكان منزل عظيم أم أخ أم صديق — فاحذر مخالطة النساء ، فما طاب مكان طلل فيه ، ومن سوء الراى أن يتلصص عليهن انسلان ، وكم من امرئ ضل عن رشاده حين استهواه جسم براق ، ثم تحول عنه الى هباء ، وأصبحت فترات استمتاعه القصار أضغاث أحلام ، وأفضت به الى الهلاك ، ان الرجال ليفتنون بأعضاء النساء البراقة ، ولكن سرعان ما تصبح بعد ذلك مثل أحجار «هرست» (وكان يعد رمزا للكرب والبلاء) والموت يأتى فى النهاية» .

«إذا أردت أن يكون سلوكك حسنا ، وأن تباعد بين نفسك وبين الشر ، فاحذر الجشع ، فإنه مرض وسقم ، ولا دواء له ، ومن المستحيل أن يجد صاحبه صديقا ، فهو يحيل حلاوة الصديق الى مرارة توبييع المرء المخلص عن سيده ، بل انه ليس الى الاب والام ، والاخوة والاخوات ، ويذر بذور الشقاق بين الرجل وزوجه وقد يجعل الامر ينتهى بهما الى الطلاق ، انه جماع الشر ، ان الرجل ذا الاخلاق الحميدة ، الذى يسير على الطريق المستقيم ، يطول عمره ، ويحظى بالثروة ، لكن الرجل الجشع لا يجد له قبرا» .

«لا تكن شرها فى القسمة ، فلا تأخذ منها ما ليس لك ، ولا تلطم فيما هو لأقاربك ، والكلمة الطيبة اللينة خير من القوة وأجدى ، والطعام يفرج صفر اليدين من بين أقاربه وأخلائه ، لانه حرم موهبة الكلام الرقيق ، وان القليل الذى يختلس يولد العداوة ، حتى عند صاحب الطبع اللين» .

«إذا كنت رجلا علقلا ، فأسس لنفسك بيتا ، وأحبب زوجتك حبا جما ، وخذها بين ذراعيك ، اشبع جوفها ، واستر ظهرها ، وعطر بشرتها ، بالدهن العطر ، فان الدهن تزيق بدننها ، واسعددها ما حييت ، فالمرأة حقل نافع لمحبه ، ولا تنتهمها عن سوء ظن ، وامتدحها يضعف شرها ، فان نفرت راقبها ، واستمل قلبها بعطاياك ، تستقر فى دارك ، وسوف يكيدها أن تعاصر علة فى دارها» .

«أوصيك بأمر الذى حملتك ، هى أرسلتك الى المدرسة حتى تتعلم الكتب ، وهى تشغل نفسها طول النهار ، وهى التى تعطيك الطعام والشراب من البيت ... والان وقد كبرت وتزوجت وأصبحت سيد بيتك ، التفت الى تلك التى ولدتك ، وزودتك بكل شئ ... هى أمك ، لا تدع لها فرصة لتوبيخك ، لا تدعها ترفع يدها غضبا بسببك لان الله تعالى سيستمع اليها دونما ريب» .

«أشبع خدمك الاجراء بما لديك ، مما آفأ الرب عليك ، فهذا واجبك ولو أنه من الصعب ارضاء الخادم الاجير ، فواحد يقول : انه مسرف ،

ولا يعرف المرء ماذا يأتى منه فى قابل الايام ، وفى الغد يقول : انه قانع
وباق حيت هو ، وعندما تطوق الخدم بفضلك وكرمك يأتون اليك يقولون :
نريد أن نذهب ونتركك ، ألا فلتذهب الرحمة من مدينة يقيم فيها خـدم
خبثاء تصباء» •

«أتبجح أصدقاك بما آفاه الرب عليك من خير وحظوة ، فالحكمة تقضى
بذلك ، فما من انسان يعرف مصيره ، اذا فكر فى الغد ، واذا حل سوء
الطالع بمن كان ذا حظوة ، فان أصدقاؤه هم الذين يقولون له : مرحبا ،
فاستبق مودتهم لوقت الشدة الذى يتهدد الانسـان» •

«لا تردد كلاما قليل فى ساعة غضب ، ولا تصنع اليه ، لانه خرج من
جسد أحمته ثورة الغضب ، واذا أعيد عليك هذا الكلام فلا تستمع اليه ،
بل انظر الى الارض ، ولا تتكلم بشأنه ، فيخجل من هو أمامك ويعرف
الحكمة — اذا امرت باقتراف سرقة ، فعليك أن تتفادى الامر ، لان السرقة
شنيعة ، طبعا للشريعة» •

«اذا كنت رجلا ذا شأن ، وجلست فى مجلس سيدك ، فثق أن الصمت
خير وأجدى لك من الثثرة فى الكلام ، لا تتكلم الا اذا كان لديك ماتريد
أن تقول حقا ، وعندئذ يجب عليك أن تكون فنانا فى الحديث ، فالكلام من
أشقى من العمل الشاق ، فجاهد لتعرف كيف ومتى تتحدث — واذا كنت
ذا بطش وسلطان فدعهم يوقروك من أجل علمك ورقة حاشيتك ، ولا
تصمت ، ولكن حذار من أن تقاطع أحدا وهو يتكلم ، وإياك أن تجيب وانت
فى ثورة غضبك» •

«اذا كان أميرا منهمكا فى عمل فلا تثر ما يعسوقه ، ولا تغضب قلبا
منقلا بالهجوم ، انه لينصرف عن يعطله ولكنه يفضى بخيلة نفسه الى
من يصبه ، ان تألف الارواح من عمل الرب الذى يحب خلقه ، انطلق
أذن بعد شجار مرير ، وتصاف مع من كان لك خصما ، فمثل هذه
الاحاسيس هى التى تقوى الحب» •

«اذا كنت أستاذا ومربيا تقوم على تعليم ابن أحد النبلاء ، فعلمه

الاشياء ، التي تعود عليه بالنفع ، ودعه يختلط بالناس ، ويقر بالفضل لاستاذة ، اذ ان رزقك ياتيك منه ، فانت من خيره تسبغ بطنك ، وتكسو ظهرك . ودعه يصبك حتى يعمر بيتك ويعلو سرفك ، ولسوف يعد يده في رفق اليك ، ويعطيك فقرضى ، ولسوف ينرس حبك في قلوب اصدقائك» .

«اذا كنت ابن احد رجال الدين ، ورسول سلام بين جموع الناس ، فتكلم دون ان تحابى طرفا على آخر ، ولا تجعلهم يقولون : ان شأنه شأن النبلاء يحابى طرفا في تلامه ، وليكن هدفك اصدار احكام دقيقة» .

«اذا كنت تسامحت في سالف الايام ، مصفحت عن شخص بغية هدايته ، فدعه وشائه ، ولا تذخره بفضلك في الغد — واذا كنت رجلا عظيما ، وكنت من قبل صغيرا ، واذا صرت غنيا ، وكنت من قبل فقيرا ، فلا تتكبر لانك بلغت هذه المرتبة العالية ، فما انت سوى قيم على الحسنات التي اطهاها الرب لك ، ولست انت الاخير . فسرعان ما يبلغ دواك المرتبة التي بلغتها ، فيذون مساويا لك ، ياتيه من الثروة والجاه ما ائتلك» .

«احن ظهرك لمن هو ارفع منك ، الى رئيسك الذى فى القصر ، وبذلك تعلمئن على مرتبك ، ودخل بيتك ، وتكون مكافئك ما يجب ان تكون ، ان المعارضة للرئيس تجلب المتاعب ، لان الانسان يحيا طالما كان رقيق الطبع» .

«لا تسلب منازل المزارعين ، ولا تسرق متاع حديق ، حتى لا يتهمك فى مواجهتك فينقبض قلبك واذا علم بأمرك ، فانه لن يتوان عن اذاك وضررك» .

«ما أحقق الخصام بجل الصداقة» .

«اذا أرحمت معرفة أخلاق صديق ، فلا تسأل أقرانه عنها ، ولكن اختلط به ، وامتنح قلبه فى معرض كلام ، فاذا كشف لك عن ماضى حياته ، فقد هيات لك الفرصة ، لتخجل منه أو تكون صديقا له ، لا تكن متحفظا عندما يبدأ الحديث ، ولا تجبه بخشونة ، ولا تتركه أو تقاطعه ، حتى

ينهى حديثه ، فقد يفيدك ما يقول ، أما اذا أفشى شيئا يكون قد رآه ،
أو فعل شيئا يغضبك ، فكن حذرا حتى في اجابتك» •

«لكن سمح الوجه ، وضاح الجبين ، مشرق الطلعة ، ملدمت حيا ،
ولا تمرن على ما فات ، والمرء يذكر بأعماله بعد موته» •

«اعرف جيدا من يعاملك من التجار ، فاذا ساعت حالك ، فان سيرتك
الطيبة بين أحداقك ستكون خير عون لك ، انها خير من الالقاء ومن
الغنى ، فالغنى يزول ، والمال ينتقل من فرد لآخر ، والذكرى الطيبة باقية
للناس مفعرة له ، ان الخلق الحسن يبقى شيئا مذكورا» •

«ألا فلتعلم أن الرذيلة يجب أن تمحق ، حتى يتأتى للفضيلة أن
تعيش وتبقى» •

ثم تلى ذلك خاتمة تمتدح ما في هذه النصائح من فوائد ، ينبغى أن
يتناولها الخلف من السلف ، جيلا اثر جيل ، للانتفاع بما فيها من «وعظة
حسنة وقول حكيم» •

ثم يحثه على الاغادة من هذه الحكم فيقول :

«ان حكى وأمثالى ستعلم المرء كيف يتكلم ، بعد أن يسممها ويمعها ،
ومن ثم يصبح عبقرى في كلامه ، وفي سماعه وطاعته ، وسيكون للنجاح
حليفه ، يعلو شأنه ، وينبه ذكره ، وتسمو مرتبته ، ويصل الى أعلى
عليين ، وسيظل فاضلا كريما حتى آخر أيامه في هذه الدنيا ، يملأ الرضا
نفسه ، وتهديه حكمته الى مكان الامان ، حتى يعيش في طمانينة وسعادة
على وجه الارض ، وسوف يكون العالم راضيا بما أوتي من علم» •

«أما الامير فسيكون سعيدا ، ولسانه مستقيما ، لان هذه الحكم
والامثال ، سوف تطل عقدة لسانه فيفهم الناس قوله ، وسوف تفتح
عينيه ، وتسمع أخيه ، وتوقفه على كل ما هو مفيد لولده ، فينصلح حاله ،
ويستقيم أمره» •

«ما أجمل طاعة الابن ، يأتى ويستمتع مطيعا ، انه عبقرى في سماعه ،

عبقري في كلامه ، ذلك الذي يطيع كل ما هو خير وطيب ، وطاعة المطيع شيء نبيل ، ان الطاعة هي خير ما في الوجود ، انها تكون الرغبة الصالحة ، وما أجمل أن يأخذ الابن عن أبيه ما أوصلته اليه تجارب شيخوخته ، ان ما يريده الرب هو الطاعة ، أما العصيان فهو بغض الى الرب ، حقا ان القلب هو الذي يجعل صاحبه يطيع أو يعصى ، لان حياة الانسان الحقة من وحي قلبه ، ان من يطيع يطاع» .

«ما أجمل أن يستمع المرء الى أبيه عندما يتكلم ، أما الغبي الذي لا يسمع فلن يلقى نجاحا ، لانه ينظر الى العلم ، كما لو كان جهلا ، والى الخير ، كما لو كان شرا ، ويجلب على نفسه اللوم كل يوم ، لانه يفعل ما يكره الناس ، ويعيش على ما يسبب الموت ، ان قالة السوء هي طعام غمه ، ولهذا سيعرف أولو الامر حقيقة خلقه ، وسيموت كل يوم وهو حي وسيتعاشاه الناس لكثرة مساوئه التي تزداد يوما بعد يوم» .

«ان الابن الذي يسمع ويطيع كأحد أتباع حوريميلخ سن الشيخوخة ، ويصل الى أعلى مراتب الشرف والسؤدد ، وهو يرد على مسامح آبائه وبناته نصائح أبيه وتعاليمه ، حتى تظل خالدة متجددة ، ينقلها الآباء الى الابناء ، جيلا اثر جيلا ، وإياك أن تتناولها بالتحريف» .

«كن حذرا في الكلام حين يسمع اليك رجل علم ، واحرص على أن تعلق سمعتك في أفواه من يسمعونك ، وإذا دخلت في أمر كخبير ، فلا تجعل لسانك ينطق الا بما هو حق ، حتى يكون مسلكك حسنا» .

«نفذ وصية سيدك ومولاك التي أوصلك بها ، فما أجمل نصيحة الاب لابنه الذي أنجبه ، حقا ان الابن النجيب هبة من الرب ، فهو يعمل أكثر مما يؤمر به ، ويفعل الخير ، ويضع قلبه في كل أعماله» .

«فإذا وصلت الى مركزى ، وقدرت ما أوصيتك به ، فسيكون جسمك سليما معافى ، وسيسر الملك بكل ما تعمل ، وستبلغ من العمر ما لا يقل عما بلغت من سنوات أمضيته على الارض ، فقد بلغت العاشرة بعد المائة ، وأعقد على الملك من وفير نعمائه ما يفوق آلاءه على أجدادى ، لاني أقيمت الحق والعدل للملك حتى شيخوختي» .

٢ - نصائح الى كاجمنى

وردت هذه النصائح فى الصفحتين الاوليين من بردية بريس ، الأنفة الذكر ، والمحفوظة بمتحف اللوفر فى باريس ، وعنوانها «نصائح موجهة الى كاجمنى» (كايجمنى أو جمينكاى) ، وهى — فيما يرى مستاذنا الدكتور أحمد فخري^(١) — من انتشاء الدولة الوسطى (الاسرة الثانية عشرة) ، ولكن كاتبها نسبها الى أيام الدولة القديمة ، وربط بينها وبين اسم الملك «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة ، والذي اشتهر أمره شهرة كبيرة على أيام الاسرة الثانية عشرة ، وألهمه القوم ونسبوا الى أيامه كثيرا من قصصهم .

هذا ولم يعثر على الجزء الذى يحتوى نهاية البردية ، ونعرف منها أن مؤلفها (ربما كان يدعى كارسو) كان حاكما للماصمة ووزيرا للملك «حونى» آخر ملوك الاسرة الثالثة ، وقد أدركته الشيخوخة فكتب هذه النصائح ليسير عليها أبناؤه ، وبخاصة «كاجمنى» الذى تولى وظائف أبيه فى عهد الملك سنفرو .

غير أننا لم نعثر أبدا على اسم موظف يدعى «كاجمنى» من عهد سنفرو ، وربما اختلط الأمر على كاتبها فى الاسرة الثانية عشرة ، فاعتقد أن الوزير الشهير «كاجمنى» الذى عاش على أيام الاسرة السادسة وصاحب القبر المعروف فى سقارة ، إنما قد عاش على أيام الملك سنفرو ، وربما كانت هناك نصائح كتبها هذا الوزير أعادوا كتابتها فى الاسرة الثانية عشرة ، كما حدث لنصائح «بتاح هوتب» ، وعلى أية حال ، فسواء أصبح هذا الاحتمال أم لم يصبح ، فالذى لا شك فيه أن النص الذى بين أيدينا إنما يرجع الى أيام الدولة الوسطى .

هذا وقد اهتم بنشر هذه النصائح وترجمتها والتعليق عليها ، كثير

(١) أحمد فخري : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى
ص ٤٣٥ — ٤٣٦ .

من العلماء ، منهم جيكيه^(٣) ، وشارف^(٣) وجاردنر^(٤) وزيتة^(٥) وجن^(٦) وارهان^(٧) وفون بسنج^(٨) وفيدرن^(٩) ويونز^(١٠) ومويسوت^(١١) وايدل^(١٢) وسميسون^(١٣) وغيرهم^(١٤) ، فضلا عن بعض الترجمات العربية^(١٥) .

هذا وقد جاء في هذه النصائح والتعاليم :

«السلامة في التواضع ، والشريف في معاملته ممدوح ، ومن يتخذ الاستقامة أساسا عمله يمتدحه الناس ، والدذر الفطن في حديثه تنفتح له الابواب ، ولكن السكين تشهذ لمن يحيد عن الطريق المستقيم» .

«إذا جالست قوما على مائدة طعام ، فتعفف عن الطعام ولو كنت تشتهي ، فانها برهة قصيرة تقهر الرغبة فيها وقد خشي من شره جوفه ، ان قدحا من الماء يروي غلة الظالم ، وملء الفم من حسائش

-
- | | |
|---|------|
| G. Jequier, Papyrus Priese et ses Variantes, Paris, 1911 | (٢) |
| A. Scharff, in ZAS, 77, 1941, p. 13-21. | (٣) |
| A. H. Gardiner, JEA, 32, 1946. p. 71-74, JEA, 37, 1951, p. 109-110. | (٤) |
| K. Sethe, Agyptische Lesestücke, Leipzig, 1921, p. 42-43 | (٥) |
| B. Gunn, 'The Instruction of Ptah-Hotep and 'The Instruction of Kagemni, The Oldest book in 'The World, London, 1912, p. 62-64. | (٦) |
| A. Erman, LAE, 1927, p. 66-67 | (٧) |
| F. W. Von Dissing, Altägyptische Lebensweisheit, Zurich. 1955, p. 52-53. | (٨) |
| W. Federn, in JEA, 36, 1950, p. 48-50. | (٩) |
| G. Poirier, in RdE, 6, 1951, p. 32-33. | (١٠) |
| J. Yoyotte, in BSIF, 11, 1952, p. 67-77. | (١١) |
| E. Edel, in MIO, 1, 1953, p. 210-226. | (١٢) |
| W. K. Simpson, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 177-149. | (١٣) |
| M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 59-61 | (١٤) |

(١٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٣٥ - ١٤٣٦ ، محرم كمال : المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٥ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٢ ، سليم حسن : المرجع السابق ١٨٨/١ - ١٨٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥١١ .

الارض يقيم أود القلب ، ورب حسنة تقوم مقام الخير كله ، ونزر يسير
يغنى عن الكثير كله ، وتعس رجل شره من أجل بطنه» •

«إذا جالست نهما فكل عندما تنتهى شهيتة ... وإذا شريت مع
سكير ، فشاركه حين يبلغ كفايته» •

«لا تتكالب على اللحم فى حضرة ... ، وإذا أعطاك شيئا فخذ
ولا ترفضه ، فإن ذلك يرضيه» •

«إذا كلن المرء غير مألوف العشرة ، فما من قول يفيد فيه ، انه يقطب
وجهه أمام من يحسنون اليه ، وهو نكبه على أمه وأصدقائه ، وكل الناس
تقول عنه : ان فعه لا يستطيع الكلام عندما يخاطبه أحد» •

«لا تفاخر وترهو بقوتك بين من هم فى سنك ، وكن على حذر من كل
انسان ، حتى من نفسك ، ان المرء لا يدري ماذا سيحدث ، كما انه
لا يدري ما الذى سيفعله الله عندما ينزل عقابه» •

ثم تختتم التعاليم بالنص التالى :

«ثم نادى الوزير أولاده بعد أن انتهى من مقاله عن قواعد سلوك
بنى الانسان وأحوالهم ، كما عرفها بنفسه ، وقال لهم :

«اصنعوا واعوا كل ما أوردته فى هذا الكتاب طبقا لما قلته» •

«عندئذ خروا سجدا على بطونهم ، وقرأوه ، طبقا لما هو مكتوب ،
وكان فى قلوبهم أحسن من أى شيء آخر فى البلاد كلها ، وقاموا وقعدوا
متبمين ما جاء فيه» •

«وعندما وافى الملك «حونى» الاجل ، واعطى جلالة الملك «سفره»
عرش البلاد ، عين «كاجمنى» محافظا للعاصمة ووزيرا» •

ظلت هذه التعاليم تعرف باسم «تعاليم دواوف» الى أن برهن الاستاذ «جاردنر» على أن اسم كاتبها انما هو «خيتى بن دواوف» ، وأن «خيتى» هذا انما كتبها لولده «بيبى» .

هذا وقد وصلت اليينا نسخ كثيرة من هذه التعاليم ، بعضها على أوراق بردية ، وبعضها الاخر على لوحات خشبية ، فضلا عن فقرات على قطع الخزف ، وشظايا من الحجر الجيرى الابيض الاملس ، كما وجدت كاملة في برديتى سالييه الثانية ، وانسطاسى السابعة ، المحفوظتين بالمتحف البريطانى في لندن . وأما أقدم فقرات وصلت اليينا من هذه التعاليم فهي التى احدى الى حلها «بيانكوف» ، ويرجع عهدها الى أوائل الاسرة الثانية عشرة ، وقد كتبت على لوح من الخشب بقى لنا بعض أجزاء منه وهى بلاشك ترجع الى عصر الثورة الاجتماعية الاولى، وغيرها من قطع الادب ، ولا غرابة في ذلك فهو العصر الذى ازدهر فيه الادب بدرجة عظيمة .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذا النوع من التعاليم الذى سنقدم بعضها منه ، انما كان محببا بصفة خاصة عند مدارس عهد الدولة الحديثة «١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م» ، ومن ثم فقد نال مكانة ممتازة عند القوم ، غير أن الطريقة التى عبث بها التلاميذ في المتون كانت معيبة لدرجة يقصر أمامها كل وصف ، فلا يكاد القارئ يقوم قراءة فقرات منها حتى يتساءل بياس عما كان مكتوبا في الاصل ، ذلك لان معظم ما كتبه التلاميذ انما هو في الغالب كلمات لا معنى لها ، ولعل السبب في ذلك أن التلاميذ كانوا ينقلون ما لا يفهمون ، أو أنهم كانوا يجبرون على نقل فقرات من هذه التعاليم ، دونما أية رغبة في نقلها ، وفي كلتا الحالتين كانت النتيجة أن ترجمة هذه الفقرات انما أصبحت أمرا لا يخلو من الصعوبة ، ولكن من حسن الحظ أن القطع التى عثر عليها «بيانكوف» ، وقرنها بما يقابلها من النسخ الاخرى قد حلت لنا بعض معضلات هذه

التعاليم ، وان كان الجزء الاكبر منها لا يزال غامضا بعض الشيء في نقاط ،
ومغلقا تماما في أخرى •

هذا ويرجع السبب في حظوة هذه التعاليم وانتشارها في مدارس
عصر الرعامسة الى أنها انما كانت تتغنى بفضل المدارس والتربية
المدرسية ، فضلا عن امتداحها لمهنة الكاتب ، وسخريتها من المهن
الآخري ، وهى بالضبط كالرسائل التي كان يتبادلها المدرسون على
أيام الدولة الحديثة •

وتمتاز هذه التعاليم بأن كاتبها لم يكن وزيرا ينصح ولده الذي
سيتولى وظيفة أبيه من بعده ، وانما كان رجلا عاديا من عامة القوم
يدعى «خيتي بن دواوف» كتبها لينصح بها ولده المدعو «بيبي» عندما
عقد العزم على ارساله للعاصمة ليلتحق بالمدرسة (بيت الكتب) ليلتقى
العلم مع أبناء كبار الموظفين •

وقد اهتم بنشر هذه التعاليم كثير من علماء المصريات ، منهم
«جودوين» في عام ١٨٨٥ م ، ثم بيير^(١) وبييت^(٢) وبيانكوف^(٣)
و ارمان^(٤) و هلك^(٥) وسامبسون^(٦) وغيرهم^(٧) ، فضلا عن بعض الترجمات
العربية^(٨) •

هذا ويفتتح «خيتي» هذه التعاليم كالعادة بذكر اسمه واسم ابنه
الذي من أجله كتبت هذه النصائح فيقول «تعاليم ألفها مسافر في حجرة
سفينة اسمه «خيتي بن دواوف» لابنه «بيبي» حينما سافر مصعدا في
النهر الى عاصمة الملك ليلحق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكام» •

M. Pieper, Die Agyptische Literature, p. 30.

E. Peet, Op-Cit, p. 104 F.

Plankoff, in Revue d'Egyptologie, 11, 1933, p. 51-74

A. Erman, LAE, 1927, p. 67-72.

W. Helck, Die Lehre des DW-HTJJ, 2 Part, Wiesbaden, 1970.

W. K. Sampson, Op-Cit, p. 329-336.

G. Maspero, Genre Epistolaire, p. 48 F.

(٨) سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢١٦ ، محرم كمال :

المرجع السابق ص ٥٤ - ٦٠ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٢٧-٤٢٨ •

ويكشف لنا هذا العنوان عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية . فمنه نعرف أنه كانت توجد مدرسة جامعة يتعلم فيها أولاد عليا القوم ، في عاصمة الملك ، وأن العاصمة كانت وقتئذ في الصعيد ، لأنه كان على خيتي أن يقلع بسفينته مصعدا في النهر ، وربما كانت في «أهناس المدينة» (بمحافظة بنى سويف) أو في «طبية» (الاقصر الحالية) هذا فضلا عن أن هذه المدرسة إنما كان يتعلم فيها أبناء حكام الأقاليم ومن في طبقتهم . وسنرى أن «خيتي» يقول لولده : وستكون رئيسا لمجلس «قنبت» وهو ذلك الجمع الذي كان يدير حكومة البلاد في العهد الإقطاعي ، وكان معظمه وقت ذاك من حكام المقاطعات .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن أول ما يلقي «خيتي» على ولده من النصائح ، هو أن يرسم له صورة قبيحة للجاهل ، ثم يغريه بحب العلم أكثر من حبه لأمه ، ويقول أنه عجز عن تصوير جماله له ، ثم يشبر إليه بأن صناعة الكتابة تفوق كل صناعة ، وأنه لو تعلمها فإن القوم سيهئونونه على ذلك ، فيقول : «انى قد رأيت من ضرب ، فطبعك أن توجه قلبك للكتب ، انى قد رأيت من أطلق من الاعمال الشاقة ، فانظر ، فلا شىء يعلو الكتب ، وأنت اذا قرأت في خاتمة كتاب «كمت» (ربما كان اسم كتاب قديم) فإنك لو اجد فيه هذه العبارة : ان الكتب يفسح أمامه كل مجال في العاصمة ، ولن يمانى فيها فقرا ، والرجل الذى يسير وراء رأى غيره لا يصيب نجحا ، ليعتنى أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك ، وليتبنى أستطيع أن أريك جمالها ، انها أعظم من أى شىء آخر ، ان الطالب اذا بدأ في طريق النجاح ، فإن الناس تعلو من شأنه ، ويوفد لتنفيذ الاوامر ، ولا يعود الى البيت ليرتدى ثوب العمل» .

ثم يصف الاب لابنه بعد ذلك ، الفرق بين مهنة الكاتب وما ينال صاحبها من الشرف ، وبين المهن الاخرى التى يكون من جرائها تعب الجسم واضمحلاله ، وتعرض محترفيها للاخطار فيقول : «على أننى لم أر قط نحاتا كلف برسالة ، ولا صائغا أرسل في مهمة» .

ثم يتناول بالشرح كل مهنة وما فيها من متاعب ، وازدراء لصاحبها ،

إذا قورنت بمهنة الكتابة ، ويقدم لولده درسا في الحياة الاجتماعية ، ويستعرض أمامه أهم أنواع الحرف في مصر الفرعونية وقتئذ ، ونصيب كل صاحب حرفة من متاعها ، يذكر ذلك في شيء قليل أو كثير من المبالغة ، ولكنه يكشف لنا في الوقت نفسه عن نوع الحرف التي كان يتخذها أبناء العصر المظلم الذي يتحدث عنه ، فيتحدث عن صانع المعادن فيقول : «لقد رأيت صانع المعادن يعمل عند فوهة موقدة ، وأصابعه متبسية مجمدة مثل جلد التمساح ، ورائحته أنتن من فضلات السمك ، وكل صانع يقبض على الأرضيل يصيبه من الإعياء أكثر مما يصيب من يفلح الأرض ، لأن حقله هو الخشب ، وفأسه هو المعدن ، وحسين يطل الليل ويطلق سراحه ، يعمل على ضوء السراج أكثر مما تطيق ذراعه» .

ثم ينتقل الى الكلام عن البناء ، وما يناله من التعب الجسماني ، فيقول : «والبناء يعمل في كل صلب من الأحجار ، وعندما ينتهي منه تكون قد تكسرت ذراعه ، وانهدت قواه ، فإذا ما جلس عند المنسق ، يكون فخذه وظهره قد تحطمت» ، ثم يتناول بعد ذلك حرفة الحلاق ، فيظهر لابنه أنها حرفة مضيئة ، صاحبها لا بد أن يجول في الشارع ليبحث عن عمل يسد رمقه بما يكسبه منه ، فيقول : «والحلاق يظل يحلق متأخرا الى المغرب ، وهو يتجول من تسارع الى تسارع بحثا عن يحلق له وهو ينهك ذراعيه من أجل لقمة عيش يملأ بها بطنه ، كل لحظة التي تاكل وهي تعمل وتكد» ، وكذا يظهر له المتاعب التي يلاقها التاجر الجوال الذي يسافر الى الدلتا ليحصل على ثمن بضاعته ، ويعمل فوق طاقته ، على حين يقتله البعوض» .

ويتناول بعد ذلك صناعة اللبن ، فيقول : «وضارب الطوب من طمي النيل ، يقضى حياته بين المائسية ، وملابسه خشنة جامدة ، وهو يعمل بقدميه» ، والظاهر أن حرفة البناء كانت شاقة حتى أن حكيمنا هنا انما يعود اليها مرة أخرى ، فيقول : «ودعني أعود الى ذكر البناء الذي يشيد الجدران ، فهو غالبا ما يكون مريضا ، وملابسه قذرة ، ولا يغتسل الا مرة واحدة لمصعب ، وهو تمس تعاسة تفوق حد الوصف ، فهو كقطعة

حجر في غرفة ، طولها عشر أذرع ، وعرضها ست أذرع ، وأطفاله يضربون ضرباً» .

ثم يصف الحكيم لابنه حالة البستاني (ولعله يقصد به زارع الخضر والفلكة سواء بسواء) فيقول : «والبستاني يحضر أحصالا تنوء بها ذراعا ورقبته ، وفي الصباح يقوم بارواء الكراث وفي المساء يروى الكروم ، فهو أسوأ حالا من غيره» .

ثم ينتقل الى وصف حالة الفلاح ، فيصفه بان الامراض تفتك به ، وصاحب الاملاك يستفد كل محصوله ، فهو كالحيوان الذي يعيش بين الاسود ، فهو لا بد مأكول ، فيقول : «أما الفلاح فحسابه مستقر الى الابد (ربما مع مالك الارض) وصوته أعلى من صوت الطائر «ابو» (أى كثير الشكوى) ، وهو أيضا يناله الاعياء بما يجلب عن الوصف ، وهو يعيش كمن يعيش بين الاسود . وطالما يعتريه المرض ، وعندما يقفل راجعا الى منزله في المساء ، فان كثرة المشى تكون قد أنهكت قواه» .

ثم يتحدث عن «النساج» الذي يعمل وهو جالس طول اليوم ، فيشبهه بقعيدة البيت ، فهو لا يتمتع بالهواء الطلق ، وهو مراقب دائما ، فاذا تباطأ عن العمل يوما ضرب بالسوط ، واذا أراد الخروج من مصنعه ليستنشق الهواء ، فلا يصل الى ذلك الا بالرشوة ، فيقول : «أما النساج في مصنعه فأمره أسوأ من أمر النسان (اللائى يجلسن أيضا في المنازل) فخذاه تكونان على بطنه ، فلا يستطيع استنشاق الهواء وهو يعطى حارس الباب خبزا ليتمكن من الخروج في ضوء النهار» .

وبعد ذلك يصف حكيمنا هذا المصنك لابنه حرفة من الحرف التى كانت شائعة في ذلك الوقت ، ولكنها قد اختفت في عهدنا الطائر بانتشار المدنية ، وأعنى بها «صناعة السهام» ، وقد كانت من أهم أسلحة الحرب وقت ذاك فيتحدث عنها وكيف يتهم على صاحبها أن يذهب الى الصحارى والجبال حيث الظران الذى تصنع منه السهام ، وما في ذلك من بعد المسافة وما يعانيه هو وحملره ، وما يستلزمه من المال لمن يرشده الى الطريق في وسط

تلك القياقي والمقفل ، وما يتطلب ذلك من وقت ونصب ، فيقول : «أما صانع السهام فما أسوأ حاله حينها يخرج الى الصحراء ، فهو يعطى الكثير لحماره ، ويعطى الكثير لما في المحل ، وعندما يعود الى منزله في المساء ، فإن السير يكون قد هدهد» .

ثم يقول بعد ذلك حرفة أخرى أخذت تتلاشى الآن في مصر ، وأعني بها نقل البريد برجال خصصوا لذلك ، فيصف لنا كيف أن عامل البريد عند ذهابه الى بلد أجنبي يترك وصيته خوفا من عدم عودته الى أهله ، لما في رحلته من المخاطر ، وحتى اذا عاد الى مصر ثانية ، فإنه لا يمسود مرتاح النفس ، هادى البال ، لان التعب يكون قد أضناه ، فيقول : «وحامل البريد عندما يرحل الى بلد أجنبي ، يوصى بأمواله لاولاده ، خوفا من الاسود والاسيويين ، وحينما يعود الى بيته يكون السير قد قطعه اربا» .

ثم يصف حرفة الاسكافي بالنعاسة ، وكيف أن هذا النعس يحمل أوانيه التي فيها أدوات وجلده ، وكيف أن صحته تسوء ، وجسده يهزل ، وقد يضطر الى قطع الجلد بأسنانه ، فيقول : «ويالسوء حال الاسكافي فهو دائم الاستجداء ، وما عليه هو الجلد» ، ثم يتحدث عن حرفة «الغسل» ومجازفة صاحبها بنفسه أمام خطر التماسيح ، مما يدل على كثرة هذا الحيوان في ذلك العصر في النيل ، وما يلاقيه بسببها من تعب جسماني ، فيقول «والغسل يعمل على شاطئ النهر ، فهو جار قريب للتمساح» .

ثم يتحدث عن حرفة لهو ، تجعل صاحبها يهمل عمله ، وأعني بها «حرفة صيد الطيور» ، فيقول : «وصائد الطيور تراه تعسا حينما يرى الطيور في السماء ، ويقول : ليست عندي شبكة هنا ، ولكن الله لا يهمل له سبل النجاح ، ودعني أنتقل بك الى صائد السمك ، فان حرفته أسوأ حالا ، فهو يعمل في النهر حيث تكثر التماسيح ، والخوف يعميه» .

وهنا يصل الحكيم الى بيت المقصيد ، وهو تمجيد مهنة الكتابة فيقول :

«أنظر انه لا توجد مهنة من غير رئيس لها ، الا مهنة الكتائب ، فهو رئيس نفسه ، وان رحلت تلك التي أقوم بها معك الى العاصمة تستهدف الخير لك ، وأقوم بها حبا فيك ، فان يوما تقضيه في المدرسة يعود عليك بالنفع ، وما تفعله فيه يبقى مثل الجبال» •

ثم تلى ذلك فقرات غير مترابطة ، منها :

«اذا دخلت على رب البيت وكان في منزله مشغولا بآخر حضر من قبلك ، فاجلس ولا تطلب شيئا» •

«لا تتحدث بكلمات خفية ، ولا تجعل الالفاظ النابية تخرج من فمك» •

«اذا أرسلك عظيم برسالة ، فانقلها وبلغها كما نطق بها ، ولا تنقص فيها شيئا ، ولا تضيف اليها جديدا» •

«اقنع بطعامك ، فاذا أشبعتك ثلاثة أرغف ، وشربت قدحين من الجمعة ، ولم تكف لأشباع بطنك ، فقلوم ذلك الشعور» •

«من الخير أن تبتعد عن جمهرة الناس ، وتستمع وحدك الى أقوال المعظماء ... ولتتخذ لنفسك صديقا من أبناء جيلك» •

«اما من كاتب ينقصه الزاد الوفير ، وان الآلة لثراءه وتضعه على رأس هيئة الموظفين» •

«أنظر : فان هذا الذي أنصحك به ، هو ما أضمه أملك وأمام أولاد أولادك» •

وفي النهاية نرى «لخيتي» يقول لابنه : انه قد وضعه على الطريق الالهية ، وان ربه «حصاد الكتاب» على كتفه منذ يوم مولده — بمعنى انه لن يقاسى آلام الحاجة ، وأنه بفنه يصل الى أعلى وظيفة في البلاط ، وذلك بأن يصبح عضوا في المجلس الاعلى لحكام الاقاليم (قنبت) ، بل قد يكون رئيسه بما أوتي من علم وحكمة ، ثم يخبره بأن هذا الطريق ممد له ولأولاده ، فيقول :

«أنظر : انى قد وضعتك على طريق الاله ، وأن «رفنوت» (ربة الحصاد) قد أصبحت على كتفه منذ يوم مولده ، وهو يصل الى باب مجلس «قنبت» عنما يصل الى سن الرجولة : تأمل : انه لا يوجد كاتب قد حرم القوت ، الذى هو متاع بيت الملك ، عاش فى صحة وفلاح ، وأن «مسخنت» (المة الكتبة) هى سعادة الكاتب ، وهى التى تضعه على رأس المجلس الاعلى (قنبت) ، ويجب على المرء أن يشكر والده ووالدته اللذين وضعاه على طريق الاحياء ، والان تأمل : فلان هذا (أى الذى نصطك به) ما أضعه أمام وجهك وأولادك،وقد انتهت هذا بسلام».

٤ - مصانح الحكيم أنى

توجد هذه النصائح الموجهة من الحكيم «أنى» لولده «خونسو حتب» في بردية محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة (بردية بولاق رقم ٤) ، وترجع الى عهد الاسرة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين ، ويبدو أن التلميذ الذى قلم بنسخها ونقلها عن أصل أقدم عهدا ، لم يفهم الكثير من مقتويات النص ، فوقع في عدة أخطاء في كتابة معظم الكلمات ، بحيث جاءت جمل باكملها مضطربة ، لا يستلغ فهمها ، وبالتالي ترجمتها .

وفي الواقع أن النص قد كتب في الأصل باللغة المصرية الحديثة ، وهى تختلف بعض الاختلاف عن اللغة التى تعود عليها هذا التلميذ في عصره (في الاسرة الثانية والعشرين) ، وأن هاروق الزمن الذى يفصل بين المصريين انما كان له اثر في مقدار فهم هذا التلميذ لما ينقله ، ويفسر الاخطاء الكثيرة التى وقع فيها .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن متحف برلين يمتلك أدوات كتابة خاصة بتلميذ عاش في الاسرة الثانية والعشرين أيضا ، ومن بينها لوحة كتابة كتب عليها مقدمة هذا النص (أو الكتاب) نفسه ونظرا لان هذا التلميذ لم يفهم بعض الكلمات ، فقد وجد أن الواجب يقضى عليه بأن يضيف الى هذه الكلمات شرحا باللغة التى كانت مألوفة لديه ، وشائعة في عصره ، وهذه هى المقدمة كما كتبها هذا التلميذ على لوحه :

(فاتحة تعاليم النصح (أى مقدمة التعاليم الوعظية) التى ألفها الكاتب أنى (أى التى قام بتأليفها أنى) الذى ينتسب الى بيت «نفسر كارع نزوى» (نفسر كارع تارى) .

وعلى أية حال ، فإن هذا اللوح محفوظ بمتحف برلين (برقم ١٨٩٣٤) ، كما أن هناك فقرات من هذه النصائح وجدت في أجزاء من ثلاث برديات محفوظة في (The Musée Guimet) وفى «بردية شستر بيتى الخامسة

بالمتحف البريطاني في لندن ، وفي أربع قطع من أوستراكا في دير المدينة في طيبة الغربية .

ولعل من الجدير بالإشارة هنا أن الحكيم «آنى» نسب نفسه الى بيت الملك «نفر كلرع تلى» الذى ينسب الى الاسرة الثامنة ، رغم أنه سمى نفسه وسمى ابنه (خونسو حتب) باسمين من أعلام الدولة الحديثة ولعل السبب في ذلك انما يرجع الى ما كان للادب القديم — وبخاصة أدب الامثال والحكم — من منزلة ، لكل ما كان قديما له في نظر القوم روعته واحترامه ، ومع ذلك فقد كان من السهل كشف الحقيقة ، وذلك من التعبيرات والاصطلاحات اللغوية التى كان يتميز بها كل عصر من عصور الأدب .

وعلى أية حال فخلل من الافضل أن نشير أيضا الى أن نهائى آنى هذه انما كتبت في عصر كانت مصر قد فقدت فيه كثيرا مما كان من قوة وزعامة على أيام الدولتين القديمة والوسطى ، فضلا عن سيادتها على الشرق الأدنى القديم في عهد الدولة الحديثة ، وبدأت الآن عصرا من عصور الضعف ، غلبت فيه كلمة رجال الدين ، وطلعت فيه فلسفة الامثال لحكم القضاء والقدر ، والدعوة الى التدين والقيام بشعائر الدين — كما يقدمها الكهان — ومع ذلك فإن النص انما يقحم لنا كثيرا عن آداب السلوك ، وما كان يراه المصريون في ذلك العهد في تكوين المجتمع ، وصلة الناس بعضهم ببعض^(١) .

هذا وقد اهتم كثير من العلماء بنشر البردية وترجمتها ، والتعليق

(١) انظر : محرم كمال : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٤٣ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٢١٩ ، M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1976, p. 135

عليها ، ومنهم هرييت^(٧) وساييس^(٨) وجاردينر^(٩) وبونز^(١٠) وغولتن^(١١) وارمان^(١٢) وبرسند^(١٣) وويلسون^(١٤) وغيرهم^(١٥) ، فضلا عن الترجمات العربية للبردية^(١٦) .

«دا ويذهب بعض الباحثين الى أن نصائح «انى» لولده «خونسو حنوب» - انما تتكاد تنسبه تعاليم «بتاح حنوب» ، فهي على نسقها ، وتكاد تعالج نفس الموضوعات ، حتى ليذهب بعض المؤرخين الى ارجاعها الى عصر الانتقال الاول . ومن البدهي أن ذلك اسرا بعيد الاحتمال ، وعلى أية حال . فان «انى» انما يطلب من ولده أن يكون حريصا في حديثه ، حذرا من اتيان ما يؤذى الناس والا يزهى بفتوته ، وأن يؤسس له بيتا ، وأن يكون تقيا ورعا ، وأن لا يمد نظره الى بيوت الاخرين ، وأن يتجنب المعاهرات . وأن لا يكون سلوكه موضح ريبة ، فلا يفرط في شراب ، ولا يسعى وراء حياة دنسة ، وأن يكون حديثه في مجلس القضاء موجزا ، وأن يذكر الموت دائما ، وأن يعرف كيف ينتقى أصدقاءه ، وكيف يحترم

A. Mariette, Les Papyrus egyptiens du Musée de Boulaq, Paris, (٢)
1871, Pls, 15-28.

E. Suys, La Sagesse d'Ani, Texte traduction et Commentaire, (٣)
Analecta Orientalia, 2, Rome, 1935.

A. H. Gardiner, Hieratic Papyri, I, S and II, 27, p. Chester (٤)
Beatty V, Verso 2, 6-11 (= P. Boulaq 4, 3, 1-3 and 6, 1-4.

A. H. Gardiner, JEA, 45, 1959, p. 12-15.

G. Posener, Ostr. Hier, Nos, 1063, 1257, 1258, 1259. (٥)

A. Volten, Studien Zum Weisheitsbuch des Ani..., Copenhagen, (٦)
1937-1938.

A. Volten, Agyptische Nemesis-Gedanken, Miscellanea Gra-
goriana Rome, 1941, p. 373-374.

A. Erman, LAE, 1927, p. 234-242. (٧)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939. (٨)
p. 319 F.

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 420-421 (٩)

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 135-146 (١٠)

(١١) محرم كمال : المرجع السابق ص ٨٦ - ٩٥ ، سليم حسن :
المرجع السابق ص ٢١٩ - ٢٣٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص
٣٥٢ - ٣٥٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥١٤ - ٥١٥ .

ذاته ، ثم يوصيه بتوسيع أفقه العلمى ، وبرعاية أمه واحترامها ، وبحسن
معاملة زوجته ، وباحترام رؤسائه ، وبالإبتعاد عن الشغب (١٢) .

ولنتحدث الآن عن نصائح «آنى» هذه بشىء من التفصيل .

يقول آنى لولده «خونسو حتب» فى فاتحة نصائحه هذه :

«سأحدثك بكل ما هو حسن ، لكى يعيه قلبك ، فلتبغ ما أقول ، حتى
تكون محمود السيرة ، بعيدا عن كل شر ، ويقول عنك الناس : انك اعلی
خلق عظیم ، ولا يقولون : انك فاسد بليد ، واذا اتبعت ما أقول فانك
ستجنب كل شر ، وتبتعد عن مواطن الزلل» .

وفى الزواج المبكر والحض عليه يقول آنى لولده «خونسو حتب» :

«تخير لنفسك زوجة منذ الصبا ، عسانا تتجب لك طفلا ، فانها ان
انجبت وأنت شاب ، استطعت أن تربيته وتجعله رجلا ، وطوبى للرجل
اذا أصبح كثير الامل ، وأصبح يرتجى من أجل أبنته» .

وفى آداب الزيارة يقول :

«لا تكن سليطا ولا متطفلا ، ولا تدخل بيت غيرك (من غير اذن) ،
وعندما تكون فى منزل أناس آخرين ، وترى عينيك شيئا فالزم الصمت
ولا تبغ به لى شخص كان فى الخارج ، حتى لا تكون لك جريمة كبرى ،
عندما يصل أمره الى الاسماع» .

وفى تحذير ولده من النساء الغريبات وارتكاب الفاحشة يقول آنى :

«كن على حذر من المرأة المجهولة ، لا تطل النظر اليها عندما تمر بك ،
ولا تقضى منها وطرا ، فقد تراودك عن نفسها ، لا تستجب لها حتى فى
غفلة من الناس ، انها جريمة يستحق صاحبها الموت عندما يثبغ أمرها
بين الناس» .

وفى التحذير من الثرثرة يقول آنى لولده :

«لا تكثر من الكلام ، والزم الصمت فهو خير لك ، ولا تكن ممن

(١٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥١٤ .

يحبون الخوض في الحديث عن الناس ، كن حريصا في كلامك ، اذ أن هلاك المرء في لسانه ، أن جسم الانسان أوسع من مخزن الغلال ، وهو ملئ بأنواع الاجابات ، فاختر منها الطبيب الجيد وقله ، واحتفظ بالخبيث السيء حبيسا في جسدك» •

وفي تقوى الله واحترام بيوته يقول أنى لولده :

«ان سر ما يحدث في بيت الله هو احداث الصخب فيه ، فصل بقلب يملؤه الحب ، ولا ترفع صوتك بكلماتك ، أدع ربك بقلب وودود ، وبكلمات خفية ، فسوف يجيبك الرب سؤالك ، ويسمع قسولك ، ويتقبل قربانك ، اعرف قيمة ربك ، واحترم اسمه ، وقدم قربانك له ، ولا تتعد على حدوده» •

وفي البر بالوالدين يقول :

«قدم الماء لأبيك وأهلك اللذين انتقلا الى قبرهما في الصحراء ، وإياك أن تغفل عن هذا الواجب ، حتى يعمل لك ابنك بالمثل» •

وفي التحذير من شرب الخمر يقول :

«لا تفرط في الشراب ، فانك اذا تكلمت خرجت من فيك عبارة أخرى (غير التي تريد) ، وانك لتسقط ففتشهم أعضاؤك ولا يمد اليك أحد يده ، ويقوم رفقاؤك ويقولون : ألا بعدا لهذا الاحمق ، واذا جاء من يبحث عنك ليستجوبك ، فانهم يجدونك على الارض ملقى مثل طفل صغير» •

وفي التذكير بالموت يقول :

«أقم لنفسك قبرا يثوى فيه جسمانك ، فذلك أمر جسد هام ، لان رسول الموت سيأتيك ، واذا أتاك ، فانك لن تستطيع أن تقول له : اتى منزلت صغيرا ، فلنك لا تدري متى تحين ساعة رحيلك عن هذه الدنيا ، فالموت يأتي على حين غفلة ، وهو يختطف الطفل الذي يرقد بين ذراعي أمه ، كما يختطف الرجل الذي بلغ من الكبر عتيا» •

وفي حسن اختيار الصديق يقول :

«ابتعد عن الرجل الشرير ، ولا تتخذ منه صديقا ، وتخبر اخوانك ،

بعد أن تبلوهم ، وتتحقق من صدقهم واستقامتهم ، وتجنب من كان سيئ السيرة» .

وفي عدم الغرور بكثرة المال ، والدعوة الى الاعتماد على النفس يقول :
«لقد تملك قطعة أرض ، أحيطت بسياح جميل من الازهار . وتنمو فيها اشجار الجوز ، وقد تمتلئ بك بأجمل الازهار وأنضرها ، ومع ذلك فقد تكون شقيا ... ، لا تعتمد على مال غيرك ، ولا تتكل على ما يملكه شخص آخر» .

وفي احترام الغير يقول :

«لا تجلس ، على حين يتف من هو أكبر منك سنا . أو أرفع مقاماً» .

وفي الادب ومكانته في المجتمع يقول :

«إذا كنت راسخا في الادب ، فإن الناس ستعمل بكل ما تقوله لهم ، ادرس الادب (الكتابة) وضعه في قلبك ، فيطيب كل ما تقول» .

«إذا عين المكتب في وظيفة ، فإنه سيرجع حتما الى الكتب (حتى يدالفه النجاح)» .

وفي فضل الام ومحبتها يقول أنى لولده :

«ضاعف كمية الخبز لأهلك ، واحتملها كما احتملتك ، انها عندما ولدتك بعد شهر من حملك ، استمرت تحملك حول عنقها ، ثم أعطتك ثدييها سنوات ثلاث ، انها لم تنقرز يوما من قدرك ، انها لم تقل لك يوما : لم فعلت ذلك ؟ لقد أخذتك الى المدرسة ، الى حيث تتعلم الكتابة ، وانتظرتك هناك كل يوم ، ومعها الطعام والشراب الذي أحضرته من البيت ، فإذا ما شببت واتخذت لك زوجا ، وأصبح لك بيت خاص ، فلا تنس أمك التي حملتك وزوجتك بكل شيء ، فإنا ان نسيناها كان لها الحق في أن تغضب عليك ، وأن ترفع يديها شاكية الى الله الذي سوف يستمع الى شكواها» .

وفي الرحمة والبر بالناس يقول :

«لا تأكل خبزا بينما يقف آخر على مقربة منك ، دون أن تمد اليه

يدك بالخبز ، فهناك الغنى وهناك الفقير ، ومن كان في علم مضى غنيا ، صار في هذه السنة ضاربا في الآفاق (أى فقيرا) » •

وفي دوام الحال من المحال يقول :

«ان النهر الذي كان يجري في العام الماضي قد يتحول مجراه هذا العام الى مكن آخر ، وان البحار التي كانت تتدفق بالمياه قد تصبح أمكن جافة» •

وفي شر البطنة يقول :

«لا تكن شرها في ملء بطنك» •

وفي آداب دخول بيوت الناس يقول :

«لا تدخل الى بيت انسان ، الا بعد أن يؤذن لك بدخوله ، ويقول لك صاحبه : أهلا بك»

وفي حسن معاملة الزوجة يقول أنى لولده :

«لا تقس على زوجتك في دارها ، ان أدركت صلاحها ، ولا تسأل عن شيء أين موضعه ؟ اذا تخيرت له وضعه الملائم ، افتح عينيك وأنت صامت تدرك فضائلها ، وان شئت أن تسعد فاجعل يدك معها وعاونها ، حاول أن تمنع أسباب الشقاق في دارك ، ولا تعمل على خلقه ، واعمل على الاستقرار في دارك ، بأن تتحكم سريعا في نزعات نفسك ، ولكن احذر أن تمشي في طاعة امرأة ، وأن تسمح لها بأن تسيطر على رأيك» •

وفي معاملة الرؤساء يقول :

«لا تجب رئيسا وهو غاضب ، بل ابتعد عن طريقه ، واذا خاطبك شخص باللفظ جارحة ، فخايبه بكلام عذب ، وهدى من ثورته ، فلاجابة المثيرة للنزاع ضرب السياط (لقائلها) فاذا مرت ساعة غضبه ، فان الرئيس سيتحدث اليك ، لان كلماتك الودودة قد استوعبها قلبه» •

وفي الحضر على العمل يقول :

«كن مجتهدا ، لان الرجل العاقل يصبح خاملا ، ولا يكون شيئا
مذكورا» .

وفي ختام النصائح يقول أنى لولده «خونسو حوتب» :

«ليتتى كنت مثلك ، حتى أسير على هدى نصائحك ، ويرقى الابن الى
منصب أبيه ، انك لرجل عال الهمة ، وان كلماتك حرة مختارة ، تريح
قلبي ، ويستوعبها عقلى ، ويفرح بها شؤادى» .

• - تعاليم أمنمويس

وجبت هذه التعاليم التي وجهها «(أمنمويس) بن «كانخت حور ماخر» مكتوبة كاملة على بردية محفوظة الآن في المتحف البريطاني في لندن (رقم ١٠٤٧٤) ، كما وجدت فقرات قليلة منها في بردية في «استكهولم» ، وفي ثلاث لوحات من تورين وباريس وموسكو ، وفي أوسقراكا في متحف القاهرة •

وقد ظلت هذه البردية منذ أن حصل عليها «سير ارنست ألفرد واليس بدج» في عام ١٨٨٨م منسية تماما ، الى أن بدأ علماء الآثار منذ عام ١٩٢٢م يهتمون بأمرها ، فتولوا شرحها وترجمتها والتعليق عليها عدة مرات ، ومن هؤلاء العلماء بدج^(١) ولانجه^(٢) وارمان^(٣) وجريفت^(٤) ولكيسا^(٥) وفون بسنج^(٦) ووبلسون^(٧) وسيمسون^(٨) وليامز^(٩)

E. A. W. Budge, The Teaching of Amen-em-ope, Son of (١)
The British Museum, Second Series, London, 1923, p. 9-18, 41-51, Pls. 1-14.

E. A. W. Budge, Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in Kanaklit, London, 1924, p. 93-234.

H. O. Lange, Das Weisheitsbuch des Amenemope, Dansk (٢)
Videnskabs-Selskab, historisk-filologiske meddelelser, xi, 2, Copenhagen, 1925.

A. Erman, OLZ, 27, 1924, Columns, 241-252. (٣)

A. Erman, Eine Agyptische Quelle der Spruche Salomos, SPAW, 1924, p. 86-93.

F. L. Griffith, in JEA, 12, 1926, p. 191-231. (٤)

F. Lexa, Archiv Orientalni, 1, 1929, p. 14-49 (٥)

F. W. Von Bissing, Altägyptische Lebensweisheit, Zurich, 1955, (٦)
p. 80-90.

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 421-424. (٧)

W. K. Simpson, in The Literature of Ancient Egypt, 1975, p (٨)
241-265.

R. J. Williams, in JEA, 47, 1961, p. 100-106 (٩)

وبترسون (١٠) وبوزنر (١١) وأنش (١٢) وبرستد (١٣) وغيرهم (١٤) من العلماء الأجانب ، الى جانب الترجمات العربية للبردية (١٥) .

هذا وترجع نصائح «أمنمووبى» هذه - والتي وجهها لولده الاصغر «احور ملخر» (حار مع خر) الى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد ، فى الفترة الممتدة من الاسرة الحادية والعشرين الى الثانية والعشرين ، هذا ويؤكد العلماء يتفقون الان على أن نصائح «أمنمووبى» هذه انما هى الاساس الذى اعتمدت عليه الحكم والامثال التى نسبت الى سليمان عليه السلام - كما جاءت فى توراة يهود المتداولة اليوم .

وقد كتبت هذه النصائح فى أسلوب شعري ممتع ، كل أربعة أسطر وحدة مستقلة ، وتحتوى مقدمة وثلاثين فصلا ، تبدأ بواجبات التلميذ ، ثم تتناول بعد ذلك نصائح مختلفة ، من بينها الحزم فى المناقشة والتفرقة بين الجهول والحكيم ، وبين الرزانة والتهور فى المعبد ، وبين سوء مصير التعمدى على الغير ، أو الطمع فى ثروته ، أو قول السوء ، ثم التحذير من معاشرة الاحصق ، والحض على الاخلاص والامانة فى معاملة الناس ، وضرورة احترام المسنين وأصحاب العاهات ، وأدب معاملة الغير .

هذا وتتضمن مقدمة تعاليم أمنمووبى تلخيصا لما ورد فيها ، وتعريفا

P. J. Peterson, in JEA, 52, 1966, p. 120-128. (١٠)

G. Posner, in RdE, 18, 1966, p. 45-62. (١١)

G. Posner, in ZAS, 99, 1973, p. 129-135.

R. Anthes, in Gallig Festschrift, p. 9-18. (١٢)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 320-282. (١٣)

D. C. Simpson, in JEA, 12, 1926, p. 232-239. (١٤)

M. Lichtheim, AEL, 1976, p. 146-163.

I. Grumach, Untersuchungen Zur Lebenslehre des Amenope, Munchner Agyptologische Studien Heft, 23, Munich, 1972.

P. H. Humbert, Recherches sur les Sources égyptiennes de la Littérature Sapientiale d'Israel, Neuchatel, 1929.

(١٥) سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٣١ - ٢٨٠ ، محرم كمال :

المرجع السابق ص ١٠٩ - ١٢٩ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٤٥ - ٤٤٧ .

بمحتوياتها ، وحصر الفوائد التي تهدف الى تحقيقها ، فهي تتضمن «دروسا في الحياة ، وارشاد الى الخير ، ومجموعة من القواعد التي تتبع في معاملة الموظفين ، حتى يتصرف المرء على ضوئها ، فتشرده الى سبل الحياة ، وتكفل له النجاح في حياته ، والراحة لقلبه ، وتبجده عن الشر وتجنبه السنة المسوء ، وتجعل ذكراه حسنة عاطرة في أفواه الناس» .

ثم هي تتحدث عن مؤلفها ، فتذكر عنه أنه «كاتب مصري ماهر في عمله ، اشتغل ملاحظا للخلال ، ومديرا للمكيلييل ، وواضعا لعلامات حدود الارض المزروعة ، وحافظا اذكرى الملك بنقوتسه ، وما سحا للارض السوداء (الزراعية) . الكاتب الذي يقرر الاوقاف للأمة ، والذي يمنح الايجار لمن يشاء ، القابض على زمام الاطعمة ، الثاوي حقا في «تلاو - ور» (أبيدوس) ، المذكور في «آمو» (أخميم) ، صاحب القبر الهرمي في «سنوت» (غربي أخميم) ، وحاسب الفريخ في أبيدوس ، أمنؤوبى بن كانخت ، المبرأ في «تلاو - ور» .

ثم تنتقل التعاليم الى التعريف بولده الذي وصفته بأنه أصغر ابنائه «حور ماهر» (حار مع خر) ثم تورد الكثير من صفاته .

هذا ويبدأ الفصل الاول بتلصيل واجبات التلميذ :

«املء أذنيك لتسمع أقوالى ، واعكف قلبك على فهمها ، لأنها شئ مفيد اذا وضعتها في قلبك ، ولكن الطويل لمن يتعدها ، فاذا أمضيت مدة حياتك ، وهذه الامور في قلبك ، فانك ستلقى بها نجسا ، وستجد في كلماتي ذخيرة الحياة . وسيفتح جسدك على الارض» .

وتضمن الفصل الثانى نصائح متنوعة ، تحذر المرء «من أن يسلب فقيرا يائسا ، أو أن يكون شجاعا أمام رجل مهيب الجناح ، وألا يمد يده ليمس رجلا مسنا بسوء» .

ويتناول الفصل الثالث : البحث في الحزم عن اجابة الخصم . فهو يوصى «بأن لا يشتبك المرء في جدال مع أحمق ، وأن لا يخرجه بالفاظ وأن يعرض عنه ، ويطيل التفكير قبل أن يتكلم ، واذا تكلم الاحمق في

ساعة غضب ، فيجب أن يتركه الانسان وينصرف من أمامه ، فان الله سيتولى جزاءه» •

ويتحدث الفصل الرابع عن الرجل الاحمق والرجل الحكيم ، «فيشبه الاول بشجرة نبتت في غابة ، تفقد خضرتها في لحظة ، ويكون مصيرها مرفأ الاخشاب » ، على حين «يشبه الثاني بشجرة باسقة في حديقة تنمو يانعة ، تقوم أمام سيدها ، ثمرها حلو ، وظلها ظليل ، وينتهى مصيرها في الحديقة» •

وينقسم الفصل الخامس الى ثلاثة أقسام :

اولها : يحض على احترام أملاك المعبود

وثانيها : يذكر الانسان بأن الامور تتقلب كالنيل

وثالثها : توصي المرء بالرزانة والثقة بالله تعالى

ويحضر الفصل السادس من التعدى على أملاك الغير

«لا ترخر من علامات حدود الحقول ... ولا تكونن شرها من أجل

ذراع أرض ، ولا تتعدى على حدود أرملة» •

وينقسم الفصل السابع الى أربعة أقسام :

الاول : يحرض على ضرورة التسليم بالقدر خير وشره

والثاني : عن الثروة التي لا تدوم

والثالث : عن مزية القناعة

والرابع : عن صلاة الرجل القنوع

وهذه أمثلة مما ورد فيها : «لا تتعبد نفسك في طلب المزيد حينما تكون قد حصلت على حجابك ، وإذا جلب اليك المال بالسرقة ، فانه لا يملك معك سواد الليل ، وعندما ياتى الصباح لا يكون بعد في منزلك ، بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة وطار الى السماء» •

«الفقر في يد الله خير من الغنى في الهوى (المخزن) ، وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح ، خير من ثروة (تحصل عليها) في تعاسة ، والثناء على

الانسان كشخص محبوب عند الناس ، خير من الغنى في المرى (المخزن) .
وينقسم الفصل الثامن الى ثلاثة اقسام :

أولها : عن أهمية الذكرى الطيبة ، «اغرس طيبتك في قلوب الناس ،
حتى يحبيك كل انسان» .

وثانيها : يحض على اجتناب القول الخبيث ، «كن رصينا في تفكيرك ،
وثبت فؤادك ، ولا تتعود على أن تجدف بلسانك حتى تكون مفضلا عند
الآخرين ، ومحترما في شيخوختك ، وآمنا من بطش الاله (الله)» .

وثالثها : عن حفظ السر ، لا تفضح اسنانا بهتك سره ، وإذا عرض
عليك أمر لتحكم فيه ، فكون رأيك في نفسك ، واجعل الصن منه على
لسانك ، وأما القبيح فاخفه في بطنك» .

ويحضر الفصل التاسع على تجنب الاحمق وسبله ، وهذه أمثلة مما
ورد فيه :

«لا تصاحب رجلا حاد الطبع ، ولا تلحن في مصادثته ، واحفظ
لسانك من مقاطعة من هو أرفع منك مقاما ، وخذ الحيطة لنفسك من أن
تذمه ، ولا تجمله يرمى بكلام يوقعك في شركه» .

«والرجل الاحمق يقول قولا مقذعا يستحق عليه الضرب ، وجوابه
ملىء بالشر ، وهو يثير النزاع بين الاخوة ، واللهيب يتقد في جوفه ،
فحذار أن تنضم الى هذا الرجل» .

ويتحدث الفصل العاشر عن الاخلاص ، وفي ذلك يقول الحكيم :

«لا تقرىء أحدا السلام رياء ، وأنت تدهق عليه ، لا تتحدث بالافك
والبهتان ، فإن الكذب يمقته الله ، وأكبر ما يكرهه الله انما هو النفاق ،
كن ثابتا أمام غيرك من الناس ، فالانسان في مأمن أمين عندما يكون في
يد الله» .

ويوصي الحكيم في الفصل الحادى عشر بالقناعة ، وأن يرضى المرء
بنصيبه من هذه الدنيا :

«لا تطمع فى متاع انسان آخر ، ولا تتطلع لخبزه ، فلو متاع الغير
لا خير فيه» •

ويتحدث فى الفصل الثانى عشر عن ترك متاع الغير ايضا :

«لا تطمع فى متاع شريف ، واذا عينك الشريف مدير لاعماله فتجنب
ما يخصه حتى يثمر ما تمتلكه» •

ثم ينصحه قائلا :

«لا تشرك رجلا أحق ، ولا تخالط رجلا خائفا ، وإياك أن تهتك ستر
الرجل فى أمر حقير ، لأن ذلك يعوق استفادته لك مرة أخرى» •

ويقول فى الفصل الثالث عشر :

«لا تضرب رجلا بجرة قلم ، لأن ذلك يمقته الله ، ولا تقولن قد وجدت
حاميا ، والان يمكننى أن أهجم الرجل المفقوت ، ضع نفسك فى ذراعى
الاله يهزمهم صمتك» •

لا تشهد زورا ، ولا تستعمل قلمك فى الباطل ، واذا وجدت فقيرا
عليه دين كبير ، فسامحه فى ثلثيه ، وخذ الثلث ، ونم بعد ذلك نوما عميقا ،
فاذا أصبح الصباح فستجد كل ما فعلته على ألسنة الناس ، ان حب الناس
ومدحهم للانسان خير من الثروة التى فى المخازن ، وخير للانسان أن
يأكل خبزه بقلب سعيد ، من الثراء الذى يصعبه النكد» •

ويتحدث فى الفصل الرابع عشر عن الكرامة فيقول :

«كن ثابتا أمام غيرك من الناس ، فالانسان فى مأمن فى يد الرب ،
والرب يعقت من يزور الكلام ، وكبر مقتا عند الله النفاق ، لا تجعل كل
عنايتك ان اقتضى بثوب قشيب ، ولا تتقبل رشوة من صاحب نفوذ ، ولا
تظلم مقصور اليد من أجله ، فالعدل هبة غالية من الرب يهبها لمن يشاء ،
ان الرب يحب اسعاد الفقير ، أكثر مما يحب تعظيم النبيل» •

وفي الفصل الخامس عشر يتحدث الحكيم عن الكاتب وحامية الاله
«تحتوت» - اله الكتابة والعلم - فيقول :

«لا تخمس قلبك في المداد لتضر شخصا آخر ، فان عيني الاله تحتوت
ترقبان كل شيء حول الارض ، واذا رأى الاله من يسعى في الشر ، فانه
يرمى بطماحه الى اللجة العميقة ، والكاتب الذي يضر الآخرين باصبعه ،
فلن يكون لابنه من بعده ذكرا» .

ويتحدث الفصل السادس عشر عن التطفيف في الميزان :

«لا تتلاعبن بكفتي الميزان ، ولا تطففن الموازين ، ولا تقتصن المكيال
فان الاله تحتوت يراقب الميزان ، واذا رأيت انسانا يغش فابتعد عنه ،
وما غائدة ثوب من نسيج كنانى فاخر ، اذا كان ضلالا أمام الله» .

وفي الفصل السابع عشر يتحدث عن كيل الغلال فيقول :

«لا تطف في الكيل ، وأوف المكيال بالدقة الواجبة ، لا تتخذ لنفسك
مكيالا ذا حجمين ، لا تغش فان الاله يمقت الرجل المدلس» .

ويتحدث في الفصل الثامن عشر عن ترك الهم ، فيقول :

«لا تتل اليوم أشبه بالغد ، فالغد آت واليوم منقض ، وقد تصبح
اللجة الغائرة حافة للاسواج ، ولا تنقض الليل وأنت تلق من الغد ، فما
يعلم انسان ما سيكون عليه الغد ، والله دائما في فلاح تدبيره ، والانسان
دائما في خيبة ظنونه ، كن حازما في قلبك ، وثابتا في عقلك ، وحافظ على
لسانك ، لان لسان الانسان هو الذى يسيره ، ورب العالمين هو الأمر
الناهي»

وفي الفصل التاسع عشر يقول عن المحكمة :

«لا تدخل المحكمة وتزيف كلماتك ، لا تردد في جوابك ، عندما يكون
شهودك قد وقفوا ، قل الصدق أمام القاضي ، ولا تجعل لأحد سلطانا
عليك» .

وفي الفصل العشرين يتحدث عن الامانة في الوظيفة :

«لا تظلم رجلا في قاعة المحكمة ، ولا تظلم صاحب حق ، ولا تهتم
برجل بسبب ملابسه المبيخاء الناصعة ، على حين تترك من يرتدى خرقا
بالية . ولا تقبل هدية رجل قوى لتظلم الضعيف من أجله ، فالعدل هبة
غالية من الرب يهبها لمن يشاء ، لا تستعمل الوثائق الزيفة ، حتى لا تفسد
تدبير الاله ، سلم الامتعة لأصحابها ولا تفتصبها ، والا هلكت» .

وفي الفصل الحادى والعشرين يتحدث عن الصمت فيقول :

«انك لا تعرف تدابير الله ، ولا تعرف ما ياتى به الغد ، فاجلس بين
يدين الله ، وبالحلم مستغلب على الجميع ، ان التمساح الصامت يحدث
الفرح في النفوس ، لا تفض بسرك لانسان ، ولا تدع أقوالك لآخرين ،
ان الرجل الذى يحتفظ بأخباره في قرارة نفسه ، خير من الذى يفشيها
ميصييه الضرر» .

وفي الفصل الاثنى والعشرين يتحدث عن آداب المناقشة ، فيقول :

«لا ، تأمر ضد زميلك في المحاوره ، بل انظر ماذا ينط ، وسوف
تفهم من جوابه ، كن هادئا وعندئذ تأتى معارفك ، دعه حتى يفرغ ما في
قرارة نفسه ، ثم خفه ولكن لا تهمله ، أنت لا تعرف تدابير الله ، ولا
ما سوف ياتى به الغد ، اجلس بين يدين الله ، وسوف يتغلب حلمك عليهم» .
ويحذ في الفصل الثالث والعشرين على آداب المائدة مع العظماء ،
وعلى تجنب أكل الحرام :

«لا تأكل الخبز في حضرة رجل عظيم ، ولا تعرض نفسك في حضرته ،
واذا شبع من طعام محرم ، فان ذلك ليس الا لذة ريقك ، وانظر فقط
وأنت على المائدة الى الوعاء الذى أمامك ، وكن مكفيا بما فيه» .

ويتحدث الفصل الرابع والعشرون عن الرجل الامين :

«لا تصنع الى اجوبة رجل شريف في بيت ، ثم تقشرها الى آخر في
الخارج ، حتى لا يتألم قلبك ، وقلب الرجل (أى صغيره) هو منقار الاله
تحوت (اله الحكمة) ، فاحذر أن تهمله» .

ويتحدث الفصل الخامس والعشرون عن احترام أصحاب العاهات :

«لا تسخر من أعمى ، ولا تهزأ من قصير ، ولا تصقر أعرج ، لا تعبس في وجوههم فالانسئل قد خلق من طين ، والله وحده خالقه . وهو قد يرهم ويبيئ كما يشاء كل يوم ، ويخلق الالوف بأمره ، ما أسعد الرجل الذي انتقل الى الغرب (أى مات) وهو آمن في يد الله تعالى» .

وفي الفصل السادس والعشرين يتحدث عن معاملة من هم ارفع مقاما في المجتمع :

«لا تجلس في مجلس تراب . ولا تخلط من هم أكبر منك مقاما ، وصاحب من هم في مرتبتك ، ولا تلعن من هم أسن منك ، مد يد المساعدة للمسن اذا كان قد ثمل من الجعة ، واحترمه كما يحترمه أولاده ، فالظهر لا يكسر عندما ينحني ، والفقر لا يصيب الرجل الذي يقول الشيء السار ، ولا يأتي له الخنى عندما يكون قولك من القش ، والنوتى الذي يرى من بعيد لا يغرق قاربه» .

وفي الفصل السابع والعشرين يتحدث عن الخضوع للرجل المسن :

«لا تسب رجالا أكبر منك سنا ، حتى لا ينسوك الى الاله رع عند شروقه ، فئن مما يؤلم الاله رع أن يسب شاب رجلا مسنا ، فان ضربك بيده في صدرك فلأزم السكون ، فانك ان حضرت أمامه في اليوم التالي ، فسوف يعطيك خبزا بلا عدد» .

وينحدث في الفصل الثامن والعشرين عن كرم الاخلاق :

«لا تسأل عن شفعية أرملة عندها تقبض عليها في الحقل ، ولا يفوتك أن تتخرج بالعسر عند سماع اجابتها ، لا تمر على غريب بلناء زيتك ، بل اجعله يتضاعف ألمم اخوانك ، ان الله يحب سعادة المتواضع ، أكثر من احترام التسريف» .

وفي الفصل التاسع والعشرين يتحدث عن التعدية (عبور النهر) :

«لا تمنع أناسا من عبور النهر ، عندما يكون في قلبك مكان ، خذ الاجر من الرجل الغنى ورحب بمن لا يملك شيئا» .

وفي ختام الفصول ، وهو الفصل الثلاثون ، يقول :

«سبحر نفسك في هذه الفصول الثلاثين ، حتى تكون مسرة لك وتعلما ،
يفوقن ما في الكتب جميعا ، فهي تعلم الجاهل وتطهر نفسه من الخبائث ،
فاستوعبها وضعها في قلبك ، لتكون بها عيلما ، ولأمرها علقا ، فان الكاتب
الماهر في وظيفته سيجد نفسه كفوًا لان يكون من رجال البلاط» .

وهذه هي نهاية المقال .

سفر الامثال وتعاليم امنمؤوبى :

رغم أن العالم البريطانى «السير ارنست الفرد واليس بدج»
(١٨٥٧ - ١٩٣٤) هو الذى نشر فى عام ١٩٢٤^(١) «تعاليم امنمؤوبى»
(The Instruction Of Amen - Em - Upet) والمخطوطة الان بالمتحف
البريطانى ضمن بعض أوراق البردى المهراطيقية^(٢) ، الا أن العالم
الالمنى «أدولف ارمان» (١٨٥٤ - ١٩٣٧) ، انما كان اول من أشار فى
مايو من عام ١٩٢٤ م ، الى ان تعاليم امنمؤوبى (امن - ام - بت) هي
الاساس الذى اعتمدت عليه حكم سليمان ، كما جاءت فى سفر الامثال
من العهد القديم (التوراة)^(٣) .

وفى عام ١٩٢٥م قام «لانج» بنشر البردية كذلك ، ثم قام فى عام
١٩٢٦م العالمان «فرنسيس للولين جريفت» (١٦٨٢ - ١٩٣٤)^(٤) ،

(١) اشتريت هذه البردية من احد تجار الاقصر ، ولهذا كثيرا ماقرأ
انه قد عثر عليها فى جبانة طيبة ، ولكننا لو وضعنا فى اذهاننا أن صاحبها
وهو «امنمؤوبى» كان من اهل اخميم ، وأن عبره كان فى جبلها الغربى ،
لرجحنا العثور عليها هناك ، وشراء نجار الاقصر لها من تجار اخميم ،
كما يحدث دائما ، وهى على أى حال ، محفوظة الان بالمتحف البريطانى
تحت رقم ١٠٤٧٤ (أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية - العصر
الفرعونى ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٤٥ .

J. A. Wilson, in ANET, 1965, p. 421.

Sir Ernest Alfred Wallis Budge, The Teaching of Amen-Em
Opet, Son of Kanakhi, London, 1924. (٢)

Adolf Erman, Eine Aegyptische Quelle der, "Spruche
Salomos", SPAW, May, 1924, p. 86-93. (٣)

F. L. Griffith, JEA, 12, 1926, p. 191-123 (٤)

و «د. س. سمبسون»^(٥) بترجمه الويقة التي تحوى هذه التعليمات من جديد ، ثم عمل مقارنة بين بعض نصوصها وبعض نصوص سفر الامثال ، اثبتا فيه أن سفر الامثال انما قد اعتمد على تعليم امنؤوبى الى حد كبير ، نظرا لما وجدناه بينهما من مشابهة قسوية في الافكار وفي الاساليب .

وهناك ترجمه اخرى للوثيقة نشرت في عام ١٩٢٩م^(٦) ، الا أن البحث المستفيض في «ذا المذخوع انما قسام به العالمن الكبيران » هو جو جرسمن»^(٧) و . (جيمس هنرى برستد)^(٨) .

وكان من البدهي أن نتوقع ألا يرحب المحافظون من اليهود بالرأى القائل بأن أجمل ما في كتابهم المقدس نقل عن آداب الأمم الأخرى ، فقام بعضهم — كما كان الأمر بالنسبة الى المزمور (١٠٤) ونشيد اخناتون — يزعم أن بردية امنؤوبى هي التي نقلت عن سفر الامثال ، ومن هؤلاء «كفين»^(٩) ، ولكن اعتراض «كفين» لا يغير من حقيقة الأمر شيئا ، ذلك لأن هناك اجماعا بين العلماء الجادين في كافة أنحاء الأرض ، على أن جزءا من سفر الامثال (من الاصحاح ٢٢ : آية ١٧ وحتى الاصحاح ٢٥ : آية ٢٢) منقول نقلا يكاد يكون حرفيا من بردية امنؤوبى كما أن أجزاء كثيرة من حكم هذه البردية ، انما قد اقتبسه العبرانيون في مواضع كتيرة من التوراة في غير سفر الامثال^(١٠) .

D. C. Simpson, JEA. 12, 1926, p. 232-239. (٥)

H. J. Cadbury, Egyptian Influences on the Book of Proverbs, (٦)

JR, 1929, p. 99-108.

Hugo, Gressmann, Die Neugefundene Lehre des Amen- (٧)

Em-Ope, und die Vorkilische Spruchdichtung Israels, in ZOW, XLII, 1924, p. 273-296.

James Henry Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y. 1939, (٨)

p. 370-381.

H. O. Langa, Das Weisheitsbuch des Ameneinope. وانظر

Copenhagen, 1925.

R. O. Kevin, The Wisdom of Amen-em-apt and its possible (٩)

Dependence Upon the Hebrew Book of Proverbs, Philadelphia, 1931.

(١٠) أحمد فخري : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعوني —

الادب المصرى ٤٤٥ ، (القاهرة ١٩٦٢) .

هذا فضلا عن أن سفر الامثال نفسه انما يمتدىء بنسبة السفر الى سليمان في مطلع الاصحاح الاول ، ثم تتكرر النسبة في بداية الاصحاح العاشر والامر كذلك بالنسبة الى المجموعة التي تبدأ بالاصحاح الخامس والعشرين . في حين أن الاصحاحين الآخرين انما ينسبان الى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم ، وأحدهما منسوب الى امرأة . مما يدل على أن العهد القديم نفسه يشهد بأن سفر الامثال هو مجرد مؤلفة جمعت من مجموعات متفرقة .

أضف الى ذلك أننا نجد في الآية (٢٣) من الاصحاح الرابع والعشرين ما يكشف لنا عن عنوان جديد بهذا النص «هذه أيضا للحكماء» ، ثم يلي ذلك جزء قصير . يجوز أنه ماحق وضعه مؤلف مجهول ، كما نجد في ثنايا الاصحاح الثانى والعشرين ما هو بالتأكيد جزء آخر — ان لم يكن عنوانا له — (١٢ : ١٧) يسمى «كلام الحكماء» ، الامر الذى تكرر في الاصحاح الرابع والعشرين (١١) .

ولعل سؤال البداية الان : من هم هؤلاء الحكماء الذين كتبوا هذا الجزء الذى يبلغ اصحاحا ونصف اصحاح من سفر الامثال ؟

في الواقع ان هذا السؤال انما قد عجز عن الاجابة عنه كل الباحثين ، حتى نشرت بردية «أمنمؤوبى»^(١٢) (والتي كانت محفوظة بالمتحف

M. F. Unger, Op-Cit, p. 896. وكذا

O. Eissfeldt, Einleitung in des Alt Testament, Tübingen 1956. وكذا
p. 525.

W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel. وكذا
Baltimore, 1942, p. 5.

(١١) امثال ١ : ١٠ ، ١ : ٢٢ ، ١٧ : ٢٤ ، ٢٣ : ٢٥ ، ١ : ٣٠ ، ١ : ٢١

M. F. Unger, Op-Cit, p. 897. وكذا

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 370-371. وكذا

G. R. Durry, The Book of Proverbs, Philadelphia, 1906. وكذا

(١٢) يختلف الباحثون في الفترة التى كتبت فيها «تعاليم أمنمؤوبى» هذه ، فذهب البعض الى أنها ألقت فيما بين القرنين العاشر والتاسع م ،

البريدائى منذ حصل عليها «السير ارنست ألفرد وايس» (١٨٥٧ - ١٩٣٤) للمتدفق في عام ١٨٨٨ م ، فأصبح جميع العلماء بكتاب العهد القديم (التوراة) ، الذين يعتد بأرائهم وأبحاثهم يجزمون بأن «تعاليم أمنمؤوبى» ان كانت الاصل الذى نقل منه ادساح ونحس على الاقل من سفر الامثال ، بل ربما كانت للنسخة العبرية ترجمة حرفية عن الاصل الهيروغليفى العتيق ، بل ان حكم أه:نمؤوبى انما كانت شائعة في أسفار التوراة ، حيث ذراها مصدرًا لذلك الافكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية ، وبخاصة لروح الشفقة الانسانية الحارة ، لا في سفر الامثال فحسب ، بل وفي الكتابين العبرية (١٣) .

ولنداول الآن تقديم بعض الامثلة على اعتماد سفر الامثال على تعاليم أمنمؤوبى :

 =
 وذهب آخرون الى انها كتبت فيما بين عامى ١٠٠٠ ، ٦٠٠ ق م ، وذهب فريق ثالث الى اذها كتبت في القرن السابع قبل الميلاد .
 واما عن تاريخ انتقالها الى العبرانيين فربما كان بعد فترة قصيرة من تأليفها ، وربما بعد ذلك ، لان سفر الامثال انما يرجع في وضعه النهائي الى القرن الخامس ق م ، وان كانت الامثال ترجع في بداعتها الى عصر سليمان ، الذى ربما يكون هو الذى وضع نواتها الاصلية ، اذ تنسب اليه التوراة حوالى ثلاثة آلاف مثل (ملوك الاول ٤ : ٣٢) ، حبيب سعيد : المرجع السابق ص ٤٤٦ ،

M. F. Unger, Op-Cit, p. 896-897.

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 370-371

وكذا

(١٣)

(١) أمل أذنك واسمع كلام الحكماء
 ووجه قلبك الى معرفتى، لانه
 حصن ان حفظتها في جوفك ،
 ان ثبتت جميعا على شفنيك
 (سفر الامثال ٢٢ : ١٧ - ١٨)

(٢) لأعلمك قسط كلام الحق ، لنرد
 جواب الحق لمن أرسلوك
 (سفر الامثال ٢٢/٢١)

(٣) لاتنقل النخم القديم، ولا تدخل
 حقول الايتام^(١٤)
 (سفر الامثال ٢٣ : ١٠)

(٤) لاتتعبد لكى نصير غنيا^(١٥) .
 لانه انما يصنع لنفسه اجنحة ،
 كالنسر يطير الى السماء
 (سفر الامثال ٢٣ : ٤ - ٥)

(٥) القليل مع محافظة الرب خير
 من كنز عظيم مع هم ، اكلة
 من البقول حيث تكون المحبة ،
 خير من ثور معلوف ومعه بغضه

(١) أمل أذنك لتسمع اقوالى ،
 واعكف قلبك على فهمها لانه
 ثمر مفيد اذا وضعتها في قلبك
 ولكن الويل لمن يتعدها .

(٢) لأجل ان ترد على تقرير لمن
 أرسلك

(٣) لا ترحزن علامات حدود
 الحقول^{٠٠٠} ولا تكونن شرها
 من أجل ذراع ارض ، ولا
 تنعدين على حدود ارملة

(٤) لاتتعبد نفسك في طلب المزيد ،
 حينما تكون قد حصلت على
 حاجتك ، واذا جلب اليك المال
 بالسرقة ، فانه لايمكث معك
 سواد الليل ، وعندما ياتى
 الصباح لا يكون بعد في منزلك ،
 بل يكون قد صنع لنفسه اجنحة
 كالاوز ، وطار الى السماء

(٥) الفقر في يد الله خير من الغنى
 في الهري (المخزن) ، وأرغفة
 (تحصل عليها) بقلب فرح ،
 خير من ثروة (تحصل عليها)

(١٤) ذهب نقاد العهد القديم ، قبل الكشف عن بردية آمنمؤوبى
 - الى أن كلمة «قديم» التى تشبه في اللغة العبرية كلمة «ارملة» ، هى
 بلا شك غلطة في النسخة الخطية صحتها «ارملة» ، ومن ثم فقد اتفقوا
 على أن تكون الفقرة (امثال ١٠ : ١) كالتى : «لا ترحزن حدود الارملة ،
 ولا تدخلن في حقول اليتامى» .

(J. H. Breasted, Op-Cit, p. 373)

(١٥) النص المحذوف من سفر الامثال (٢٣ : ٤ - ٥) (كف عن
 فطنتك ، هل تطير عبيك نحوه وليس هو) ، مشوه في الاصل العبرى ،
 وربما يمكن اصلاحه بفحص النص الاصلى لبردية آمنمؤوبى .

(J. H. Breasted, Op-Cit, p. 374)

تعاليم آمنموويى المصرى

سفر الامثال العبرانى

فى تعاسة، والثناء على الانسان
كشخص محبوب عند الناس ،
خير من الغنى فى الهرى
(المخزن)

(٦) لا تصاحب رجلا حاد الطبع ،
ولا تلحن فى محادثته

(٧) لا تدون قد وجدت حاميا ،
والآن ، مكنتى ان اهاجم الرجل
المغفوب ، ضع نفسك فى اراعى
الاله يهزمهم صمكت

(٨) لا ناكل الخبز فى حصرة رجل
عظيم ، ولا نعريض همك فى
حضرة ، واذا شبع من طعام
محرم ، فان ذلك ليس الا لذة
ريقك ، وانظر فقط وانت على
المائدة الى الوعاء الذى
امامك ، وكن مكفيا بما فيه .

(٩) الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد
نفسه كفوا لان يحون من رجال
البلاط

(١٠) تبصر نفسك فى هذه الفصول
الثلاثين ، حتى تكون مسرة لك
وتعلما

(امثال ١٥ : ١٦ - ١٧)
لقمة يابسة ومعها سلامة ، خير
من بيت ملان دبانج مع خصام
(سفر الامثال ١٧ : ١)

(٦) لا تنصحب عضوا ، ومع رجل
ساخط لا تجيء
(سفر الامثال ٢٢ : ٢٤)

(٧) لا يفل اتى ايجازى شر ، انتظر
الرب فيخلصك ، لا تفل اجزى
على الشر ، بل انتظر الرب
فيخلصك (سفر الامثال ٢٢ : ٢٠)

(٨) اذا جلست تاكل مع متسلط ،
فتاكل ما هو امامك تاملا ،
وضع سكيننا احجرتك ان كنت
شرها ، لا نقتطع اطايبه ، لانها
خبز الكاذب
(سفر الامثال ٢٣ : ١ - ٣)

(٩) ارأيت رجلا مجتهدا فى عمله ،
امام الملوك يقف
(سفر الامثال ٢٢ : ٢٩)

(١٠) ألم اكتب لك ، ثلاثين فصلا
من جهة مؤامرة ومعرفا
(سفر الامثال ٢٢ : ٢٠) (١٧)

(١٦) قارن النص العربى ، حيث يقول «ألم اكتب لم امروا شريفة»
ولكن النص الانجليزى (Have I not Written the Thirty) - وعلى
أى حال ، فان هذا يشير الى وجود ترجمة عبرية كاملة امام مؤلف سفر
الامثال لنصائح «آمنموويى المصرى» ، بمعنى أنها تحتوى على ثلاثين
فصلا ، والا لكانت كلمة «ثلاثين» فى سفر الامثال لا تدل على أى معنى ،
ولكى بحافظ الناقل العبرانى على المعنى نراه ، مع نقله للثلاثين فصلا
التي يحويها الاصل المصرى القديم برمتها - قد استعمل بالضبط نفظة
«ثلاثين» فى نسخته العبرية المختصرة (امثال ١٧ : ٢٤ : ٢٢) (انظر
(J. H. Breasted, Op-Cit, p. 380)
(J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y, 1939

(١٧)

ولعلنا من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك تأثيرات مصرية أخرى في التوراة منها (أولا) ما يرويه سفر الامثال من أن «فعل العدل والحق، أفضل عند الرب من الذبيحة»^(١٨) ، نليست هذه الكلمات التي تفضل العدالة والاخلاق الحميدة على مجرد الشعائر الدينية ، الا صدى لما آمن به المصريون منذ عصر الثورة الاجتماعية الاولى أن الوسائل المادية ، ليست وحدها هي وسيلة السعادة في الآخرة ، وانما أصبح للاخلاق في هذا العصر شأن عظيم في تقرير مصير الانسان بعد مماته ، وبذا أصبحت الاهمية الكبرى للوصول الى المخلد ، انما عن طريق العمل الصالح .

ومن ثم كانت الكلمات التي وجهها الملك الاناسى لولده «مرى كارع» قبل عهد سليمان بحوالى ١٥٠٠ عام — والتي ظهر أثرها في سفر الامثال، وذلك حين يقول «اجعل الناس يحبونك في الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى الانسان»^(١٩) ، ثم يعلن في صراحة ووضوح ، أن الخلق الطيب أفضل عند الله من القرايين التي تقدم لاستعطائه ، «ان خلق الرجل المستقيم أحب عند الله من نور الرجل الشرير» (أى الثور الذى يقدمه كقربان الى الله)^(٢٠) .

ومنها (ثانيا) ما جاء في سفر الامثال من أن «الرب وازن القلوب»^(٢١) ، حيث يبدو واضحا أن الحكيم العبرانى انما كان مقتنيا

p. 372-280.

J. A. Wilson, The Instruction of Amen-Em-Opet, ANET, وكذا
1966, p. 421-423.

(١٨) امثال ٢١ : ٣

Sir Alan H. Gardiner, pap. petersburg, 116A, JEA, 1, 1914, (١٩)
p. 26.

J. A. Wilson, The Instruction for King Meri-Ka-Re, in
Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament, princeton,
1966, p. 417.

J. A. Wilson, Op-Cit, p. 417. (٢٠)

Sir Alan H. Gardiner, Op-Cit, p. 27.

A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, London.
1927, p. 77.

(٢١) امثال ٢١ : ٢

أثر المفكر المصرى القديم اذ لم يكن فى الشرق القديم الا عقيدة انسانية واحدة تقول بأن الاله يزن القلب الانسانى ، وهى المديانة المصرية القديمة ، مما تستعمل عليه من المحاكمات الاوزيرية (٢٢) .

وهكذا بدأ المصريون يعتقدون — منذ عصر الثورة الاجتماعية الاولى — فى «محكمة أوزير» ، حيث يقف الناس أمامها جميعا ، يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم — خيرا كان أم شرا — ولمن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه ، وانما أصحاب العمل المصالح ، وذو النفوس الطيبة ، لان اعمال كل انسان ستوضع مكسمة بجواره (٢٣) .

وقد رأينا من قبل أن ذلك التمييز بين قيمة الخلق ، ومجرد الشعائر الدينية الظاهرية ، كان دون ريب نتيجة للخبرة الاجتماعية فى مصر فهذه الخبرة الاجتماعية نفسها ، انما كانت سائرة فى تكوينها بين الاسرائيليين بخطى سريعة ، ويرجع ذلك الى الارت الادبى والخلقى الذى ورثه العبرانيون ، اذ وجدوا تلك العقائى الاساسية فى كتابات وتجارب جارتهم الكبرى ، مصر العظيمة ، وأخذوا يعملون بسرعة أيضا على تهيئة هذه الخبرة لتكون ملكا لهم (٢٤) .

ومنها (ثالثا) ما جاء فى سفر ملاخى — والذى كتب فى أخريات القرن الرابع قبل الميلاد — «لكم أيها المتقون اسمى ، تشرق شمس البر ، والتسفاء فى أجنحتها» (٢٥) .

ومن المعروف أن العدالة — فيما يرى المصريون — انما كانت ممثلة فى شخص الالهة «ماعت» التى كان يعتقد القوم أنها «بنت اله الشمس» وبما أن شمس العدالة (أو البر) العبرانية قد وصفت بأن لها أجنحة ،

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 356-357.

(٢٢)

A. Erman, Op-Cit, p. 77.

(٢٣)

J. Wilson, Op-Cit, p. 416.

وكذا

A. J. Gardiner, JEA, I, 1974, p. 26-27.

وكذا

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 357.

(٢٤)

(٢٥) ملاخى ٤ : ٢

فلا يمكن أن يكون المراد بذلك سوى الإشارة إلى إله الشمس ذي
الاجنحة ، لأنه لم يكن يوجد بين جميع التصورات العبرانية القديمة
للإله «يهوه» أى صورة تمثله بأجنحة (٢٦) .

هذا وقد دلت الحفائر الحديثة في «السامرة» على أن هذه التصورات
المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة الانتشار في الحياة الفلسطينية،
فقد كشف الحفاريون في خرائب قصر ملوك بني إسرائيل في «السامرة»
بعض ألواح من العاج منقوشة نقشاً بارزاً كانت تستعمل يوماً ما في
التطعيم الزخرفي الذي كان يحلى به أثاث الملوك العبرانيين ، ومن بين تلك
القطع قطعة نقشت عليها صورة إلهة العدالة «ماعت» يحملها إلى أعلى
ملك شمس هليوبوليس في وضع نفهم منه أنه كان على ما يظهر يقدم
تلك الصورة لإله الشمس ، وتصميم الرسم مصري في كل نواحيه ، إلا
أن صناعته تدل بوضوح على أن نقشه من صنع أياد فلسطينية .

ومن ذلك يتضح أن الصناع العبرانيين كانوا على علم ومعرفة بمثل
تلك الرسوم المصرية القديمة ، وأن وجهاء العبرانيين التي يجلسون عليها،
ينظرون كل يوم إلى هذه الرموز التصويرية الدالة على إله الشمس
المصري وهي تزين نفس الكراسي التي يجلسون عليها ، ولم يكن إله
الشمس ذات الاجنحة المتأصلة في وادي النيل معروفاً عند العبرانيين
بأنه إله عدالة فقط ، بل كان كذلك معروفاً بأنه الإله الحامي لعباده
الرؤوف بهم ، وقد أشارت المزامير العبرانية أربع مرات إلى الحماية
الموجودة «تحت ظل أجنحتك» (٢٧) .

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 360.

(٢٦)

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 360-61

(٢٧)

الفصل الثامن

من أدب النقصد والسياسة

لم يتخلف الادب المصرى القديم عن أداء دوره فى النقد والسياسة ، ووصف ما حل بالبلاد فى فترة من فترات تاريخها ، ومن ثم فقد قدم لنا على سبيل المثال - وصفا للحالة السيئة - من المناحية السياسية - التى وصلت اليها البلاد فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، هذا فضلا عن أن حبرا من الملوك قدموا لأولياء عهدهم تجاربهم السياسية ، حتى يكون لهم من تجارب الآباء ما يفيدهم فى ادارة نئون البلاد ، ومن النوع الاول كان الحكيمان «ايو - ور» و «نفرتى» ، ومن النوع الثانى تلك النصائح التى قدمت للملكين «مرى كارع» و «سنوسرت الاول» ، ولنقدم الان نماذج مختلفة من أدب النقد والسياسة :

١ - تحذيرات الحكيم ايو - ور

تعتبر هذه الوثيقة التاريخية من أهم الوثائق التى تسترعى النظر بين كافة مجموعة تلك المقالات الاجتماعية والخلفية التى كتبت فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى (عصر الانتقال الاول) ، وتوجد تلك الوثيقة الادبية فى «متحف ليدن» ، وتعرف باسم «بردية ليدن رقم ٣٤٤» ، بعد أن نقلت الى متحف ليدن فى عام ١٨٢٨م ، وكان قد اشتراها هذا المتحف فى نفس العام من «أنستاسى» الذى اكتشفها فى «منف» (١) .

هذا والبردية بحالتها الراهنة غير الكاملة تبلغ من الطول ٣٧٨ سم ، ومن العرض ١٨ سم ، وقد كتبت بالخط الهيراطيقى ، كتبها حكيم مصرى يدعى «ايو - ور» (أو ايو المعجوز) ، وصور فيها حالة البلاد على أيامه . وما انتهت اليه من ضعف ودمار ، وذلك فى خطبة طويلة أمام فرعون عصره الذى يكاد كثير من المؤرخين يجمعون على أنه «ببى الثانى» وأن كان «سير آلن جاردنر» يذهب الى أنه ربما كان آخر خط الملوك

A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, (١)
Lipzig, 1909, p. 1.

المهين^(٢) ، وهذا ما نميل اليه ونرجحه^(٣) .

ويرجع تاريخ هذه التحذيرات لفترة ليسف أسبق قدما من الأسرة التاسعة^(٤) ، ولكنه منقول عن نص لا يمكن أن يكون قد كتب الا في فترة الاضطرابات نفسها ، على أيام الثورة الاجتماعية الاولى ، اى ربما في اخريات أيام الأسرة السادسة ، وذلك اعتمادا على أجروميتهما ، فضلا عن بعض المميزات الادبية من كتابات ذلك العصر^(٥) .

ومن أسف أن البردية — نسائها في ذلك شأن كثير من المخطوطات المصرية القديمة — قد فقدت بدايتها ، كما فقدت نهايتها كذلك ، هذا الى جانب فجوات في وسطها ، ومن هنا لاقي الباحثون صعوبة في معرفة موضوعها ، حتى ظن البعض — بائس ذى بدء — أنها ورقة تعليمية ، فمثلا نشر «لوث» في عام ١٩٧٣م ترجمته للصفحات التسع الاولى منها ، الا أنه نظر اليها كمجموعة من الحكم والأمثال التي قيلت للاغراض التعاليمية أو الارشادية^(٦) .

وفي عام ١٩٥٣م فتح «لنجه» الباب لعلماء الآثار للقيام بدراسات عن هذه الوثيقة ، ومن ثم فقد قام بعد ذلك كثير من العلماء بأبحاث عنها^(٧) ، غير أن الدراسة الكاملة للوثيقة انما قلم بها «سير ألن جاردنر» بنشر هذه الوثيقة في كتاب مستقل تحت عنوان :

A. H. Gardiner, The Admonitions of An Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

وقد كانت دراسة جاردنر للوثيقة مثالا يستلذى ، فهي دراسة كاملة لها ، كما أنه قدم كذلك ترجمة دقيقة للوثيقة .

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 199. (٢)

(٣) انظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعنة — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٥ — ٨ .

A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, p. 2. (٤)

(٥) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ١٥٩ .

A. H. Gardiner, Op-Cul, p. 2. (٦)

M. Pieper, Die Agyptische Literatur, p. 23. (٧) أنظر

T. E. Peet, A Comparative Study of The Literature of Egypt Palestine and Mesopotamia, p. 118-119.

وفي عام ١٩٢٣م أخرج «أدولف ارمان» كتابه عن «أدب المصريين القدامى» باللغة الألمانية ، ويحتوي ترجمات كاملة لأهم القصص المصرية ، وكتب الحكم والانشيد والاعاني وغيرها مما كان معروفا ، وسبق أن ترجمه علماء الابحاث الاثرية حتى ذلك الوقت ، وقد ترجم فيه لهذه الوثيقة ، هذا وقد نقل كتاب ارمان هذا الى اللغة الانجليزية الاثري الانجليزي «ادوارد بلاكمان» في عام ١٩٢٧م^(٨) .

وفي عام ١٩٣٣م أخرج المؤرخ الامريكي الكبير «جيمس هنري برستد» كتابه «فجر الضمير»^(٩) ، وقد حلل فيه الوثيقة تحليلًا ممتازا ، وفي عام ١٩٥٠م قامت مجموعة من العلماء الاجانب بترجمة «انصوص الترق الاذن القديم» وقد ترجم فيه «جون ويلسون» لهذه الوثيقة^(١٠) ، ولعل من أحدث الترجمات والدراسات الحديثة عن «تحذيرات ايبو - ور» هذه ، ما قام به «فولكتر»^(١١) و «Lichtheim»^(١٢) .

وتتلخص البردية في أن الحكيم المصري «ايبو - ور» لنذا يتقدم في خطبة طويلة ، باتهام مريد يصف فيه حالة البلاد ابان عهد الثورة الاجتماعية ، امام فرعون عصره الذي أوقع عليه كثيرا من اللوم لضعفه

A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, Translated into English by, A. M. Blackman, London, 1927, p. 92-108. (٨)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1933, p. 192-200. (٩)

وانظر الترجمة العربية (جيمس هنري برستد : فجر الضمير - ترجمة سليم حسن - القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٠٧ - ٢١٤) .

J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 441-444. (١٠)

R. O. Faulkner, in JEA, 50, 1964, p. 24-36. (١١)

R. O. Faulkner, in JEA, 51, 1965, p. 53-62.

R. O. Faulkner, in The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 210-229.

M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, London, 1975, p. 149-163. (١٢)

وأما أهم الترجمات العربية فانظر : سليم حسن : المرجع السابق ص ٢٩٤ - ٣١٧ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٤٩ - ٤٥٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٨ - ٣٦٢ ، حضارة مصر القديمة وآثارها ٣٩٣/١ - ٣٩٥ ، محرم كمال : المرجع السابق ص ٤٦ - ٥٣ .

وكسله ، وقد ألقى «ايو - ور» اتهامه هذا أمام «ليك» ، وبحضور آخرين ، ربما كانوا من حاشية ذلك الفرعون ورجال بلاطه ، وربما كان ذلك في اجتماع لأمير من الأمور عقد في القصر الملكي ، وينتهي الحكيم بالنصح والتخبر من الإهمال والاختلاف بالإصلاح ، ثم يلي ذلك رد قصير من جانب الملك ، ثم ينتهي المقال بتعقيب قصير من الحكيم «ايو - ور» على الرد الملكي (١٣) .

هذا وتقع البردية في أربعة عشرة صفحة ، يشغل الاتهام منها ما لا يقل عن الثلثين ، اذ يستمر النص في نحو عشر صفحات في صيغ متجددة لفكرة واحدة : الأرض تدور كمجلة الفخار (١٤) .

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح إلى أن «ايو - ور» إنما كان على صلة بالعلما ، كما كان كذلك مصلحا ، وكان يدرك مفسد الحكم في عصره ، ولكنه كان من طبقة أرستقراطية قديمة ، وكان يتمنى إصلاحها من داخلها ، أو بوحى من فرعون حازم مصلح ، ولم يكن يهضم أن يفرض عليها التغيير فرضا عن طريق طبقة أقل منها منزلة ، أو عن طريق الشعب — في حدود تعبيراتنا الحديثة — ولهذا اختلط الاخلاص في روايته بالمبالغة واختلط التحمس بالأمل ، واختلط الخيال بالواقع (١٥) ، ومع ذلك فإن روايته إنما تمبر عن الحالة السائدة وقد ذاك ، من وجهة نظره — ذلك لأن كل الأحداث إنما تدل على أنه شاهد منصف ، فإن حالة البلاد التي تناولها بالوصف لا يمكن أن تكون من وصف خيال قصاص أو رواية (١٦) .

هذا ورغم الجهد الذي بذل في تنسيق البردية ، فلم يراع في عناصرها الترتيب المنطقي ، وقد قسمها صاحبها إلى فقرات تبدأ كل مجموعة من فقراتها ببدايات متشابهة .

J. H. Breasted, Op-Cit, p. 194.

(١٣)

(١٤) أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة — ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال — القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٢٨

(١٥) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها ١/٢٨٣-٣٩٤

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 109.

(١٦)

وليس هناك من ريب في أن «تحذيرات ايبو - ور» ، الى جانب أنها قطعة أدبية ممتازة ، فهي أيضا مصدر من أهم مصادرنا التاريخية في دراسة أحداث الثورة الاجتماعية الاولى ، تلك الثورة التي قامت بدور هام في تاريخ مصر الفرعونية ، وفي تغيير كثير من معتقدات القوم وأفكارهم ، فهي اذن واحدة من النصوص التاريخية الهامة ، وذلك لان صاحبها قد عاصر الاحداث المبريرة التي كتب على كنانة الله في أرضه أن تعيشها حينما من الدهر ، فهو شاهد عيان في وصفه للفترة اللاحقة لانقيار الاسرة السادسة ، وربما كان قد شارك بوسيلة أو بأخرى في أحداث الثورة .

هذا فضلا عن أن الوثيقة ترسم لنا صورة عن مفكرى ذلك العصر (حوالى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد) فصاحب البردية ، حكيمنا «ايبو - ور» إنما يوجه نقده اللاذع المبر الى الملك نفسه ، بشجاعة منقطعة النظير ، لصدورها من مصري يخاطب فرعون مصر ، ذلك الفرعون الذى كان يعتبر نفسه - كما كان يعتبره رعاياه - الها فوق البشر ، فينتهمه بأنه سبب البلياء التي حلت بالبلاد ، ثم يزيد من جرأته حتى نراه يتمنى للفرعون أن يتذوق بعض هذا البأس بنفسه ، ثم يرسم بعد ذلك صورة للحاكم الامثل الطاهر النقي ، الذى يعز عشيرته ويحميها ، ويسحق الاشرار ، أضف الى ذلك أن البردية ، كما قلنا ، قطعة أدبية ممتازة ، وأسلوبها قوى ممتاز يجمع بين النظم والنثر (١٧) .

وتحذيرات ايبو - ور هذه إنما تتكون من قول منثور ، ومن ست قصائد شعرية فيها جوهر الموضوع نفسه ، وهي تبدأ بوصف ما حل بالبلاد من فساد واضطراب ، فيقول :

«يقول حراس الابواب : فلننطق ولنذهب ، وتتحى الغسال عن حمل حملة ، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمركة ، وحمل آخرون من الدلتا

(١٧) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعونية ص ٧ - ٨ .

الدروع ، ومن يزاولون أهدأ الحرف ، كصانعي الطلوى والجمعة ، ثاروا ،
وصار المرء ينظر الى ولده نظرتة الى عدوه ، وأصبح الرجل الكريم في
حزن وأسى لما أصاب البلاد ، وغدا الاجانب مصريين في كل مكان» .

القصيدتان الاولى والثانية :

ويصف الحكيم المصرى «اييو — ور» في هاتين القصيدتين ما حل
بالبلاد من فساد واضطراب ، وكيف انقلبت الامور ، وتحول القوم الى
عصابات ، وأصبح كل فرد مسلحا بدرعه ، لان المجرمين قد انتشروا في
البلاد يعميتون فيها فسادا ، وكل بيت من هذه القصيدة يبدأ بكلمتين هما :
حقا لقد .

وليس في وسعنا سوى ان نسوق الى القارىء غير آثار من تلك
المصورة التي رسمها الحكيم المصرى من حيلة الناس في ذلك العصر ،
يقول الحكيم «اييو — ور» :

«تدور البلاد كما تدور رضى الفخار ، حقا لقد تغيرت صورة البلاد ،
وتبدلت أحوالها ، واستتلت بالعصابات ، ويذهب الرجل الى حقله ومعه
درعه ، حقا لقد شحب الوجه ، وقد تنبأ الاجداد بذلك حقا لقد شحب
الوجه ، وحامل القوس أصبح مستعدا ، والمجرمون في كل مكان ، ولا يوجد
رجل من رجال الامس ، حقا ان الناهبين في كل مكان» .

«حقا ان الفيل يوافينا بفيضه مباركنا ميمونا ، ولكن ما من أحد يحرث
الارض ، لانهم لا يعرفون ما يظلمهم به الغد من شرور وأموال» .

«حقا لقد غدت النساء عاقرات ، ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس ،
فلا يحدث حمل ولا ولادة ، وليت الاله خنوم لا يشكل الناس بسبب
ما أصاب البلاد» .

«حقا ان القلوب قد ثارت ، والوباء قد انتشر ، والدم قد سال في كل
مكان ، ولغائف الموميات تتكلم ، وان لم يقترب أحد منها ، حقا لقد أصبح
النهر قبرا لرجال كثيرين دفنوا فيه ، وصار المكان الطاهر مجرى» .

«حقا ان الارض تحور كمجلة الفخار ، واللص أصبح صاحب ثروة ،
حقا ان النهر قد امتلا بالدم ، فأصبح الرجل يعاف الشرب منه ، حقاً ان
البلاد قد أصابها الدملر ، وأصبح الصعيد خاويًا» .

«انظر لترى قلائد الذهب والجواهر على نحور الجوارى ، على حين
تشتهي الحرة كسرة من خبز ، وتقول «أما من شيء نأكله» .

«أنظر : لقد حدث هذا بين الناس ، فمن لم يكن في قدرته أن يقيم في
حجرة ، أصبح الآن يملك فناء مسورا ، أنظر : ان الفخيلات الشريفات
يرقدن على الفراش الخشن ، والامراء ينامون في المخزن ، ومن لم يكن
ميسرا له أن ينالم على النجدران ، أصبح صاحب سرير ، ان الرجل الغنى
أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ، ومن كان يستجدي : انه الخثالة ، أصبح
يمتلك الجمجمة القوية ، أنظر : ان أولئك الذين كانوا يمتلكون الملابس
أصبحوا في خرق بالية ، أنظر : ان الذى لم يصنع أبدا قارباً ، أصبح
الآن يملك سفناً ، وأصبح صاحبها ينظر اليها : غير أنها لم تعد ملكا له ،
أنظر : ان الذى لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس . أصبح الآن
يملك ظلاً ، والذين كانوا يملكون ما يأويهم ، أصبحوا عرضة للعاصفة» .

«أنظر لترى المناصب وقد خلت من أربابها ، ولترى الناس يهيمون
كالانعام ، بل هم أضل سبيلا ، حقاً لقد عز الذليل ، وذل العزيز ، وطمع
الغريباء في البلاد ، فهاهم ينتشرون في الارض ، ويميتون فيها فسادا» .

«أنظر : لقد عم الحزن البلاد من أقصاها الى أقصاها ، والناس
يستغيثون ولا مغيث ، ويستجيرون ولا مجير ، أنظر : لقد أصبحت الحياة
مرة حتى غافها الناس ، رخيصة حتى هانت على الناس ، يقول الكبير :
يا ليتنى مت قبل هذا . وكنت نسيا منسيا ، ويقول الصغير : ليت أمى
لم تلدنى ، انظر : كيف يضحك الوضيع من بكاء العظيم» .

« أنظر : لقد أصبح الناس يأكلون الحشائش . ويشربون المساء ،
ولا توجد فلكمة ، كما لا يوجد عشب يأكل منه الحيوان والطيور ، وأصبحت
القاذورات تخطف من أفواه الخنازير ، ولم يعد أحد يقول : هذا لى

فخذ بهدلاً غنى ، لان القوم صاروا جوعاً ، أنظر : لقد ضاع محصول القمح ، وأصبح القوم لا يجدون لباساً أو عطوراً أو زيوتاً ، وأصبحت مخازن الحبوب خاوية ، وألقى حارسها على الأرض» •

«أنظر لقد قتل الود ، وانقطع الرجاء ، وانعدمت الرحمة ، وفقدت المروءة ، حتى أصبح المرء لا يتورع عن قتل أخيه ، أنظر : لقد سلبت قاعة المحاكمة الفلخرة ، وأصبح المكان السرى مكشوفاً ، أنظر : لقد فتحت الإدارات العامة ، ونهبت قوانينها ، وسلبت كمصروف الإحصاء وانتلفت سجلات كتبة المحاصيل» •

«أنظر : لقد أُلقيت قوانين دار القضاء في البهو ، ووطئت بالاقدام في الشوارع ، ومزقها الغوغاء في الأزقة ، وأخذ العوام يروحون ويجيئون في دار القضاء الكبيرة ، ونفى القضاء في الأرض ، واحترقت البوابات والاعمدة والأسوار» •

«أنظر : ان الناس يثورون ضد حية التاج التي كانت تهدى الأرضين لقد عرف سر البلاد التي لا يعرف أحد حدودها ، ان القصر الملكي يمكن أن يهدم في ساعة ، وتصبح أسرار ملك مصر العلوية والسفلية معروفة» •

«أنظر : ما عاد يمر الى «جبيل» ، فما الذي سوف نفعله بأخشاب الارز التي اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا ، والزيوت التي يحسب بها الامراء ، وكانت ترد من هناك ، ومن مجاورات «كفتيو» ، ما عاد يأتي من ذلك شيء ، حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم البسيطة سيئاً ذابال» •

«أنظر ما الذي جعل الأرض الحراء تنتشر في طول البلاد وعرضها ، خربت الاقاليم ، وجاعت قبائل قواسة غريبة الى مصر ، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون في مكان ، وأصبح الاجانب مصريين في كل مكان ، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا غرباء ، وأهملوا جانباً» •

«أنظر : حقاً لماذا لم تدفع اليفانتين وثني — وهما من ممتلكات مصر

العليا الضرائب بسبب الحرب ، وهناك حاجة الى الفاكهة والقمح وكل أنواع التجارة ، وكل ما ينتجه الصناعات ، فما فائدة الخزانة بدون دخل» .

ويبلغ الاسى بالحكيم «اييو - ور» نهايته : أسفا على ما أصاب البلاد من اضطراب لا يعرف له علاجا ، فيفقد الامل في انقاذ شيء ، ويزداد تأثيره بالكارثة التي لحقت بالبلاد ، حتى أنه يطلب من الاله أن تكون هذه نهاية الحياة نفسها ، ثم يتجه بعد ذلك الى نفسه فيوجه اللوم اليها ، ويحملها جزءا من الوزر الذي ارتكبه حين سكت على الشر ، وامتنع عن أن يقول الحق ، فينصح وينتصح ، يقول : «ليتنى رفعت صوتي في ذلك الوقت ، حتى أنقذ نفسي من الالم الذي أنا فيه ، فالويل لي ، لان الجؤس قد عم في هذا الزمان» .

هذا وقد سادت البلاد في تلك الفترة المظلمة موجة غير دينية ، وان لم تكن الحادية ، فقد تخطى المصريون الى حين عن الحق صفاتهم بهم - وأعنى بها صفة الفدين والورع المطبوع في نفوسهم - حتى وصل الامر ببعضهم أن ينكروا وجود الاله نفسه ، يقول الحكيم «اييو - ور» : «لحقا أن الرجل الاحمق يقول : اذا عرفت أين يوجد الاله ، فإني أقدم له قربانا» .

وتسود المجتمع المظالم ، ويفقد القوم ثقتهم في العدالة ، اذ تنحرف عن طريقها المستقيم ، يقول «اييو - ور» : «والعدالة موجودة باسمها فقط ، وما يعمله الناس حين يلتجئون اليها هو الظلم» ، ولم يكن لدى الفوار وازع من دين أو خلق يحميهم من نبش قبور الموتى ، حتى قبر الملك الاله نفسه ، كتب عليه ذلك المصير الاليم ، يقول «اييو - ور» . «أنظر الآن ، فلقد حدث شيء لم يحدث أبدا منذ زمن بعيد ، فإن العامة سرقوا الملك ، أنظر : ان الذي دفن كصقر الهى ، صر اليوم فوق خشبة نعش ، وأصبح ما في الهرم خاوية» .

القصيدتان الثالثة والرابعة :

لم يبق منهما سوى القليل ، وأهم فقراتهما :

«ان الدلتا تبكى ، ومخازن الملك أصبحت مشاعا للجميع ، ولاضرائب
للقصر مما هو مستحق له من شعير أو قمح أو سمك ، وذلك بالرغم مما
يستحق له من قمميش أبيض وكتان رقيق ، ونحاس وزيت وحصير وسجاد
وما عداها من المستحقات الجيدة» •

القصيدة الخامسة :

تتضمن مقدمتها حديثا عن عبادة الآلهة ، وكيف كانت تعبد فيما مضى
وكيف يجب أن تعبد في المستقبل ، وتبدأ بكلمة «تذكر» وقد جاء في هذه
القصيدة :

«تذكر كيف يضح بالطيب والبخور ، وكيف يقدم الماء من ابريق في
بكرة الصباح •

تذكر كيف يجلب الازر السمين ، ويقدم هو والبط والقرايين المقدسة
للآلهة •

تذكر كيف يمنس النطون (ليطهر الكاهن نفسه) ، ويجهز الخبز
الابيض في اليوم الذي يبلك فيه الرأس •

تذكر كيف تقام أعمدة الاعلام ، وتنش أحجار القربان ، ويظهر
التاخن المعابد ، ويبيض بيت الله كاللبن ، ويعطر الافق (أي
المعبد) ، ويخلد خبر القربان •

تذكر كيف تراعى القواعد ، وتخلط أيام الشهر ، ويمزل الكهنة الاشرار
تذكر كيف تدمر الثيران ، ويوضع الازر على النيران ، ويقدم قربانا»

ثم يلي ذلك جزء كبير غامض تعتوره بعض الفجوات الكثيرة ، وأهم
ما هو ظاهر فيه عن الحاكم العادل المنتظر ، والذي وصفه «اييو -
ور» بأنه :

«أنه يطفى لهيب (الصريق الاجتماعي) ، ويقال عنه انه راعي
الانسانية ، ولا يحمل في قلبه شرا ، وحينما تكون قطعلنه (بمعنى رعيته)

متفرقة فانه يصرف يومه في جمعها ، وقلوبها محصورة لبيته عرف أخلاقها في الجيل الاول ، فحفظت كان في مقدوره أن يضرب الشر ، وكان في قدرته أن يهد ذراعه ضده (أى الشر) ، وكان في مقدوره أن يقتضى على بذرتهم هناك ، وعلى ورثتهم ، فأين هو اليوم ، هل هو بطريق الصدفة نائم ، أنظر : بأسه لا يرى «...» .

ثم يستطرد «أيو - ور» الى بيت القصيد ، وهو توجيه النذر الى الملك نفسه فيقول :

«لديك الحكمة والبصيرة والعدل ... ومع ذلك تترك الاضطرابات وضوضاء المتعاركين تنتشر في البلاد ، أنظر اليهم ان كل واحد منهم يضرب الآخر ، ولا يعبا بالآوامر ، فهل تلقى راعيا يحب الفناء» .

«لقد كذبوا عليك ، فالبلاد تشتعل كالقش ، والناس على شفا الهلاك ... وهذه كلها سنوات حرب أهلية ، فالرجل يقتل على سطح منزله ، حينما يكون مراقبا في حدود بيته ، ولكنه ان كان قويا ، فانه ينجى نفسه بنفسه ، ويبقى حيا «...» .

«لبيك تتخوق بعض هذا البؤس بنفسك ، وعندئذ يمكنك أن تقول «...»

وعندما يرد الملك بأنه حاول حماية شعبه ، نظر اليه وقال : ان الملك أحسن القصد ، ولكنه لم يصل الى الغرض بسبب جهله ، وعدم كفايته «إذا كنت تجهل ذلك ، فقد يكون الجهل شيئا مريحا للنفس ، وربما فعلت شيئا طميا لقلوب الناس وأحببتهم، ولكنك تغطى وجوههم فزعا من الغد» .

القصيدة السادسة :

وفيها وصف للوقت السعيد الذى يدخره المستقبل .

«على أنه من الخير أن تسير السفن متجهة نحو الجنوب

على أنه من الخير أن تتصب الشباك وتمسك الطيور

على أنه من الخير أن تبني أيدي الرجال الالهram ، وتحفر البرك ، وتعلم للالهة مزارع فيها أشجار

كلن اسم صاحب هذه البردية «نفرتى» هذا ، ينطق الى عهد قريب «نفر - روهو» (نفر - رجو) ، وهو - فيما تروى البردية - كاهن مرتل من «بر - باست» (بواباستس ، وهى تل بسطة الصلالية ، فى مجاورات مدينة الزقازيق ، عاصمة محافظة الشرقية) ، وعلى أية حال ، فالبردية محفوظة فى «متحف ليننجراد» فى الاتحاد السوفيتى (برقم ١١١٦ ب) ، وقد عثر عليها «فلاديمير ساميو نوفتش جولينشف» الذى قام بنشرها فى عام ١٩١٣م^(١) ثم نشرها أيضا «هالك» فى عام ١٩٧٠م^(٢) . هذا وقد قام «سير آلن جاردنر» بترجمة البردية فى عام ١٩١٤م^(٣) ، ثم ترجمها «أدولف ارمان» فى عام ١٩٢٣م^(٤) ، كما قام «جيمس هنرى برستد» بتحليل البردية تحليلًا ممتازًا^(٥) ، كما قام بترجمتها والتعليق عليها كثير من العلماء ، من أمثال «جون ويلسون»^(٦) و «جوستاف لوفيفر»^(٧) و «بونز»^(٨) و «بارن»^(٩) و «فولكنر»^(١٠) وغيرهم^(١١) ،

-
- V. S. Golenischeff, Les Papyrus Hieratiques, N. 9, PA, 1116B, de L'Ermitage Imperial, ast-Petersbourg, 1913, Pls. 23-25. (١)
 W. Helck, Die Prophezeiung des Nfr-ti, Wiesbaden, 1970. (٢)
 A. H. Gardiner, in JEA, I, 1914, p. 100-106. (٣)
 A. Erman, LAR, 1927, p. 110-115 (٤)
 J. H. Breasted, Op-Cit, p. 200-206. (٥)
 J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 444-446. (٦)
 G. Lefebvre, Romans et Contes ogyptiens de l'epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 95-105. (٧)
 G. Posener, Litterature et Politique dans L'Egypte de la XIIe dynastie Paris, 1956, p. 21-60 and 145-157. (٨)
 W. Barta, in MDIK, 21, 1971, p. 35-45. (٩)
 R. O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, London, 1977, p. 234-240. (١٠)
 B. Gunn, in JEA, 12, 1926, p. 250 F. (١١)
 T. E. Peet, Op-Cit, p. 120 F. وكذا
 M. Pieper, Op-Cit, p. 15. وكذا
 M. Lichtheim, Op-Cit, p. 139-145 وكذا

على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى ، وأن يشربوا ... فوحى
القلب .

على أنه من الخير أن يبدو المفرح في أفواه الناس
على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة ، ومسند رؤوس العظماء
تحميها التماثيل ، ويهيأ لكل انسان سرير خلف باب منطلق ، فلا
يحتاج الى النوم في الاعشاب ...» .

هذا الى جانب عدة ترجمات عربية للبردية (١٢) .

وترجع البردية الى أوائل عهد الاسرة الثانية عشرة ، وربما الى عهد مؤسسها الملك «أمنمحات الاول» (١٨٩١ - ١٩٦١ ق م) ، أو على الأقل ليس بعد عهده بفترة طويلة ، ولكن كاتبها نسبها الى عهد قديم ، فلقد زعم أنها ألفت في حضرة الملك «سنفرو» مؤسس الاسرة الرابعة ، أى قبل عصر الاسرة الثانية عشرة بفترة طويلة .

ويذهب «برستد» الى أن ذلك إنما هو مجرد وضع تمثيلي ليسبغ على كلمات «نفرتي» الهامة قوة التأثير ، ومن حسن اللفظ أن كاتبها من عهد للدولة الحديثة ، ممن عاشوا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، قد ظهرت له أهمية هذه الوثيقة ، حتى أنه عندما لم يجد برديا جديدا ينقل فيه نص الوثيقة ، أخذ جزءا من بعض أوراق مستعملة في تدوين حساباته ، ونقل تلك النبوءة على ظهرها ، وهكذا بقيت «نبوءة نفرتي» في تلك الصورة التي وصلتنا عفوا ، بها تحويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التي حدثت عند نقله لها بطريق المصحفة كما أشرنا آنفا (١٣) .

وليس هناك الى سبيل من شك في أن الدافع الى كتابة هذه النبوءة ، إنما الدعوة الى تمجيد الملك «أمنمحات الاول» ، ووصفه بالصفات التي يطمناها الناس في العاهل الجديد ، والذي كان الحكيم «ايو - ور» ينتظر قدومه ، واهلهم الناس أن «أميني» (وهو اختصار اسم أمنمحات) إنما سيتولى العرش بناء على إرادة الآلهة ، وأن الحكماء قد تتبأوا بذلك أمم الملك «سنفرو» ، ذلك الفرعون الذي كان له في قلوب الناس مكانة لا تعادلها مكانة فرعون آخر ممن سبقه من الفراعنة ، حتى أنه كان يوصف بأنه «الملك المحسن» و «الملك الرحيم» و «الملك المحبوب» و «الملك الفاضل» ، كما صورته الوثائق متواضعا ، يعيل الى المعرفة ،

(١٢) أنظر : سليم حسن : المرجع السابق ص ٣١٨ - ٣٢٤ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٥٠ - ٤٥١ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٥٢ - ٣٥٤ .

(١٣) J. H. Breasted, Op-Cit, p. 201.

ويكرم العلماء ويحسن الاستماع ، ويكتب بنفسه ، ولا يبالي أن يسأل عما لا يعرفه (١٤) .

وتشتمل البردية على موضوعين رئيسيين ، أولهما : الحالة السيئة التي آل إليها أمر البلاد ، أبان الثورة الاجتماعية الاولى — شأنها في ذلك شأن تحذيرات ايبو — ور ، وثانيهما : الاعلان عن مليكه الجديد الذي سيظلم البلاد مما نزل بها من شر ، وسيسعد من يعيشون في عصره .

وفي الحقيقة أن كلا الموضوعين قد تحدثت عنهما «ايبو — ور» ، فلقد وصف الخراب والدمار الذي حل بالبلاد ، كما تنبأ بقرب ظهور الملك الامثل ، وهكذا يأتي «نفرتي» فيتحدث عن ذلك كله ، ولكنه يزيده على «ايبو — ور» بأن يحدد اسم المخلص الجديد ، وأنه «اميني» ، وهذا هو الهف من البردية ، ولهذا فهي دعاية للملك «امنمحات الاول» (اميني) ما في ذلك من ريب . وأما ما جاء من وصف الخراب الذي حل بالبلاد ، فصحيح يتفق وعصر الثورة الاجتماعية الاولى بما في ذلك من ريب أيضا ، ومع ذلك فمكانة نبوءة نفرتي كوثيقة تاريخية ليست في مكانة تحذيرات ايبو — ور ، لان الاخير انما كان شاهد عيان يدفعه الى كتابة ما كتب دواعي عليها واهداف سامية ، حتى اننا نجده يلوم نفسه لتأخره في اسداء النصيح لمليك عصره ، «ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت ، حتى أنقذ نفسي من الالم الذي أنا فيه ، فالويل لي لان البؤس قد عم في هذا الزمان» (١٥) ، كما أنه لم يكن في دعوته هذه مدفوعا الى الدعاية لصاكم بذاته ، وانما كان يطلب المحاكم الامثل فحسب ، أيا كان هذا الحاكم .

وأما «نفرتي» فلم يكن شاهد عيان ، وانما ينسب تأليفها الى عهد قديم ، الى عهد الملك «سنفرو» ، كما يظهر في نبوءة نفرتي بوضوح مظهر

G. Posener, Op-Cit, p. 32.

(١٤) انظر

B. Gunn, JEA, 12, 1926, p. 250-251.

(١٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا

J. A. Wilson, ANET, p. 449.

الدعاية للملك «أمنمحات الاول» ، بل ان بعض المؤرخين انما يرى أنه لا يستبعد مطلقا أن يكون الحديث (يعنى النبوة) من وضع الملك «أمنمحات الاول» نفسه (١٦) ، وفي كلتا الحالتين انما يعتبر كاتب هذه النبوة شبه شاهد عيان ، لقرب عهده من أحداث الثورة الدامية نفسها . ولنقدم الآن صورة مجملة لهذه النبوة التى جاءت فى «بردية نفرتى» :

١ - وصف حال البلاد :

يقول «نفرتى» فى نبوته بعد المقدمة :

«لقد أصبحت البلاد خرابا ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع عليها ، لقد حجبت الشمس فلا تضىء حتى يبصر الناس»

«لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن ، فيجدون أن الطريق صار شاطئاً ، كما صار الشاطئ ماء»

«ان البلاد فى كرب وعويل ، لقد حدث ما لم يحدث من قبل ، سيحمل الناس أسلحة الحرب ، حتى تعيش الارض فى قلق واضطراب ، سيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتمسوا الفخز بالدم ، ويضحكوا ضحكة الموت ، لن يبكى الناس من الموت ، ولن يهتم أحد الا بنفسه»

«ان معنى أحد بترجيل شعره ، ويجلس المرء فى مكانه لا يحرك ساكناً ، بينما يرى الناس يقتل بعضهم بعضاً ، سأريك حالة البلاد ، وقد أصبح الاب خصما ، والاخ عدوا ، الرجل يقتل أباه ، واختفى كل شئ طيب ، وخربت البلاد ، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب للغريب ، وغدا المالك فى حرمان ، والاجنبى فى شبع ورفاهية»

(١٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٤ .

«لقد أصبح للكلام في قلوب الناس وقع كوقع النار ، ولم يعد أحد يصبر على النصيحة ، لقد نقصت الارض وتضاعف حكامها ، وأصبحت الحقوق عارية ، غير أن ضرائبها كثيرة ، وغلتها قليلة ، مع أن المكيل صار كبيرا ، وكانوا يملؤنه حتى يطفح ، لقد ظهر الاعداء في الشرق ، واقتحم القبطيون مصر ، ولكن ما من مدافع يسمع أو يجيب» .

«لقد تباعد الاله روع عن الناس ، وإذا ظهر أشرق ساعة ، ولا يكاد أحد يعرف أوان الظهر لانه ما من ظل يدل عليه ، لم تعد الابصار تبهر عند التطلع اليه ، ولم تعد العيون تبك بالماء ، اذا أصبحت الشمس في السماء شبيهة بالقمر»

«سأريك البلاد ، وقد أصبحت شذر مذر ، لقد أصبح الكليل صاحب سلطة وسلاح ، وصار القوم يبجلون من كان يبجلهم ، سأريك البلاد ، وقد أصبح في القعة من كان في الدرك الاسفل ، وسيعيش الناس في الجبانة ، وسيتمكن المعدم من الثراء ، وسيأكل المتسولون خبز المقرابين ، بينما يبتهج الخدم بما حدث» .

٢ - الدعوة الى الملك الجديد :

وهنا يصل المتنبئ الى هدفه - وهو الدعوة للملك الجديد (اميني) :

«سيأتي ملك من الصعيد ، يدعى «اميني» له المجد ، ابن امرأة من «تاستي» (جزيرة أسوان) ، ويولد في الصعيد في «خن نخن» (البصيلية مركز ادفو بمحافظة أسوان) ، وسوف يتلقى التاج الابيض ، ويتوج بالتاج الاحمر ، فاسمحوا اذن يا أهل عصره ، ولسوف يعمل ابن الانسان على تخليد سمته الى الابد ، أما الذين كانوا قد تأثروا على الشر ، ودبروا الفتنة ، فسيطبقون أفواههم خوفا منه ، وسوف يسقط الاسيويون بسيفه ، والليبيون أمام لهيبه ، وسيستسلم الثوار أمام غضبه ، والمعاصاة أمام جلالته ، وسيخضع المتمردون للمصل الذي على جبينه ، وسوف يبنى حائط الامير ، ولن يستطيع الاسيويون أن يدخلوا مصر عنوة ، وانما سوف يستجشون الماء منها لتشرب ماشيتهم ، كما لو عادتهم ، وسوف

تعود العدالة الى مكانها ، ويقضى على الظلم ، ولسوف يسعد من يرى ،
ومن سيكون في خعمة الملك» .

وهكذا يصف «نفرتي» مليكه المنتظر بأنه سيحقق كل ما فقده القوم
أثناء الثورة ، فهو سيقضى على الفتن الداخلية ، وسيحمى البلاد من شر
جيرانها الليبيين والاسيويين ، وأنه سيبنى سور الصلح لحملية الدلتا من
تسلل البجو ، وهكذا يستطیع المخلص الجديد أن يقضى على شرور الناس
وأن يبدأ عصرا جديدا .

ولعل من الأهمية بكان الإشارة الى أن «نفرتي» انما يصرح في
نبوءته بأن مليكه الجديد ، ليس من سلالة البيت المالك القديم ، فهو أذن
ليس بملك كغيره ممن سبقوه من الفراعين المؤلهين ، وانما هو ابن امرأة
من جزيرة أسوان (الييفانتين) وانه قد ولد في البصيلية (نخن) ، وربما
تد دفعه الى ذلك ضياع الهالة القديمة التي كان يتمتع بها الفراعين
من قبل ، وربما دعاه الى ذلك كثرة المطالبين بالعرش أو المدعين له ، تلك
الكثرة التي جعلت ملكه الجديد ، ليس بدعا بين المدعين أو المطالبين ،
وربما كان «أمنهحات» (أميني) نفسه قد لجأ الى الدعاية لنفسه .
فماخترع تلك النبوءة المعروفة ، فأمر ذلك جائز ، وقد دعا اليه بعض
المؤرخين ، ذلك لان الظروف التي أحاطت به قد ألجأته الى ذلك ، فهو لم
يكن أميرا ، ولم ينتسب الى بيت اماره ، ولانه انما كان قد فطن بذلك
وسعة ادراكه وتجاربه الواسعة الى أن الناس قد سئموا المدعين من غلوز
الامراء الذين ينتسبون الى بيت الملك ، وكرهوا سلطانهم ، ويدخلوا ما في
وسمهم في سبيل الخلاص من تلك الاسر التي رفعت نفسها الى مجال
التأليه ، فكان من المنطق أن يلجأ «أمنهحات» الى الدعاية لنفسه بمه
يصادف في نفوس الناس هوى وارتياحا ، ومن ثم فقد أخذ يبشر بظهور
مخلص جديد ، أسماه «أميني» تارة ، وأسماه «ابن الانسان» تارة أخرى
وكان يقصد بذلك الى اقناع الناس بأن مخلصهم وحلهمم الجديد ، ليس
من بيوت الملك والامارة ، وانما هو من الشعب ، صديق الشعب وربيب

وهكذا أصبح الانتساب الى الشعب شرفا يدعيه الطامحون الى تبوأ عرش الكتانة ، فهاهو «أمنمحات» يذيع عن نفسه «انه ابن امرأة من تاستى ، وقد ولد في «خن نخن» ، ولم يقل أنها ، أو هو ، من أصل ملكي ، ومن البدهي أن خلك لم يكن عن رغبة عن الانتساب الى الاصل الملكي ، ولكنها كلفت رغبة العصر ، ذلك العصر الذي أعطته الثورة الاجتماعية الاولى مبادئها ، والتي كان منها أن الانتساب الى الشعب ميزة يفخر بها من يحاول التقرب اليه (١٨) •

ولعل مما تجبر الاشارة اليه أن هذا المبدأ قد سرى بين أمراء الاقاليم كذلك ، ومن ثم فقد ادعى بعضهم ادعاءات عريضة عما قدموه من خير لأقاليمهم ، ثم يفخرون بعد ذلك أنهم أتما كانوا محبوبين من مدنيهم ، وهكذا رأينا الواحد منهم يفخر بأنه «الحاكم المحبوب في مدينته» (١٩) •

(١٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٢٠ ، محمد بيومى مهران :

الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفرعنة ص ٢٠١ - ٢٠٣ •

(١٨) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٠٢ ، وكذا

A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

(١٩)

P. E. Newberry, Beni Hassan, I, Table, 8, p. 415.

تعرف هذه البردية المتى تحوى «ارشادات الى الملك مري كارع» باسم «بردية بطرسبرج» ، وهى محفوظة الآن فى «متحف ليننجراد» تحت رقم رقم (A ١١١٦) ، غير أن هذه النسخة ليست هى النسخة الوحيدة ذلك لان النص انما قد جمع فى ثلاث برديات ، الواحدة فى ليننجراد ، والثانية فى «موسكو» (برقم ٤٦٥٨) والثالثة فى «كوبنهاجن» ويرجع تاريخها جميعا الى حوالى نهاية الاسرة الثامنة عشرة ، وهى جميعا معقدة بسبب الفجوات والغموض من كل نوع ، ولو بقى الجزء الاول من النص ، وكان أكثر تماسكا وحفظا ، لكان أهمها جميعا ، مادام يقدم النصح بأنه من الافضل حسن معاملة الموالى الحنيدى الذين يستمتعون بشعبية ملحوظة (١) .

هذا وقد اختلف المؤرخون فى صاحب هذه الارشادات أو النصائح ، لان اسم الاب (صاحب النصائح) مفقود ، ولكنه ربما كان «اختوى» ، وان لم يكن أول من يحملون هذا اللقب ، ومن هنا فقد ذهب فريق الى انه «افتوى» (خيتى) الثالث ، بينما رأى آخرون أنه «خيتى الرابع» ، هذا فضلا عن الخلاف لم يكن فى اسم الملك صاحب التعليم ، وانما امتد كذلك الى الاسرة التى ينتسب اليها ، ومن ثم فقد ذهب فريق من الباحثين الى أنه من الاسرة التاسعة ، بينما ذهب آخرون الى أنه من الاسرة العاشرة .

وعلى أية حال ، فهناك فريق كبير من الباحثين يكتفون بجمعهم على أن «تب كلورع» انما هو «خيتى الثالث» ، وهو نفسه صاحب الارشادات — موضوع بحثنا هذا — وأنه من ملوك الاسرة التاسعة ، على أن هناك وجها آخر للنظر ، يترجمه بعض علماء المصريين ، من أمثال الدكتور

M. Lichtheim, Op-Cit, p. 97.

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 115.

أحمد فخرى^(٢) ، ووليم هيز^(٣) ، ووينلوك^(٤) ، انما يرى أن صاحب الارشادات انما هو «خيتى الرابع» (واح كلرع) من الاسرة العاشرة ، على أن «الكسندر شارف» انما يذهب الى أنه «خيتى الثالث» ، وأنه من الاسرة العاشرة ، حيث وضع الاب والابن في هذه الاسرة العاشرة^(٥) ، واننى لأميل الى أن صاحب الارشادات اللوحة الى الملك «مرى كلرع» انما هو «خيتى الرابع» ، وانه كان من ملوك الاسرة العاشرة الاناسية ، وليس من الاسرة التاسعة .

هذا وقد اكتشف هذه البردية في عام ١٨٧٦م ، الاثرى الروسى «فلاديمير جولينشف» ، وكان أول من قام بنشرها^(٦) ، ثم ظهرت لها بعد ذلك عدة ترجمات ، كان من أهمها ترجمة «جاردينر»^(٧) و «ارمان»^(٨) ثم تحليل «برستد» لها في «فجر الضمير»^(٩) .

وفي عام ١٩٣٦م ، قام «الكسندر شارف» بأهم ترجمة للوثيقة ، مع التحليل السياسى والنقد التاريخى لمحتوياتها^(١٠) ، وفي عام ١٩٤٥م قام

(٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٦٨ .

W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 144. (٣)

H. E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom (٤)
in Thebes, New York, 1947, p. 20.

(٥) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٧٣ .

Vladimir S. Golenischeff, Les Papyrus hieratiques, Nos. 1115, (٦)
1116A et 1116B de L'Ermitage imperial a St-Petersbourg, St-Petersburg,
1916, Pls. IX-XIV.

A. H. Gardiner, in JEA, I. 1914, p. 20-36. (٧)

A. Erman, in LEA, 1927, p. 75-84. (٨)

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, (٩)
p. 145-150.

وفي الترجمة العربية (جيمس هنرى برستد : فجر الضمير - ترجمة
سليم حسن - القاهرة ١٩٥٦ ص ١٦٧ - ١٧٣) .

A. Scarff, Der historische Abschnitt der lehre fur Konig (١٠)
Merikare, in SPAW, 1936, Heft, 8, (Lincs 69-110 and Most of Lincs,
111-144).

«فولتن» بنشرها مرة أخرى^(١١) ، كما قام بترجمتها أيضا والتعليق عليها كل من «ببوزن»^(١٢) و «دريوتون»^(١٣) و «وليامز»^(١٤) و «مولر»^(١٥) و «كيس»^(١٦) و «ردفورد»^(١٧) و «بيكرات»^(١٨) و «لويز»^(١٩) و «سمبسون»^(٢٠) وغيرهم^(٢١) ، فضلا عن الترجمات العربية للوثيقة^(٢٢) .

وأما عن الظروف التاريخية للوثيقة ، فمن المعروف أن مصر قد تعرضت في أخريات أيام الدولة القديمة لفترة ضعف سياسي ، وهي الفترة التي يطلق عليها المؤرخون «عصر الانتقال الاول» أو «عصر الثورة الاجتماعية الاولى» ، والتي تقطعت فيها أوصال البلاد ، وتفرقت كلمتها ، وقد بدأت تلك الفترة منذ أخريات الأسرة السادسة (حوالي عام

A. Volton, Zwei altägyptische Politische Schriften, *Annlecta Aegyptiaca*, 4, Copenhagen, 1915, p. 3-82, Pls. 1-4. (١١)

G. Posener, *Annuaire du Collège de France*, 62, (1962), p. 290-295, 63, (1963), p. 303-305, 64, (1964), p. 305-307, 65, (1965), p. 343-346, 66, (1966), p. 342-345. (١٢)

G. Posener, *RdE*, 7, 1950, p. 176-180.

E. Drioton, *RdE*, 12, 1960, p. 90-91 (Line 92). (١٣)

R. Williams, in *Essays in Honour of T. J. Meek*, Toronto, 1964, p. 16-19. (١٤)

D. Muller, in *ZAS*, 94, 1967, p. 117-124. (١٥)

H. Kees, in *MDIK*, 18, 1962, 6, (Lines 88-89). (١٦)

D. Redford, in *JEA*, 51, 1965, p. 105-107. (١٧)

J. Von. Beckerath, in *ZAS*, 93, 1966. (١٨)

J. Lopez, in *RdE*, 25, 1973, p. 178-191. (١٩)

W. K. Simpson, *The Literature of Ancient Egypt*, 1977, p. 180-192. (٢٠)

J. A. Wilson, in *ANET*, 1966, p. 414-418. (٢١)

M. Lichtheim, *Op-Cit*, p. 97-109.

P. Seibert, *Die Charakteristik*, I, Wiesbaden, 1967, p. 90-98, (Lines 91-94 and 97-98).

(٢٢) سليم حسن : المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩٧ ، محرم كمال :

المرجع السابق ص ٦١ - ٨٠ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص

١٤١ - ١٤٢ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٤٤٠ - ٤٤٢ ، عبد الحميد

زايد : المرجع السابق ص ٣٠٥ - ٣٠٨ ، نجيب ميخائيل : مصر ٢٩٢/١ -

٢٩٤ ، أحمد بدوي : المرجع السابق ص ٢٢ - ٢٨ .

٢٢٨٠ ق.م) ، واستمرت حتى قيام الدولة الوسطى (صوالى عام ٢٠٥٢ ق.م) .

ولعل من أهم أحداث تلك الفترة سيطرة ملوك اهناسيا ، مكونين الأسرتين التاسعة والعاشرة - على الشمال ، ثم الصدام المميز بينهم وبين أمراء طيبة (الأقصر) ، ذلك أن اهناسية انما كانت تحس أن سلطانها على مصر أن يتم ، ملدام هناك أسوي في الشمال ، وطيبى في الجنوب ، وكل منهما يحتل جزءا من البلاد ، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد والتحكم في شئونه ، مادامت تدعى بالولاء لاهناسية وتدفع لها الجزية ، وكان كل من الفريقين يقربص بالآخر الدوائر ، ويجعل على جميع أنصار له ، وهكذا دارت رحى الحرب بينهما نحواً من ثمانين عاماً ، وانتهت بانتصار طيبة على اهناسية ، رغم أن عوامل النصر كانت في يد اهناسية أكثر منها في يد طيبة .

وعلى أية حال ، فإن هذا النصر لم يكن لأمرأ طيبة ، وانما كان لمصر كلها ، حين وسعها الله تعالى برحمته ، فأعاد وحدتها ، التي أضاعها عصر الثورة المضطرب ، ومن ثم فقد بدأت مصر تتبوأ مكانها في التاريخ الانساني من جديد ، وذلك بقيام الدولة الوسطى ، تحت زعامة سادة طيبة الجدد .

هذا ولم يزدهر الادب في أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم ، كما ازدهر في هذا العصر - عصر الثورة الاجتماعية الاولى - فقد كتبت فيه كثير من البرديات ، التي وصل فيها فن الكتابة الى قمة مجده ، مثل برديات : الفلاح الفصيح ، وتحذيرات ايبو - ور ، واليائس من الحياة ، وغيرها ، هذا فضلا عن أن هذه الفترة قد تميزت بالاعلاء من شأن الفرد واعتزازه بنفسه ، وتحطيم تلك الهالة التي كانت تجعل الشعب يذوب في شخصية «الملك - الاله» ، والتي تجعل المجد في الدنيا ، والسعادة في الآخرة لمن ينال رضى الاله وعطفه ، وتكون له الثروة التي تمكنه من انشاء قبر كبير يعين له من الكهنة من يقومون بالصلاة على

روحه في الاعياد ، ويقدمون له القرابين في كل يوم ، ويوقف من أرضه ما يكفي للاتفاق على ذلك كله .

وتقوم الثورة الاجتماعية في أخريات أيام الاسرة السالسة ، وفيها لم يحطم الشعب دواوين الحكومة وقصور الاغنياء ومقابر الملوك وأصفائهم فحصب ، وانما يحطم كثيرا من التقليد القديمة ، ويصبح المصريون يؤمنون بالمساواة الاجتماعية ، ومن ثم لم يعد تقدم الفرد في حياته رهينا برضى الملك أو بنسبه أو ثرائه ، وانما أصبح متوقفا على جده واستقامته ، كما أصبحت الجنة لمن يحسنون في الدنيا عملا ، وجاتبوا المعاصي ، وصلحت سيرتهم ، كما أنها لم تعد وقفا على الملك ومن أحاطوا به من رجال بلاطه ، ومن اشتروا بثرواتهم قرابين تقدم لارواحهم بعد الموت ، يبدو هذا واضحا في أدب ذلك العصر ، وبخاصة في النصوص الموجهة الى الملك «هرى كارع» ، والتي سنحاول هنا تقديمها بايجاز ، مستغلين بفقرات منها على الافكار النبيلة التي تحتويها ، ونلاحظ أنه على الرغم من أنها نصائح سياسية في الدرجة الاولى ، الا أن أسلوبها الادبي لا يقل جمالا وجودة عن أية قطعة أدبية أخرى ، ولنحاول الآن أن نقدم أهم ما جاء في هذه الارشادات الموجهة للملك «هرى كارع» من أفكار :

تكاد تعاليم الملك الاناسي هذه أن تكون مرآة لايام عهده ، فهو قد اصطدم في حروب مع أهل الجنوب دارت رحاها حول اقليم «ثنى» ، وعلى مقربة من «أبيدوس» (مركز البلينا — بمحافظة سوهاج) ، إحدى عواصم البلاد الدينية العريقة ، فقص علينا كيف انقض على المدينة المقدسة انقضاض الصاعقة ، فخر عليها وأخذها كما تأخذ الغمامة الماطرة ما تحتها من أرضين ، فغذا الديار خربت ، واذا القبور بعثرت ، ثم سرعان ما يمدحنا الفرعون عن ندمه الذي آذى نفسه ، ثم أخذ عواطفه فمزها هذا ، وهو يعود فيعتذر من هول ذلك الجرم ، حين ينسبه الى جهل عسكره ، ويبدو لى أن أمير طيبة قد اهتبل الفرصة ، فأخذ يؤلب القوم عليه ، ويثير النفوس ضده ، ويفرغى به الناس ، وذلك حين اتخذ من انتهاك حرمت القبور في أبيدوس ، سبيلا للضرب على عواطف المؤمنين ، وطرقها بمطارق من حديد .

وظاهر من تعاليم الملك الشيخ لولده «مرى كلرع» أنه كان يعانى من فعلته هذه كثيرا من المرارة والالام بين الفينة والفينة ، ثم يعود فيعزى نفسه عن هولها ، معتذرا بأنها قد وقعت من وراء علمه ، وأنه لم ينبأ بالامر الا بعد وقوعه ، ولم يعلم بالكارثة الا بعد أن تمت ، ولم يعرف بأمر النكبة الا بعد فوات الاوان، أنظر اليه حين يقول لولده فى ارشاداته :

«ان مصر تحارب حتى فى الجبانة ، انى فعلت ذلك ، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الاله ، أنظر : لقد حدثت كارثة فى عهدى ، عزى اقليم ثنى بسبب ما فعلت ، غير انى لم أعرف الا بعد حدوثه ، أنظر : ان ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به ، فالضربة ترد بضربة أخرى ، مضى جيل من الناس ، والله الذى يعرف القلوب لم يفتبىء تعمس هو الرجل الذى يطلب الحرب ، لان العدو وسط مصر ، ونحن نريد جندا لاخضاع المحاربين لكى تصدق النبوءة : هذه مصر تحارب وسط قبورها ، لا تؤذ القبور بالحرب ، لاننى فعلت ذلك ، ولهذا أستحق ما حل بى من عقاب الله» .

ثم يحصل الملك الشيخ هذه الحرب الاهلية ، ما حل بالبلاد من مصائب ففى التى مكنت الاجانب من دخول البلاد ، ثم ينصح ولده بأن يتخذ الاجراءات ضدهم : «اذا تعرضت حدودك للخطر ، فاعلم أن هذا يعنى أن حملة القوس الذين فى الشمال ، سيتمنطقون بسدة الحرب ، ابن حصونك فى الشمال» .

وحين يستعيد المصريون شعورهم بالسيادة على غيرهم من الشعوب نرى الملك الاهناسى يتصدت الى ولده باحتقار شديد عن الاسيويين : «أنظر الى الاسيوى اللعين (يعنى البدوى) ، أن الامور سيئة فى بلاده ، فملؤه آسن ، وطرقته وعرة ، لذلك فهو دائم الترحال ، لا يستقر فى مكان واحد ، وانما ظل يشاغب منذ عهد الاله حور ، لا يغلب ولا يغلب ، لاتهم بامرهم ، فهو ليس الا بدويا ، شخص منبوذ على الشاطئ ، لا يغير الا على الموطن المغزل ، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عامرة بالسكان ، أقم الحصون فى تخومك الشرقية ، وابن مدنا ، وعمرها بالسكان» .

ويصور الفرعون ولده «مرى كارع» الطريقة التي اتبعها في إضعاف
الاسيويين ، وفي إجلائهم من الدلتا ، ودعاه الى أن يترسمها ، وصور له
هذه الطريقة في شقين :

أولهما : بث الروح الحربية في البلاد ، والعناية بجندها الشباب ،
وقال له عنها : «أعل من شأن الجيل الجديد تحبك العاصمة ، وزد أتباعك
من الرعية ، ان مصر بلد عامر بنشء غض في سن العشرين ، وان الجيل
النشء اذا يسعد بمن يستوحى ضميره ، فان فعات ذلك قللك العامة ،
وأئك رب كل أسرة بأبنائه رافسيا ، فبهذه السياسة طارب القدماء من
أجلنا ، لا رفعت أنا شأنهم ، فترفع أنت شأن نبلائك ، وعظم محاربك ،
واسبخ الخير على جيل الشباب من أتباعك ، واحرص على أن يتزودوا
بالعطايا ، ويطمعنوا بامتلاك الارض ، ويكافأوا بالانعام» .

وثانيهما : التضييق على الاسيويين والحد من سبل نشاطهم ، وذلك
بانشاء مدن محصنة على هــ واف الوادي ، وتعميرها بخير الرجال ،
يسكنونها ويزرعون ما حولها ، ويتحصنون بها حين الشدة ، ويصدون
منها غارات الاسيويين ، وقال له في ذلك : «لا تنهيب البهوى فهو لا يغير
الا على الموطن المنحل ، ولا يغير على المدن الآهلة بالسكن» .

ويحض الفرعون ولده على عمل الخير ، فيقول له : «هدى من روع
البلكى ، ولا تظلم الارملة ، ولا تحرم رجلا من ثروة أبيه ، ولا تطرد
موظفا من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم ،
لا تقتل فان ذلك لا يكون ذا فائدة لك ، بل علقب بالضرب والحبس ،
فان ذلك يقيم دعائم هذه البلاد ، اللهم الا من يثور عليك وتتضح لك
مقاصده ، فان الله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، والله هو الذي
يعاقب أخطاءه بدمه ، ولا تقتل رجلا تعرف جميع مزاياه ، رجلا كنت
تتلمذ معه الكتابات (أي زميلا لك على أيام الدراسة)» .

ويوصي الشيخ الاناسى ولده بتقريب ذوى المواهب ، «لا تفرق
بين ابن النبيل وبين ابن فقير الاصل ، وتخير الفرد بكفائه الشخصية» ،

ولا ينسى الفرعون أن يحضر ولده من الاعتداء على آثر السابقين فيقول له : « لا تحدث ضررا لابنى أقامه غيرك ، اقطع أحجارك من طره ، ولا تبني قبرك من أحجار قبور غيرك ، أنظر أيها الملك الذى أريد له دوام الصحة والسعادة والحياة ، لا تتقاعس وتتم مطمئنا الى قوتك ، اعتمادا على ما غطته أنا قبلك ، افعل أنت بنفسك » .

ولا ينسى الفرعون الشيخ أن يوصى ولده بالاهتمام بالفصاحة وحسن التعبير . ولعمري أنه لم يكن فى ذلك مجددا ، ففى «تعاليم بتاح - حتب» يظهر لنا مدى تقدير القوم للفصاحة وتقديرا كبيرا ، وقالوا بأنها من الجائز أن توجد عند الفقيرات اللاتي يعملن على أحجار المسن ، وفى «قصة القروى الفصيح» نرى أن هذه الفكرة ما زالت سائدة عند القوم ، وأن أقل المصريين شأنا انما يستطيع أن يتكلم ، وأن يكون لكلامه الاثر المرجو ، وأنهم جعلوا هذا القروى يستمر فى حديثه مرة بعد أخرى - بعد أن أعجبوا بفصاحته - حتى بلغت شكايته تسعا ، كما رأينا من قبل ، وأن الملك ورجاله انما كانوا جدا مسرورين من تلك الفصاحة ، وأخيرا نرى هذا القروى غير المثقف ، ينال ما يستحقه من تكريم ، عندما أنهى كل ما فى جعبته من كلام ، وهكذا نرى الملك الاهناسى انما يقدم لابنه النصيح قائلا :

«لكن غنانا فى الحديث حتى تسود ، فان القوة فى اللسان ، وهو كالسيف للرجل ، والحديث أمضى من أى سلاح ، اقتد بأبائك الذين ذهبوا من قبلك ، أنظر ان كلامهم الحكيم باقى فى الكتب ، فافتح واقرأ واقتد ، كن مطمئا فان الرجل الفطن لا يجد من يفهمه ، والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يعارضونه ، وبذلك لا تحدث له مصيبة فى زمانه » .

هذا وقد كانت عصور ما قبل عصر الثورة الاجتماعية تهتم كثيرا ببناء وصيغته ضريح رائع يبقى خالدا على مر السنين ، لانه انما كان - فى نظر تلك الاجيال السالفة - ضمانا للخلود ، بل ان فقدان القبر انما كان فى نظر المصريين القدامى أعظم كارثة يمكن أن تط بعمري ، ولهذا فقد اتخذها الملوك كأقصى عقاب يمكن أن ينزله الفرعون بمن

يشك في ولائه ، حتى أن أحد الحكام حذر أولاده هذا الجزء الاليم لن يخرج على الملك ، حيث يقول : «لا قبر لأنسان خارج على الملك ، بل أن جثته سيلقى بها في الماء» .

وتقوم الثورة وتبقى على مثل هذه النصب ، ومن ثم نرى الملك الالهاسى ينصح ولده قاثلا : «الذين مثواك الذى فى الغرب ، وجمل مقعدك فى الجبلنة» ، غير أن عصر الثورة الاجتماعية لم يقتصر على الوسائل المادية ، كمسبيل للسعادة فى الحياة الثانية ، وانما أصبح للاخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد مماته ، وبذا أصبحت الاهمية الكبرى للوصول الى النجاة انما هو العمل الصالح ، بعد أن كان ذلك من قبل ، للثروة ، والقربى من الاله الملك .

ويقدم لنا الملك الالهاسى أمثلة كثيرة على ذلك ، ففى تعاليمه التى وجهها لأولاده «عمرى كارع» جاء الحث على نبذ المادية فى فقرات ثلاث : «لا تكن شريرا ، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خلدا بحب الناس لك» ، وذلك عندما أراد أن يقارن العمل الاخلاقى ، ببناء بيت الذكرى من الحجر «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان» ، ثم يعطى فى الفقرة الثالثة بوضوح ، أن الخلق الطيب أفضل عند الله من القرايين التى تقدم لاستعطائه ، فيقول : «ان خلق الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الشرير (أى الثور الذى يقدمه كقربان)» .

وهكذا اعتقد القوم أنه يجب على الانسان أن يوجه عنايته لاقامة الشعائر الدينية لينال عطف الاله ، غير أن ذلك لن يغنى عنه من الله شيئا ، ما لم تسنده أعمال صالحة ، وخلق كريم ، وفى جملة الملك الالهاسى التى تنص على أن الاله يسر للخلق الفاضل ، أكثر مما يسر للقرايين الكثيرة ، والتى تعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى عند المصرى القديم ، وفى هذه الجملة دلالة على أن للفقر ما للغنى من حق فى رعية الله ، ذلك لان أكرمهم عند الله أتقاهم وأفضلهم خلقا ، وليس أكثر قربانا ، وأشدهم سلطانا .

وهكذا فلن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى ، أو

على قرايين تقدم ، ولكنها في العمل الصالح ، العدل بين الناس ، والعطف على الفقراء والعناية بشئونهم ، فهناك من تعاليم الملك الاناسى قوله : «انعم العدل تخلص في الارض ، واسى الحزين ، ولا تحرم رجلا من ميراث أبيه ، ولا تضرن شريفا في مركزه» .

هذا وقد كان المصري القديم يعتقد أن الميت سوف يحاكم أمام اله الشمس ، وذلك استجابة لطلب انسان كان الميت قد أخطأ في حقه ، وليس حسابا على شيء ، فان لم يطلب الانسان للمحاكمة بهذه الصفة ، فمن المحتمل ألا يتعرض في الحياة الثانية لمحاكمة أخرى ، ثم ما لبثت أن ولدت محاكمة الاله «أوزير» التي تنتظر كل انسان لتحاكمه على ما قدمت يداه من عمل ، وفقا لقواعد الاخلاق ، وهكذا أصبح من مستلزمات عصر الثورة الاجتماعية أن الانسان لابد ، وأن يجتاز امتحانا جادا أمام هذه المحكمة لينال السعادة المنشودة في العالم الآخر ، وفي تعاليم الملك الاناسى إشارة الى ذلك ، فهو يقول :

«انك تعلم أن القضاة الذين يحاسبون المذنب ولا يرحمون الشقي يوم المحاكمة ، وتسوء العقوبة ان كان المتهم هو الواحد العاقل (ربما تهوت رب الحكمة الذي سيدير المحاكمة يوم الحساب) لا تضع ثقتك في طول السنين ، فهم ينظرون الى مدة الحياة كساعة ، ثم يبعث الانسان ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه ككروام ، لان الخلود مثواه هناك (أي العالم الآخر) ، والنفى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى اليهم دون أن يرتكب اثما ، فله سيئوى هناك ، ويسئى مرحا مثل سعادة الابدية (اسم للابرار المتوفين)» .

وهكذا يحضر الفرعون الاناسى ولده من يوم الحساب ، فهو لا ينعم فيه مال ولا بنون ، خاصة اذا كان الذى سوف يحاسب الناس هو الواحد العاقل ، ويحذره من أن ينتر بطول السنين ، فالحق في نظر القضاة وكأنها ساعة ، ثم يبعث ثلثية ليجد أعماله كلها — خيرا أو شرا — مكسبة بجواره «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» ، وهكذا تكون نتيجة المحاكمة ، فالذى يصل الى الآخرة ، وقد عمل الخير

في دنياه ، فانه سيثوى هناك فرحا مع الابرار المتوفين ، ومن لا يكثر
لذلك فهو غبي أحمرق ، وسيكتب له سوء المصير ، وهكذا استطاع
المصريون القدامى أن يتقربوا الى حد ما من المبدأ الذي قرره الكتب
السماوية ، وهو أن الآخرة نتيجة عمل الدنيا «فمن عمل صالحا لنفسه ،
ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد» .

ويرى الملك الاهناسي أن الحياة الصالحة فوق الارض ، انما هي
العمل الذي ترتكز عليه الحياة في العالم الآخر ، حيث يقول : «ان
الروح تذهب الى المكان الذي تعرفه ، ولا تحيد في مسيرها عن طريق
أسمها» ، وليس هناك من ريب في أن الملك الاهناسي انما يعنى طريقها
المعتاد للمخلوق الكريم ، والعمل الصالح .

وكن المصريون القدامى يؤمنون بأن أهم ما في حياة الانسان ، انما
هو علاقته بربه في الحياة الدنيا ، وفي الحياة الآخرة ، ومن هنا رأينا
حكيمنا ينصح ولده «مرى كارع» قائلا : «يهر الجيل منتقلا الى جيل
آخر بين الناس ، والله العظيم بالاخلاق قد أخفى نفسه ... انه الواحد
الذي يهر بما تراه الاعين ، فاجعل الاله يخدم بالصورة التي سوى فيها ،
حجرا كريما كانت أم نحلا ، لانه كالسوء الذي يحل محله الماء ، اذ
لا يوجد مجرى يرضى لنفسه أن يبقى مضطبا ، بل يكتسح الذي يخفيه» .

وهذه الكلمات الهامة التي جاءت على لسان رجل من قادة الفكر في
مصر ، منذ أكثر من أربعة آلاف عام مضت ، ليست الا مخطوطة منه ليميز
بين الاله والصنم التقليدي الذي يوجد في المعبد ، ويظهر في الاحتفالات ،
ويهتف له الشعب ، ولكن كينونة الاله كالماء يكتسح السد أمامه ، ولا يمكن
أن يبقى في الصورة المحسوسة (أي الصنم) ، بل يهر الناس بما تراه
العيون ، وهذا الاله العظيم بالاخلاق قد أخفى نفسه ، فلا يمكن ادراكه ،
كجسم من الماء يمتزج في جسم آخر مثله من الماء ، ومن الجائز أن
حكيمنا الاهناسي يريد بعبارة «كالماء الذي يحل محله الماء» . أن الاله
الذي شبهه بالماء ، اذا انحل في أي جسم ، سواء أكل من الاحجار الكريمة
أو من النحاس ، أو من أية مادة أخرى ، لابد أنه واجد لنفسه منفذا

يخرج منه ، أو يظهر قوته ، ولذلك فإن تصوير الآلهة في أى شيء مادي ليس بالأمر المهم .

هذا وتحتوى ارشادات الملك الالهاسى هذه ، لولده ، عمرى كارع ، سلسلة من الافكار عن اله الشمس ، نجد فيها الفكر المصرى القديم يقترب من عقيدة التوحيد ، فكتائب النصائح يعترف بوجود طائفة من الآلهة يقومون مقام القضاة في العالم الآخر ، وبذلك يبتعد بعدا واضحا عن الاعتراف بوحداية الآلهة ، على أنه من جهة أخرى ، انما يقترب قريبا واضحا من الاعتراف بالتسلط الخلقى لاله واحد ، لدرجة أن كلمة «اله» صارت في مواضع — مع شيء من التناقض — تدل على مدلولها الحقيقي .

على أنه في امكاننا أن نلاحظ صوغ هذه التأملات في صيغة التوحيد ، زيادة على ما ذكرنا ، في الصورة التالية ، والتي صور فيها الحكيم الالهاسى الخالق والحاكم الرؤف في خاتمة تأملاته ، حيث يقول :

«ان الله قد رعى الناس ، وهم قطع الله ، وهو راعيهم ، وقد خلق السموات والارض كما يرغبون ، وخفف من حدة الظلم بالماء ، وخلق الهواء لتحميا به أنوفهم ، وانها لصورة منه خرجت من أعضائه ، وهو يصعد الى السماء حسب رغبتهم ، وقد خلق لهم النبت والماشية والطيور والاسماك غذاء لهم ، ولكنه يعاقب كذلك ، فقد قتل أعداءه ، وعاقب أبناءه بسبب ما دبروه عندما انقلبوا عليه ، وهو قد خلق النور حسب ما يرغبون ، وجعلهم كذلك ينامون ، وهو يسمعهم عندما ييكون ، وجعل لهم حكما وهم في البيضة (أى قد وهبوا الحكم قبل الولادة) ليحكموا ظهور الضمءاء منهم ، وجعل لهم من السحر سلاحا يتقون به الحوادث ، وهو الذى قتل عاتى القلب فيهم ، كما يقتل رجل ابنه أو أخاه ، ان الله عليم بكل اسم (أى بكل انسان)» .

والاشارة هنا الى أن الآلهة قد ذبح أعداءه توجيهه الى «أسطورة هلاك البشر» التى سبق لنا أن ذكرناها في باب الاساطير ، ونجد في تلك الاسطورة ناحية خلقية في منتهى الاهمية ، ذلك لانها انما تدل على حرمان

الانسان من العطف الالهي ، حين يعصى أمر ربه ، كما نتعرف فيها على سيادة اله الشمس (رع) سيادة خلقية مطلقة •

ويحاول الملك الاهناسي في نصائحه لولده «مري كلرع» أن يوازن بين تصوره السامي للزاد الخلقى ، وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة المعتاد المادي ، ولذلك يقول لولده :

«لأقم آثارا خالدة للاله ، لأنها تحيي ذكرى اسم بانيتها ، وعلى المرء أن يعمل ما فيه صلاح روحه ، باقامة الشعائر الدينية كل شهر ، وليس النعمال البيضاء ، وزيارة المعبد ، والكشف عن الاسرار المقدسة ، والدخول في قدس الاقداس ، وأكل الخبز في المعبد ، أهلا موائد القربان ، وقدم الخبز الكثير ، وضاعف عدد القرابين الدائمة ، فإن في ذلك الخير كل الخير لمن يقوم به ، اعل من شأن آثارك ونمها ، مادمت تملك القوة على ذلك ، وإن يوما واحدا (أي من عمل مجيد) قد يؤدي الى الخلود ، ورب ساعة واحدة تحقق نفعا للمستقبل ، ان الله عليم بمن يعمل من أجله» •

على أن محاولة الموازنة بين ما يحتاج اليه الانسان من مادة ، وما يحتاج اليه من خلق كريم ، حد ظاهر في الكلام الذي اقتبسناه من قبل ، عندما كان الملك الشيخ يقول «ان فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الظالم ، ومع ذلك افعل شيئا للاله حتى يجازيك بالمثل ، بقربان تمتلئ به المقدرة ، وينقش يخلد به اسمك ، والله عليم بكل من يعمل شيئا من أجله» ، وهكذا يبدو واضحا أن هناك اعترافا صريحا بقيمة الحياة الصالحة في نظر الاله ، وهو الذي لا يقبل أن تقوم القرابين والهدايا عنده مقام الاخلاق الكريمة •

هذا ومن الواضح أن الملك الاهناسي لا يريد أن ينتهي من تلك النصائح السياسية والخلقية والاجتماعية ، دون أن يوصي ولده بقول المصدق ، فيقول له : «قل الصدق في قمرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها في الاقاليم ، وأن من صلحت نيته صلحت أحواله ، والبيت مرهوب بمن فيه» •

ويبدو أن الملك النسيخ كان كلما تقدمت به الابام ، كلما كثر تفكيره في ماضيه ، وما أنفق فيه من تقتيل وتشريد ، في سجيل ثأمين ملكه ، وتحقيق ما كان يطمح اليه من نفوذ وسلطان ، وكأنما كلن يشعر أنه قتل كثيرا ، وظلم كثيرا ، فأخذ يذكر الله كثيرا ، ويحذر ولده من ارتكاب جريمة القتل ، أو الوقوع في خطيئة الظلم ، لأن الله انما يرقب الجاني فيملي له ، ثم يأخذه من وراء ذلك بعذاب أليم ، يقول الاله : «أني المنتقم ، وسأخذ كل بذنبه ، فلكل امرئ ما سعى ، وحصله في الآخرة ، يوم يأخذ قضاؤها من الظالم للمظلوم» ، ثم يمضى الرجل في وصاياه فيختما بمثل هذه النصائح التي تصور الرجل مستغفرا تائباً ، خائفا مترقبا ، منتظرا مصيره عند قضاة يوم القيامة .

وأما أهمية البردية كوثيقة تاريخية ، فهي تقدم لنا صورة عن المحاكم الاناسيين الذين كانوا يتمتعون بقسط واخر من الثقافة — أو على الأقل تعطينا فكرة عن أن صاحب هذه الارشادات انما كان ملكا حكيما — وهو رجل ذو عقل راجح ، وفكر قويم ، وهو في نفس الوقت رجل قلق ، متعب أنهكته الشيخوخة ، وأضعفته أحداث السياسة القلبية ، التي مربها في حياته ، والتي لم تعد سنه تطيق احتمالها ، كما أنها تعطينا صورة عن الحالة السياسية على أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة (المصر الاناسي) أو على الأقل تعطينا فكرة — وان كانت غير كاملة تماما — عن الصرب الالهية التي دارت رحاها بين ملوك اناسية (اصدى مراكز محافظة بنى سويف) وبين امراء طيبة (الاقصر) ، على الارض المقدسة في أبيدوس ، كما تعطينا فكرة عن مدى نجاح الملك الاناسي في طرد البدو الاسيويين من الدلتا .

هذا وتمعنا الوثيقة بأفكار نبيلة ، وجديدة على التفكير المصرى القديم ، لعل من أهمها : نخبة التواضع الجديدة في حديث الملك المؤله ، والمناداة بغفتيلار الموظفين على أساس من الكفاءة الشخصية ، وليس على أساس من حسب ونسب ، وهي في نفس الوقت تنادى بعدم اهمال الاسرة الشريفة القديمة ، ثم هناك الدعوة الى العمل الصالح ، فهو

— وليس الوسائل المادية التفضيلية — طريق السعادة في الآخرة ، كما نادى الارشادات بوجود محكمة بعد الموت لن ينقذ المرء منها — مهما كان منصبه و ثراؤه — الا عمل صالح ، وخلق كريم ، كذلك حثت هذه التعاليم الملك «مرى كارغ» ، على أن يكون قدوة حسنة لموظفيه ، وذلك بقول الصدق ليهله أمراء البلاد والحاكمين في أقاليمها •

ثم هي تحذر «مرى كارغ» من زعماء المخرتات السياسية ، وتغريه بمعاملتهم بمنتهى القسوة ، تغريه بقتلهم ، ومحو ذكراهم ، وذكرى أنصارهم جميعا ، وأخيرا ، فرغم أنها وثيقة سياسية في الدرجة الاولى ، غير أنها قطعة أدبية ، لا تقل جمالا وجودة عن أية قطعة أخرى من قطع ذلك العصر الذي وصل فيه فن الكتابة درجة عالية ، حتى أن الادب في ذلك العصر ، انما يعد أروع ما انتجته مصر الفرعونية من أدب •

ولنقدم الآن ترجمة لأهم نصوص هذه الارشادات الموجهة الى الملك «مرى كارغ» :

«كن غنانا في الحديث حتى تسود ، فان القوة في اللسان ، واللسان للرجل كالسيف ، والحديث أمضى من أى سلاح ، اعتد بأبائك الذين ذهبوا من قبلك ، أنظر ان كلامهم الحكيم باق في الكتب ، فافتح واقرأ واعتد ، كن غلطانا فان الرجل الغلطان لا يجد من يفهمه ، والذين يعرفون أنه أوتى الحكمة لا يملضونه ، وبذلك لا تحدث له مصيبة في زمانه ، والصدق يأتي اليه طلقا مختارا مصفى ، حسب ما جاء في كلام الاجداد السابقين» •

«لا تكن شريرا ، فالصبر خير ، من الخير أن تكون رحيما عطوفا ، اجعل بيت ذكراك خلدا بحب الناس لك ، وعندئذ يحمد الناس الله من أجلك ، ويمتدح الناس طيبة قلبك ، ويتمنون لك الصحة والعافية ، مجد العظماء ، واعمل على سعادة شعبك ، فكم هو جميل أن يعمل المرء من أجل المستقبل ، ولكن افتح عينيك ، فقد يمتلىء المرء بالثقة ، ثم يتكشف الامر عن حيرة ، لثقة جاءت في غير موضعها» •

«ارفع من شأن مستشاريك ، واغدق عليهم من الثروة ما يكفيهم ، حتى يقوموا على تنفيذ قوانينك بالعدل ، لان الرجل الغنى فى بيته لا يميل مع الهوى ولا يتحيز ، اذ يكون عنده من المال ما يغنيه ، ان الرجل الفقير (فى وظيفته) لا يتكلم طبقا للحقيقة ، ان الذى يقول : اننى أريد ، ليس عادلا ، انه متحيز للذى يحبه، انه يميل للذى يملك الهدية (الرشوة)» .

«العظيم من كان مستشاروه عظماء ، والحاكم القوى من كانت حاشيته قوية ، قل المصدق فى قصرك يرهبك أمراء البلاد وحكامها فى الاقاليم ، وأن من صلحت نيته ، صلحت أحواله ، والبيت مرهوب بمن فيه» .

«أنقم للعدل تضد على الارض ، وهدى روع الباكى ، ولا تظلم الارملة ، ولا تهرم رجلا من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفا من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم ، لا تقتل ، فان ذلك لا يكون ذا فائدة ، بل علقب بالضرب والعبس ، فان ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم الا من يثور عليك ، وتتضح لك مقاصده ، فان الله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، والله هو الذى يعاقب أخطاءه بدمه ، لا تقتل رجلا تعرف جميع مزاياه ، رجلا كنت تتلو معه الكتابات (أى زعيلا لك على أيام الدراسة)» .

«ان الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ، ولا تهيد فى مسيرها عن طريق أمسها ، ان السحر لا يقوى على منعها ، ولكنها تأتى الى أولئك الذين يعطونها ماء» .

«انك تعلم أن القضاة يحاسبون المذنب ، ولا يرحمون الشقى يوم المحاكمة ، وتصود العاقبة ان كان المتهم هو الواحد المعلق (ربما تصوت رب الحكمة الذى سيدبر المحاكمة يوم الحساب) ، لا تضع ثقتك فى طول السنين ، فهم ينظرون الى مدة الحياة كساعة ، ثم يبعث الانسان ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان المخلود مثواه هناك (أى فى العالم الآخر) ، والغنى من لا يهتم ، أما من يأتى اليهم دون أن يرتكب

انما : فانه سيثوى هناك ، ويمشى مرحا مثل سادة الابهية (اسم للابرار المتولين) •

«اعل من شأن الجيل الجديد تحبك العاصمه ، وزد اتباعك من الرعية ، ان مصر بلد عامر بنشئ غص في سن العشرين • وأن الجيل الناشئ انما يسعد بمن يستوحى ضميره • فان فعلت ذلك فذلك العامة ، وأتاك رب كل أسرة بأبنائه راضيا ، فبهذه السياسة حارب القدماء من اجلنا ، منذ رفعت أنا شأنهم ، فارفع أنت شأن نبلائك ، وعظم محاربيك ، واسبح الخير على جيل الشباب من اتباعك ، واحرس على أن يقروذوا بالمعاطيا ، ويطمئنوا بامتلاك الارض ، ويكافؤا بالانعام» •

«لا تفرق بين ابن النبيل وبين ابن فقير الاصل ، وتخير الفرد لكفايته الشخصية ، اذا تعرضت حدودك للخطر ، فاعلم أن هذا يعنى أن حملة القوس الذين في الشمال سيتمنلقون بعمدة الحرب ، ابن حصونك في الشمال •

«حسن علاقتك مع البلد الجنوبي (ربما يعنى طيبة) فيحضر اليك حملة الاكياس بانهدايا ، لقد فعلت مثلما فعل الاجداد ، واذا لم يكن لديه من التمح ما يصيله ، فقابل الامر بالرضى ، ماداموا مستضعفين ، واكتلى بفيزك وجعتك» •

«ان الجوانيت الاحمر ياتيك دون عوائق ، فلا تحدث ضررا لمبنى أقامه غيرك ، اقطع أحبارك من طره ، ولا تبني قبرك من أحجار قبور غيرك ، أنظر أيها الملك الذي أريد له دوام المسمة والسعادة والحياة ، لا تتقاعس وتتم مطمئا الى قوتك ، اعتمادا على ما فعلته أنا قبلك ، افعل أنت بنفسك ، اعمل الفكر فيما فعلت ، وانسج على منواله ، فلا يكون لك عدو داخل حدودك» •

«نم قلم رجل حاكم في الحينة ، وقد امتلا قلبه بالأسى بسبب الدلتا»
«فنشرت السلام في غربى الدلتا جميعه ، حتى حدود البحيرة (ربما

يعنى مستنقعات الدلتا) ، كما كانت الامور سيئة على شرقى الدلتا ، فلقد انقسمت الى اقلليم ومدن ، واصبحت سلطة رجل واحد فى ايدى عشرة ، ولكنهم الآن يقدمون بكسفا كاملا بجميع انواع الضرائب ، ويدفعون الجزية اليك ، كما لو كانوا عسبة واحدة ، وسوف لا يكون بينهم أعداء أشرار ، ولا خوف عليك من أن لا يجرى النيل ، فاطمئن على حصولك على حاصلات الدلتا ، ان الحد الشرقى للملكة أصبح الآن آمنا ضد البدو الاسيويين» .

«انظر : لقد دقت اربطة السفينة وثبتها على الشاطئ فى الشرق (يعنى وهلت الى الشرق) ، واصبحت الامداد من مدينة «هبنو» (فى مصر الوسطى) الى طريق حور (ويبدأ عند الفرع البيلوزى للنيل) عامرة بالبدن ، ومليئة بقوم من خيرة اهل البلاد حتى يدفعوا أسلحة الاسيويين وغاراتهم ، انبى أتوق الى رجل تسجاع يساوينى فى هذا ، ويعمل أكثر مما عملت» .

«انظر الى الاسيوى اللعين (يعنى البدوى) ، ان الامور سيئة فى بلاده ، فمأواه آسن ، وطرقاته وعرة ، لذلك فهو دائم الترحال ، لا يستقر فى مكان واحد ، وانما ظل يشاغب منذ عهد الاله حور ، لا يغلب ولا يغلب ، لا تهتم بأمره ، فهو ليس الا بدويا ، شخص منبوذ على الشاطئ ، لا يغير الا على الموطن المنزل ، ولا يجرؤ على مهاجمة مدينة عظيمة بالسكان ، أقام الجيـصون فى تضويمك الشرقية ، وابن مدنا وعمرها بالسكان» .

«انظر : لقد جعلت الدلتا تضرهم ، وأسرت أهلهم ، ونهبت ماشيتهم ، فلا تجشم نفسك مشقة فى شأنهم» .

«انظر : لقد عمرت مدينة «كموى» (ربما كانت قل أتريب فيما بعد) ، انها فى نقطة مركزية ، لقد حصنت جذرانها للقتال ، وزاد عدد جنودها ، وكثر أهلها» .

«لقد كثر سكان اقلليم «دد — اسوت» (ربما يقع على مقربة من منف) ، حتى بلغ عدد سكانه عشرة آلاف رجل من المواطنين ، يستمتعون

بخلق الأعفاء من الضرائب والمكوس ، وقد تعود كبار رجاله على الذهب الى العاصمة ، منذ عصر الاله حور» •

«أنظر : ما قاله الملك «اختوى» (رأس البيت الاهنسى) في تعاليمه : ان من يسكت على اساءة المتبجح يضر بنفسه ضررا بليغا ، وان الله يهاجم من يسىء الى المعبد» •

«تقدم فروض الطاعة والاحلال لله ، ولا تقل انه ينسى» •

«لا تقترب بضرر الى الآثار التى أقامها الملوك الآخرون ، حتى لا يجيء ملك بعدك ، فيضر بالآثار التى أقمتها ، تذكر أنه لا يوجد انسلن ليس له عدو» •

«أنظر : أن حاكم شاطئ النهر عليم بكل شئ ، وليس هناك ملك طائش ، مادامت تقوم من حوله حاشية سالحة ، وهو لمن حكيم منذ اليوم الذى خرج فيه من بطن أمه» •

«ان الحكم مهنة شريفة وعظيمة ، ان الحاكم اذا لم يكن له ولد ، أو أخ ، يحيى ذكراه ويخلده ، فلا مانع من أن يقوم الحاكم باحياء آثار غيره ، فكل حاكم يجب أن يفعل ذلك لمن سبقه ، اذا أراد لما أقامه هو أن يعنى به الخلف الذين يأتون من بعده» •

«أنظر : ان مصر تحارب حتى فى الجبابة ، انى فعلت ، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الله ، أنظر : لقد حدثت كارثة فى عهدى ، غزى اقليم «ثنى» بسبب ما فعلت ، غير أنى لم أعرف الا بعد حدوثه ، أنظر : ان ما فعلته هو السبب فيما جوزيت به ، فالضربة ترد بضربة أخرى ، مضى جيل من الناس ، والله الذى يعرف القلوب لم يفتنى ، تعس هو الرجل الذى يطلب الحرب ، لان العدو وسط مصر ، ونحن نريد جنودا لاختضاع المحاربين لى تصدق النبوة : هذه مصر تحارب وسط قبورها لا تؤذ القبور بالحرب ، لاننى فعلت ذلك ، ولهذا استحق ما طه بنى من عقاب الله» •

«يُمر الجبل مقتلاً الى جيل آخر بين الناس ، والله العظيم بالاخلاق قد أخفى نفسه ... انه الواحد الذى يبر ما تراه الاعين ، فلجعل الاله يخدم بالصورة التى سوى فيها — حجراً كريفاً كلفت أم نحاساً — لانه كالماء الذى يطل مطه الماء ، انه لا يوجد مجرى يرضى لنفسه أن يبقى مختبئاً ، بل يكتسح الذى يخفيه» .

«زين مثواك الذى فى الغرب (عالم الآخرة) ، وجعل مقعدك فى الجبانة ، ولكن اياك أن تكون شريراً ، فالصبر خير ، فاجعل ذكراك خالداً بحب الناس لك ، اجعل الناس يصبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان ، تذكر أن فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الظالم الشرير (أى الثور الذى يقدمه كقربان) ، ومع ذلك افعل شيئاً للاله حتى يجازيك بالمثل ، بقربان تملأ به المائدة ، وبنقش يخلد به اسمك ، والله عليم بكل من يفعل شيئاً من أجله» .

«ان الله قد رعى الناس ، وهم قطع الله ، وهو راعيهم ، وقد خلق السموات والارض كما يرغبون ، وخفف من حدة الظلم بالماء ، وخلق الهواء لتحميا به أنوفهم ، وانها لصورة منه خرجت من أعضائه ، وهو يصعد الى السماء حسب رغبتهم ، وقد خلق لهم النبات والمائية والطيور والاسماك غذاء لهم ، ولكنه يعاقب كذلك ، فقد قتل أعداءه ، وحارب أبناءه بسبب ما دبروه عندما انقلبوا عليه ، وهو قد خلق النور حسب ما يرغبون ، وجعلهم كذلك ينامون ، وهو يسمعهم عندما ييكون ، وجعل لهم حكماً وهم فى البيضة (أى قد وهبوا الحكم قبل الولادة) ليحموا ظهور الضعفاء منهم ، وجعل لهم من السحر سلاحاً يتقون به الحوادث ، وهو الذى قتل عاتى القلب فيهم ، كما يقتل رجل ابنه أو أخاه ، ان الله عليم بكل اسم (أى بكل انسان)» .

ثم تنتهى الارشادات بنصيحة عامة يفهم منها :

«لبيك تصل الى (أى فى العالم الآخر) دون أن يتهمك أحد ، لاتقتل

أحدا «من يقفون قريبا منك ، بعد أن تكون قد امتدحتته ، والله يعرفه —
دع الدنيا كلها تحبك» •

«أنظر : لقد حدثتك بخير ما في نفسي من أفكار وآراء ، فاعمل حسب
ما تقرر أمامك» •

٤ - تعاليم الملك امنمحات الاول لولده سنوسرت

في أوائل القرن العشرين قبل الميلاد ، جلس «امنمحات الاول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) على عرش الكتلة مؤسساً الأسرة الثانية عشرة ، والتي تمثل فترة من ازدهر فترات التاريخ المصري القديم (الدولة الوسطى) ، ورغم أن الملك «امنمحات الاول» (سحتب ايوب رع) إنما كان على نشاط جم في تدبير أمور مملكته ، وحسن تنظيمها ، ولم يدخر وسعاً في نشر الأمن والسلام في ربوعها ، فلقد دبر مؤامرة لاغتياله ، بتدبير من الحريم ، في أكبر المكن ، وقد اختلف المؤرخون في نتائجها ، فذهب فريق الى أنها أودت بحياة فرعون ، بينما ذهب آخرون الى أن الرجل قد أصيب فيها ، ولكنه لم يلق حتفه ، ومن ثم فقد أشرك معه ولده «سنوسرت الاول» في العرش ، ثم زوده بنصائحه في الاثر المعروف باسم «التعاليم التي ألهاها الملك «سحتب ايوب رع» ، ابن رع ، امنمحات متحدثاً برسالة خذه لولده سيد الجميع» ، وهي قطعة أدبية ممتازة ، تشتمل على خلاصة تجاربه الشخصية الواسعة ، يصف فيها أعماله ، وما لقيه من جهود ، وسوء تقدير .

وكانت تعاليم «امنمحات الاول» هذه ، من أحب المقطع الأدبية الى قلوب المصريين القدامى ، ومن ثم فقد كان لها نصيب كبير من الشهرة في عهد الدولة الحديثة . وتوجد من هذه التعاليم أربع نسخ فيها النص الكامل ، كما وردت أجزاء منها على نحو تسع قطع من «اللخاف» (الاستراكا) ، يرجع تاريخها الى عصور مختلفة ، تبدأ في الأسرة الثانية عشرة ، وتنتهي في الأسرة العشرين . أى خلال فترة لا تقل عن أربعة قرون ، وإن كان كثير منها إنما هو تمارين كتبها طلبة المدارس في عهد الأسرة التاسعة عشرة ، ومن ثم فهي خاطفة بالخطأ .

هذا وقد اهتم كثير من العلماء بنشر هذه التعاليم ، لعل من أهمهم :

«الجريفت»^(١) و «ماسبيرو»^(٢) و «فولتن»^(٣) و «هلك»^(٤) و «لوبز»^(٥) ،
 كما ترجمها وعلق عليها كل من «برستد»^(٦) و «ارمان»^(٧) و «ويلسون»^(٨)
 و «جاردنر»^(٩) و «دى بك»^(١٠) و «فولكتر»^(١١) و «أنثيس»^(١٢)
 و «جديك»^(١٣) وغيرهم^(١٤) ، وهذا فضلا عن الترجمات العربية
 للتعاليم^(١٥) .

ويقول الملك «أمنمحات الاول» (سحتب ايب رع) فى نصائحه لولده
 : «سنوسرت» :

-
- F. L. Griffith, The Millingen Papyrus, in ZAS, 34, 1896, (١)
 p. 35-51.
 G. Maspero, Les enseignements d'Amonemhat Ier d Son fils (٢)
 Sanoudarit Ier, Cairo, 1914.
 A. Volten, Zwei altägyptische Politische Schriften, 1945, (٣)
 p. 104-128.
 W. Helck, Der Text der Lehre Amonemhats, I für seinen (٤)
 Sohn, Wiesbaden, 1969.
 J. Lopez, les Papyrus Millington, in RdE, 15, 1963, p. 29-33, (٥)
 Pls. 4-8.
 J. H. Breasted, in ARE, I, Parag. 474-483. (٦)
 A. Erman, in LAB, 1927, p. 72-74. (٧)
 J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 418-419. (٨)
 A. H. Gardiner, in Melanges Maspero, I, p. 479-496. (٩)
 A. de Buck, in Melanges Maspero, I, p. 487-492. (١٠)
 A. de Buck, in le Museon, 59, 1946, p. 183-200.
 R. O. Faulkner, in Griffith Studies, p. 69-73. (١١)
 R. O. Faulkner, The Literature of Ancient Egypt, p. 193-197.
 R. Anthes, in JNES, 16, 1957, p. 176-190, 17, 1958, p. 208-209. (١٢)
 H. Goedicke, in JARCE, 7, 1968, p. 15-21. (١٣)
 M. Malinine, in BIFAO, 34, 1934, p. 63-74. (١٤)
 M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, 1975, p. 135-139.

(١٥) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٣ ، محرم كمال :
 المرجع السابق ص ٨١ - ٨٥ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٦٧ -
 ١٦٩ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، نجيب ميخائيل :
 المرجع السابق ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ١٩٨ -
 ٢٠٦ ، محمد بيومى مهران : مصر ٣٣٧/٢ - ٣٤٨ (الاسكندرية ١٩٨٨) ،
 عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

«لأنت يا من غدوت ملكا ، استمع لما أقول ، حتى تصبح ملكا على البلاد ، وتحكم على ضفاف النهر ، وتسيطر على العالم ، وحتى يمكنك أن تحقق الخير ، خذ الحذر من عمالك ، فما أطاع الناس إلا من أربهم ، وإياك أن تدنو منهم وحدك ، لا تثق بأخ ، ولا تصطفى لنفسك صاحبا ، أو تتخذ خليلا ، فلا خير في ذلك ولا جدوى منه» .

«لنكن حارس نفسك عندما تنام ، حرصا على حياتك ، فلا صديق لأمريء في ساعة الشدة ، فإنا قد أعطيت السائل ، وربيت اليتيم ، وأعنت المعمم ، ومع ذلك ، فالذي أكل خبزي هو الذي استعذى الناس على ، والذي مددت له يد المعونة ردها بالمكيدة ، والذين اكتسوا بكتاني الفاخر نظروا الى كخيال ، والذين ضمختهم بعطوري قد أنتنوا أنفسهم بطبيها ، فدخلوا مخدعي لينخدروا بي» .

«إن تماثيلي وصوري قائمة بين الأحياء ، وأعمالى ذائفة بين الناس ، ومع ذلك فقد دبروا مؤامرة ضدى لم يسمع بها أحدا ، وأقاموا صراعا كبيرا لم يره أحد (أى لم يفش أحد الى يسره) ، لقد قتل الرجال في مكان الصراع ، ونسوا ما كان بالامس ، أن حسن الطالع لا يكون من نصيب من يجهل ما دبر له» .

«كان ذلك بعد المشاء ، حينما أقبل الليل ، وكنت قد اضطجعت في فراشى بغية أن أحظى بساعة من هدوء ، فقد كنت مجهدا مكودا ، فسمعت نفسى وراء النوم ، ولكنى بصرت بأسلحة تبرق ، وسمعت من يذكر اسمى ، فظلت في مكانى كتمبان الصعراء ، ثم سرعان ما قمت لأحارب وحدى ، وقد أدركت أن هذا هجوم دبره الحرس ، ولو كان في يدي سلاح لاشتقت أولئك المخنثين شذر مذر ، لولا أنه ما من شجاع بليد ، وما استطاع انسان أن يحارب وحيدا ، وليس هناك نجاح بخيرك أنت الذى تقوم على حمايتى» .

«ننظر : كيف أريق الدم ، وأنت بعيد عني ، وما أنذا أعهد اليك بالملك ، قبل أن يسمع بذلك رجال البلاط ، وانى لفاعله ما تريد ، ومن قبل

لم آخذ الحيلة لئلا تترك المؤامرة ، لاني لم أكن أتوقعها ، ولم تظن
نفسى الى تراخى الحرس» •

«أنظر : أكانت المؤامرة بفعل الحريم ، أنبتت بذورها في أركان بيتى ،
أم خدع المخدم فيما فعلوا ، أن سوء المطالع لم يلزمنى منذ ولادتى (كما
لزمى اليوم) ، ولم يحدث شيء من قبل يعدل بسالتى واقدامى ، ومع
ذلك فهذه خاتمة كل شيء» •

«لقد شققت طريقى حتى «الميفانتين» (آبو = جزيرة أسوان) ،
وطويت الارض حتى أخوار الدلتا ، ووقفت عند أطراف الارض ،
وخبرت أواسطها ، وبلغت معازل الحدود بقوة يمينى ، وبما قمت به من
جلائل الاعمال» •

«لقد زرعت القمح ، وأحببت الاله «نبر» (اله الصوب) ، وحيانى
النيل في كل واد ، ولم يشعر أحد بالجوع أو الظما في عهدى ، وكان كل
الناس راضين عما فعلت ، والجميع يقولون : لقد أجيبت كل رغبة ، لقد
قهرت أهل «اواوات» ، وأسرت «المجاى» ، وجعلت الاسيويين يفرون
كالكلاب» •

«لقد أتممت لنفسى بيتا مزينا بالذهب ، وحلى سقفه باللازورد ، وكانت
لجدرانها أسس عميقة ، واتخذت أبوابه من النحاس ، ومتريسوها من
البرونز ، وقد صنعت للخلود ، وتحدى الابدية» •

ثم يختم الملك امتهبات نصائحه لولده سنوسرت بقوله :

«أيها الملك سنوسرت ... لتسر أقدامك ... أنت قلبى ، وعيناي
ترمقانه ، أن الاطفال أنفسهم يحسون النشوة حتى يقفون الى جانب
الخلق الذين يقدمون لك المديح ... تأمل اننى مهدت وجهت في
البداية ، وأنت تسيطر في النهاية ... هنالك بهجة في قارب رع فالتمثيل
قد أقيمت ، وقبرك سيكون خافرا» •

الكتاب الثانى

العلوم

الفصل الأول

المراكز الثقافية ودور الحياة

لاريب في ان الثقافة والعلم والمعرفة انما قد كانت في عقيدة المصريين
المقدامي اسمى ما يمكن أن يصل اليه المرء في حياته ، كما كانت سبيل
المخلود بعد مماته ، فليس العالم فوق الاسماء ، وعلمه من نور السماء ،
ومن ثم فليس غريبا أن يجعل شعب مصر أصحاب العلم والمعرفة في المكان
الابرار من دنياهم وأخراهم ، وذلك لانهم يعلمون وغيرهم يجهلون ، وهم
الذين رسموا لأهل زمانهم ، ولأن جاء من بعدهم من أجيال البشر ، صور
الحياة بأشكالها وأسمائها ، وهم الذين تخيلوا مصائر الناس ، ورسموا
لها - ما توهموا - من صور ، ثم هم الذين خالوا ، وصورا ما خالوا
من عوالم السماء ، ومكان عرش الله تعالى منها ، وجعلوا عنده خزائن
العلم وأسراره ، يهبط بها «تحت»^(١) - فيما يظنون - ليهدى من يشاء
من علم السماء ما يعمر به الأرض ، ويملاونها خيرا ونورا •

هذا وقد مجد المصريون المقدامي - والحمد لله - أبطال الفكر ، لم
يدفعهم الى ذلك خوف أو ملق ، ولكنهم فعلوا ذلك عن ايمان ويقين ،
وحسبنا أنهم رفعوا رسل العلم والثقافة فوق مراتب البشر العاديين ،
ولدينا من سير أولئك على سبيل المثال «ايمحوتب»^(٢) ، ذلك الذي ملأت
شهرته آفاق الدنيا ، واستطاعت أن تفرض نفسها على الالام من مطلع
الاسرة الثالثة (في أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد) حتى أدرك
التاريخ بمصر زمان البطالة (في القرن الثالث قبل الميلاد) الذين عرفوا
سيرة الرجل غابله مراتب الالهة ، وكانوا قد سمعوا بما له من معرفة
بالطب •

وهكذا فقد شاد مريدو «ايمحوتب» - بصفته ربا للشفاء - في

(١) أنظر «تحت» (محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية القديمة
٣١٣/٢ - ٣١٥) •

(٢) أنظر عن «ايمحوتب» (محمد بيومي مهران : مصر ١١٨/٢ -
١١٢) •

العصر الاغريقى بمقصورة فوق السطح العلوى لمعبد الملكة «حشيسوت»
 فى الدير البحرى عوشجوه — فيما يرى مؤرخنا الوطنى مانيتو — بالمعبود
 الاغريقى «اسكليبيوس» — راعى الطب والحكمة — ومجدوه لمهارته فى
 الطب ، وفى الادب والكتابة ، فضلا عن استخدامه الحجر المنصوت فى
 البناء ، ومن ثم فقد قدسوه فى «الاسكليبيون» المجاور للعاصمة المصرية
 «منف» ، وهو معبد أقاموه فوق ما ظنوا أنه قبره القديم ، جنوبى
 السرابيوم ، وهكذا أصبحت سقارة من أهم المناطق التى تمتعت بشهرة
 فلتقة فى عبادة «ايمحوتب» ، ولعل كل هذا انما يعنى أن المجد فى مصر
 الفرعونية لم يكن مقصورا على الفراعين وحدهم ، وانما كان للنوابغ من
 عامة القوم نصيب منه يزيد عن نصيب الفراعين أحيانا .

وهناك «أمنحتب بن حابو» الذى عاش على أيام «أمنحتب الثالث»
 من فراعين الاسرة الثامنة عشرة ، وقدسوه القوم بعد وفاته ، فكانوا
 يحجون الى مزاره فى الدير البحرى بعبادة طيبة ، التماسا للشفاء ، ولما
 كان زمان البطالة الهوى ، كما ألها سلفه ، ومازالت الدنيا تذكر غير
 هذين العظمين من شيوخ العلم والحكمة فى مصر الفرعونية أبطالا ،
 نذكر منهم على سبيل المثال «بتاح حوتب» ، و«دندف حور» و«كاجمنى»
 من زمان الدولة القديمة ، كل أولئك من الاسماء الخالدة فى تاريخ مصر ،
 ويرجع الفضل فى ذلك الى رجاحة العقل المصرى الموفى الذى عرف كيف
 يمجّد العلم وأهله .

ولعل مما تجدر الإشارة اليه أن المصريين القدماء لم يروا أبدا فى
 التعليم لونا من ألوان الترف ، ولكن كان التحليم عندهم ضرورة من
 ضرورات الحياة ، بل ربما كان عندهم كالطعام والشراب ، وحسبنا أن
 نرى من صور حياتهم كيف أن الولد الجاهل قد كان حملا ثقيلا على كتفى
 أبيه ، كان له مصدر تعلية وشقاء فى حياته ، يظلمه الرأس خجلا من
 بنوته ، ويضيق به حتى ليقمنى له الموت أحيانا ، فى حين كانت الفضيلة
 — كل الفضيلة — فى تعليم الابناء، لينقدوا أنفسهم من الجهالة والضلالة،
 وليغسلوا عن ذواتهم قذر الجهل ، وليوقوا آباءهم وذويهم كل حرج

وضيق ، ولينفخوا أنفسهم وأبناءهم ، وليؤدوا رسالتهم في الحياة ،
وينتظروا الجزاء على ذلك في الآخرة .

وعلى أية حال ، فلقد كانت دوافع التعليم في مصر ثلاثة : دافع
التعلم للانخراط في سلك الهيئة الحاكمة ، ودافع التعليم لخدمة المطالب
الدينية أو لاكتساب نصيب من العلم الديني الشخصي ، ثم دافع التعليم
تقديرا للعلم وكرامته .

هذا وقد اقتضت طبيعة الحياة وظروفها في مصر الفرعونية أن يكون
التعليم فيها أول الأمر مهنيا ، ونعني تعليمًا يفي بحاجات البلاد من
موظفين واداريين ، وعمال وفنيين ، كما كانت العلوم فيها تطبيقية ، أما
العلوم النظرية التي تقتضى أصحابها البحث الدقيق ، والنظر الطويل ،
والسعى المتصل ، بغية الوصول الى النتائج العلمية المرتقبة ، فلم تكن
مما يهتم العالم القديم في شيء ، ذلك لان العالم القديم لم يكن قد فرغ
بعد من بناء حياته العملية ، ليتجه الى العلم النظري ، ومن ثم عقد كان
طبيعيا ألا يتعدى نشاط المصريين العقلى — وهم يضمنون القواعد ،
ويرسمون عليها بناء حياتهم — نطلق ما تقتضيهام مشاكل الحياة اليومية
من حلول .

وهكذا مارس المصريون الفلك ليحددوا موعد الفيضان بغية الوصول
الى مواعيت الزرع والحصاد ، وقد وصلوا عن طريق ذلك الى وضع
تقويم شمسي ، هو تقويم عالمنا اليوم ، واهتموا بالحساب للانتفاع به في
ضبط حاجاتهم العملية في البيع والتجارة والاحصاء وتحصيل الضرائب ،
واقامة المشروعات العامة من سدود وجسور وقنوات ، واقتضتهم حياة
الزراعة أن يمارسوا المساحة ليعرفوا ما يطرأ على أرضهم الزراعية من
نقص وزيادة بسبب فيضان النيل كل عام ، ومارسوا علوم الهندسة ،
وبخاصة المعمارية منها ، فأتقونها اتقانًا لفت أنظار العالم وأثار إعجابهم
قتيبها وحديثا ، وما زالت الدنيا ترى آيات براعتهم فيما بقى من آثارهم
الخالدة ، من أهرام ومعابد ومسلات وقبور نححت في الصخر ، وغير ذلك
من كل مبهر ومعجز .

وعرفوا التشريح لكثرة ما مارسوا من تحنيط أجساد الانسان والحيوان ، الذى أتاح لهم الاطلاع على أدق الاسرار فى بنية الاجساد ، وأكسبهم خبرة بنوا عليها معارفهم الطبية ، وجعلهم يومئذ أبرع أطباء الدنيا ، واقتضت حياتهم الفنية فى مجال الرسم والتلوين والتصوير والصباغة ، وصناعة الادوية والعقاقير أن يمارسوا كثيرا من الصناعات الكيميائية حتى برعوا فيها ، وحتى نسبها التاريخ الى وطنهم العظيم ، وجعلهم فيها أئمة .

ومحذا حملت مصر القديمة مشعل العلم والحضارة فى مختلف مظاهره وتعهده بالرعاية ، فظل دهرها طويلا يضىء العالم ، حتى تسلمته منها شعوب أخرى نقلت الشعلة الى بقية أرجاء العالم فأضاءته ، وكانت القبس الذى أخذت منه ، والمعين الذى نولت منه .

هذا وقد أُنْجِثَت الدراسات الحديثة أن المصريين القدماء كان لهم — بجانب معارفهم وعلومهم التطبيقية — علوم نظرية ، قامت على أسس من الفكر الانسانى والبحث المنظم والمنهج التجريبي ، ولكنها لم تكن تعالج بنفس العمق أو على أساس من قواعد البحث العلمى المتبعة الان فى عصرنا هذا ، ولولا ذلك السياج القوى من السرية والغموض الذى أحاط به الكهنة المصريون علومهم ، لأمكننا التوصل الى الكثير من الآراء والنظريات الطمعية التى كان لهم الفضل فى اكتشافها .

وقد قال « هيودوت » فى أصله عن مصر : « أما عن المصريين أنفسهم ، فهم أولئك الذين يعيشون فى الارضين المزروعة ، ويهتمون دون سائر الناس اهتماما كبيرا بتمرين الذاكرة ، وهم فى العلم يتفوقون كثيرا على كل الشعوب التى خبرتها » ، ويقول : « لقد اكتشف المصريون من آيات الغيب أكثر من كافة الشعوب قاطبة ، وذلك لانه كلما حدثت معجزة خارقة ، راقبوا نتيجتها وسجلوها ، فإذا ما حدث شئ مشابه بعدئذ ، ظنوا أن عاقبته ستكون شبيهة بما سبقها » .

(والمصريون أول من عرف السنة الشمسية ، ووضعوا تقويما تفوقوا

به على اليونانيين ، وأول من سمى الآلهة بأسمائها وأول من أقام لها المعبد والهيكل والتمثيل ، وأول من حفر المصور على الاحجار ، ثم هم أسبق الناس الى إقامة الاعياد العامة والمواكب ، وعندهم تعلم اليونانيون ذلك ، وهم أول العراخين ، وعندهم نقلت العرافة الى بلاد يونان .

«وهم أول من راعى السنة التى تحرم مباشرة النساء في المعبد ، ودخولها بعد ذلك دون اغتسال ، وهم أكثر الشعوب مراعاة للنظافة» .

هذا ولم ينس المؤرخون والفلاسفة من الاغارقة والرومان أن يذكروا بعض علوم المصريين ، التى أخذها عنهم اليونان ، ومنها علم المساحة ، وعلوم الحساب والهندسة والفلك والرسم ، فضلا عن المكتابة التى اعتبروها مصرية النشأة .

وهكذا فلئن كان العالم الغربى اليوم يقر بأن اليونان مصدر حكمته وعلومه وفلسفته ، فإن اليونان أنفسهم ، انما قد أقروا من قبل بأن مصر انما كانت المورد الذى طالما لجأوا اليه ، ليفترفوا من نبعه ، وهذا رأينا كثيرة من الفلاسفة والعلماء الهلينيين قد عبروا البحر المتوسط يلتصسون الاصول والمبادئ فى كل جديد من العلوم فى رحاب الكهان المصريين ، وكان الذين لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، يضيفون الى ما يسطرون من سيرهم من الوقائع بعض ما يشير الى وقوع هذه المرحلة التى أصبحت تقليدية ، بقدر ما كانت ضرورية فى حياتهم ، وكان من أول هؤلاء الرحالة Orphée الذى شارك فى الاحتفال بأعياد الاسرار الخاصة بالمعبود «ديونيس» ، وكذا «هوميروس» و «سولون» و «اغلاطون» وغيرهم .

ومن ثم فقد ظلت مصر — حتى وقتنا آذن مجدها بأقول — تعتبر لدى أغلب من وفدوا عليها وكتبوا عنها من الاغريق ، مهد الرقى وكنز الحضارة ، وهكذا تحدثت «الاولديسة» عن مصر ، وكأنها «بلد الاطباء أحكم أهل العالم» ، و «سولون» يشير الى أن مصر كانت بفضل تشريعاتها ملهمة له ، فهىما قدمه للانسانية ، و «طاليس» يشير الى أنه درس مبادئ الهندسة عن المصريين ، وأنه نصح تلميذه «بييتاجوراس»

أن يدرس في مصر ، ففُضِيَ هذا بها اثنين وعشرين عالما يدرس الفلك والهندسة ، و «أفلاطون» جاء الى مصر لينهل من المعرفة التي اشتهر بها حكماءها ، واستعان على نفقات رحلته اليها بشحنة من الزيت ، ثم أوفد بعد عودته تلميذه «يودكسوس» الذي قضى بمصر حيناً من الدهر يتعلم الفلك ، والذي ينسب عادة ترجمة بعض المؤلفات المكتوبة باللغة المصرية الى الاغريقية ، وأدخل بعض معلومات دقيقة الى بلده عن «سير الكواكب الخمسة» التي مازالت لم تحدد بعد بدقة ، والتي عرف الرجل ما عرف عن طبيعتها الحقيقية ، إبان اقامته بمصر ، وذلك في الغالب هي « نظرية الدائرة التي وسطها على محيط دائرة كبرى» .

هذا ويشير الكتاب الاغريق — في أغلب الاحوال — الى الهندسة والفلك ، عندما يذكرون كهان مصر ، وقد يضيفون الى ذلك أحيانا علم اللاهوت ، عندما يرضى الكهنة فيكشفون لضيوفهم عن أسرار هذا العلم ، ويحدثنا «بروفيرس» (٢٢٣ - ٣٤٠ م) عن رحلة «لفيثاغورث» الى مصر ، فيقول : «بعد أن استقبله الفرعون «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق م) ملك مصر ، حصل منه على رسائل توصية لكهنة «هليوبوليس» (عين شمس) الذين أرسلوه بدورهم الى كهنة منف ، باعتبارهم أعرق منهم . وإن كلن المقصود بذلك إبعاده عنهم ، ومن ثم فلنفس السبب أرسله كهنة منف الى «طلبية» (ديوسبوليس) ، وهنا ، خوفاً من الفرعون ، ولعدم عثورهم على سبب مقنع لإبعاده عن معبدهم ، ورغبة في التخلص منه ، لقد أجبروه على الخضوع لنظام قاس ، وعلى أن ينفذ ذلك في غاية من الصرامة ، ولكنه صبر على ذلك وثبت له ، فكان ينفذ في همة ونشاط كل ما كان يطلب منه ، حتى نال إعجابهم ، فعدلوا عن سلوكهم نصوه ، وأخذوا يعاملونه باحترام ، لدرجة أن سمحوا له بالتضحية لألهتهم ، وهو شرف لم ينله غريب قبله» .

هذا وقد جاء الى مصر حكماء وفلاسفة آخرون من الاغارقة ليتعلموا في المعابد المصرية ، ونحن نملك من التفاصيل أحيانا ما يبين مراحل تدريبهم ، فهذا «أونوميديس» مثلاً أخذ عن الكهنة والفلكيين كثيراً من

الاسرار ، ومن ذلك : أن الشمس تدور في شكل اهليجي (أى أن سمت الشمس المنحرفة يقع على خط الاعتدال في السماء) ، وتتجه اتجاهها مضادا لاتجاه الكواكب الاخرى ، أما «ديموقريط» فقد عاشر الكهنة خمس سنوات ليتعلم ما يتصل بالفلك والهندسة .

وأما الجغرافي «سترابون» فهو يروى لنا في وصفه لمصر ، رحلته الى هليوبوليس ، فيقول : «لقد رأينا هناك الابنية التي كانت مخصصة في الماضي لسكنى الكهنة ، كما أطلعونا على مسكن افلاطون ، و «يودكسوس» لان الاخير قد صاحب افلاطون الى هذا المكان» ، وفيما تلا ذلك من عمور قال أحد المتصوفين الرومان على لسان أصحابه : «اننا لنعلم أن الآلهة كانت ولا تزال تقطن مصر» كما ناقش غيره السبب في أن من ولدوا في مصر المقدسة انما كانوا دائما أكثر غطنة ممن يولدون خارجها ، وغير هذا وذاك كثيرون .

وهكذا كانت الرحلة الى مصر — في نظر الاغريق — رغم أنها تمت في العصور المتأخرة من الحضارة المصرية ، من الضروريات في حياة الفلاسفة اليونان ، فقد كانت مصر تعتبر موطن العلم والحضارة ، وكان على شيوخ الحكماء أن يمضوا فيها وقت المران والدرية ، ولقد نجحت التقاليد في تأكيد ذلك على الاقل ، حتى لو كان البعض منهم لم تطل أقدامه أرض الكنانة أبدا .

ولعل هذا كله انما يشير بوضوح الى أن الشهرة العالمة للحكمة والعلم اللذين استقرا في أذهان الاغريق من أهل العصور القديمة مرتبطتين بطبقة كهنوت المعابد المصرية الكبرى ، ذلك أن فلاسفة اليونان — مهما كانت شهرتهم — انما كانوا يكتسبون مزيدا من اعجاب شعبهم ، اذ بينوا أن رحلتهم الى مصر ، انما كانت مصدرا من مصادر عظمهم ، وذلك بسبب شهرة الكهنوت المصري في المعابد المصرية الكبرى بالحكمة والعلم ، وقد استمرت هذه الشهرة حتى كتابة «الانجيل» في القرن الرابع الميلادي ، حيث جاء في أعمال الرسل عن سيدنا موسى عليه السلام ، «وتعذب بكل

٢ - المراكز الثقافية الكبرى

لعل أهم المراكز الثقافية في مصر انما كانت في عين شمس والاشمونين وحايبة وصا الحجر :

١ - عين شمس : (أون = ايونو = هليوبوليس) :

كانت «أون» عاصمة الاقليم الثالث عشر من أقاليم مصر اله وتقع فيما بين عين شمس (أو في مكانها) وبين المطرية شمالى الق ويشير «ه. رودوت» (٤) (٤٨٤ - ٤٣٠ ق.م) الى أنها كانت بحق العلم والعرفان ، وكان علماؤها أحكم أهل مصر ، وأغزرهم علما يشار اليها وكانما هي موطن الاسرار المقدسة التى تدرس فيها المعتقد ، وتحتوى مكتبتها ذخائر العلوم ، ويتخرج فيها المبرزة الاطباء والفلكيين والحكماء ، وهيل أن المؤرخ المصرى «مانيد (٣٢٣ - ٢٤٥ ق.م) قد جمع تاريخه من سجلاتها ، وكان «سترابون» أن شاهد أطلال دور حكمائها ، وأن كان قد انقض الفلاسفة والفلكيين على أيامه ، بعد أن تخربت معاهدهم ، كما ويشير مؤلف بردية «ايبوس» الى أنه تلقى علومه في «هليوبوليس أن يتجه الى سليس .

(٣) أنظر : نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ص ، أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم في ص ٨٥ - ٨٦ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في القديمة ص ١٣١ - ٣٥١ ، سيرج سونديون : كهان مصر اله ص ١٢٣ - ١٣٠ ، هيرودوت يتحدث عن مصر : ترجمة محمد بقر ذ وتقديم أحمد بدوى ص ٦٧ - ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٥٩ ، ٢٢٦ ، ١٨٢ . اعمال الرسل ٢٢/٧ ، وكذا

ebvre, Romans et Contes Egyptiens, Paris, 1949 p. 221.

Schubart, Die Griechen im Aegypten, 1927, p. 6-7.

(٤) أنظر عن «هيرودوت» (محمد بيومى مهران : مصر -

الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٤ - ٨٢) .

(٥) أنظر عن «مانيتو» (محمد بيومى مهران : المرجع الس

ص ٦٥ - ٦٨) .

هذا وقد كفل لمدينة «عين شمس» شهرتها في الفلسفة والدين قدم مذهبها في نشأة الوجود ، ثم ارتباطها باله الدولة «رع» فقد تداخل مذهبها الذي اتخذ «رع أتوم» المكانة الرئيسية فيه في أغلب فلسفات المصريين الدينية والاسطورية ، وأضحى موضعاً لتأويلات وشروح المجتهدين ، هذا فضلاً عن أن النشاط العلمي والفكري في عين شمس قد تعدى أصول الفلك والدين وفلسفته وأسراره وتدرّيس الحكمة وآداب السلوك ، إلى الطب ، ومن ثم رأينا مؤلف بردية أميرس الطبية يقول : «لقد تخرجت من أون مع كبراء القصر العالي ، أرباب الحمالية وسادة الإلاديه»^(٦) .

٢ - منف (انب حج) :

لم تكن جامعة عين شمس اللاهوتية العلمية وحدها هي منار العلم في مصر الفرعونية ، وإنما كانت تنافسها — بل وتجهد أن تظهر عليها — منف^(٧) (وتقع تحت وبجوار قرية ميت رهينة ، بمركز البدرشين ، على بعد ٢٢ كيلاً إلى الجنوب من القاهرة) ، وقد كان لها مذهب ينافس أون في نشأة الوجود^(٨) ، كما كان كبير كهنة الإله «بتاح» فيها يحمل لقب «عظيم الفنانين» .

وهناك مراكز أخرى عريقة للثقافة مثل «الاشمونين» (خمنو المصرية)،

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٦ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٠ ، وكذا

W. W. Tarn, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 235-236.

CAH, VII, p. 260

Strabo, XVII, 29.

A. D. Nock, JEA, XI, p. 127.

(٧) أنظر عن (منف) (محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثاني - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٧٨ - ٨٢) .

(٨) أنظر عن نشأة الوجود في نظرية عين شمس (محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية القديمة - الجزء الثاني ص ٢٤٣ - ٢٤٩) وعن نظرية منف (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٥٤ - ٢٦١) .

(٩) أنظر عن الاشمونين (محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ١٦٥) .

وتقع على مبعدة ١٠ كيلا شمال غرب ملوى بمحافظة المنيا) مركز عبادة «تحتوت» رب الحكمة وعاصمة الاقليم الخامس عشر من أقاليم مصر العليا (الصعيد) ، ثم «طلبية» (الاقصر) عاصمة الامبراطورية ، ولكل منهما نظريتها الخاصة بنشأة الوجود (١٠) .

ثم هناك «أبيدوس» (١١) (ابجو = عرابة أبيدوس على مبعدة ١٠ كيلا غربى البلينا بمحافظة سوهاج) ، المركز الدينى الممتاز ، حيث كان القوم يزعمون أن رأس معبودهم «أوزير» دفنت فيها ، ثم هناك «سائيس» (١٢) عاصمة الاقليم الخامس من أقاليم الدلتا (سلو المصرية ، ومكاتها الان صا الحجر) ، على مبعدة ٧ كيلا شمال بسيون بمحافظة الغربية) ومدينة الطب في عصر النهضة (الاسرة السادسة والعشرون ٦٦٤ - ٥٢٥ ق.م) .

٣ - دور الحياة

اختلف الباحثون في «دور الحياة» (برو - عنغ) ، فبينما ذهب فريق الى أنها معاصرة علمية ، ذهب فريق آخر الى أنها لا تعدو أن تكون دورا للنسخ والتصنيف (١٣) ، وقد عرفت «دور الحياة» في مصر منذ الدولة القديمة ، وكانت توجد في المواضر الهامة ، وميث وجدت المعابد الكبيرة ، ففي دائرة معبد الاله «مين» في مدينة «قفط» (على مبعدة ٢٢ كيلا جنوبى قنا) عاصمة الاقليم الخامس من أقاليم الصعيد ، قامت دار حياة تواتر ذكرها من الدولة القديمة ، كما تواتر من العصور المتأخرة .

هذا وقد وجدت دور الحياة أيضا في المراكز الدينية الكبرى ، مثل عين شمس ومنك ، فضلا عن تلك التى كانت تنسب الى المعبود «خنوم» ، والتى يحتل وجودها في «أكبر المدن» ، كما في أليفانتين (جزيرة أسوان)

- (١٠) انظر عن نشرتهى الاشمونيين وطلبية في نشأة الوجود (محمد بيومى مهران : المروج السابق ص ٢٤٩ - ٢٥٤ ، ٢٦١ - ٢٦٥) .
(١١) انظر عن «أبيدوس» (محمد بيومى مهران : مصر ٧٨-٧٤/٢)
(١٢) انظر عن «سائيس» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ١٧١) .

A. H. Gardiner, Onom., I, 1947, 35.

A. H. Gardiner, The House of Life, in JEA, 24, p. 167-177. وكذا

وادفعو واسنا والطود ، هذا فضلا عن تلك التي وجدت في غير أيام الدولة القديمة ، كما في طيبة وأبيدوس والعمارنة والبرشا والحيية والثشت (ايثت تلوى) ، وفي سليس وتل بسطة ، فمن الصلّاق المفترضة أنه كان لكل معبد ذى مكانة ملحوظة «دار حياة» خاص به .

وكان خريجو «دور الحياة» يشغلون عادة مكثفة ممتازة ، ومركزا مرموقا في المجتمع المصرى القديم ، فالواحد منهم انما هو «كاتب دار الحياة» ، «ما من أمر يسأل عنه ، الا ويجد له جوابا مناسبا» ، وكان أبرز ألوان النشاط في «دار الحياة» هو اعداد الكتب الدينية اللازمة للعبادة ، وذلك باعادة كتابة المخطوطات القديمة وتصحيح ما فيها من أخطاء ، وسد ما فيها من فراغ يتسبب عما لحق القراطيس من فعل الديدان الارضية ، كما كانت تعد هناك النصوص الدينية ، وبخاصة ما اتصل منها بأمور العبادة المتعلقة بكل معبد ، هذا فضلا عن تسطير الكتب المسحورية الخاصة بالحماية من الشر ، الى جانب الجداول الفلكية كما كانت تنسخ من «كتاب الوتى» آلاف النسخ ، ويمكننا القول بصفة عامة ان كل ما كان ينقش على جدران المعابد ، وكل ما كان ينسخ من قراطيس البردى التي كلفت تقتنيها شؤون العبادة ، وسائر عناصر الثقافة الكهنوتية ، انما كان يخرج من «دور الحياة» .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن المتخرجين في دور الحياة لم يكونوا كهنة بالمعنى المعروف ، فهم ألصق بالعلم منهم بالدين ، وألقابهم تشير الى تمسكهم بالالقب الخاصة بالكتاب ، أكثر من التصاقهم بألقاب الكهنة ، وان كان هذا لم يحل أن يجمع بعضهم بين وظائف دور الحياة ، ووظائف الكهنة في آن واحد ، أو أن يتولى منصبا دينيا في دار الحياة نفسها ، بحيث ظهر منهم من تلقب بلقب «الكاهن الاعلى لدار الحياة» ، ومن تلقب بلقب «الكاهن الاول لدار الحياة» ، ومن تلقب بلقب «الاب المقدس لرع أئوم في دار الحياة» .

وتشير نصوص من العصور المتأخرة الى أن كتبة دور الحياة انما كانوا يفحصون بأنفسهم العلامات في الحيوانات المقدسة ، والشرائط التي

يجب توافرها فيها ، تبعا لما تحت أيديهم من وثائق ، كما كان يعهد اليهم بكتابة أناشيد التبعيد للملوك المتأخرين ، وكتابة نسخ منها لمختلف المعابد ، وكانت مواكب أعياد الالهة تقصد بهو الاحتفالات في دور الحياة ، فتقوم هيئة الدار بافتتاح الحفل ، وتفسير اسم المعبود .

وليس هناك من ريب في أن من أهم واجبات دور الحياة تمسكهم الآداب والمعارف العامة ، إذ أنه كان يفترض في كتبة دور الحياة التعمق في العلم ، والسحر بصفة خاصة ، حتى كان يلقب المتخرج فيها بلقب «رئيس السعرة» ، وطبقا لما جاء في الاساطير ، فهم يستطيعون معالجة الامور بسحر يستعصى فهمه ، قد يصل الى مرحلة اعادة الحياة الى الاوصال المقطوعة ، كما رأينا من قبل في أسطورة خوفو والسعرة ، ومن المعروف أن السحر عند القوم انما كان شديد الصلة بالدين ، ومن ثم فلا غرو اذن اذا اجتمعت هذه الدراسات في صعيد واحد ، وان صعبت التفرقة في التخصص بينهما .

هذا وكانت هناك صلة وثيقة لدور الحياة بالطب والاطباء ، كما يشير الى ذلك الكاتب كبير الاطباء «وجاحررسنت» الذي عاصر «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق.م) و «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م) وكان مقربا من «نقمبيز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق.م) و «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) في نص جاء فيه : أن دارا أعاده الى مصر ، بعد أن كان قد اصطحبه الى فارس ، «لاصلاح أقسام دور الحياة الخاصة بالطب ، بعد أن تخربت» ، وقد وجه جهوده الى مدينة سايس ، عاصمة البلاد وموطنه الاصلى ، وفي هذا بطبيعة الحال تعزيز لما ذكره صاحب بردية ايبيرس الطبية من أنه في سايس ، حيث كان مع أمهات الآلهة ، كما فيه أيضا دلالة على أن هذه المدينة انما كانت مركزا هاما للدراسات الطبية في مصر القديمة .

هذا ويبدو أن «دور الحياة» لم تكن دائما في المعابد ، وانما كانت في مبان ملحقة بالمعابد ، كما تشير الى هذه التفرقة بعض النصوص المتأخرة ، وقد تعرف «بندلبرى» على أطلال دار حياة في المعارنة بعد أن وجد

أختاماً مرقومة باسمها على بعض قوالب اللبن التي بنيت بها ، وقد تبين أنها كانت على مبعدة ٤٠٠ متراً ، جنوبى معبد أتون الكبير فى الممارنة ، وعلى مبعدة مائة متر شرقى المعبد الصغير ، والصلاحية الملكية ، هذا ومما يؤيد تميز مبانى دور الأحياء عن المعابد — فيما يرى جاردنر — نص فى معبد أدفو وصف تنقلات الآله «(حور)» فى أحد أعياده ، فذكر : أنهم اتجهوا من المعبد الى بهو دار الحياة حيث يؤدى كل احتفال لدار الحياة، ثم قضوا ليلتهم فى هذا المكان (١٤) .

-
- (١٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٩ — ٢٢٨ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١ ، ٢٦٠ — ٢٦١ ، سيرج سونيرون : المرجع السابق ص ١٤٨ — ١٤٩ ، وكذا
G. Posner, La Première domination Persée en Egypte, le
Caire, 1936, p. 4, 7, 22.
J. Pendlebury, The City of Achaemenes, III, London, 1951,
Pl. XLIX, 3, LXXXIII, VI, p. 115.
J. Pendlebury, JEA, Io, 1924, p. 134, XXIV, 1928, p. 160 F, 177. وكذا
Urk., I, p. 286, Io, p. 289. وكذا
B. Gunn, JEA, IV, 1917, p. 252, وكذا
G. Maspero, Les Contes Populaires de L'Egypte ancienne, وكذا
Paris, 1916, p. 130.
A. H. Gardiner, JEA, 24, 1938, p. 177. وكذا

الفصل الثاني

الملك

برع المصريون القدامى فى علوم الفلك ، كما برعوا فى غيره من العلوم ، وقد دفعهم الى ذلك عدة أمور ، منها : صفاء سمائهم وظوها عن السحب والغيوم معظم أيام السنة ، ثم اتخاذهم بعض كواكب السماء ، وبخاصة الشمس ، أربابا ، ومنها : حرصهم على ضبط مواعيد النيل ، يربطون بينها وبين ظهور بعض الكواكب فى أوقات معينة ، يقصدون بذلك تحديد مواعيد الزرع والحصاد .

هذا وقد ميز المصريون القدامى فى السماء — غير الشمس والقمر — كواكب لا تعرف الفتور ، منها ما نسميه «عطارد» و «الزهرة» (نجمه المساء ونجمة الصباح) ثم «المريخ» (حور الاحمر) و «المشتري» (النجم الثاقب) وأخيرا «زحل» (حور الثور) ، وهم قد جعلوا هذه النجوم فى بروج (تختلف عن بروجنا التى استمدت من البابليين) ومن العسير معرفتها ، وإن كان قد أمكن التعرف على الدب الأكبر (فضذ الثور) واللبعة (فى صورة الرجل ذى الذراعين المفتوحتين) والمجوزاء (فى صورة رجل يحبو ، وهو ينظر من فوق منكبيه) ، و «الكليسيوبيا» (فى صورة آدمى معدود الذراعين) والدوت والثريا والمقرب والحمل ، وكان النجم الابرق (والمعروف عند العرب باسم الشعرى اليمانية) ذا دور كبير فى حساب الزمن لدى المقوم ، فقد كان شروقه الشمسى محددا للسنة الحقيقية (بمدى يبلغ ٣٦٥ يوما ، وربيع اليوم) .

وقد صورت هذه البروج بأشكالها المألوفة فى سقف بعض القبور ، وحيث كانت قبواتها تزين عادة بأشكال النجوم المألوفة فى الدوائر الفلكية التى ألفوها لدى الاغريق فى أواخر عصور حضارتهم ، وقد كان فى معبد دندرة (على مبعده ٥ كيلا شمال غرب قنا ، عبر النهر) مثلا لحدى هذه الدوائر الفلكية التى تصور السماء تموج بصور البروج المصرية فى أشكالها التقليدية ، وكواكبها السياره ، وما يليها من العلامات التى استمدت وأضيفت للاستطوب النيلي — بصور البروج الاثنى عشر ، ثم مناطق البروج الست والثلاثين ، وقد نقلت الدوائر الاصلية الى فرنسا على أيام الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١م) واستقرت فى

متحف اللوفر في باريس ، ثم وضعت مكانها صورة لها ، غير أن هناك أخرى ماثلة في سقف مقبرة «سيتي الاول» ، ثم مقبرة «سفنموت» في طيبة الغربية ، ثم تلك التي ماتزال باقية في معبد الملك «رعسيس الثاني» الجنائزي ، والمعروف باسم «معبد الرسموم»^(١) .

وهكذا فإن شواهد الامور كافة انما تبين أن المصريين قد وصلوا في بعض المجالات الفلكية الى نتائج ملحوظة ، فلقد استطاع القوم أن يتوصلوا الى حساب الزمن حسابا لا يكاد يختلف عن حسابنا له ، الا بقدر طفيف ، ومن ثم فليس غريبا بعد ذلك أن يكون تقويم عالمنا اليوم في القرن العشرين الميلادي ، انما هو «التقويم المصري القديم»^(٢) مباشرة وبلا تعديل ، فقد أعطى النيل التقويم لمصر ، وأعطته مصر للعالم ، ذلك أن حياة القوم انما كانت مرتبطة بالزراعة ، وهذه بدورها مرتبطة بفيضان النيل ، الذي يرتبط بالشمس ، وليس بالقمر .

وهكذا وضع المصريون التقويم الشمسي ، لأول مرة في التاريخ ، وانفردت به مصر عن سائر المجتمعات المعاصرة ، التي اعتمدت على التقويم القمري ، وبينما جنح التقويم القمري ببعضها الى التجسيم قبل الفلك ، وخاصة في العراق القديم ، حيث كان الفيضان الجاهل خطرا يصل الى حد الذعر ، كما في قصة الطوفان المشهورة ، لم ينحرف الفلك في مصر عن الاتجاه العلمي^(٣) .

وهكذا فلقد لاحظ المصري منذ أقدم العصور ، أن الفيضان يأتي منتظما كل عام ، وفي وقت معين ، ثم حدث أن صادف أول يوم في الفيضان ظهور نجم «الشعري اليمانية» (سوبخت) في المجال الشمسي في وقت الشروق ، مع الشمس في الافق باتجاه مدينة «عنف» ولما استقرت

(١) سهرج سونديون : المرجع السابق ص ١٦٦ - ١٦٨ ، أحمد بدوي وجمال مختار : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢) أنظر عن التقويم المصري (محمد بيومي مهران : مصر ١٧٧/١ - ١٨٣ - الاسكندرية ١٩٨٨) .

(٣) جمال حمدان : شخصية مصر - القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٢ ، وكذا V. G. Childe, Man Makes Himself, London, 1955, p. 112.

هذه الظاهرة في أذهانهم ولحظوها زمناً ، أصبحوا يترقبونها عن قصد ، وأطلقوا على نجم الشعرى لقب «جالبة الفيضان» ، واعتبروا ظهورها في الفجر المبكر (حوالي ١٩ يولييه من التقويم الحالي) ، أول يوم في أول فصل ، أي «بداية السنة» التي قسموها — على أساس الظواهر المتعلقة بنهر النيل وفيضانه — الى ثلاثة فصول •

على أن اتجاها آخر ، يذهب الى عدم الربط بين وصول المصريين الى اختراع التقويم الزمني ، وبين ظهور نجم الشعرى اليمانية^(٤) ، بل ان هناك وجها ثالثا للنظر ، لا ينفي ارتباط السنة المدنية في بلاديء أمرها ، بظهور نجم الشعرى اليمانية فحسب ، وانما يذهب كذلك الى أن التقويم القمري ، انما هو الاساس في توصل القوم الى تقويمهم الزمني ، وأن الشهور القمرية انما هي الاساس لحساب الفترات الزمنية القصيرة في حياة الناس ، وفي أكثر الاحتمالات ، أنهم ربما أخذوا متوسط السنة القمرية في سنوات عدة ، ثم توصلوا بعد ذلك الى أن طولها انما هو ٣٦٥ يوما^(٥) •

وأيا ما كان الامر ، فلقد قسم القوم السنة الى ثلاثة فصول : فصل الفيضان (أخت) ، ويبدأ من منتصف يولييه وحتى منتصف نوفمبر ، ثم فصل الزرع أو الشتاء (بروت) ، ويبدأ من منتصف نوفمبر ، وحتى منتصف مارس ، ثم فصل الحصاد أو الصيف (شمو) ، ويبدأ من منتصف مارس ، وحتى منتصف يولييه ، وكل فصل منها انما يتكون من أربعة أشهر وكل شهر من ثلاثين يوما •

ثم قسموا اليوم الى أربع وعشرين ساعة ، اثنتا عشرة ساعة للنور ، واثنتا عشرة ساعة للظلام ، وتحمل كل ساعة اسما معيناً يحدد تأثيرها ، أي أن القوم انما قد استخدموا السنة الشمسية وليس القمرية ، كبقية

W. F. Edgerton, in JNES, I, 1942, p. 366-403.

(٤)

E. Otto Neugebauer, in Acta Orientalia, 17, 1939, p. 169-195.

وكذا.

R. A. Parker, The Calendars of Ancient Egypt, Chicago,

(٥)

1950, p. 53.

شعوب العالم^(٧) وكانت تستخدم لحساب ساعات النهار ساعات شمسية يقاس فيها امتداد الظل ، ولحساب ساعات الليل ساعات مائية أو ساعات النجوم ، وأما الساعات المائية فأحواض كبيرة مدرجة من الداخل تشير الى التوقعيت بانخفاض مستوى مائها بتسريه الى الخارج أو بارتفاعه بتسريه الى الداخل ، وكان تحديد الزمن بمثل هذه الساعة يحتاج الى عمليات حسابية لضبط حجم الماء ودرجة التبخر ، كما كان يراعى اختلاف طول النهار ، وأما ساعات النجوم — وقد بدأ استعمالها منذ الدولة الحديثة ، ان لم يكن قبلها — فكانت تستخدم فيها أداة لقياس مواقع النجوم في جداول معينة تشير الى دخولها في مناطق معينة ، وهى عملية كانت تقوم في المعابد على الاغلب ، وتعتمد عملية الرصد على وجود راصدين من الكهنة يسجل الواحد منهما موقع النجوم بالنسبة لجسد زميله ، وقد حفظت لنا في مقابر ملوك الاسرة العشرين عدة قوائم من هذا النوع ، وهى تبين موقع النجوم خلال ساعات الليل الاثنى عشرة في فترات تبلغ الخمسة عشر يوما ، وعلى أية حال ، فلو كانت ساعات المصريين القدامى على اختلاف أنواعها صالحة لقياس الزمن قياسا تقريبا^(٨) .

وكانت عدة أيام السنة في نظر المصرى القديم ٣٦٥ يوما ، ولكن مادامت السنة الفلكية تحوى أكثر بقليل من ٣٦٥ يوما ، فهذا يعنى أن السنة المدنية تتأخر يوما كل أربع سنوات عن السنة الشمسية ، أو بمعنى آخر ، ان اليوم الاول من السنة المدنية لا يتفق مع اليوم الاول من السنة الفلكية (الشمسية) الا مرة كل ١٤٦٠ سنة (٤ × ٣٦٥) ، وهذا ما يعرف باسم «دورة الشعرى اليمانية» .

ولم يكن هذا الفرق الضئيل واضحا في بادىء الامر ، ولكن بمرور

(٦) A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, p. 7-8.

(٧) أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، ومحسرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٧٧ — ٣٧٩ ، نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة ص ٤٥٣ ، أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٨ .

الزمن بدت فصول التقويم غير مطابقة للفصول الحقيقية ، كما يبدو ذلك واضحا من بردية من عصر الاسرة التاسعة عشرة ، يشكو صاحبها من أن الشتاء أصبح يجيء في الصيف ، والشهور تتعكس ، والساعات تضطرب (٨) ويقدم «مرسوم كانوب» (أبو قير) ، والمكتوب بلغلت ثلاث في مارس من عام ٢٣٧ ق.م (٩) ، دليلا على أن المصريين بحرصهم الغريزي على التقاليد لم يسعوا إلى علاج لذلك الموقف ، ففي هذا المرسوم يعلن (بطليموس الثالث) (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م) ادخال يوم سادس إلى أيام النسب الخمسة ، كل أربع سنوات ، حتى يمنع الاعياد الوطنية التي تحدث في الشتاء من أن تجيء في الصيف ، فإن الشمس تتغير يوما كل أربع ساعات ، وأن أعياد أخرى تقام الآن في الصيف يجب أن تأتي في المرات القادمة في الشتاء ، كما كان يحدث من قبل .

غير أن هذه المحاولة سرعان ما أهملت ، ولم يعمل بها أحد بعده ، وبقي التقويم كما كان ، حتى اتخذ «يوليوس قيصر» (١٢٠ - ٤٤ ق.م) التقويم المصري والاصلاح المقترح وطبقه في روما ، وفي عام ٣٠ قبل الميلاد فرض الامبراطور «أغسطس» (٢٧ ق.م - ١٤ م) على المصريين التقويم اليوناني ، والمكون من ٣٦٥ يوما ، وإن كان كل من «استرابو» و «ديودور الصقلي» إنما نسب هذا التعديل إلى المصريين أنفسهم ، ومع ذلك لم يستخدم المصريون الوطنيون هذه السنة التي أسموها «السنة اليونانية» ، إلا بعد اعتناقهم النصرانية ، وبقي الأمر كذلك حتى أصلحه البابا «جريجوري الثالث عشر» في القرن الرابع عشر الميلادي ، وأصبح التقويم هو المعروف الآن بالتقويم الميلادي (١٠) .

J. Vercontier and Others, The Near East, The Early Civilization 1967, p. 39. (٨)

A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p. 64. وكذا

E. Bevan, A History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty, (٩) London, 1927, p. 208 F.

(١٠) نجيب ميخائيل : مصر ٥١/١ - ٥٢ ، وكذا

J. Vercontier, Op-Cit, p. 39.

Strabo, XVII, 20.

وكذا
وكذا

هذا ويذهب «لودفيج بورخاردت» (١٨٦٣ - ١٩٣٨م) الى أن المؤرخ الروماني «سانسيرون» قد سجل ظاهرة اجتماع الشعري اليمانية وظلوع الشمس في عام ١٣٧م^(١١) ، ومن ثم فقد أصبح هذا العام نقطة ارتكاز تقوم على قرائن علمية فلكية ثابتة ، وما علينا الا أن نعود في التاريخ فترة ١٤٦٠ عاما^(١٢) الى الوراء ، لنعرف متى بدأت فترة الشعري اليمانية هذه ، ويعملية حسابية بسيطة يمكننا أن نحدد هذه الفترات بأعوام ١٣١٧ . ٢٧٧٢ . ٤٢٢٥ قبل الميلاد ، أى أننا نستطيع أن نتوغل في أعمال التاريخ حتى عام ٤٢٢٥ ق.م ، وهكذا يتجه بعض الباحثين الى أن يوم ١٩ يولييه من عام ٤٢٤١ قبل الميلاد ، انما أقدم توقيت ثابت في تاريخ العالم ، وهو بداية معرفة المصريين للتوقيت^(١٣) ، على أن تصحيحات «كارل شوك» تجعل أقدم تاريخ محدد في العالم ، انما هو (٤٢٢٩ - ٤٢٢٦ ق.م) ، وهذا كله مبنى على حسابات رجعية وليست لها أهمية خاصة^(١٤) .

هذا وهناك وجه آخر للنظر ، يذهب الى أن اتباع توقيت ملكي دقيق ، انما هو عمل عقلى عظيم ، يعتمد دون شك على «قدرة ممتازة في الحساب

A. H. Gardiner, Op-Cit, p. 64-65.

Diodorus, I, 50.

وكذا

وكذا

(١١) عبد المنعم أبو بكر : الموسوعة المصرية ١٨٥/١ - ١٨٦ .

(١٢) يذهب «كارل شوك» الى أن دورة الشعري اليمانية ليست بالضبط ١٤٦٠ يوما ، بل هي أقرب الى أن تكون ١٤٥٦ يوما ، وقد بنى تصحيحه هذا على زيادة سرعة الشمس على مر القرون ، وعلى الحركة الذاتية الكبرى للشعري اليمانية ، وعلى حساب أدق لمدى القوس البصرية (جورج سارتون : مصر - ترجمة مصطفى الأمير - القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٩ ، وكذا Carl Schoch, Die Lange der Sothisperiode beträgt, 1456, Jahre, und Astorn, Abhandl, Ergänzungshäfte Astorn. Nachr, 8, No. 2, B 9-B10, 1930).

(١٣) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٣٤ - ٣٦ ، وكذا

J. H. Breasted, ARE, I, p. 30.

E. Meyer, Aegyptische, Berlin, 1904.

K. Sethe, ZAS, 1931, p. 1-7.

L. Borchardt, Die Mittel Zur Zeitlichen Festlegung, Kairo, 1935. وكذا

(١٤) جورج سارتون : المرجع السابق ص ٩٠ .

والفلك ، لا نستطيع أن نتوقع حدوثه في عصر مبكر لم يعرف الناس فيه القراءة والكتابة ، ومن ثم فربما كان من الأفضل أن نحدد علم ٢٧٧٢ قبل الميلاد ، لمعرفة المصريين للتوقيت الزمني ، وليس عام ٤٢٤١ قبل الميلاد ، ذلك لأن هذا التوقيت لا يمكن أن ينشأ إلا بعد فترة طويلة من الملاحظة والتدقيق ، ثم المقطرة على أن يستخلص الانسان من تلك التدوينات نظاما حقيقيا ثابتا ، وأن ذلك ربما تم في عهد الملك «زوسر» من الأسرة الثالثة (١٥) .

هذا وقد أشارت الوثائق المصرية الى «دورة الشمس اليمانية» ثلاث مرات ، على أقل تقدير ، وعلى فترات متباعدة ، أولها : في وثائق من العام السابع لحكم الملك «سنوسرت الثالث» حوالي عام ١٨٧٢ ق م ، وثانيها : في العام التاسع من حكم الفرعون «أمنمختب الاول» ، حوالي عام ١٥٣٦ ق م ، وثالثها : خلال عهد الفرعون «تحوتمس الثالث» حوالي عام ١٤٦٩ قبل الميلاد (١٦) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن فكرة المصريين القدامى في الفلك ، انما تتضح لا في تقويمهم ، ولا من جداول عبور النجوم خط الزوال ، ولا من جداول ظهورها فمصب ، بل من بعض أدواتهم الفلكية ، من المزاويل الشمسية البارعة ، وتركيب الطمار على العصا الفرجونية التي مكنتهم من تحديد سمت البداية ، ومن هذه الأدوات بقايا محفوظة في متحفى القاهرة وبرلين ، ويمكن اختيار نماذج دقيقة منها في كثير من المجموعات الاثرية المصرية الفلكية (١٧) .

هذا وقد عرف الكهان المصريون أيضا ظاهرة الخسوف ، وهي التقاء

(١٥) انظر :

J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 30.

A. Scharff, HZ, 161, 1939, p. 3-32.

وكذا

R. W. Stoley, The Origin of The 365 - day Egyptian Calendar,

وكذا

ASAE, XLVIII, p. 261 F.

W. S. Smith, in JNES, 11, 1952, p. 122-123.

وكذا

(١٦) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ١٠٠/١ .

(١٧) جورج سارتون : المرجع السابق ص ٩٠ .

الشمس بالقمر ، وقد جاء في الخبر كيف أرب الخسوف جنود الاسكندر
الأكبر ، وهم يحاربون الفرس من جنود «دارا الثالث» (٣٣٥ - ٣٣٢
ق.م) ، وكيف استدعى أحد الكهان المصريين ليذهب عن قلوبهم
الرب (١٨) .

هذا ورغم أن المصريين القدامى قد حددوا ، بوجه علم ، جهاتهم
الاصلية على أساس مجرى النيل ، جاعلين الجنوب - وفيه منابع
النيل - قبلتهم ، فوقع الغرب على يمينهم ، والشرق على يسارهم ، الا
أن دقة تحديد اتجاهات أضلاع قواعد الهرم الأكبر ، وانطباقها على
الجهات الاصلية الأربع وكذا اتجاهات ممراته ، تضمننا على التفكير في
جواز استعانة المصريين بنوع من المراصد الفلكية ، وان كنا لا نعرف
كيف كانت ، ولا كيف استخدمت ، وإلى أين ذهبت (١٩) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أقيمت الاهرامات الكبرى عند خط عرض
٣٠ شمالا ، وأن أضلاع الهرم الاربعسة مواجهة تماما للجهات الأربع
الاصلية ، وربما كان ذلك ليجعلوا مدخل الهرم الذي كان في الناحية
الشمالية متجها نحو النجم القطبي (نجم الشمال) ، ولم يكن ليصعب
على المصريين مثل هذا التدديد الصحيح لاتجاه أضلاع مربع الهرم ،
وذلك لما كان لهم من دراية كافية بعلم الفلك (٢٠) ، كما أن ممرات الاهرام
المائلة انما كانت تنطبق على المستوى الزوالى .

هذا وقد لاحظ «بروكتور» Proctor أنه خلال سبعة أشهر ونصف
من السنة ، نصفها قبل ونصفها بعد الانقلاب الصيفى ، تضىء الشمس
عندما تكون على خط الزوال الاربعه أوجه ، وقد استنتج «محمود باشا
الفلكى» أن الممرات الداخلية كانت تستعمل كآلات زوالية لرصد الاجرام
السماوية قبل غلق الاهرام ، وأن ضوء الشعري الليمانية كان عموديا على

(١٨) ميرج سونديرون : المرجع السابق ص ١٧٠ .

(١٩) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢٠) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية - القاهرة ١٩٦٣ ص ٢١ .

الوجه الجنوبي للهرم الأكبر ، حوالى عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد ، واستنتج
 «دلمبر» Delambre أن المصريين القدماء لآبد وأنهم قدروا سعة
 انحراف اتجاه الشمس عند المتقلين — الصينى والثتوى — •

هذا وقد قام «كول» — وكان يعمل موظفا بمصلحة المساحة المصرية —
 بقياس أضلاع هرم خوفو وانحرافاتهما عن الاتجاهات الرئيسية ، فوجد
 ما يأتى :

الانحراف عن الاتجاهات الرئيسية	طوله	الضلع
٢٨° ٣'	٢٣٠ر٢٥٣	الشمالى
٥٧° ١'	٢٣٠ر٤٥٤	الجنوبى
٣٠° ٥'	٢٣٠ر٣٩١	الشرقى
٣٠° ٣'	٢٣٠ر٣٥٧	الغربى

وتدلنا هذه الدقة فى تعيين اتجاهات قاعدة هذا الهرم (الهرم الأكبر)
 وغيره من الاهرام على أن الكهنة المصريين الذين كانوا يشرفون على بناء
 الاهرام ، لآبد وأنهم استعانوا بالارصاد الفلكية فى تعيين الاتجاهات •

أضف الى ذلك ، أنه فضلا عن هذه الدقة فى تعيين اتجاهات الاضلاع ،
 نجد أنهم لآبد ، وقد تخبروا مواقعها لتكون عند خط عرض ٣٠ درجة
 شمالا ، فقد أقيمت عند حافة المستوى الصخرى وليست بأعلى نقطة
 فيه ، وقد يوازى خط عرضها بأحدث الآلات الحديثة ٥١° ٥٨' ٢٩٠ ± ٣
 وعزا الفرق الى تأثير الانكسار الضوئى •

ولتقدير أهمية الحقائق السالفة الذكر ، علينا أن نتذكر أن الرجل
 العادى فى عصرنا هذا لا يكاد يعرف غير أن الشمس تشرق من الشرق ،
 وتغرب فى الغرب ، مع أن هذا لا يقع فى خط عرضنا سوى مرتين فى
 السنة ، عندما تكون الشمس فى أحد الاعتدالين ، وتعيين هذه الاتجاهات
 بهذه الدقة ليس من الامور الهينة حتى فى عصرنا هذا الذى تقدمت فيه

صناعة الآلات الهندسية التي يستعان بها في مثل هذه الأغراض (٢١) .

بقيت الإشارة إلى أن هناك وثائق محدودة العدد تشير إلى أن التنجيم — وهو الاعتقاد في تأثير مواقع النجوم على نفوس البشر وصلة ذلك بمصلحتهم — وقد كان معروفا ، وقد ذاع هذا الاعتقاد ولقى كثيرا من القبول في أوساط المصريين ، وإن كانت ظواهر الأمور تدل على أن هذا الموضوع حذيل على مصر ، وغير أصيل فيها وفي تفكير أهلها ، وربما قد جاءهم من آسيا مع الغزو الفارسي في أخريات العصور الفرعونية ، وقد يؤيد هذا الظن ما تردد في أسلوب تلك الوثائق من شذوذ غير معهود في اللغة المصرية .

وأما المذنبات من النجوم ، والتي كان يعتبر ظهورها من نذور الشؤم فيبدو أن معرفة المصريين بها لم تكن كافية ، وليس هناك من النصوص ما يشير إليها ، سوى واحد من عصر (تحوتمس الثالث) (١٤٩٠ — ١٤٣٩ ق.م) ، يذكر مرور واحد من تلك المذنبات ، والذي يحتمل أن يكون ما أسماه القوم «هالي» (٢٢) .

وعلى أية حال ، فلقد ظن القوم أن للأبراج السماوية صلة بالناس ، فهناك أيام سعيدة ، وأيام منحوسة ، وهذه الأيام تتمثل في أغلب الأمر بأحداث معينة مترسبة في نفوسهم من جراء ذكريات أسطورية أو دينية ، فمثلا أيام الصلح بين للمبودين «حور» و «ست» أيام سعيدة من غير شك (وهو اليوم السابع والعشرون من هاتور) ، وأيام موت «أوزير» أيام نكس ، وكذا اليوم الرابع عشر من طوبة ، والذي نحت فيه «إيزة» و «نفتيس» على «أوزير» كان يوما منحوسا ، بينما كان اليوم الأول من أمشير ، والذي رفعت فيه السماء ، فقد كان يوما سعيدا .

وكان القوم يمتنعون عن إقامة الحفلات في أيام النكس ، حيث كانوا

(٢١) عبد الحميد سماحة : الفلك عند المصريين القدماء — كتاب تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعوني ٥٧٨/١ — ٥٧٩ (القاهرة ١٩٦٢) .

(٢٢) سيرج سونديرون : المرجع السابق ص ١٧٠ .

يتقادون الموسيقى والغناء مثلا في يوم الحداد على أوزير (الرابع عشر من طوبة) ، كما أن الغسيل كان محرما في اليوم السادس عشر من طوبة، وكان يفضل الامتناع عن السمك في أيام معينة ، واجتلب ذكر اسم المعبود «ست» في اليوم الرابع والعشرين من شهر برمودة .

وكان النخس والسعد يتصلان أيضا بمولد الاطفال كذلك ، فبعض الاطفال لا يعيشون ، ان ولدوا في اليوم الثالث والعشرين من شهر توت، والبعض الاخر تحل بهم المكروه والامراض ، ان ولدوا في أيام معينة كذلك ، فالذى يولد في اليوم العشرين من شهر كيهك يصاب بالعمى ، والذى يولد في الثالث من كيهك يكون المصمم من نصيبه (٣٣) .

(٢٣) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ،
نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٣ .

الفصل الثالث

العلوم الرياضية والهندسية

١ - العلوم الرياضية :

شملت العلوم الرياضية والهندسة جانبا كبيرا من اهتمام المصريين القدامى ، وكانت تشير جنبا الى جنب مع تعلم القراءة والكتابة لأهميتها في الحياة العملية ، وكانت الدراسة نظرية وعملية معا .

وقد بزغ المصريون في بعض العلوم الرياضية بالنسبة لزمانهم ، ويعد عصر الدولة القديمة عصرها الذهبي ، والتي كانت ثمرة خبرة وتطور طويلين ومتصلين في آن معا ، ومن المشكوك فيه أن تكون الرياضيات في أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق م) قد تقدمت عما كانت عليه من قبل ، فقد استخدمت نفس النظريات والاساليب التي كانت معروفة على أيام الدولة القديمة ، ومن ثم فقد استنتج بعض العلماء أن المصريين لم ينظروا الى هذه العلوم نظرة أكاديمية بالمعنى المفهوم ، ولم يحاولوا تطويرها بالبحث المتصل أو استقصاء أصولها النظرية ، بل أن اتجاههم حيالها كان عمليا يكاد يقتصر على الناحية التطبيقية ، على أن هذه العلوم — على علاقتها — قد نفعت وأثمرت ، وأدت كل ما كلن ينتظر منها توسعت مطالب الشعب في كل نواحي الحياة .

وليس هناك من ريب في أن مقتضيات الحياة في مصر ، وجهود المصريين في حل المشاكل المتصلة ببيئتهم وحرصهم الشديد على ذلك ، كانت جميعا من وراء أسباب تقدمهم في الحساب ، فتنظيم مياه النيل وقياسها وضبطها ، وتحديد مواسم الزراعة والصيد ، وأعمال البذل والتجارة وجمع الضرائب العينية ، وتقدير أبعاد الأراضي الزراعية ، ومساحاتها عند بيعها وتأجيرها وتنظيمها باسم الدولة لتنفيذ المشروعات العامة ، وما الى ذلك ، كتغيير حدود الأرض الزراعية بعد موسم الفيضان ممثلا إذا ما طاف طائف من الفيضان فأزال حدود الحقل ، فإنه لا يمكن اعادتها الى ما كانت عليه على وجه مطلق ، الا اذا كلن المرء يعرف مقاييسه بالضبط (١) .

(١) أحمد بدوي وجمال مختار : المرجع السابق ص ٨٩ ، ارمان ورائك : المرجع السابق ص ٣٣٩ - ٤٠٠ .

وقد سبق أن عرفنا في دراستنا السابقة أنه في بداية الدولة الوسطى (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق.م) أن الملك «أمنمحات الأول» (١٩٩١ - ١٩٦٢ ق.م) قد اتبع سياسة جديدة بين أمراء الاقاليم منعت التنافس بينهم ، وذلك عن طريق اقامة حدود ثابتة بين كل اقليم وآخر ، كما سن قانونا نظم به نصيب كل اقليم من مياه النيل الخاصة برى الارض الزراعية ، وهكذا «نظم جلالتة مشرقا كاله الشمس أتوم نفسه ، لكي يزحق المباطل ويعمر ما تخرب ويرده الى ما كان عليه ، ويعيد الى كل مدينة ما اغتصبته الاخرى منها ، ويجعل لكل مدينة حدودها التي تفصلها عن الاخرى ، وقد أرسى أحجار الحدود ثابتة كالسما» ، كما عين تبعية كل قناة بمفردها ، وثبت نصيب كل اقليم في النيل ، ولما كان يجب الحق كثيرا ، فقد اتخذ أساسا لنفسه «لما هو موجود في السجلات القديمة ، وما هو ثابت مقرر في النصوص القديمة» ، وهذا يعنى انه منذ عهد الدولة القديمة ، على الأقل ، كانت حدود الاقاليم ثابتة ومدونة ومسجلة ، وهذا يعنى بالتالى افتراض وجود سجلات زراعية لاراضى المدن المختلفة ومناطقها .

هذا وقد قام «أمنمحات الأول» كذلك بتحديد الكمية التى يقدمها كل اقليم من المواد الغذائية ، وعدد السفن اللازمة للاسطول واعداد الرجال للجيش المربط ، وذلك للمشروعات الملكية فى أقاليمهم أو خارجها ، ومن المعروف أن أمراء الاقاليم انما كانوا مكلفين بحشد الجند ، الذين كانوا يكونون فى ذلك الوقت الجزء الاكبر من القوات المسلحة (٣) .

هذا وكان يحفل ضمن اطار الواجبات الملقة على عاتق المشرفين على حقول أو مخازن غلال المعابد السهر على صحة مقاييس ومساحة الاراضى التابعة لمعبدهم ، وهكذا يظهر السيد العظيم من الدولة الحديثة بعضا طويلا فى احدى يديه ، وفى الاخرى أدوات الكتابة ، يشرف على عملية

(٢) محمد بيومى مهران : مصر ٣٤٢/٢ (الاسكندرية ١٩٨٨) ، عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٣٥٧ ، أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٨٦ ، ٣٢٨ - ٤٠٠ ، وكذا ،

R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, JEA, 39, 1953, p. 36 F.

القياس التى يقوم بها خادمان ، ومعهم شريط قياس ، يظهر أن طوله نحو مائة ذراع ، قسم الى أجزاء بواسطة عقد عقدت في أجزاء معينة لا بد وأن تكون قد اختبرت دقته وصحته ادارة معبد أمون^(٣) .

وكانت تلك كلها أمور تدعو الى استخدام الحساب ، فهم قد عرفوا العشرلت والمثلث والوف الالوف ، وعرفوا الجمع والطرح ، وأما الضرب فكان ضربا من الجمع وجمع الجمع ، أى مضاعفة العدد المضروب في جدول صغير مرات تعادل العدد المضروب فيه ، ثم تجمع حواصل ضرب المضاعفات التى تعادل في مجموعها العدد المضروب فيه ، فمثلا ضرب ١١ × ١٤ يجرى على النحو التالى :

١	١٤
٢	٢٨
٤	٥٦
٨	١١٢

حيث يشير الجدول الى ما يبلغ مجموعه ١١ ، أى أنه يجمع حواصل الضرب في ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، وهى ١٤ + ٢٨ + ١١٢ ، فيكون المطلوب ١٥٤

وأما القسمة : فكانت عملية تجرى عكس عملية الضرب ، أى أنها كانت تعتمد على مضاعفة المقسوم عليه حتى يتعادل مع القاسم ، وهو الابدأ الذى يقوم عليه تصميم الآلات الحاسبة في عصرنا الحديث ، اذ تجرى قسمة ١٥٤ ÷ ١٤ بأعداد الجدول السابق ، ثم جمع ما يقابل مجموع ١٥٤ ، أى ١ + ٢ + ٨ ، وهو ١١ ، فيكون ذلك خارج القسمة^(٤) .

هذا وقد توصله المصريون الى معرفة الكسور البسيطة ، ولتستعملوها بها عن الكسور المركبة (التى لم تستخدم الا في أحوال قليلة) ، وكذلك

(٣) ارمان ورانكه : المرجع السابق ص ٤٠٠ ، وكذا L. Borchardt, AZ, 42, p. 70 F.

(٤) أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ ، أحمد عبد الحميد يوسف : الموسوعة المصرية ٢٥٦/١ - ٢٥٧ .

استخدموا بعض المعادلات الجبرية البسيطة ، هذا وقد اتبع المصريون في جمع الكسور وضربها وقسمتها ، نفس ما كانوا يتبعونه مع الاعداد الصحيحة ، من حيث استخدام الطريقة التجريبية عند الضرورة ، والاكتفاء بالحلول الذهنية ، كلما تيسر لهم استخدامها^(٥) .

وتشير «بردية رند الرياضية» (كراسة عمهوزة) الى جدول يبين

(٥) عبد العزيز صالح : الرياضيات في مصر القديمة - تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعوني ١/٥٩٠ .

(٦) بردية رند الرياضية : وتتكون من درجين من البردي ، محفوظة بالمتحف البريطاني في لندن (رقم ١٠٠٥٧ - ١٠٠٥٨) ، وقد عثر الباحثون على جزء صغير يصل بينهما في الجمعية التاريخية في نيويورك ، وهي جميعا تكون درجا واحدا ، أو رسالة واحدة ، وطول البردية ٥٤٤ سم ، وعرضها ٢٣ سم ، ويرجع تاريخها الى عصر الهكسوس (١٧٢٥ - ١٥٧٥ ق م) ، ولكنها تذكر أنها نسخة من وثيقة أقدم منها ترجع الى أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق م) ، وقد سجلت البردية على عنوان صفحة منها اسم الملك «عوسرع - أبوفيس الاول» من ملوك الهكسوس ، ويقول كاتب البردية في الصفحة الافتتاحية منها : «قواعد للبحث في الطبيعة وفي معرفة كل ما هو كائن وكل غامض ، وكل سر ، أشهد أن هذا الدرج كتب في السنة الثالثة والثلاثين ، في الشهر الرابع من فصل الفيضان ، زمن ملك مصر العليا والسفلى ، عا وسرع ، له الحياة ، نقلا عن كتابة قديمة دونت أيام ملك مصر العليا والسفلى ، نى معات رع (امنمحات الثالث ١٨٤٣ - ١٧٩٧ ق م) ، وكتب هذه النسخة عمهوزة الكاتب» .

وتوصي عبارة «عمهوزة» أنه يدرك مدى أهمية عمله ، فهو يدون كتابا ، أى مبحثا مرتبا في المعلومات المعروفة في ميدان تخصصه ، اضطلع فيه بتدوين المسائل الأساسية في الحساب والهندسة ، كما بدت لمعاصره . وهناك ترجمات للبردية بالانجليزية ، احداها ترجمة «بيت» في عام ١٩٢٣ ، والثانية ترجمة «تثيس» في عام ١٩٢٩م هذا الى جانب ترجمات أخرى بلغات أخرى ، (انظر

T. Eric Peet, The Rhind Mathematical Papyrus, Liverpool, 1923.

A. B. Chace, L. Bull, H. P. Manning and R. C. Archibald, وكذا

The Rhind Mathematical Papyrus, 2 Vols, Oberlin, Ohio, 1927-1929.

W. W. Struve, Mathematischer Papyrus des Staatlichen وكذا

Museums der Schönen Künste in Moskau, Berlin, 1930.

Otto Neugebauer, Vorlesungen über Geschichte der antiken وكذا

Mathematischen Wissenschaften, 1, Band Vorgriechische

Mathematik, Berlin, 1934.

وتتضمن البردية مجموعة من الامثلة النموذجية لمختلف مسائل الحساب

نتائج قسمة العدد ٢ على المقامات الفردية من ٣ الى ١٠١ في تفصيلات تشير الى صحة النتائج ، كما اشتملت على جداول لنتائج قسمة الاعداد من ١ الى ٩ على العدد ١٠ معبرا عنها بالكسر ذي بسط الواحد الصحيح ، مستفيدا من ذلك غرضين ، أولهما : حفظ نتائج القسمة في كمور مجردة ، وثانيهما : تقديم مسائل عملية تستطيع عقلية التلميذ أن تسليها بعد تقديم البرهان على صحة النتائج .

وقد اقتضت شئون الفلاحة ان يعرفوا علم المساحة ، وبخاصة ان النيل كان يغير الرقع الزراعية في كل عام ، وكانت وحدة القياس المستعملة هي الذراع الملقى الذي يبلغ طوله حوالي ٥٢ر٣ سم (أى يساوى ٢٠ر٦٢ بوصة) ، كما استخدموا ذراعا آخر يصغره قليلا ، ويستعمله الجمهور في معاملاته العادية ، وقسموا الذراع الى سبع قبضات متوسطة (أو ست قبضات كبيرة) ، تألفت كل قبضة منها من أربع أصابع ، واستخدموا وحدة قياسية تبلغ مائة ذراع ، أطلقوا عليها اسم «ضت» ، ووحدة مساحة للأراضي المتسعة تبلغ ٢٧٢٥ مترا مربعا ، أطلقوا عليها اسم (سثات) ، ووحدة طولية للمسافات الكبيرة تبلغ نحو كيلو مترين ، أطلقوا عليها اسم «اترو» .

وأما الموازين (من الحجر أو المعدن) فكانت وحجتها «دبن» ، وزنته ٩١ جراما ، وجزؤه «قدت» ويعادل $\frac{1}{10}$ عشر الدبن ، وأما وحدة كيل الغلال فهي : «حقات» (حوالى ٤٧٨٥ لترا) ولها أجزاءها ، ومضاعفاتها وأما وحدة كيل السوائل فهي : «هن» ويعادل $\frac{1}{16}$ من «حقات» (أو ٤٦ر٠ من اللتر) (٧) .

والهندسة ، ومن ثم فهي توضح لنا معارف المصريين في هذا الميدان أبان تلك العصور ، وهناك شك في أن معارف المصريين في الدول الحديثة: سد زادت عن ذلك ، فبعد ١٥٠٠ عام ، نجد في قوائم معبد ادفو نفس النظريات الهندسية المشابهة لما في بردية رند هذه (جورج سارتون : المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١ ، ١٣٧ - ١٣٨ ، ارمان ورائكه : المرجع السابق ص ٤٠٢ - ٤٠٣) .

(٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٥٨٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٥ .

أدت مشروعات المصريين العامة ، من حفر الترع ، وتخطيط المدن ، وبناء المعابد والاهرامات ، ونحت القبور في الصخور ، الى نتائج مذهلة في دراسة المساحات والمحيطات والزوايا والارتفاعات والاحجام ، وأخيرا الى تقدم كبير في الهندسة النظرية والعملية سواء بسواء ، فعرف المصريون القدامى محيط الدائرة وقطرها ، كما توصلوا الى مساحتها ، وإلى مساحة المثلث والمربع والمستطيل وغيرها من الاشكال الهندسية ، كما قدروا الاحجام الاسطوانية والهرمية ، واستخدموا في مبانيهم الاقواس والسقوف المقبوة .

وليس هناك من ريب في أن بناء الاهرامات — وأهرامات الجيزة بوجه خاص — انما يدل على أن التنفيذ لم يكن مرتجلا ، وانما كان قائما على نظريات هندسية وضع البنائون أسسها وقواعدها وتفصيلها المعمارية في ذلك العهد البعيد من أوائل عهد الدولة القديمة (حوالى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد) ، وقد أثارت معارف المصريين الميكانيكية — وبخاصة ما يتعلق منها بنقل الكتل الحجرية الضخمة ورفعها واقامتها ، وفي مقدمتها المسلات — اعجاب العالم قديما ، وما زالت تثير مثل هذا الاعجاب حتى اليوم^(٨) .

وعلى أية حال ، غفى بناء الاهرامات — مثلا — تحتم على بنائتها أن يقطعوا الحجر الجيرى على مقاسات مضبوطة قبل وضعها في مواضعها المطلوبة ، وأكبر هذه الكتل هي التي رتبت ترتيبا معقدا فوق المقبرة الملكية بمثابة دعائم لتحويل الضغط عن سقفها ، ويوجد من هذه الدعائم ٥٦ دعامة لسقف المقبرة الملكية في الهرم الاكبر^(٩) ، ويبلغ متوسط وزنها

(٨) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٩٠
(٩) يشغل الهرم الاكبر مساحة تقرب من ١٣ فدانا (٥٤ ألف متر مربع) ، وكان ارتفاعه ١٤٦ م ، تهدم منها تسعة أمتار منذ بضعة قرون فاصبح ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا ، واستخدم البنائون في بنائه ، فيما يقال ، مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية ، وزنة الواحدة ٢٥ طنا ، وبعضها

٥٤ طنا ، وبلغت الدقة التي روعيت في بناء الهرم الأكبر ، درجة لا يمكن تصديقها ، يقول الاثرى الانجليزى « وليم ماثيوس هفندرز بقرى » (١٠) (١٨٥٣ - ١٩٤٢) عن ذلك :

« ان متوسط الخطأ في طول الجوانب - التى تبلغ الواحد منها ٧٥٥ قدما - هو $\frac{1}{800}$ (واحد على أربعة آلاف) وهو خطأ يمكن أن ينشأ عن اختلاف في درجة الحرارة بمقدار ١٥ درجة مئوية بين قضبان النحاس التى تستعمل في المقاس ، والخطأ في التربيع يبلغ دقيقة واثنى عشرة ثانية من الدرجة ، والخطأ في المستوى ٥ بوصات بين الجانبين ، أو ١٢ دقيقة ، أما الاطوال القصيرة التى تبلغ ٥٠ قدما ، فيبلغ الفرق ٠.٢٠ من البوصة » .

« وبلغت الدقة التى روعيت في ثلاثة توابيت من الجرانيت للملك (سفسرت الثانى) (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق م) أن متوسط الخطأ فيها لا يعدو ٠.٠٤ من البوصة ، بضغط مستقيم في بعض الاجزاء ، ٠.٠٧ من البوصة في أجزاء أخرى ، كما بلغ مقدار انحناء الجوانب ٠.٠٥ من البوصة في ناحية ، ٠.٠٢ من البوصة في ناحية أخرى ، أما متوسط الخطأ في نسب الابعاد المختلفة في الاعداد الزوجية فهو ٠.٢٨ من البوصة ، وهذا كله يشبه في دقته عمل صناع العدسات البصرية ، وليس عمل البنائين » .

هذا ويدل قطع الاحجار التى تطلب تركيب بعضها الى بعض معرفة

يزن ١٦٥ طنا ، ويتضمن الهرم الأكبر ثلاث حجرات كبيرة للدفن ، حجرة سفلية نحتت في باطن الصخر ، وثانية في باطن الهرم تعرف خطأ باسم «غرفة الملكة» ، وقد هجرتا ، ثم حجرة ثالثة بنيت بالجرانيت في منتصف الهرم العلوى ، دفن الفرعون فيها ، هذا ويصل بين حجرة الدفن الوسطى في باطن الهرم ، دهليز صاعد يعتبر آية من آيات الفن المعمارى في عصره ، ويبلغ طوله ٥٣ قدما ، وارتفاعه ٢٨ قدما ، كسيت الاجزاء السفلى من جانبه بأحجار مصقولة ضخمة (محمد بيومى مهران : مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٣٩ - ١٤٠) .

(١٠) انظر :

W. M. Flinders Petrie, The Wisdom of The Egyptians, p. 89.

بالهندسة وقياس الاحجام ، كما يمكن للباحث أن يقول بحق ، انها تدل كذلك على احاطة بالهندسة الوصفية (قياس الاحجام) ذلك أنه لم يكن كافيا أن تحل مثل هذه المشاكل بطريقة عامة ، لانه يجب ارشاد قساطع الحجر الى الطريقة التي يجب اتباعها في قطع كتل الحجر الجيري ، وربما خللت تلك المعرفة تجريبية غير مرتبة ترتيبا ثابتا (١١) .

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب ، في أن اقامة مثل هذه الابنية الضخمة مذ ما يقرب من خمسين قرنا مضت ، إنما يثير مشاكل فنية متعددة لم يتضح كثيرا منها حتى الان ، فلا يزال مما يثير الفكر مثلا : كيف تمكن المعماريون على أيام خوفو ، صاحب الهرم الاكبر ، من ابتكار تصميم لهذا البناء ، وكيف تمكنت رعيته من اقامته ، ذلك أن أدواتهم الهندسية — بالغة ما بلغت من التقدم بالقياس الى أدوات الشعوب المعاصرة — كانت درجات كثيرة دون أدواتنا في القرن العشرين بعد الميلاد .

والواقع أن اهرام الجيزة عجيبة جدا ، لدرجة أن بعض العلماء الذين حاولوا كشف أسرارها وقعوا فريسة لنوع من الجنون ، فمنسبوا الى بنائها من المصريين القدامى ، أغراضا سحرية وميتافيزيقية ، ومعرفة بالغيب ، يستحق صاحبها من الاعجاب مايفوق الاعجاب بالمقدرة الهندسية التي توفرت دون شك لديهم (١٢) ، وعلى أية حال ، فلقد بنيت الازهرام وما هي قائمة في الصحراء ، وهي أضخم حقائق العصور القديمة ، وأبلغ شاهد حتى اليوم على مقدرة بنائها ، وربما ظلت باقية بعد زوال معظم الابنية التي يفخر بها الانسان في العصر الحديث .

وأيا ما كلن الامر ، فالهرم الاكبر ، بكل المقاييس الهندسية ، ليس

(١١) جورج سارتون : المرجع السابق ص ٩٨ — ٩٩ ، وانظر :
M. Baud, Les dessins chauchés de la Necropole Thepaine
au temps du Nouve Empire, IFAO, 1935.

(١٢) انظر : محمد بيومي مهران : مصر ١٩٢/٢ — ١٩٤ ، وكذا
J. P. Lauer, Le Probleme des Pyramides d'Egypte, Paris, 1948,
p. 113-160.

هو أعظم ما شيدته المصريون من نوعه فحسب ، بل هو انما يمتاز أيضا بذلك الانتقان المعجز في هندسته ، والدقة في تخطيطه وجمال نسبه ، ومن ثم فقد كان ، وما يزال ، أهم عجائب الدنيا السبع ، لانه ، دونما ريب ، من المعجزات البنائية البشرية ، وليس من شك في أن رجال العمارة في العصر الحديث ، بكل ما أوتوا من أدوات ووسائل ، سوف يشفقون على أنفسهم أشد الأسفاق — وقد يترددون ، وربما يحجمون — أن نحن طلبنا اليهم أن يبنوا لنا هرما مثل هرم خوفو ، بالرغم من افادتهم من تجارب عصور قاربت آلافا خمسة من عمر الزمان ، ويقال أن اليابانيين فعلوها ، فلم يفلحوا (١٣) .

وليس هناك من ريب في أن «المسلات الجرانيتية» انما هي دليل آخر على عبقرية المهندس المصري والتي لم نستطع التعرف عليها حتى الان ، ورغم ما كتب عن المسلات ، فمازال العالم يجهل أمور كثيرة ، لعل منها ، على سبيل المثال ، ما هو نوع الأدوات التي استعملها المصريون في قطع الصخر البالسج الصلود ؟ وكيف نقشت النصوص الهيروغليفية الطولة المعقدة على حجر الجرانيت الصلد ؟

هذا ويدخل التحديد الواضح في أضلاع المسلة المصرية المقامة في باريس على مدى أنثلة العمارة المصرية كما تدل القامة المسلة نهائيا في العصور القديمة (منذ حوالي ٣٥ قرنا) على عطية هندسية بالغة الدقة ،

(١٣) محمد بيومي مهران : مصر ١٩٠٢ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٢ ، جورج سارتون : المرجع السابق ص ٩١ .
وعن بناء الاهرامات : أنظر :
أحمد فخري : الاهرامات المصرية — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٧ — ٣٤ ،
محمد أنور شكرى : العمارة في مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٧٥ —
٣٥٨ ، محمد بيومي مهران : مصر ١١٣/٢ — ١١٨ ، ١٣٩ — ١٤٠ ،
١٨٧ — ٢١٢ ، وكذا

W. M. F. Petrie, The Pyramids and Temples of Giza, London, 1883, p. 163 F.

J. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, London, 1965. وكذا

S. Cyarke and R. Engelbach, Ancient Egyptian Masonry, London, 1930, p. 117-129.

مما يجعل المرء يتساءل : هل جرب المصريون هذا العمل في نماذج صغيرة أولا ، لكي يحددوا وزن المسلة ومحور ارتكازها واختبروا كذلك عملية الإقامة ليتحاشوا احتمالات الفشل ؟

وهناك في محاجر أسوان تركت مسلة في مكانها ، كانت تبلغ ١١٦٨ طنا في وزنها ، لو أنها قطعت ، ومعنى ذلك أنه كان في استطاعة المصريون أن يقيموا مسلات أضخم كثيرا مما هو معروف لنا في الغرب (مسجلات اللاتيران والفلساتيكلن وبأريس ولندن) وفي نيويورك ، بتليل أن مسلة أسوان أثقل ست مرات من مسلة لندن ، ومع ذلك فقد تحدث الناس عن أعمال «فوتاتانا» عام ١٨٥٦ م ، و «جورنيج» عام ١٨٨١ م ، وكأنها أعجوبة الاعجاب ، مع أن الرجلين لم يفعلا شيئا أكثر من تكرار جزء من العمل الذي سبقهما إليه المهندس المصري منذ آلاف السنين .

وعلى أية حال ، فلقد تضمنت مواضيع الهندسة المصرية طائفتين من المسائل : طائفة عملية يسيرة الحل والتطبيق ، اهتمت باستخراج المساحات والأبعاد والحجوم ، وطائفة نظرية تطلب نصيبا من التخصص والمهارة .

هذا وقد تضمنت كراسات التلاميذ في التمرينات مسائل المساحة ، كمساحة المستطيل والمثلث والمثلث الناقص والدائرة ، ومساحتها (٤) ٢ من قطرها ، أي أن مساحة الدائرة تقص تسعا عن مساحة المربع المساوي لها في أبعاده ، بمعنى أن مساحة الدائرة التي يبلغ قطرها ٩ ، تساوي مساحة مربع يبلغ طول ضلعه ثمانية فقط ، هذا وقد مارس القوم طريقة أخرى ناضجة في حساب الدائرة ، لم يدونوا تفاصيلها ، ولكن بعض الرياضيين المحدثين ، أولا من تطبيقاتها العملية في الآثار المصرية الباقية ، أن نسبتها التقريبية لم تختلف عن النسبة الحالية غير اختلاف ضئيل ، وكانت تعادل ٣١٦٠٥ عوضا عن ٣١٤٢٨ الحالية .

وفي مساحة المثلث اتبع المصريون القدامى نفس النظرية الميسرة التي نهتدى بها حتى الآن ، وهي ضرب نصف قاعدته في ارتفاعه ، وبرروا نظريتهم بأن مساحة المثلث تساوي نصف مساحة المستطيل المشترك معه

في أبعاده ، وصاغوها صياغة عملية فقالوا : «إذا قيل لك أن مثلثا بلغ ارتفاعه العمودى ١٠ ، وقاعدته ٤ ، وطلبوا مساحته ، فهكذا يكون العمل : استخراج نصف الاربعة ، أى ٢ ، ثم اعتبر المثلث مستطيلا ، واضرب 10×2 تستخرج المساحة» ، أى أن مساحة المثلث = القاعدة \times الارتفاع

٢

وأما في المثلث الناقص فكانت تحل مسائله على أساس :

القاعدة العليا + القاعدة السفلى \times الارتفاع ، ثم يقسم الحاصل على ٢ .

هذا وقد بلغ المصريون القدامى الذروة في تقدير حجم الهرم الناقص ، وابتدعوا له نظرية رياضية سهلة التطبيق ، تكاد تكون مسورة أصلية لنظريته الرياضية المأخوذ بها حتى الآن وهى :

(مربع القاعدة العليا + مربع القاعدة السفلى + القاعدة العليا \times القاعدة السفلى \times الارتفاع $\div 3$)

ويبدو أن كثرة التطبيقات العملية على أشكال الهرم الناقص ، فى أعمال المهندسين المصريين هى التى ساعدتهم على ابتداع نظرية تقدير حجم الهرم الناقص البارعة ، فكثيرا ما كانوا يضطرون الى تقدير حجوم المسلات التى تشبه فى هيئتها الهرم الناقص ، قبل وضع الجزء العلوى ذى الشكل الهرمى المدبب عليها ، لمعرفة وزنها التقريبي ، وتقدير مايلزم لها من رجال وأدوات لنقلها من محاجرها فى أسوان ، والابحار بها على متن النيل ، ثم اقامتها فى مواضعها .

وقد وجدت فى بعض المخطوطات مسائل تشير الى استخراج الزوايا والارتفاعات المموجية وهى مسائل متقدمة تشير الى مرحلة تخصص — على الاغلب — طبقة من المتعلمين الذين قطعوا مرحلة بعيدة ، ويزعم تخرجههم فى العلوم الهندسية وممارستهم لها ، فمنها مثلا مسألة تتطلب تقدير الارتفاع العمودى لشكل هرمى ، بعد تقديم طول قاعدته وزاويته ، وان كانت النتائج لم تكن دائما سليمة ، وخاصة فيما يتصل بالمساحات .

وأيا ما كان الامر، فلقد كانت الهندسة المصرية موضع تقدير الاغارقة
 فرغم أنهم قد توصلوا الى نظريات رياضية جديدة بارعة ، منذ نشأت
 مذا بهم الرياضية في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، غير أن مؤرخيهم
 وغلاسفتهم لم يترددوا في اعتبار الرياضيات المصرية أصلاً لبعض
 نظرياتهم وقوانينهم ، فلقد روى الفيلسوف الآثيني «افلاطون» عن
 أستاذه «سقراط» (٤٦٩ - ٣٩٩ ق م) أن المعبود المصرى «تحتوت» إنما
 كان أول من اخترع نظام العد والهندسة والفلك ، وأكدت الروايات
 الاغريقية أن «طاليس» إنما كان من أقدم من نقلوا أصول الهندسة
 المصرية الى اليونان ، وأنه علم تلميذه «بيتاجوراس» كل ما يعرفه عنها،
 ثم وجهه الى مصر ليتم دراسته الرياضية مع علمائها وكهنتها .

هذا وقد دعا «افلاطون» «حوالى ٤٢٧ - ٣٤٧ ق م» أحرار قومه
 الى أن يتعلموا ما يتعلمه النشئ المصرى من فروع المعرفة ، وقد روى
 لهم أن مصر جعلت تعليم الحساب متعة وتسرية ، وأن معلميها كانوا
 يوزعون على تلاميذهم ثماراً وأزهاراً ، ويطلبون منهم توزيعها على أفراد
 يزيدون عنها في العدد ثارة ، وينقصون عنها ثارة أخرى ، ثم يوزعون
 عليهم صحافاً تتضمن أوزاناً من ذهب ونحاس وفضة ، ويطلبون منهم أن
 يستعينوا بها في تمارينهم الحسابية ، وبهذه الوسائل - كما روى
 «افلاطون» - يتزود التلميذ المصرى بخبرة حسابية طيبة ، يستعين بها في
 ادارة شئون أسرته ، وفيما يسند اليه من أعمال حسابية في مستقبل
 حياته الوظيفية ، كان يقسم أرزاق الجنود في الجيش ، أو يقسم أرزاق
 العمال في المشروعات الكبيرة .

وانتهى الفيلسوف الآثيني (افلاطون) ، فعاب على معاصريه من
 المفكرين الاغارقة ، ترفعهم المصطنع عن الاهتمام بفروع الحساب
 وقضاياها ، ثم ذكرهم بفضل المصريين عليهم في معرفة حجوم الاشياء ذات
 الطول والعرض والعمق ، وتحرير المصريين لهم من كثير مما كانوا يعيشون
 فيه من جهل وسوء ادراك .

هذا وما زالت الدقة البالغة في المنشآت الهندسية المصرية القديمة ،

من أهرام ومعابد ومسلات ، تشجع بعض الباحثين المحدثين على الاعتقاد بأن ما عرف حتى الآن عن الرياضيات المصرية لا يمثل غير أهلها ، ولا يمثل غير أبسطها ، وهي في نفس الوقت تدل على مدى نضج العقل المصري ، ومدى عبقريته (١٤) .

(١٤) عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية ١/٥٩٢ - ٥٩٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٦ .

الفصل الرابع

الطب

كان الطب في مصر الفرعونية شأن عظيم ، كما كان الاطباء يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع المصري القديم ، وكان ينظر اليهم نظرة ملؤها التقدير والاحترام ، كما كانت لهم شهرة ملأت أسماع الدنيا ، فجلبا اليهم الحكام والامراء من كل مكان ، يلتصمون عندهم البرء والشفاء ، نذكر منهم على سبيل المثال الملك الفارسي الذي بعث الى فرعون يلتبس منه ان يأذن لأحد أطباء العميون من رجال بلاطه بالسفر الى فارس لعلاجه .

ويقول هيرودوت : «ان المدارس الطبية في مصر كانت في منتهى الشهرة ، والسمعة الطبية الطيبة ، كما أن رجال الطب الذين تخصصوا في مختلف فروعها كان لهم صيت ذائع ، وأن الملوك والامراء والعظماء في البلاد الاخرى كانوا يستدعونهم لعلاجهم» .

وجاء في «الاولهيسية» أن رجال الملن الطبية في مصر على أعلى درجة من الذكاء الذي لم يصل اليه شعب من الشعوب» .

ثم يتحدث هيرودوت عن تفصص المصريين في فروع الطب المختلفة ، فيقول : «وينقسم الطب عندهم الى الفروع التالية : لكل مرض طبيب تخصص فيه ، وبلادهم كلها غاصة بالاطباء ، بعضهم متخصص في العميون وبعضهم في الرأس وبعضهم في الاسنان ، وبعضهم في الامعاء ، وبعضهم في الامراض الخفية» (١) .

وهناك من تراث المصريين بين أيدينا الان كتب في الطب تدل محتوياتها على معرفة في هذا العلم أذهلت أئمتة في العالَم الحديث ، ذلك لانها حوت الكثير من النظريات الصادقة ، والوان العلاج الناجحة والجنبة على ملاحظتكم واقعية وخبرات عملية ، والملم كبير بالتشريح ووظائف الاعضاء ، والواقع أن ممارسة المصريين للتصنيف قد بصرتهم بطبيعة الجسم وأسراره ، ولقد يعاب على الطب في مصر الفرعونية أنه كان

(١) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٩٠ - ١٩٢ .

مشوباً ببعض الخرافات والتعاليم السحرية التي ترمى الى التخلص من
الارواح الشريرة ، وتلك أمور لم تتخلص منها الدنيا حتى يومنا هذا (٣) .

٢ - الطب والسحر

اختلف علماء السلالات في النحو الذي تبعه الطب في أول أمره ،
فمنهم من رأى أنه بدأ عملياً تجريبياً تابعاً لمقتضيات الحياة اليومية ، وأنه
لم يصطبغ بالطابع السحري أو الدينى ، الا عندما استيقظ ذهن الانسان
فبدأ يتأمل فيما يحيط به ، على أن هناك فريقاً آخر انما ذهب الى أن
الطب قد بدأ بالسحر والشعوذة ، قبل أن يصنف الملاحظات الواقعية .

غير أن المصرى القديم — على عكس الاغريق — كان بعيداً عن التفكير
فيما وراء الطبيعة ، وعن النظريات الافتراضية ، واعتمد في تشييد
حضارته على تكديس الملاحظات الواقعية والافادة منها ، فأضاف بذلك
خبرة عملية الى غنائه الفيزيائية ، سرعان ما أدت الى تناقض في أساليب
تفكيره ، لبقاء رواسب مختلفة من الفكر العتيق شابت ما حققته نزعة
التجريبية ، وهذا المزاج العجيب سنصادفه كثيراً في دراسة الطب المصرى
القديم (٣) .

وفى الواقع فخلد كل التعرف على التطبيق التجريبى من غير شك في
أول الامر ، ألجأته اليه الضرورة وتوارثته الاجيال فزادت عليه وأضافت
اليه ، وكانت التفرقة بين العلاج الطبى الصحيح وبين السحر عسيرة ،
فكان المرض من صنع الارواح يتطلب رقية ، الى جانب الدواء ، ومن ثم
فقد كان الكاهن هو الطبيب الذى يباشر العلاج الطبى بالسحر والرقى
والتعاليم ، الى جانب ما يشير به من عقاير وأدوية ، بل انه كان يظن
أن أعضاء الجسم تقع تحت تأثير بعض المعبودات ، فالاله «نو» للسحر ،
و «رع» للوجه ، والالهة «حتحور» للعينين ، والاله «أنوبيس» للشفتين ،

(٢) أحمد بدوى ومحمد جمال الدين مختار : المرجع السابق ص ٩١

(٣) بول غليونجى : الطب عند قدماء المصريين — تاريخ الحضارة
المصرية — العصر الفرعونى ص ٥٢٣ .

و «تحتوت» للاعضاء ٠٠٠ وكانت هناك علاقة وثيقة بين بعض المعبودات
والمعاقير ، فمثلا كانت «دموع حور» تتحول الى صمغ المر •

وكانت الرقى والتعاويذ تتلى عند تحضير الدواء وتعلطيه ، وتكتب
أحيانا بنوع خاص من الحبر على البردى ، ثم ينقع هذا في الماء ويشرب
المريض السائل بعد ذلك ، وعندئذ يقتضى الامر تلاوة تعويذة مطلعا :
تعال أيها الهواء ، تعال واطرده من قلبى ومن أعضائى هذه ، فالرقى
عظيمة المفعول في الهواء» ، وكانت الارواح الشريرة تسكن جسد الانسان
ويمكن طردها بتلاوة بعض الرقى أو دهن الجسم ببعض الزيوت •

وكان الى جانب التعاويذ الخاصة التى ينبغى أن تقرأ على المعاقير
المختلفة لتكسيبها القوة اللازمة ، فاننا نصادف أيضا استعمال الصمغ
السمرية ، فمثلا عند نزع كل ضمد كان من الواجب أن تتلى الصيغة
التالية : قد خلص ، قد خلص بواسطة ايزة ، لقد خلصت ايزة حور من
كل شر ، اقتترغه ست عندما قتل أباء أوزير ، أى ايزة ، أيها الساحرة
العظيمة ، خلصينى من جميع المساوىء الحمراء ، ومن مرض الاله ومرض
الأكهة ، ومن الموت ، ومن العدو والمعدة اللذين يمرضانى ، كما تخلصت
أنت ، وكما ولدت ابنك حور ، لانى دخلت النار ، وفرجت من الماء ٠٠٠» •

وهكذا يمكن القول أن الطب قد ظهر ، أول ما ظهر ، متمشيا مع
السحر ، والسحر ، أن أردنا ترجمة له من هذه الزاوية هو : «علاج
نفسى» ، ربما لم يكن هذا هو ما يقصد بالضبط من ممارسة السحر ، الى
جانب الطب ، ولكن الاثر واحد ، ذلك لأن السحر هنا — رغم عدم جدواه
المباشرة — لون من ألوان الايمان بالشفاء ، وكان يجب أن تقوهر في
الطبيب السحر صفات معينة كالمهارة والذكاء أحيانا ، أو تعرضه لاصابات
معينة كالصرع — وهو من الظواهر التى كان يشفى عليهم تطليها ،
فيخالونها روحا تمسه تستطيع الاشفاء — أو غير ذلك ، ومن أجل ذلك
نرى ارتباط الطب بالكهانة في أول الامر ، ولما طغت في الوقت نفسه
بحجاب من السرية ، لا ينفذ اليه الا المختارون •

ومع ذلك كله ، فلذى لا جدال فيه أن تراث المصريين الذى بين أيدينا من كتب ، وما ضمت من معرفة بالامراض وتشخيصها والقيام بعلاجها ، ثم أدوات الجراحة وطرق استعمالها ، إنما يدل على تقدم المصريين فى الطب عامة ، وفى فن الجراحة بخاصة — من بتر وجبر وخلع وختان وغير ذلك — تقدما لم يسبقهم فيه سابق ، ثم هم قد مهرؤا ، فضلا عن ذلك ، فى الطب الباطنى ، ووصفوا الكثير من الامراض وصفا دقيقا يعتمد على الخبرة ، ويتسم بدقة الملاحظة ، بل يدل على قدرتهم على تشخيص الامراض ، على أساس فهمهم العميق لوظائف أعضاء الجسم والمأمهم بالتشريح ، ثم هم قد عشقوا فنون الطب كافة ، فلم يقفوا فى جهودهم فيه عند حد ما قدمنا بل هم حاولوا معرفة نوع ما تحصل الانثى من جنين ، كما توصلوا الى علاج تسويس الاسنان بالحشو ، وشد غير الثابت منها الى جاراته بأسلاك من ذهب ، كما اعتمدوا فى العلاج بوجه عام على الجراحة ، الى جانب استخدام العقاقير والمراهم وممارسة التدليك بمختلف أنواع الزيوت ، كل ذلك فضلا عن الاستعانة بالرقى والتعاويذ ، كما فعلت بقية شعوب الارض .

وفى الحقيقة فإن تفوق المصريين القدامى فى علوم الطب أمر معروف ، وقد وصلت اليينا برديات كثيرة تدل بوضوح على تعمق المصريين فى شئون الطب وتنوع دراساته ، فهناك الطب البيطرى ، وهناك الطب الباطنى ، وطب أمراض النساء ، وطب الجراحة ، وطب العيون ، وطب الاسنان ، ومن ثم فلا غرو اذن ان امتلات البلاد فى العصور المتأخرة من التاريخ الفرعونى بمراكز طبية ، كان يهرع اليها المرضى طلبا للشفاء ، بل ان فى وسعنا أن نقول أن وسائل العلاج قد انتقلت من المصريين الى اليونان ، ثم الى الرومان الى عصرنا الحاضر ، ولا تزال حتى الان نجترع فى ثقة ، واطمئنان كثيرا من الاحوية التى خلطها أطباء هذا الشعب الحريق ، الذى عاش على ضفاف النيل منذ خمسة آلاف سنة (٤) .

(٤) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٥٧ ، أحمد بدوى وجمال مختار : المرجع السابق ص ٩١ ، محمد بيومى مهران : مصر ١٢١/٢ ، جورج سارتون : المرجع السابق ص ١١١ .

لا ريب أننا لسنا في حاجة الى تأكيد قدم الطب المصرى ، ففى كل الحضارات يتطور الطب مبكرا ، لان الحاجة اليه عامة ملحة دائما ، بحيث لا يمكن اغفالها فى أية بقعة من بقاع الارض ، وليس هناك من شك فى أن المصريين قد مارسوا نوعا من الطب منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ ، فاستعمال الملائيت — كحلا وطلاء للعين — مثلا انما يرجع الى عصر البدارى^(٥) ، وأن استعمال «الجباليينا» (خلهم الرصاص) لاغراض مشابهة جاء بعد ذلك فى عصور ما قبل الاسرات أيضا ، وتكن الختان طقسا من طقوس المصريين منذ عصر سحيق طلت عليه آثاره فى اللجث التى استخرجت من مقابر عصور ما قبل التاريخ (أى منذ حوالى عام ٤٠٠٠ ق.م)^(٦) .

هذا ويشار فى أكثر من مكان الى أن أول واضح لمجموعة دراسات طبية انما هو الملك «أئوئيس» ابن الملك «مينا» (منى) مؤسس الأسرة الاولى المصرية (حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م) ، وأن من بين ما وضعه من كتب ، كتاب خاص بالمقائير الطبية ، وأن الملك «أوزيفايوس» حقق تقدما كبيرا فى علم التشريح .

غير أن أقدم طبيب مصرى معروف باسمه انما هو «أيمحوتب»^(٧) ، وزير الملك «نوسر» ثانى ملوك الأسرة الثالثة (حوالى عام ٢٧٠٠ ق.م) ،

(٥) أنظر هن «عصر البدارى وحضارته» : (محمد بيومى مهران : مصر ٢٤٧/١ - ٢٥٧ ، وكذا

G. Brunton and G. Caton-Thompson, The Badarian Civilisation and Predynastic Remains Near Baddri, London, 1928.

(٦) جورج سارتون : المرجع السابق ص ١١١ - ١١٢ .

(٧) وند «أيمحوتب» ، على الأرجح ، فى بلدة الجبلين ، على مسبعة ١٨ كيلا شمالى أسنا ، بمحافظة قنا ، وطبقا لنقش من وادى الحمامات يرجع الى الفترة ما بين عامى ٤٩٥ ، ٤٩١ ق.م ، فان اسم والد أيمحوتب هو «كا - نفر» ، وكان يعمل مديرا للأعمال فى مصر العليا والسفلى ، واسم أمه «خردو - عنخ» ، كما كانت زوجته تدعى «نفرو - نبت» (محمد بيومى مهران : ١١٨/٢ - ١١٩) .

وكان «ايمحوتب» عالما وفلكيا وطيبيا ومهندسا معماريا وكبيراً لكهنة أون (هليوبوليس) ، وصار في العصور التالية معبوداً عند المصريين ، باعتباره بطلاً وطيبياً منزهاً عن كل شائبة ، ثم عبده بعد ذلك باعتباره الها للطب وأضفوا صفاته على «اسكليبيوس» ، ذلك أنه في القرن السابع قبل الميلاد زاد اتصال المصريين بالآغسارقة ، وعندما وقف الآغسريق على كتابات «ايمحوتب» في علوم الطب أبوا أن يصدقوا أن مثل هذا النابغة يمكن أن يكون بشراً ، كسلتر الناس ، فآلهوه واعتبروه رباً للشفاء ، كما اعتبروا أماكن عبادته من الأماكن التي يحج إليها المرضى ليكتب لهم الشفاء .

وفي عام ٣٢٣ قبل الميلاد ، جلس ملوك البطالمة على عرش الكنانة ، وقد حاولوا — ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً — أن يظهروا أمام المصريين ككراعنة ، وتجدوا للآلهة المصرية ، وكان «تحتوت» واحداً من هذه الآلهة ، وقد عبده تحت اسم «هرمس» الآلهة الآغريقى ، وبالتالي فقد عبدها «ايمحوتب» كصورة من صور «تحتوت — هرمس» ، ثم سرعان ما أدخلوا عبادة الهمم «اسكلاب» (اسكليبيوس) رب الطب ، إلى مصر ، وتكون في النهاية معبود مصري — بطلمي ، ميلور في عقيدة الناس الهيمنة على العلوم والمعارف هو «تحتوت — ايمحوتب — هرمس — اسكلاب» ، ولعل أهم ما تبقى من صفات هذا المعبود صلته الكبيرة بعلوم الطب .

ومع أننا لا نعرف إلا القليل عن معلومات ايمحوتب^(٨) الطبية ، غير أن تآليه القوم له إنما ينطوى على معان واضحة ، تجعلنا مطمئنين إلى تقدير المصريين له بأنه أول رجل عظيم في الطب ، وينبغي أن يذكر أولئك

(٨) انظر عن : ايمحوتب (محمد بيومى مهران : مصر ١١٨/٢ - ١٢٢ - الاسكندرية ١٩٨٨ ، وكذا

K. Sethe, Imhotep der Asklepios der Egyptier, (Uters..., II, 4,) Leipzig, 1902.

J. B. Hurry, Imhotep, The Vizier and Physician of King Zoser, and afterward The Egyptian god of Medicine, London, 1928.

P. Gilbert, L'Histoire et la Légende d'Imhotep, Brussel, 1949.

F. Daumas, Le Vivification de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1956, p. 71-73.

الذين يزعمون بأن «هيبوقراتيس» أبو الطب ، إنما يجيء في منتصف الفترة الزمنية بين ايمحوتب وبيننا ، وفي ذلك ما يكفى لتعديل منظورهم الى المعلم القديم ، وكما يقول الدكتور محيى الدين الخرادلى — أستاذ الجراحة بجامعة الاسكندرية — «إن طب الاغريق لم يكن مستحدثا ، بل اقتبس كثيرا من الطب المصرى القديم ، حتى أنه يمكن اعتباره امتدادا له ، فلو أن أقدم بردية طبية كتبت حوالى عام ١٩٠٠ ق م ، فإن الدرجة التى بلغتها إنما تعدل على تطور طويل المدى يرجع على الاقل الى حوالى عام ٣٠٠٠ ق م ، مما يجعلنا نجزم بأن الطب قد نبع من وادى النيل ، ومن ثم فيجب أن نعتبر مصر — وليس اليونان — هى منبع الطب ، وأن ايمحوتب — وليس اسكليبيوس — هو عبقرى الطب وسيدته» (٩) .

هذا وتحفظ المتاحف العالمية فى كل من باريس وليدن ولندن وبرلين وتورين ببعض البرديات الطبية التى ألقت الضوء على دراسة الطب عند المصريين القدماء ، وقد أخذت هذه البرديات اسمها من أسماء الذين حصلوا عليها ، أو أسماء الأماكن التى توجد فيها الآن ، ومن ثم فقد أطلق عليها أسماء كاهون وادوين سمث وايبيرس وهرست وبرلين وتشستر بيتى وكارلزبرج ، وهناك مخطوطات أخرى فى مجموعات فردية ، وهى لمئات ثاقوية ، ثم هناك — من هذه الأوراق — تلك الثروة التى لا تزال دليانة فى أرض مصر الطبية .

وكانت عملية النسخ تتم على يد الكتاب المعترفين ، وليس عن طريق الأطباء ، وكانت تلك المخطوطات كثيرة التداول ، كما يظهر من بعض العبارات الواردة على الهوامش مثل «جربت هذا ووجدته مفيدا» أو «هذا طيب» ، مما يدل على أن المخطوط منقول بحذافيره وهوامشه من غيره ، إذ أن تلك الهوامش مدونة بخط الناسخ نفسه ، ولتحدث الآن عن أهم البرديات الطبية : (١٠)

- (٩) محيى الدين الخرادلى : محاضرة نشرت فى سجل المحاضرات العامة للموسم الثقافى ١٩٥٧/٥٦ لجامعة الاسكندرية .
(١٠) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى ٥٢٤/١ — ٥٢٥ .

١ - بردية ادوين سمث الجراحية :

ترجع بردية ادوين سمث الجراحية هذه الى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد (حوالى عام ١٥٥٠ ق م) ، وقد اشترها «ادوين سمث» (١٨٢٢ - ١٩٠٦م) عام ١٨٦٢م من مدينة الاقصر ، وهى الان فى حيازة الجمعية التاريخية فى نيويورك ، حيث ظلت تفاصيل محتوياتها مجهولة ، حتى قام بنشرها وترجمة نصوصها العالم الامريكى «جيمس هنرى برستند» فى عام ١٩٢٢م ، ثم طبعت مرة اخرى فى عام ١٩٣٠م كما قام الاستاذ الدكتور محمد كامل حسين بنقل هذه البردية الى اللغة العربية ، واعتبرها نقطة التدول فى تاريخ الطب بين فن العلاج وعلم الطب ، وكان طولها فى الاصل نحو ثمانية أمتار ، لم يبق منها الا ٤٥٨م تحتوى على ٦٩ سطور .

وتحتوى على كتاب الجروح الذى يرجع اليه اهميتها الفائقة ، وعلى ظهرها دونت اشارة لعلاج امراض المستقيم وكتابة عنوانها «الابعاد هواء الطاعون» تزخر بالتعاويذ ، واخرى لمرهم يعيد الشبلاب الى الشيوخ .

ويشمل الجزء الاول من البردية ٤٨ مشاهدة واقعية فى جراحة العظام والجراحة العامة ، مقسمة تبعا لتقسيم جسم الانسان من الرأس فالانف والفك وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والاضلاع والمصدر والترقوة والكتف واللوحة واليدين حتى العمود الفقري ، ومن المرجح أنه كان يشمل كل أجزاء الجسم ، حيث أن آخر مشاهدة فيه ، وهى الخاصة بالعمود الفقري ، تفتتم بعبارة ناقصة .

ورغم ذلك فان البردية تمتاز بأنها تتناول حالات معينة بالوصف الاكلينكى الحقيقى لمبتدأ بالعنوان ثم الكشف والتشخيص وطريقة العلاج ويقدم الدكتور الخردلى الحالتين السادسة والحادية والثلاثين كمثالين للوصف الاكلينكى الحقيقى :

اما الحالة السادسة فقد جاء فيها : «اذا قممت بالكشف على رجل عنده جرح فى رأسه مخترقا الى عظامه ، ممشما بجمجمته ، فاتحا مخه ،

فادخل أصبعك في الجراح ، فإذا تحصست هذه التلاصيف التي تشبه النحاس المضروب بوشعرت بالانتفاضات تحست أصبعك تشبه الانتفاضات التي تجدها في قمبة رأس الوليد قبل أن يتم نموها ، ولن تجد هذه الانتفاضات إذا لم يكن المخ قد فتح ، وستجد الدم يخرج من تحتى أنفه وعنقه متيسرا ، كانت هذه حالة جرح في رأس هشمت جمجمته وفتمت مخه .

وأما الحالة السادسة والثلاثون : فحالة شكل رباعي جاء فيها : «إذا قممت بالكشف على رجل عنده خلع في فقرة رقبته ووجدته لا يحس بذراعيه وساقيه ، وذكره منتصب يسيل منه دون أن يشعر ، فإن خلعا في فقرة رقبته هو السبب في أنه لا يشعر بذراعيه وساقيه ، أما إذا كان الخلع في الفقرة الوسطى من العنق انساب المزي من ذكره .

وفي الحالة الخامسة والأربعين ، وهي حالة سرطان الثدي فراه يقول : «إذا قممت بالكشف على رجل عنده ورم في يديه ، فإذا وجدته كبيرا ممتدا صلبا كالفاكهة المفجة ، فقل هذا ورم ساكناحه ، ولكن ليس له علاج» ، وفي الحالة الخامسة والعشرين ، وهي حالة خلع الفك الأسفل يقول : إذا قممت رجلا في فكه الأسفل خلع ، وكان الفم مفتوحا لا يستطيع أن يخلقه ، فضع إبهاميك على طرفي غرعى الفك من الداخل ، وأصابع اليدين تحست الذقن ، ثم ارفعه إلى الخلف ، فيعود إلى مكانه» .

ويمتاز هذا الجزء الأول من البردية بدقة الملاحظة والخلو من النظريات والسحر والشعوذة التي تترثر بها المؤلفات الأخرى ، وربما كان ذلك لأنه يتناول جروحا يسببها فعل خارجي معروف ، لا أمراضا ذات أسباب خفية يمكن أرجاعها إلى الأكلة والأرواح ، ويذهب «برستد» إلى أن هذا الجزء من البردية إنما هو أقدم ما كتب عن الجراحة في العالم كله ، وقد أصحبت ضجة كبيرة في المجال الطبي عند ظهوره ، هذا فضلا عن أن المختصين في تاريخ الطب إنما يعتبرونه نقطة التحول بين من العلاج وعلم الطب ، ذلك لأن محتويات البردية إنما تثبت أن مؤلفها لم يكن شخصا يؤمن بالسحر أو الكهانة ، بل كان طبيبا يراقب مرضاه الليالى

الطوائف ، ويرقب ويوب ما يلاحظ عليهم أثناء المرض ، بل انه كثيرا ما كان يشرح الجسم بعد الوفاة لمعرفة السبب .

ويذهب الدكتور حسن كمال الى أن عهد تسجيل البردية قديم ، ذلك لان أسلوبها وقواعدها اللغوية انما ترجع الى عهد الدولة القديمة ، ولعله في ذلك انما كن متأثرا بما ذهب اليه «برستد» من أن كاتب البردية ربما كان «ايمحوتب» أو غيره ممن تلقوا العلوم عن الكهنة ، على أن هناك من يذهب الى أن كتّاب البردية انما كان جراحا عسكريا حصل على معلوماته من إحدى الحروب ، وربما حرب التحرير ضد الهكسوس .

على أن الدكتور محمد كامل حسين — استاذ جراحة العظام ومدير جامعة عين شمس السابق — انما يذهب الى أن كاتب البردية (وكان قد نقلها الى العربية) لم يكن أبدا جراحا عسكريا ، ذلك لان ظروف الحرب لا يمكن أن تسمح بملاحظة الجريح مدة كافية ، والاشراف الكامل على تطور حالته ، ولما كانت الاصابات المذكورة في البردية من النوع الذي قد يتسبب عن سقوط من ارتنحاح شاهق ، فقد بدا مؤلفها ، كما لو أنه قد عاصر بناء أحد الاهرامات التي كان يستغرق تشييد الواحد منها ما يقرب من ثلاثين عاما ، والتي كان العمال يصابون بلاثك أثناء الحمل بها باصابات مختلفة ، وبما أن هذه الحوادث كانت تقع في أزمنة متباعدة يسمح تباعدها بالتأمل والتأويل ، وتتبع حالة كل مصاب ، فان الدكتور محمد كامل حسين انما يرجح أن يكون مؤلف البردية قد اشترك في بناء أحد هذه الاهرامات .

هذا ويحدد لنا الدكتور بول غليونجي — الاستاذ بجامعة عين شمس سابقا — الالوجه الجديرة بالاعجاب في هذه البردية ، والتي منها (أولا) معرفة بالتشريح غير ميسورة في ذلك الزمن ، فان اللفظ الدال على «المخ» ورد بها — لأول مرة في التاريخ — في عهد لم يكن فيه لهذا العضو تسمية في أية لغة من لغات العالم ، كما ورد ذكر الكيس المغلف له ، وفي هذا إشارة صريحة للام الجافة والام الحنون ، وهما غشاء المخ ، أما المنبذ الخاصة بالعظام والفقرات فهي عديدة ، ومنها (ثانيا) الدقة في

الفحص ، وصحة تفسير العلامات الاكلينيكية ، الامر الذى لا يمكن تحقيقه الا بمعرفة سليمة لقواعد فسيولوجية أساسية ، فلقد عرف صاحب البردية معنى قرقرة العظام تحت اليد ، واستعان بها فى التفرقة بين الكسر والجزع ، الذى قلل عنه بحق انه اصابة للاربطة ، دون تغير فى وضع العظام .

ومنها (ثالثا) الاهمية القصوى التى أعيرت للنبض فى معرفة حالة المريض وحالة القلب ، وقد جاء فى أول الكتاب نبذة طويلة عن الشرايين والنبض ومحل جسه ، ومن عباراتها التى أثارت بعض الجدل : « ان فحص المريض يشبه (عد أو قياس) مرض شخص لمعرفة وظيفة قلبه » ، وقد رجح «برستد» أن هذا التطبيق انما يشير الى عد النبض ، فاذا صح ما ذهب اليه «برستد» ، فسان صاحب البردية يكون قد سبق «أبقراط» (٤٦٠ — ٣٧٠ ق م) ، والمعروف بأبى الطب ، و «ديموقريط» ، اللذين لم يذكرنا عد النبض ، بألفى سنة أو تزيد ، وقد لا يكون من مجرد الصدفة أن أول من عدده انما كان «هروفيولوس» والذى عاش فى الاسكندرية وزاول مهنة الطب فيها فى النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث كانت علاقة القلب بالنبض قد عرفها المصريون منذ حوالى ٢٥٠٠ سنة . وكانت المزاويل المائية معروفة منذ زمن ، وربما كان عد النبض هذا سرا من الاسرار التى أخفاها الحكماء المصريون القدماء عن «أبقراط» وغيره من الزوار الاغريق .

ومنها (رابعا) عدم الاكتفاء بدقة الوصف المحلى للاصابة ، بل الربط بين ظواهر متلازمة فى أجزاء متباعدة من الجسم ، تكون منها — لأول مرة فى التاريخ — صور اكلينيكية مميزة ، وقد قيل أن «جالينوس» (١٣٠ — ٢٠٠ م) هو أول طبيب حقق هذا التقدم فى التفكير الطبى ، غير أن طبيبنا العبقري هذا قد سبقه بسبعة عشر قرنا ، ومن أمثلة تلك المتلازمات التى وصفها صاحب البردية ، اصابات العمود الفقرى المصحوبة بالشلل والقبول غير الارادى ، والاستثناء ، مع تخصيص الاستثناء باصابة فقرات الرقبة الوسطى ، والربط بين كسور عظمية

الصدغ والصمم ، وبين احصابة ناحية من المخ والشلل النصفي ، ومنها (خامسا) اهتمامه بتتبع أطوار المرض للوصول الى التشخيص وللتكهن بالمال ، ومنها (سادسا) أن صاحب البردية انتقل من التشخيص الى التكهن بالمال ، فيقول : ان مال كسور الجمجمة سيء ، اذا كان المسخ لا ينبض تحت اليد ، أو اذا كان العظم منخفضا داخل المخ ، أو اذا لوحظ تصلب في الرقبة ، أو نزف من الانف أو الاذن أو تحت اللتصمة ، وكلها علامات حدوث مضاعفات معروفة تزيد فعلا من خطورة الاصابة .

ومنها (سابعاً) دقة وصف التدرجات العلاجية ، كوصف كيفية اعادة جزئى التربة المكسورة الى محلها ، وذلك هى الطريقة التى قال عنها عميد المختصين الدكتور محمد كامل حسين : ان العلم الحديث لم يصل الى أحسن منها ، وأنها تؤدى الى درجة تامة من الشفاء ، ومنها (ثامناً) تباين المعدات الجراحية التى كان يستعين بها المؤلف فى العلاج (١١) .

٢ - بردية ايبوس :

تعد بردية ايبوس هذه أشهر البرديات الطبية وأطولها ، وقد عثر عليها فى الاقصر عام ١٨٦٢م ، وحصل عليها الاثرى الالمانى «جورج ايبوس» (١٨٣٧ - ١٨٩٨م) من «ادوين سمث» ثم نشرها عام ١٨٧٥م كما قلم «والتر فريزنسكى» (١٨٨٠ - ١٩٣٩) بنشر أربعة أجزاء من

(١١) انظر : ضمن كمال : الداء المصرى القديم ٣٨٧/٤ - ٥٥٦ (القاهرة ١٩٦٤) ، بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ٥٢٥/١ - ٥٢٩ ، مصر وطبيب - القاهرة ١٩٦٠ ص ٥٣ - ٦٤ ، جورج سارتون : تاريخ العلم ص ١١٤ - ١٢٠ ، احمد فخري : الموسوعة المصرية ١٥٢/١ - ١٥٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٦٥ - ٤٦٦ ، محمد كامل حسين : متنوعات - القاهرة ١٩٥١ ، وانظر له أيضا :

The Edwin Smith Papyrus, The Oldest Surgical Treatise in The World. J. H. Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus, 2 Vols, وانظر Chicago, 1930.

وكذا H. Grapowet, Grundriss Der Medizin Der Alten Egypter, 1958-1960.

وكذا G. Lefebvre, La Medicine Egyptienne de L'Epoque Pharaonique, 1956.

البردية علم ١٩١٣م ، كما قام «ب. ابل» عام ١٩٣٧م بنشرها أيضا ، كما قام «هرمان جرايو» وزملاؤه بتحليل هذه البردية وغيرها في دراسة من ثمانية أجزاء (١٩٥٨ - ١٩٦٠) ، كما قام «جوستاف لونغيفر» عام ١٩٥٦م بدراسة للبردية مع غيرها .

ويبلغ طول هذه البردية ٢٠.٢٣ مترا ، وعرضها ٣٠ سم ، ونصها في ١٠٨ عمودا ، يحتوى كل منها على ٢٠ أو ٢٢ سطرا ، وقد أعمل الكاتب ذكر الرقمين ٢٨ ، ٢٩ ، بينما أعطى العمود الأخير رقم ١٠ ، وتحتوى البردية على ٨٨٧ وصفة طبية لأنواع متعددة من الامراض أو أعراضها ، ومنها اثنتا عشرة علاجها الرقى .

ويرجع تاريخ البردية الى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، ذلك لانها تحصل تاريخ السنة التاسعة من عهد الملك «أمنحتب الاول» (١٥٥٠ - ١٥٢٨ ق م) ، ثانيا ملوك الاسرة الثامنة عشرة ، غير أن دراستها من الناحية اللغوية لا تترك مجالا للشك في أن كاتبها قد جمع ملحقته من عدة برديات طبية من عهد الدولة الوسطى (٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ق م) ، وربما قبل ذلك ، وقد جاء باحدى عباراتها أنها منسوخة في عهد الاسرة الاولى (حوالى ٣٢٠٠ ق م) ، وجاء بأخرى أنها من عهد احدى ملكات الاسرة السادسة (حوالى ٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق م) .

هذا وبردية ايبيرس هذه ليست كتابا طبيا مقسما الى أبواب وفصول ، ولكنها عبارة عن مجموعة مؤلفات وبحوث في مواضيع من أكثر من أربعين مصدرا مختلفا تتناول بعضها وصفات طبية لبعض الامراض وطريقة فحصها ومعالجتها ، ومن بينها عدد كبير من أمراض النساء ، كما نجد فيها الكثير من التعلويد السحرية التى ذكر عنها صلص البردية أنها تنفع في شفاء بعض الامراض وطرد الارواح الشريرة التى سببتها ، هذا وقد اثبتت دراسة هذه البردية أن بعض أجزاء منها مقتبسة من مؤلف طبى كبير نجد أجزاء منه في برديات أخرى ، مثل بردية أدوين سمث ، وبردية كاهون ، ومعظم ما اقتبس في هذه البردية إنما يتصل بأمراض المعدة

ووظيفة القلب وأوعيته والعمليات الجراحية الخاصة بالاورام والبنور
والدمامل .

هذا وقد وصلت البردية الى الكاتب منسخها حسب ترتيب وصولها ،
ويمكن حصرها لاعطاء فكرة عن علم هذا الوقت ومحتوى التخصص فيه ،
ويشمل : ١ - توسلات الآلهة ، ٢ - الامراض الباطنة وعلاجها ، وهو
أول مؤلف في تاريخ العالم يعالج سر الحياة بتأملات فلسفية غير دينية
أو سحرية ، ولو أنه يرد أغلب الامراض الباطنة الى أسباب روحانية ،
٣ - وصفات لامراض العيون ، ٤ - وصفات لامراض الجلد وللتجميل
وللزينة واثماء الشعر ، ٥ - وصفات لامراض الاطراف ، ٦ - وصفات
مختلفة لعدة امراض في الرأس والاسنان ، ٧ - امراض النساء وعلاجها
٨ - مؤلفات عن القلب والشرائين ، وهما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا
اليها في عصر التشريح ووظائف الاعضاء ، ٩ - الامراض الجراحية
وعلاجها ، وهذا الجزء لم يتناول الجروح ، وانما اقتصر على الاورام
والخراجيع .

وقد حوت البردية ٨٧٧ وصفة ، بعضها عن كيفية التشخيص وبعضها
مقرون بالمعالج ، وبعضها اشارات علاجية ، ومن الاوصاف الاكلينيكية
تعرف «اييل» على خمسة عشر مرضا ، منها التورم والاستسقاء والقيلة
المائية والجزام ، غير أن علماء اللغة لم يرضوا عن كل ترجماته وتفسيراته
اذ أن تلك الاسماء لم يصحبها وصف يبرر هذه الترجمة ، مما أدى الى
أن يذهب البعض الى أنه قد تجاوز الحدود المقبولة في التفسير .

ولنذكر الان بعض الاوصاف الاكلينيكية التي جاءت في البردية :

١ - نفى تطيملت خاصة بورم الاوعية يقول : اذا فحصت ورما
في الاوعية في طرف من الاطراف ووجدته نصف كروي يتضخم تحت
يدك كل مرة (أى ينبض) ولكنه اذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض
وبهذا لا يمكنه أن يتضخم وأن ينكمش ، فقل عنه : انه ورم في وعاء ،
انه مرض سأعالجه ، وان الاوعية هي التي سببته ، وقد نشأ عن اصابة
للاوعية .

وهذا وصف صحيح — كما يقول الدكتور بول غليونجى — لورم شريائى ولحيزاته ، وهو أنه ينبض ، وأن النبض يتوقف اذا فصل بينه وبين الوعاء الاصلى ، كما أن نشأة تلك الاورام من اصابات الاوعية ذكرت صراحة ، وأن وصول النبض اليه من الشريان فوقه عرف أيضا •

٢ — وفى وصف للذبحة الصدرية يقول : اذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو آلام فى خراعه وصدره وناحية من معدته ٥٥٥ فقل بصدده : هذا شيء (أى روح) دخل من فمه ، والموت يهدده •

هذا ولا تقتصر أهمية موسوعة ايبرس على الاوصاف الاكلينيكية التى جاءت بها ، اذ أنها تعتبر أيضا مرجعا الاساسى فى علم عقاقير المصريين ، وفيما يسمى الان المادة الطبية (١٢) •

٣ — بردية برلين الطبية :

حصل على هذه البردية «بسالكا» من مقبرة بسقارة فى القرن التاسع عشر ، ويرجع تاريخها الى أيام الاسرة التاسعة عشرة ، وربما قبل ذلك ، الى عام ١٣٥٠ ق م ، وطولها ١٦ ر ٥ مترا ، وتحتوى ٢١ لوحا أو عمودا ، ومتوسط تعداد كل عمود ١١ سطرا ، وهناك ثلاثة أعمدة على ظهرها ، والكتابة غير سليمة ، ومليئة بالاطفاء ، وتحتوى البردية شرحا مطولا عن القلب والاوعية ، وهو يماثل ثاتى كتابى بردية ايبرس فى هذا الموضوع ، وان ذيل بنبختين ، احدهما : عن أصل هذه الكتابة ، وهو أكثر تفصيلا مما جاء فى بردية ايبرس ، وثانيها : تعد امتدادا وتوسعا لما ورد فيها ، ويمكن وضع هذا الجزء فى مستوى أعلى مما جاء فى لفافتى هرست وايبرس •

(١٢) أحمد فخري : الموسوعة المصرية ١٥٣/١ ، حسن كمال : المرجع السابق ٢٠١/٤ - ٣٨٥ ، بول غليونجى : سحر وطب ص ٤٥ - ٥١ ، تاريخ الحضارة المصرية ص ٥٢٦ - ٥٢٧ ، جورج سارتون : المرجع السابق ص ١١٢ - ١٢٠ ، وكذا

E. Ebbell, The Ebers Papyrus, Copenhagen, 1937.

W. Wrasidzinski, The Text of Papyrus Ebers, Leipzig, 1913. وكذا

G. Ebers, Der Papyrus Ebers, 1875. وكذا

N. Riad, la Medecine au Temps des Pharaons, Paris, 1955. وكذا

وأغلب العقلي في بردية برلين هذه نباتية وحيوانية ، وبها بلب عن الرومانتيزم ، غير أن البردية مليئة بالاطعاء ومظاهر الاعمال ، وأقل مدعاة للاهتمام ، وقد نقل نصوص البردية من الهيراطيقى الى المهرولوجي الدكتور «والتر فريزنسكى» ، كما كتب عنها «جوستاف لوفيفر» ، وكذا «وارن دوسون» ، ثم «هرمان جرابو» وزملاؤه (١٣) .

٤ - بردية تشستر بيتى الطبية :

والبردية محفوظة بالمتحف البريطانى فى لندن (برقم ١٠٦٨٦) ، ويرجع تاريخها الى الاسرة الثامنة عشرة وهى عبارة عن ثمانية ألواح وعدد يصوى كل منها ١٤ سطرا ، وبعض العمود الثامن مفقود ، وهى صغيرة الحجم بالنسبة للبرديات الطبية الأخرى ، فبردية ايبيرس تحوى ١١٠ لوحا ، وبردية هرست ١٨ لوحا وبردية برلين ٢٤ لوحا ، وبردية ادوين ٢٢ لوحا ، ولا يبعد أن كان الجزء المفقود منها كبيرا ، وعلى أية حال ، فهى تحوى ٤١ وصفا لأمراض الشرج ، فضلا عن بعض التعاويذ السحرية ، كما يوجد على أحد وجهيها عدد من الوصفات لعلاج أمراض المستقيم (١٤) .

٥ - بردية كارلزبرج :

وهى عبارة عن قصاصات بردية مهلهلة موجودة بمعهد الآثار المصرية ،

(١٣) حسن كمال : المرجع السابق ص ٥٥٧ - ٥٩١ ، وكذا

II. Grappowet, Grundriss Der Medizin Der Alten Agypter, IV- and IV, II, 1958-1962.

W. Wreszinski, The Text and Translation of Pap. Berlin وكذا
(3038), 1909.

W. Dawson, Magician and Leech., 1929. وكذا

G. Lefebvre, la Medicin Egyptienne de L'Epoque Pharaonique, 1956. وكذا

(١٤) حسن كمال : المرجع السابق ص ٦٥٦ - ٦٦٥ ، وكذا

A. H. Gardiner, Hieratic Papyri in The British Museum, Third Series : Chester Beatty, 2 Vols, London, 1935.

F. Jonkhoeere, le Papyrus Medical Chester Beatty, in La وكذا
Medecine Egyptienne, II, 1947.

II. Grapowet, Op-Cit, وكذا

بجامعة كوبنهاجن بالدانمارك اعنى بها الدكتور «ابشر» ، وعليها نصوص ترجع الى عهد الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، وربما الى حوالى عام ١٢٠٠ ق م ، ويحوى صدرها وصفات عن امراض العيون ، تكاد تكون مطابقة لما جاء فى بردية ايبرس ، وأما ظهرها فيحوى وصفات عن امراض النساء ، كما حوت البردية بيانات عن انذار الوضع ونوع الجنين تداولتها الامم فيما بعد ، كما لفت نظر الاثاريين والاطباء الاراء العديدة التى أبدأها قدماء المصريين عن الحمل وجنس الجنين ، وأثرها على الطب الاوروبى (١٥) .

٦ - بردية كاهون :

اكتشفت هذه البردية فى مدينة اللاهون بالفيوم فى ابريل ١٨٨٩ م ، وطولها متر ، وعرضها ٣٢ سم ، ومكونة من ثلاث صفحات ، ويرجع تاريخها الى حوالى عام ١٩٥٠ ق م ، وقد دون على ظهرها حساب من عهد الملك «أمنمحات الثالث» (١٨٤٣ - ١٧٩٧ ق م) من الاسرة الثانية عشرة ، وهى ليست فقط أقدم اللغات فى تاريخ نسخها ، بل ان أصلها يبدو أيضا أقدم من أصول اللغات الأخرى ، وتتكون البردية من قسم طبى ، وقسم بيطرى ، وقسم خاص بكل بعض المسائل الصسائية ، وقد كتبت بالهيراطيقية ، فيما عدا الجزء البيطرى فقد كتب - لامر ما - بالهيروغليفية ، وهو خط كان فى الغالب وقفا على الكتابات الدينية .

ويقع القسم الطبى فى ثلاث صفحات ، الاولى متأكلة ممزقة رُميت فى عهد تديم ، بلصق قطع من لغات بردية أخرى على ظهرها ، والثانية فى وسطها ثقب كبير ، وليس بها سوى سبعة أسطر كاملة ، وأما الثالثة فقد أعيد تكوينها من ست وأربعين قطعة متناثرة ، وتضم للصفحتين الاوليان سبعة عشر تشخيصا ووصفة فى امراض النساء ، ولم يذكر أى اجراء جراحى ، وانما اکتفى صاحبها بوصف العقاقير مثل الجعة واللبن

(١٥) حسن كمال : المرجع السابق ص ٦٨٥ - ٦٨٦ ، وكذا Erik Iversen, Carlsberg VIII, With Some on The Egyptian Origin of Some Popular Brith Prognosis, Kobenhavn, 1939.

والزيت والبلح ، وبعض الاعشاب ، فضلا عن العلاج بالغسيل والتبخير
المهبلى .

وتحوى الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة لتعريف العقيمات من بين
النساء ، فضلا عن التكهين بجنس الجنين ، فمثلا لمعرفة خصب المرأة ،
عليها أن تجلس فوق بقايا جعه ٠٠٠ ، فان تقيأت كانت خصبة ، والا
كانت عقيما ، كما تدل عدد مرات القيء على عدد من ستنجبهم من الاولاد
ويبدو أن كل الاشارات الخاصة بمعرفة الحقم مبنية على نظرية أن هناك
اتصالا بين المهبل وبقية الجسم في حالة الخصب ، وقد أوضحت هذه النظرية
بوصفة : وضع لبوس من الثوم في المهبل ، ثم ملاحظة رائحته في الفم ،
إذا كانت المرأة خصبة .

وقد استعمل الاغريق نفس الطريقة ، ووصفها «أبقراط» في كتابه
«الفصول» ، وبقينا أنه اقتبسها من المصريين ، ثم توارثها أطباء الغرب ،
ثم الاغرنج حتى استعملت في أوروبا في العصور الوسطى ، ورغم أنها
طريقة خيالية فقد ذهب الدكتور أحمد عمار بعدم استبعادها دون تجربتها
فقد لاحظ أن الخصيات من النساء يشعرن في فمهن بطعم الثوم بعد
حقن «الليبودول» في الرحم ، نتيجة انتقال اليود الموجود في الليبودول
من الرحم الى التجويف البريتوني ، ومنه الى الرئة ، اذا كان البوقان
سالكين .

هذا وتعتمد بعض الاشارات الخاصة بالولادة على حالة الثديين
وقواصهما ، أو على لون البشرة والعينين ، وما نزال نرى بعض الحموات
يتحسسن ثديي زوجة الابن ، ويترقبن ظهور البقع السمراء على الوجه
عند أول حدوث الحمل (١٦) .

(١٦) حسن كمال : المرجع السابق ص ٦٤٨ - ٦٥٧ ، بول غليونجى :
المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٥ ، وكذا
F. L. Griffith, Hieratic Papri from Kahun and Gurab, 1898, p. 5-11.
H. Grapow, Op-Cit, IV, 1-2. وكذا

٧ - بردية لندن الطبية :

توجد هذه البردية في المتحف البريطاني في لندن (برقم ١٠٠٥) ، بعد أن نقلت اليه من المتحف الملكي بلندن في علم ١٨٦٠م ، ويرجع تاريخها الى النصف الثاني من الاسرة الثامنة عشرة ، وقد ظن البعض من قبل أنها كانت ترجع الى الاسرة الرابعة ، لان أحد الرقى ذكرت الملك «خوفو» - صاحب الهرم الاكبر - غير أن فحص الاسلوب والخط انما يدل على أنها من عصر «رعمسيس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٣٤ ق م) ، وان كان هذا لا يمنع أنها - كغيرها من البرديات الطبية - ترجع الى عهد قديم ، وهي على أية حال ، مكتوبة بخط رديء تصعب قراءته ، كما أنها خاصة بالتعاويذ السحرية التي تنفع في شفاء بعض الامراض .

ومن ثم فالبردية بمثابة وسيط بين كتب الطب السابقة ، وبين بعض كتب الرقى ، مثل «تعاويذ الام والطفل» و «كتاب السحر» الموجود في «تورينو» ، وقد وردت بها ٦١ وصفة ، منها ٢٥ فقط طبية ، والباقي تعاويذ ، والبعض منها من أصول ليست مصرية ، هذا وقد نقل نصوصها من الخط الهيراطيقي الى الخط الهيروغليفي «والتر فرينسكي» ، كما ترجم النصوص وشرحها ، كما ترجم لها «هرمان جرابو» وزملاؤه ، كما قدم لها الدكتور حسن كمال ترجمة بالعربية (١٧) .

٨ - بردية ليسدن :

توجد هذه البردية بمتحف ليدن في هولندا ، وتمتاز بأن مؤلفها ذكر عددا من القواعد للوقاية من الامراض ووقف تطورها ، كما ذكرت أيضا وسائل منع انتشار العدوى ، وقد ترجم لهذه البردية «جرايو» وزملاؤه ، وهي الترجمة التي نقلها الى العربية الدكتور حسن كمال (١٨) .

(١٧) حسن كمال : المرجع السابق ص ٦٤٤ - ٦٤٧ ، وكذا

H. Grapow, Op-Cit, IV,

وكذا W. Wreszinski, The Text and Translation of Papyrus London, 1912.

(١٨) حسن كمال : المرجع السابق ص ٦٧٦ - ٦٧٨ ، أحمد فخري :

الموسوعة المصرية ١٥١/١ ،

H. Grapow, Op-Cit, IV, 1-2, 1958.

عثر على هذه البردية فلاح من دير البلاص (مركز نقادة بمحافظة قنا) في ربيع ١٩٠١م ، ثم سلمها الى الدكتور «جورج راينز» (١٨٦٧-١٩٤٢) الذي كان مشرفا على حفائر السيدة «هرست» (١٨٤٢ - ١٩١٩) في دير البلاص ، والتي نسبت البردية اليها ، ثم أهدتها الى متحف جامعة كاليفورنيا ، وقد قام الدكتور «كورت زيت» (١٨٦٩ - ١٩٣٤م) ببحث البردية بحثا مبدئيا ، ثم ترجم رؤوس وصفاتها ، وفي عام ١٩١٢م قام «والتر فريزنسكي» بنقل نصوصها من الهيروغليفية الى الهيروغليفية ، ثم ترجمها وشرحها ، وفي عام ١٩٣٠م قام «هنري لوتز» ، مع (Dr. Ch. D. Leake) نائب عميد جامعة تكساس بترجمة البردية .

وعلى أية حال ، ورغم تمزق حواف هذه البردية ، فإنها محفوظة جيدا وبها ٢٦٠ لفرة ، تقع في ١٨ صفحة ، وردت منها ٩٦ لفرة في بردية إيبيرس ، وتؤرخ ، على الأرجح ، من أيام «تحتوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٩ ق م) ، وأكثر ما فيها منقول عن الكتاب الاصلى الذى نقل عنه جامع محتويات بردية إيبيرس ، وان لافقتها في بعض فقراتها (١٧) .

٤ - المدارس الطبية

كان لدراسة الطب في مصر الفرعونية قواعد ملزمة ، وقد رأينا من قبل مؤلف بردية إيبيرس يشير الى أنه تلقى علومه في أون (هليوبوليس) قبل أن يتجه الى «ساو» ، حيث يقول «انى قد تخرجت من هليوبوليس مع امراء البيت الكبير ... انى تخرجت من «ساو» في صحبة أمهات الآلهة ، وقد أسبغن على حمايتهن ، وذلك لكى أطرد جميع الامراض» ، وليس هناك من ريب في أن هذا دليلا على أن هناك مدارس طبية كانت

(١٩) حسن كمال : المرجع السابق ص ٥٩٥ - ٦٠٥ ، أحمد فخري : الموسوعة المصرية ١٥١/١ ، وكذا

W. Wreszinski, The Text and Translation of Pap. Hearst, 1912.

B. Ebbell, The Papyrus Ebers, 1973.

H. Gropowul, Op-Cit, IV, a and b, 1958.

وكذا
وكذا
وكذا

في كل من هليوبوليس وسائيس وغيرهما من المراكز الثقافية في مصر القديمة .

وعلى أية حال ، فليس هناك من ريب في ان نشأة المدارس الطبية في مصر الفرعونية انما يرجع الى عهد الاسرة الاولى (حوالي ٣٣٠٠ ق م) ، وبعض هذه المدارس قد بلغ شهرة كبيرة ، لعل من أشهرها مدرسة «أون» (هليوبوليس) ، ومدرسة أنشئت في « ساو » (سائيس = صا الحجر) للمولودات اللاتي كن يقمن بدورهن بتدريس علم أمراض النساء للأطباء أنفسهم ، ثم مدرسة «ايمحوتب» في منف ، التي زادت شهرة مكتبتها ، والتي كان يتردد عليها الأطباء حتى القرن الثاني الميلادي ، ثم مدرسة طيبة (الاقصر) ، وكانت المدارس الموجودة في هذه المدن أشبه بجامعة كبرى لتلقى العلوم الطبية بأنواعها ، ثم بعض علوم اللاهوت والحساب والفلك والهندسة .

وهناك نص نشره «شيفر» ، ويتحدث عن إعادة تنظيم مدرسة الطب في عهد الملك «دارا الاول» (٥٢٢ - ٤٨٦ ق م) في مدينة «ساو» وصاحبه كبير الأطباء «وجا حر وسنت» الذي عاصر «أحمس الثاني» (٥٧٠ - ٥٢٦ ق م) و «بسماتيك الثالث» (٥٢٦ - ٥٢٥ ق م) ، وكان مقربا من «نعمباز» (٥٢٥ - ٥٢٢ ق م) و «دارا الاول» الذي أعاده الى مصر بعد أن كان قد اصطحبه الى فارس ، وقد جاء في النص : « أمرني الملك دارا أن أتوجه الى مصر ، لما كان في عيلا ، كملك كبير على كل قطر ، وأمير عظيم على مصر ، لاصلاح أقسام دور الحياة - المتعلقة بالطب - بعد أن تخربت ، وقد دلني على الطريق جماعة من الاعراب ، كما أمر جلالتك بذلك » .

وقد انصب أغلب اهتمام الرجل على «ساو» (سائيس = صا الحجر) عاصمة البلاد وقت ذلك ، ومسقط رأسه بالذات ، فيقول : «نفذت أمر جلالتك وزودتها (أي أقسام دور الحياة) بالطلبة من عليا القوم ، ولم ادخل معهم طالبا من أبناء الفقراء ، ثم وضعتهم تحت رعاية أعقل الرجال لقد أمرني جلالتك أن أعطيهم كل شيء طيب حتى يتمكنوا من أداء كل

واجباتهم ، فزودتهم بكل ما احتاجوا اليه ، ويكل الآلات الواردة في النصوص ، حسب ما كانت موجودة في هذه المعابد من قبل ، وقد فعل هذا جلالته لانه كان يقدر هذه المهنة (الطب) ، ويرغب في شفاء كل مريض ، ويحرص على تدعيم أسماء الآلهة ومعابدها ومواردها فيحتفل بأعيادها على الدوام دائما أبدا •

ومن البدهي أن هذا النص حديث نسبيا ، يرجع الى القرن السادس قبل الميلاد (أى منذ ٢٦ قرنا فحسب) ولكنه يشير الى مدرسة طب قديمة في سايس . رمعت بعد ما أصابها من التلف (ربما من قهبيز الغازي المتوحش) ، وعلى أية حال ، لهذا يعنى أن المدارس الطبية كانت قائمة والمدراسة فيها كانت خاضعة لنظم معروفة ، وليس يمكن القول — بحال من الاحوال — أن أول العهد بها كان في القرن السادس قبل الميلاد (العهد الفارسي) ، فالإشارة واضحة الى أن ما تم في العهد المذكور — أن صح ما جاء بالنص — يشير الى إعادة بناء ما تهدم من هذه الدور ، التي ربما كان هدمها نتيجة لغارة الفرس البربرية ، ومهما يكن من أمر ، فإن دراسة الطب ، دراسة عريقة في مصر ، لها أسسها وقواعدها ولها شهرتها في العالم القديم ، ومدرسة سايس هذه ، لا ريب في أنها وريثة غيرها من المدارس القديمة ، لمدرسة منف التي تخرج فيها «إيمحوتب» الطبيب المؤله • على أن هناك ما يلفت النظر في نص «وجا — حر — رسنت» ، حيث يشير الى انتقاء الطلاب من بين الأسر الراقية ، فضلا عن توفير كل وسائل الراحة لهم ، كما أن ذكر الآلات إنما يشير الى الجراحة ، وليس هناك ما يمنع من وجود مدارس مشابهة لمدرسة سايس في المراكز العلمية الكبرى في البلاد ، كطبية ومنف وعين شمس ، كما أن التحاق هذه المدارس بالمعابد لا يعنى أبدا أن الطلبة ما كانوا يتعلمون الطب الجسماني والطب الروحاني معا ، خاصة وأن المعابد كانت مراكز العلم — الروحاني وغير الروحاني — وخاصة في عهد الامبراطورية المصرية على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥ — ١٠٨٧ ق م) ، وكما هو مشاهد الآن في عصرنا الحديث ، في أقدم الجامعات الاوربية — كجامعة اكسفورد بإنجلترا — حيث اعتبر القوم هناك أن الكنيسة منبع

لكل العلوم ، فعملوا فيها العلوم الدينية بجانب العلوم الدنيوية ، وجامعة
 الازهر الشريف — أعرق الجامعات الدينية ، وأعظمها وأشرفها قلطة —
 انما هي في عصرها الحالي ، مثال واضح على ربط العلوم الدنيوية
 بالعلوم الدينية ، وليس ببعيد أن الامر كان كذلك في مصر الفرعونية .
 وفي الواقع فان «دارا الاول» هذا ، لم يكن اول ملوك الفرس الذين
 قدروا الطب المصرى وأجلوه ، فلقد سبقه الى ذلك العاهل الفارسى
 الكبير «كشوش» (٥٥٨ — ٥٢٩ ق.م) الذى كان يجب أن يحاط دائما
 بنخبة من الاطباء المصريين ، ولا غرابة في ذلك ، فلقد علت شهرة الاطباء
 المصريين ، فصالت اسماع الدنيا ، ومن ثم فقد أرسل ملوك الشرق وأمراءه
 الى فراعين مصر يرجونهم أن يبعثوا اليهم ببعض أطبائهم ليعملوا في
 بلاطهم ، كما كن عشاق الطب يحجون الى مصر من كل فج ، ويلجأ الى
 أطبائها الامراء والحكام يلتمسون عندهم البرء والشفاء ، كما حدث مثلا
 على أيام «أمنحتب الثانى» (١٤٣٦ — ١٤١٣ ق.م) عندما وفد أمير
 سورى — تصحبه زوجته ، ومعه رجال بلاطه — الى مصر ، ليزور «نب
 أمون» طبيب فرعون في طيبة ، وفي نفس الوقت ، فكثرا ما أرسل فراعين
 مصر بعضا من أطبائهم الى ملوك الشرق وأمراءه ، الامر الذى تكرر
 مرات ، ومرات كثيرة ، في التاريخ المصرى القديم .

هذا ويشير «ديودور الصقلى» الى أن التعليم انما كان ينتقل من
 الطبيب الى ابنه شفويا ، حرصا منه على الاحتفاظ بسرية علمه ، وهذه
 التقاليد العائلية اتسم بها الطب في بلاد العالم القديم ، ومن ثم فقد
 وجدناه عند الاغارقة وقفا على «الاسقليبياد» سلالة «أسقليبيوس» التى
 كان ينتمى اليها «أبقراط» (٤٦٠ — ٣٧٠ ق.م) و «جالينوس» (١٣٠ —
 ٢٠٠م) ، ونرى «أبقراط» يفرض على الاطباء قسما يوعز بمثل هذا
 الكتمان ، واستمر الاطباء يتبعون هذا التقليد حتى بعد المسيحية ، فقد
 جاء في بردية قبطية ، درسها «شاسينا» العبارة التالية : «هذه قطرة
 حضرتها مع أبى» ، وربما لا يختلف هذا كثيرا عما هو في عهدنا الحاضر ،
 فان كثيرا من أبناء الاطباء يخلفون آباءهم في مهنتهم هذه .

وعندما أباح «أحمس الثانى» (أمازيس) للاجانب دخول مصر ،

حضر اليها عدد كبير من الاغريق ليتلقوا فيها العلم ، وكان من بينهم عباقرة عصرهم من أمثال «(افلاطون)» (حوالى ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) و «(أودوكسوس)» و «(أبقراط)» ، غير أنه من المشكوك فيه جدا ، أن يكون الكهنة قد ائتمنوهم على علومهم السرية (٢٠) .

٥ - الاطباء

كان الاطباء فى مصر الفرعونية يتمتعون بمكانة طيبة ، ومركز مرموق ، فى المجتمع المصرى ، وكان القوم ينظرون اليهم نظرة ملؤها التقدير والاحترام ، ونيس أدل على ذلك من ان ينسب التاريخ الى ملوكهم هذه الصنعة والبراعة فيها ، ويستخرجون أسرارها من الارياب ، ومن ثم فقد لقب «(زوسر)» باسم «(سا)» الشافى الالهى ، كما روى المؤرخ المصرى «(مانيتو)» أن الملك «(اثوثيس)» ابن الملك «(ميناء)» (منى) مؤسس الاسرة الاولى ، ألف كتابا فى التشريح ، وأن الملك «(أوزيفايوس)» (حوالى ٣١٠٠ ق.م) حقق تتدما كبيرا فى علم التشريح ، كما كان «(نفر اير كارع)» من الاسرة الخامسة على معرفة بالطب . هذا وكان المطيبون يتكونون من ثلاث فئات هى : الاطباء الكهنة ، والاطباء العلمانيون ، والمساعدون :

اولا : الاطباء الكهنة :

كان الكهنة فى أول امرهم وسطاء بين المريض والاله الشافى ، يعرفون طريق التوصل اليه ، والسبيل الى اجتذاب رضاءه ، ولكنهم لم يكونوا يمارسون أى نوع من الطب ، غير أنهم كانوا على جانب كبير من الدماء والعلم ، كما كانوا يعرفون الفسافات ويستعملونها لتعزيز تعاويذهم ،

(٢٠) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ص ٥٢٧ - ٥٢٨ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٦٠ - ٤٦١ ، عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ص ٢٢٣ ، حسن كمال : المرجع السابق ١٠٢/١ - ١٠٤ ، وكذا

Irans Jonckheere, in Chronique d'Egypte, 1945, p. 24-32.

A. H. Gardiner, The House of Life, in JEA, 24, p. 170-171. وكذا

G. Posener, Op-Cit, p. 4 F. وكذا

Schaefer, in AZ, 37, 1899, p. 72 F. وكذا

SGA, 7, 1912, p. 569-596. وكذا

وكانوا يلمون بقدر كبير من علم الكيمياء ، وقد رد البعض كلمة «كيمياء» الى «كيميت» (كمت) (٢١) ، وهو اسم مصر القديم ، غير أنه لا يمكن في الحقيقة معرفة علمهم ، ذلك لان عقائدهم الحقيقية انما كانت سرا من الاسرار التي لا تفتش لاحد ، غير من كرسوا للخدمة الدينية ، وهي تختلف كثيرا عما يعلمون به لغير هؤلاء .

هذا ويبدو أن الطب كان في أول أمره متصلا بالدين ، و متمشيا مع السحر ، وكان معظم الاطباء من الكهنة المطهرين (وعب) ومنهم من كانوا «مشرقيين على كهنة الوعب» ، وكان الطبيب في الغالب يباشر أعماله الطبية بجانب بعض الادعية والرقى لحماية المريض من الارواح الخبيثة ، ويمكن أن تعد نوعا من أنواع الاحياء بالشفاء ، اذ تؤكد النصوص أن لبعض الآلهة تأثيرا على أعضاء الجسم ، فمثلا اتخذ «رع» اله الشمس ، الوجه مكانا له ، واحتلت «حاتحور» الهة العنب العنبن ، وغضل «أنوبيس» اله التحنيط الشفتين ، واستقر «تحتوت» اله العلم في باقى أعضاء الجسم ، وقد أتت هذه الفكرة من الاساطير الدينية ، وهكذا أصبح الاله الذى يتطلب على الثعبان خير مصل له ، والاله الذى يتطلب على لدغ العقرب يصبح خير حواء له .

وهكذا ، رغم أن المصريين جروا على نقيض معاصريهم من أمم الارض في بناء حياتهم ، معتمدين على ملاحظات واقعية ، وخبرات علمية ، غير أن رواسب الماضي السحيق من مقلدات السلف قد شابت ما حققته النظرات الواقعية والاساليب التجريبية ، وأصبح تراثهم من صناعة الطب بين أيدينا مزيجا يختلط فيه الواقع بالخيال .

ومن ثم فإن للعنبن بالعلاج كانوا على أنواع ، فالى جانب الطبيب

(٢١) أطلق المصريون القدامى على مصر اسم «كمت» أى الارض مشرقين بذلك الى الطمى الذى غمرت به الفيضانات التي لا حصر لها ، ومفرقين بذلك بينها وبين الصحراوات المحيطة بها ، والتي عرفوها تحت اسم «حشرت» أى الارض الحمراء (انظر : محمد بيومى مهران : مصر ٢١/١ - ٢٢ - الاسكندرية ١٩٨٨) .

العلمانى الذى كانوا يدعونه «سونو» ، كان الكاهن يقوم بدور الوسيط بين المريض والاله فى توسله اليه لنيل الشفاء ، وان كانت لديه معلومات طبية فى الطب ، كما كان السحر يحاول طرد الشياطين من جسم العليل ، أو فك أعمال الارواح الشريرة ، وقد كان الطبيب العلمانى (سونو) نفسه ، يضطر أحيانا الى خلط بعض الطب الكهنوتى بأساليب العلمية المجرية ، كما يبدو من ألقاب بعض من زاولوا هذه المهنة .

ثانيا : الاطباء العلمانيون :

كان الطبيب العلمانى يسمى «سونو» — كما أشرنا آنفا — والرمز الهيروغليف لهذه الكلمة مكون من قنينة ومشرط ، ولم يعيز بين الطبيب والبيطرى ، ولكن عدد الاطباء — كما رأهم هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد — كبيرا جدا ، وكانوا على حد قوله : أهم الناس ، حتى أنه ذهب الى أنهم من سلالة «بيون» طبيب الأكمة .

هذا وينقسم الاطباء الى فئات مختلفة ، من حيث العمل ، ومن حيث التخصص .

١) من حيث العمل : كان هناك أطباء موظفون ، ويشار من وقت لآخر الى تقسيم هذه الفئة الى أنواع ثلاثة :

١ — فهناك أطباء القصر ، كما يشار الى ذلك فى نص «واش بتاح» من الاسرة الخامسة ، ومن هؤلاء من كان ملحقا بالقصر ، أو خاصا بالملك أو بالزوجة الملكية أو بالحكام المحليين والنبلاء ، ويظهر الواحد منهم فى قبره حاملا القرايين ، مثل «عنخ» (من الاسرة السادسة) ، وقد صور وهو يحمل الطيور فى يده ، أو يؤدى عملا رسميا ، هذا وقد قام أطباء القصر بدور هام فى حياة البلاط الملكى ، فنجد مثلا «بنتو» يحمل — الى جانب ألقابه الكهنوتية والطبية الدالة على مركزه — يحمل لقب « الذى يدخل القصر ويخرج منه » ، أى الذى يسمح له بمقابلة الفرعون فى أى وقت ، ولعل مما يدل على مكانته ما وجد بالنص بعد كتابة اسمه ، من مخصص ممسكا بيده سوطا ، كدليل على القوة والجاه ، هذا الى جانب

«ننى عنخ سخمت» من الاسرة الخامسة ، وقد اهداء الملك «ساحورع» بابا وهما من الحجر الجيرى ، وقد ازدان بالالوان الجميلة والاحجار الكريمة ، بل ويأمر الملك بتدوين هذا الاهداء على قبره مشفوعا بأطيب عبارات المديح .

٢ — وهناك أطباء الدولة ، وكان معظمهم ملحقين بمصالح الحكومة المختلفة ، يتقاضون منها مرتباتهم ، وان كان يبدو أنهم كانوا — الى جانب أعمالهم الرسمية — يزاولون مهنتهم من أجل الجمهور ، ويتقاضون منه أتعابا ، ويحفظون منه بهدايا ثمينة .

وهناك أطباء ملحقون بالمعابد يتعاطون معاشهم من ميزانية تلك المعابد . ولعل أروع ما فى هذه المهنة عند القوم أنها كانت انسانية الى درجة كبيرة ، فلم تكن فى صالح الموسرين وحدهم من حكام البلاد وسراتها ، وانما كانت أيضا لصالح أفراد الشعب من عمال المحاجر والبناء والجيش المحاربة ، كما كان من جميل تقاليدهم أن الطبيب كان يقطع جزءا من أتعابه يخص به المعبد الذى تلقى فيه علومه الطبية .

وعلى أية حال ، فلقد كان الاطباء فى مركز مالى يسمح لهم بعلاج الفنى والفقير سواء بسواء ، وقد قال «ديودور الصقلى» : ان هناك كثيرا من المصريين كانوا يعالجون بالجان ، وبدهى أن مثل هذا القول لا يمكن أن يصدر الا من شخص رأى بعينه ، وسمع بأذنيه ، ولعل هذا النظام القديم انما هو بعينه نظامنا المحالى ، فعندنا المستشفيات والمجموعات الصحية والعيادات الخارجية والمكاتب الصحية وغيرها ، يجد فيها المريض علاجه مجانا ، وفى كثير من المستشفيات يسمح للطبيب بمزاولة مهنته فى الخارج .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، وقد رأينا أغلب الاطباء انما كانوا يتقاضون مرتباتهم من الدولة ، ومن ثم فلا حرج علينا ، ونحن ننقب فى حياة الاولين من بناء هذا الوطن العريق ، أن نؤكد أن مصر الفرعونية ، رغم مظاهر الحكم الملكى فيها ، انما كانت مهدا للعدالة الاجتماعية الى حد كبير ، على نقيض ما نادى به بعض المفرضين من المؤرخين الاوربيين .

(ب) من حيث التخصص : بلغت صناعة الطب في مصر الفرعونية مبلغاً عظيماً ، تخطت عنده الأصول الى الفروع ، وبات أصحابها يتخصصون في فروع الطب المختلفة منذ أعرق العصور ، فهماو «حسى رع» — أقدم طبيب عرف للتاريخ ، ويرجع للأسرة الثالثة ، ومقبرته بسقارة — يلقب بلقب «كبير أطباء أسنان القصر» على أيام الملك «زوسر» (أى منذ حوالي خمسة آلاف سنة) .

وقد وصل اليها العديد من البرديات التي تدل على تعمق المصريين في شؤون الطب ، وتنوع دراساته ، كما رأينا من قبل ، ومن ثم فهناك الطب البشري ، وهناك الطب الباطني ، وطب أمراض النساء ، وطب الجراحة ، وطب الاسنان ، وطب العيون ، وقد كشف «هرمان يونكر» (١٨٨٥ — ١٩٦٢م) عن مقبرة رئيس الأطباء «أبيرى» الذي يشار الى تخصصه في أمراض العين ، كما تشير بردية «أبيرس» و «أخوين سمث» الى مراحل تخصص ، وتميز تميزا واضحا بين الطبيب الجراح والطبيب المعالج بالدهن والرق ، والطبيب الذي يعطى الدواء النباتي ، ويشير «هيرودوت» الى أن من الشفاء في مصر كان منقسما الى أقسام ، كل طبيب يختص بقسم منها ، فهناك طبيب العيون ، وطبيب الرأس ، وطبيب الامعاء ، وطبيب الاضطرابات الداخلية ، هذا الى جانب أطباء التحنيط وأطباء الجراحة (وهم كهنة سفمت ربة الجراحة ، وحامية الجراحين) ، وأطباء عشابون ، وهم أطباء المقلّصير الذين اقتصوا بالعقاقير ، وتلاوة الادعية .

ثم هناك الأطباء البيطريون ، حيث ظهرت في كثير من النقوش صور للماشية ، وقف أمامها ائمه عليها ، وقد سمي أحيانا بالطبيب ، وأحيانا أخرى بالكاهن الطبيب ، الامر الذي يوحي بأن هؤلاء الأطباء الكهنة انما كانوا مكلفين بفحص طهارة الذبائح ، كما كانوا مكلفين بضمان مطابقتها لمتعضيات الدقيقيس الدينية ، وكان هناك بعض البيطريين من غير الكهنة ، وكانوا يملسون منعتهم حسب علم مكس يماثل ما نقرأه في الجزء البيطري من بردية كاهون الطبية .

هذا وقد قدم الأستاذ «يونكهير» قائمة بأسماء اثنين وثمانين طبيباً مصرياً من جميع العصور الفرعونية وقد قسمهم الى أربعة طوائف : أطباء عموميين ، وأطباء اختصاصيون ، وأطباء القصر الملكي ، ثم رؤساء أطباء ، كما قدم الدكتور «بول غليونجى» قائمة بحوالى ٢٧ طبيباً .

ثالثاً : المساعدون :

وهم الفئة المساعدة للأطباء فى عملهم ، مثل المرضى ، والاختصاصيين فى الارتبطة والتدليك وكان يطلق عليهم «أوت» ، وكان البعض منهم للأحياء ، والآخر للاموات (أى التحنيط) ، فلقد كان بمصر أكفأ المصمدين فى معمل التحنيط ، فمثلاً طريقة لف المومياء باللفائف انما تدل بلا شك على مهارة فائقة فى التضميد ، وبدوى أنه ليس هناك ما يمنع من وجود أمثال هؤلاء ممن ساعدوا الجراحين فى مهمتهم ، هذا وقد جاء فى الآثار أن هناك أشخاصاً أعفوا من عملهم ليمرضوا رفقاءهم ولا بد أن كان فى كل مجموعة كبيرة من العمال أشخاص لهم دراية بالإسعافات الأولية والتمريض (٢٣) .

(٢٢) بول غليونجى : الحضارة الطبية ص ٩ - ١٤ ، تاريخ الحضارة المصرية ٥٢٧/١ - ٥٣٢ ، حسن كمال : المرجع السابق ٨٨/١ - ١١٦ ، سيد توفيق : الموسوعة المصرية ٢٩٩/١ - ٣٠٢ ، هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٩٠ - ١٩٣ .

وكذا F. Jonckheere, Les Medecins de L'Egypte Pharaonique, 1955, p. 24-32.

وكذا J. E. Quibell, Excavations at Saqqara, Cairo, 1408, p. 73. 1913, p. 31.

وكذا N. de G. Davies, The Rock Tombs of El-Amarna, IV, London. 1906, p. 6.

وكذا H. Junker, Giza, XI, 1953, p. 79.

وكذا R. Engelbach, ASAE, 38, 1939, p. 285.

وكذا E. Chassinat, BIFAO, 4, 1905, p. 223.

وكذا A. Marietto, Les Mastabas de L'Ancien Empire, Paris, 1889, p. 351-56.

الفصل الخامس

الصحة العامة

١ - الزواج

كان الزواج في مصر الفرعونية^(١) يتم — كما هي العادة في الشرق القديم — في مرحلة مبكرة من العمر — أي بمجرد البلوغ — الأمر الذي جنب المراهقين الكبت الجنسي ، وما يصدر عنه من عقد ، فضلا عن الانحراف الخلقي ، وما يسببه من أمراض جسمانية وخلقية ، ومن ثم فقد كثرت نصائح الحكماء المصريين بالأسراع بالزواج ، يقول الحكيم «بتاح حوتب» في نصائحه لولده : «إذا كنت عاهلا فأسس لنفسك دارا ، وأحبب زوجتك حبا جما ، وأكثم طعامها ، وزودها بالثياب وقدم لها العطور ، لينشرح صغرها»^(٢) .

ويحذر الحكيم «آنى» ولده من مخالطة النساء الغريبات ، فيقول له : «لكن على حذر من المرأة الغريبة (أى غير زوجته) ، لا تطل النظر إليها عندما تمر بك ، لا تكن لك بها صلة ، ولا تقضى منها وطرا ، إنها ماء عميق الخور ، لا يعرف البرء خباياه»^(٣) .

هذا ويزعم كتاب الاغريق ، ويتابعهم في هذا بعض المؤرخين المحدثين أن الزواج بين الاخوة كان شائعا بين القوم في تلك الايام الغابرة ، فعل ذلك كثير من الفراعين ، كما فعله بعض آلهة القوم ، غير أن الأمر لم يكن كذلك في الواقع ، صحيح أن الاساطير قد أشارت الى زواج أوزير بايزة ، وسنت بنبت حت ، وصحيح أيضا أن بعض الملوك قد تزوجوا من أخواتهم ولكنه صحيح كذلك أن هذا الأمر لم يكن بين عامة القوم حتى أننا لم نشو للاق على مثال واحد كان الزوجان فيه أبا وأختا ، سواء أكانا من طبقة النبلاء ، أو من الطبقة الوسطى ، بل حتى بين العامة من الناس ، هذا فضلا عن أن الملك قمبيز قد سأل القضاة الملكيين عما إذا كان القانون

(١) أنظر عن «الزواج في مصر الفرعونية» (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٣٠ - ٣٦) .

(٢) J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 412-420.

(٣) Gustave Lefebvre, Romans et Contes Egyptiens de L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-77.

يسمح أن يشاء أن يتزوج من أخته ، فأجابوه بالنفى ، وإن أجازوا للملك أن يفعل ما يريد (٤) .

هذا وقد عرف المصريون تعدد الزوجات ، وإن كان الاستقرار العائلى بين الأزواج للمصريين قد أدى الى تقليبه بينهم الى حد معقول ، وذلك على الرغم من أنه كان مشروعاً عندهم ، وأن فريقاً من الفراعنة والاثرياء ، وقليلاً من أثرياء الناس وطلغاهم قد أخذوا به ، وربما تماذى القليل النادر منهم فيه ، وأن بعض الزوجات ارتضينه وتسامحن فيه ، وأنه قد استمر طوال العصور الفرعونية (٥) ، ومع ذلك فقد كان من المألوف أن يكون للرجل زوجة واحدة ، أما تعدد الزوجات — مع اباحتها في شريعة القوم — فقد حددته الظروف الاقتصادية ، فأضفى مقصوراً على الأسرة المالكة ، وطبقة النبلاء ، أو يكاد أن يكون كذلك .

وكان البغاء معروفاً الى حد ما عند غير المتزوجين والجنود ، وأما الدعارة المقدسة — كالتي كانت تمارس في الهند وبابل وبنينقيا وغيرها ، فلم يعثر في المعابد المصرية على أى أثر يدل عليها ، ولم يعرفها المصريون طوال تاريخهم القديم والحديث .

٢ - الختان

هناك ما يشير الى أنه لا يوجد شعب آخر في حوض البحر المتوسط يتبع سنة الختان غير المصريين ، الذى تدل آثارهم على أنهم عرفوا الختان منذ أقدم العصور ، حيث كشف عما يدل عليه مما عثر عليه في جبانات عصور ما قبل التاريخ ، من قبل أربعة آلاف عام قبل مولد المسيح عليه

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 97. (٤)
A. Moret, le Nile et la Civilisation egyptienne, Paris, 1926, وكذا
p. 110- 318-319.

(٥) انظر عن تعدد الزوجات عند المصريين (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ١٥ - ٢١) ، وعن اليهود (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢٧٠/٤ - ٢٧٨ - الاسكندرية ١٩٧٩) ، وعن العرب (محمد بيومى مهران : مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة - مجلة كلية العلوم الاجتماعية - الرياض ١٩٧٧ ص ١٦٢ - ١٧٠) .

السلام ، وذلك من أجسام بلغ من حفظها أن أمكن فحصها والاستدلال منها على اتباع القوم لسنة الختان ، هذا فضلا عن صورة تمثل عملية الختان ، يقوم بها جراح مصري في قبر في جبانة منف ، يرجع الى عهد الاسرة السادسة من الدولة القديمة ، وأخرى من الدولة الحديثة بالكرنك (٧) .

وكان الختان عند القوم ضربا من ضروب العناية بنظافة البدن — على نحو ما ذكر هيرودوت — كما كان عاما ، فلقد تبينه الباحثون في المناظر المعارية للخدم والسيادين والرعاة ، كما تبينوه في التماثيل المعارية للخاصة والملوك والجثث السليمة الباقية ، ولعل من أطرف صور الختان تلك التي وجدت في نص لرجل من عصر الانتقال الاول (عصر الثورة الاجتماعية الاولى) ، استنتج منه «دونهام» أن الرجل قد اختتن مع مائة وعشرين آخرين ، ولم يضار واحد منهم ، غير أن قراءته — فيما يرى الدكتور عبد العزيز صالح — لا تظلو من شك ، ولو صحت لأمكن تقريب هذه الرواية الى ما يتبع في موالد الاولياء بمصر حتى الآن ، حيث ينتهز بعض العامة فرصتها ، فيختنون أولادهم بمناسبةها ، ويبركا بأصحابها (٨) .

هذا ويذهب «هيرودوت» الى أن الذين زاولوا الختان منذ أقدم العصور ، انما هم المصريون والآشوريون والكولشيديون والاباش ، أما غيرهم من الشعوب فقد عرفوه من المصريين ، كما يذهب هيرودوت ،

J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, (٦) p. 303-No. 10.

J. Carpart, une rue de tombeaux a Saqqarah, Pl. LXVI, p. 51-52. وكذا Herodot, II, 36, 37, 104, Diodorus, III, 32, Strabo, XVII, 824. وكذا (٧) عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة ص ٥٢ —

٥٣ ، وانظر :

W. M. Petrie, Sedment, Pls. 7-8.

J. Capart, Op-Cit, Pls. 39, 83.

J. Quibell, Excavations at Saqqara, II, Cairo, 1908, p. 3.

G. Maspero, Momies rayala, p. 550.

E. Smith, ASAB, 4, 1903, p. 112.

E. Naville, in Sphinx, XIII, p. 253 F.

وكذا

وكذا

وكذا

وكذا

ثم قارن :

كما أشرنا آنفاً ، الى أن المصريين انما كانوا يقومون بعملية الختان من أجل الصحة الشخصية ، ومن ثم فهو يقول : ان قدماء المصريين كانوا يختنون من أجل النظافة ، لانهم اعتبروا النظافة اهم من الليقة ، واما «سترابو» فالرأى عنده ان المصريين قد ختنتوا الذكور ، وجبوا (أى قطعوا الاناث) ، والنجب أو القطع هنا انما ينصب على البظر والثافرين الصغيرين ، كلهما أو بعضهما ، وليست هناك أدلة قديمة على عمل الختان للاناث ، وان كان من المحتمل أنه كان يعمل قبل زمن «سترابو» بكثير جدا ، ولا تزال هذه العملية تجري للبنات في كثير من المناطق ، وخاصة في الصعيد والنوبة (٨) .

هذا وقد اتخذ بعض المؤرخين من تتابع الولادة والختان مباشرة في بعض نقوش المعابد الخاصة بولادة وطفولة الامراء ، دليلا على أن عملية الختان انما كانت تجري بعد الولادة بأيام ، وان ذهب البعض الى أن هذا التمثيل انما كان رمزيا ، ذلك لان النقوش الاخرى ، وخاصة تلك التي تتصل بغير الملوك والالهة ، انما قد مثلت العملية ، وهي تجري على أشخاص متقدمين في السن الى حد ما (٩) ، ومن ثم فقد نظر البعض الى أن عملية الختان انما كانت تعمل للأطفال ، فيما بين السنتين — السادسة والثانية عشرة من العمر — أو قبل المراهقة بقليل .

هذا ولعل أهم تلك النقوش أو الصور التي تمثل عملية الختان ، انما هو النقش الموجود في سقارة في مقبرة «عنخ ماحور» من الاسرة السادسة وهو مكون من جزأين ، ففي الجزء الايمن منه نرى الجراح — وقد ذكرت قبلته عبارة «الكاهن المختن» — مما يشير الى أن العملية التي يقوم باجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى ، نراه وقد أمسك بيده اليمنى بالآلة مستطيلة في وضع عمودى على العضو التناسلى ، وفي اتجاه طول الجسم ، ويقول : ان هذا يجعله مقبولا للكحت (أو الدهان) .

(٨) حسن كمال : المرجع السابق ٧٢/٣ — ٧٣ ، وكذا Strabo, XVII, 824.

(٩) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ٥٣٣/١ .

وأما الجزء الأيسر ، فيظهر فيه الجراح ممسكا بألة أو بتيء آخر
 بفضاوى الشكل يلصق به العضو المتناسلى الذى يسندده بيده اليمىرى ،
 وفى هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم ، ويلاحظ كذلك
 وجود مساعد الجراح خلف المريض ، وقد أمسك بخراعيه على ارتفاع
 وجهه فى قوة وعنف ، ونقرأ قول الطبيب : «امسكه كيلا يقع» ، ورد
 المساعد : «سأفعل وفق إشارتك» ، وبدهى أن تكون اللوححة اليمنى
 لايضاح التحضير أو التخدير ، واليسرى لابرار العملية نفسها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الختان إنما لقب فى الجزء الأول
 من النقش بلقب «الكاهن المختن» ، وربما يدل هذا على أن العملية التى
 يقوم بها لا تدخل فى اختصاص الجراح العادى ، كما أشرنا آنفا ، ولكن
 ربما لأن عملية الختان إنما كانت تتم فى العادة فى المعابد ، أى أنها تأخذ
 صفة دينية .

هذا ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الختان لم يكن يجرى فى الماضى
 بالشكل المتبع الآن ، أى أنه لم يكن استئصالا كاملا للقفلة ، وإنما كان
 مجرد قطع مستطيل يجرى على ظهرها للاكتفاء بفتحها^(١٠) .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اليهود إنما نقلوا الختان عن
 مصر ، فطبقا لرواية هيرودوت — الأنفة الذكر — أن الشعوب جميعا —
 فيما عدا الآشوريين والكوشيين — قد نقلت الختان عن المصريين^(١١) ،
 هذا فضلا عن أن رواية التوراة^(١٢) المتداولة اليوم ، يفهم منها أن سيدنا
 إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — إنما قد قام بعملية الختان ، بعد
 عودته من مصر ، وبعد انجابه لولده اسماعيل عليه السلام .

وعلى أية حال ، فإن أمر الختان — كما جاء فى توراة اليهود المتداولة

(١٠) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ٥٣٣/١ - ٥٣٤ ، طب
 وسحر ص ٦٨ - ٦٩ ، وكذا

J. Carpal, Op-Cit, Pl. 51-52.

(١١) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .

(١٢) تكوين ١٧/١٠ - ١١ ، ٢٣ - ٢٧ .

اليوم — انما يدل على مدى التضارب في نصوصها ، فنص يرجعه الى التخليل ابراهيم عليه السلام ، وقد دون هذا النص ، أول ما دونه أحبار النسبي البابلي (٥٨٦ — ٥٣٩ ق.م) فيما بين القرن السادس والخامس قبل الميلاد^(١٣) ، أى بعد عهد ابراهيم عليه السلام بما يربو عن ألف وخمسمائة عام ، ثم انما رواية لم تتداخل مع بقية النصوص في صلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية ، الا في حوالى عام ٤٠٠ ق.م ، أو ما يقارب ذلك ، حين ابتعثت دويلة يهودا في ظلّ الاحمائية الفارسية على يد «عزرا» الذى يعزى اليه ارساء أركان العقيدة اليهودية ، كما تطالعنا اليوم .

ومن ثم فلا غرو أنه يتعارض تعارضا جذريا ، مع روايات أخرى — كما في سفر التثنية —^(١٤) — ربما كانت أصداء خافتة لوقائع في صورة من أساطير ، عن نشأة الفختان ، تلك السذة التى كتبت ، كما أشرنا آنفا ، عادة مصرية متأصلة^(١٥) ، فاعجب بها من سنة مميزة ، الا أن يكون بنو اسرائيل قد سمحوا أصلا ، — أو اجبروا غصبا — على أن يتمثلوا بذلك الشعب الذى انبثقت حضارته سامنة عملاقة على ضفاف وادى النيل ، ما أن يكشف — حتى في عصرنا هذا — عن أى من أمر آثارها الدارسة ، حتى يؤخذ العالم مبهورا ، فكيف بالشعوب التى من حولها ، حين كانت في أوجها ، تحطف الابصار بلالاً من اشعاع وهاج ، فالختان اذن انتحال يهودى واضح ، ومع ذلك فبه اليهود يتعلقون ، امارة لتفرد يدعون أنه قد خصهم بها الاله ، فترى العجب في نصوص توراتهم ، لم تترك حاسة

A. Lods, Israel from its Beginnings to The Middle of The (١٣) Eighth Century, London, 1962, p. 152.

(١٤) تثنية ١/٥ — ٣ وكذا

A. Lods, Op-Cit, p. 199.

(١٥) محمد بيومى مهران : قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة — مجلة الاسطول — العدد ٦٧ عام ١٩٧٠ من ٥ — ٦ ، وكذا

A. Powell Davies, Ten Commandments, New York, 1956, p. 59-60.

من حواس الإدراك ، إلا حاولت تقييمها من حيث السمة ، كناية
وتورية (١٧) .

٣ - النظافة العامة

كان المصري القديم يتميز بالنظافة الفائقة ، غنيا كان أم فقيرا ، ولقد
أكثر المصريون القدامى من الاستحمام صباحا كان ذلك أم مساء ، وقبل
الطعام ، وكانت منازل الاثرياء تحوى حجرات فيها أحواض خاصة
بذلك ، وفيها مكان يصب على المستحم فيه الماء .

هذا ولم يعرف المصريون الصابون ، وكانوا يستعملون الصودا في
الغسيل ، وكانوا جميعا - رجالا ونساء - يتخلصون مما ينمو على
أجسامهم من شعر ، أما بالخلق وأما بالنتف ، أما الكهنة وكبار القوم
فكانوا يطلقون شعر رؤوسهم ووجوههم ، ويحلقون مكانه شعرا مستعارا
ولحي صناعية .

وكانت المرأة في مصر القديمة تغسل جسمها وتحلقه وتنتف شعرا
الغير مرغوب فيه ، وتدهن جلدها بالدهان ، وتسرف في استعمال المعطور،
وتغضب شفتيها وخديها بالاحمر ، وترجع حواجبها ، وتطلى أجفانها
ورموش عينيها بالكحل ، وهو من نوعين : أخضر يلون به الجفن الاسفل ،
وأسود ترجع به الحواجب ، وتطلى به الاجفان ، وكانت المرأة شغوفة
بالحلي والاقرط والاسوار والقلائد والخلخال وبخاصة في الموائد والمآدب
التي كان القوم مغرمين بها كثيرا ، ويتصيدون الفرص لاقتلتها .

ولم يكن يليق بامرأة تحترم نفسها في مصر الفرعونية أن تخرج الى
حفل أو مأدبة ، دون أن تقضى وقتا تترين فيه ، ودون أن تتعطر ، وتبدو
على ما ترضاه لنفسها ، وهو أمر بالغ العسر ، ولكنها كانت تحاول
- على أية حال - أن تبدو نظيفة ملتزمة جذابة معطرة الحواشي ، أنيقة
الهندام ، وكان لا يفوتها قبل أن تخرج من البيت أن تعزج المر بالرتم

(١٦) حسين ذو الفقار صبرى : توراة اليهود - المجلة يناير ١٩٧٠
ص ١٦ ، محمد بيومي مهران : اسرائيل ١/٣٩٤ - ٣٩٥ .

وحصا البان والعجرم وغيرها ، وتحتها ثم تضعها على النار ، لتجعل رائحة المنزل والملابس زكية مستحبة ، ثم تضيف إليها عسل النحل ، وتتناول بضع حبات تمضغها في طريقها للزيارة ، فتجعل أنفاسها بذلك طيبة النكهة ، زكية الرائحة .

هذا وقد اهتمت النسوة في مصر — بل وفي كل بلد متمدن — بالعناية بشموهن ، فكان يسلطنها ويدهنها ، ويمتتين بطولها أو بقصرها ، ويخسفرنها أو يجمعنها ، أو يتركنها مستقيمة مسترسلة ، تبعا للنمط الدارج (١٧) .

٤ - البيت المصري

كان المصري انقديم يعيش في الغالب في بيت بسيط ، راعى فيه من بناء أن يكون ملائما للجو الذي يعيش فيه ، فبناء من اللبن والخشب ، وجعله فسيحا ، وأكثر فيه من الفتحات والنوافذ وغيرها ، حتى يجرى النسيم فيه دائما ، وكانت تتخلله الابهاء وقاعات الطعم والاستقبال ، وتزين جدرانها أكاليل الزهور والفاكهة وقد لونت بألوان زاهية جميلة ، وفي الجزء الخافى من البيت ، حيث يسود الهدوء بعيدا عن الجلبة والضوضاء ، توجد غرف النوم ، وعدد كبير أو قليل من المغاسل والحمامات ودورات المياه ، طبقا للحالة الاجتماعية لمصاحب البيت .

هذا وقد أثار استعمار المصريين لدورات المياه دهشة هيودوت ، فقال : «أن المصريين يختلفون عن بقية الشعوب الأخرى ، فهم يتناولون طعامهم خارج بيوتهم ، بينما يقضون حاجتهم داخلها ، معتقدين أن الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى في الخفاء» ، وهكذا — كما يقول الدكتور أحمد بدوى — يعجب هيودوت من أن المصريين كانوا يزيلون ضرورتهم مستورين داخل الدور ، على حين كانوا ياكلون طعامهم خارجها اعتقادا منهم : أن الضرورات عورات يجب أن تستر ، أما غيرها فلا جناح

(١٧) حسن كمال : المرجع السابق ٧٥/٣ - ٧٦ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٥٤ - ٥٥ ، بول غليونجى : المرجع السابق ص ٥٣٥ ، محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ١١/٢ - ١٣ .

عليهم في اتيانها جهارا ، وليس غريبا ولا عجيبا ما يراه هيودوت ، وانما العجب ، كل العجب ، في أن يرى هيودوت ذلك من الفرائث في حياة المصريين ، فإذا صح ما رآه فنحن جد به فخورين ، لأن فيه من صور الحياة السليمة ، ومن الكرامة الانسانية ما يدل على ذوق هذا الشعب العظيم ، نعم انه اللذوق كل اللذوق ، بل انها صورة تدل على المروءة الكاملة ، وهيودوت حين يعجب من ذلك ، لانه لم يره عند غير المصريين انما يرمى شعبه الاغريقى ، على الاقل ، بفساد اللذوق وانعدام المروءة ، فضلا عن عدم مراعاة قواعد النظافة العامة (١٨) .

هذا ورغم أن علماء الآثار لم يعثروا ، حتى الان على أثر للحمامات ودورات المياه في بيوت « اللاهون » التى أنشأها «سنوسرت الثانى» (١٨٩٧ - ١٨٧٧م) — على مبعدة ٢٥ كيلا من مدينة الفيوم — غير أن قصة «السفوهى» — وهى سابقة لبناء اللاهون — انما تذكر أن هناك غرضا للاستحمام ، كما أن هناك نصوصا من الاسرة الثانية عشرة تذكر وظيفة «المشرف على غرف استحمام الملك» .

وفي منازل العمارنة (أخيئاتون) (٢٠) ، كان يلحق بغرفة النوم ، غرفة أخرى للتعطير والزينة ، وتجاورها غرفة للحمام مزودة بأحواض مياه جارية ودورة مياه ، وفي الواقع ، فلقد كانت المرافق الصحية في العمارنة — وتقع فيما بين مدينتى ملوى وديروط ، في مقابل دير فواس الحالية ،

(١٨) هيودوت يتحدث عن مصر ص ١١٨ .

(١٩) أنظر عن « اللاهون » (محمد بيومى مهران : مصر ٣٦٠/٢ .. ٣٦٢ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٧٨ — ٨٠ ، وكذا W. M. F. Petrie, Iblahun, Kahun and Gurob, London, 1891, Pl. XIV, p. 5F.)

(٢٠) أنظر عن العمارنة (محمد بيومى مهران : اخيئاتون — عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩ ص ١٨٦ — ٢٣٢ ، وكذا J. Samsou, Amarna, City of Akhenaten and Nefertiti, London, 1972. W. M. F. Petrie, Tell-El-Amarna, London, 1894.

T. E. Peet and C. L. Woolcy, The City of Akhenton, London, 1923.

J. D. S. Pendlebury, Tell-El-Amarna. London, 1935.

عبر النهر تقريبا — بمحافظة المنيا — معتقيا بها كثيرا ، بل ان بهذه المرافق مقاعد يجلس عليها المرء عند قضاء حاجته ، ويبدو أن المصري لم يكن ، قبل العصر الروماني ، يعرف حوض الاستحمام ، وانما كان عنده — وفي جميع الازمان — حجرة الرشاش (دش) يمكن من الضروري بعد الاغتسال العناية بالجسد حتى يحتفظ بمرونته ، الامر الشائع في أغلب البلاد الحارة ، ومن ثم فان المرافق الخاصة في المنازل انما كانت تحتوي على حجرات للتدليك ، واستعمال الدهانات •

وكان يتم تصريف المياه الى الخارج بواسطة قناة من الفخار ، وكان القوم يعذبون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يغطونها باسطوانات من الفخار ، ذات أطراف مستوية السطح ، ثم يغطونها باللبن ، وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة اللبن صرف المياه التي قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ، كما كانوا يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ومتدلية من سطحه فوقه (٢١) •

هذا وقد كشف «بوخاردت» في العمارة عن أربعة أنواع من دورات المياه ، بعضها يشبه ما وجد في الدولة القديمة ، وبعضها له فتحات دائرية وأخرى لها مقاعد ملصقة ومائلة لتسهيل عملية تنظيفها ، أو له فتحة كفتحة المفتاح ، وفي كل هذه الاشكال كانت توضع أنية تحت هذه الفتحات ، وفي أحد هذه المنازل وجد فراغان ، واحد على كل جانب مملوء بالرمال النظيف لتعملية الفضلات ، كما كانت دورات المياه دائما تطل الجهة الجنوبية الشرقية من البيت •

وهناك نماذج أخرى لها وجدت في مدينة هلبو بطيبة الغربية ، كما وجدت مقاعد متنقلة لقضاء الحاجة ، وكل هذه الانواع مزودة بمقاعد مفتوحة من أعلى لتتجه الفضلات من هذه الفتحات ملتصقاها أوانى خاصة •

(٢١) انظر

E. Bill-De Mot, The Age of Akhenaten, London, 1965, p. 78-79.

H. Kess, Ancient Egypt, London, 1961, p. 299.

W. M. F. Petrie, Social Life in Ancient Egypt, p. 177-178.

وكانت الحمامات مزودة في أسفلها بخزانات ينساب إليها الماء الملوث، وكانت الجدران المحيطة بالحمام مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانتها ، وقد بلغت هذه الحمامات ذروة الترف في عهد «رعسيس الثالث» (١١٨٢ - ١١٥١ ق.م) الذي بنى منزلا على مقربة من معبد مدينة هابو، ثم هدمه وشيد على أنقاضه منزلا آخر مزودا بعدد كبير من الحمامات ليستخدمها هو وحريمه ، وكل هذه الحمامات كانت مكسوة من الداخل بألواح من الحجر الجيري الأبيض .

وهناك في معبد الملك «ساحورع» من الأسرة الخامسة - في منطقة أبو صير الجيزة ، على مبعدة ٥ كيلا جنوبى أهرام الجيزة - ما يدل على مدى عناية المهندسين بكل ما يؤثر على سلامة البناء ، فضلا عن نظم جديد للصرف الصحى ، فهم مثلا لم يستطيعوا المطر من حسابهم ، وجعلوه ينساب من مزاريب ، كل منها على هيئة رأس أسد ، تسقط المياه من أفواهها الى قنوات صغيرة عمقها قليلا فى الأرض ، ثم تسير المياه منحدره الى الخارج ، أما المياه التى تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة ، فكانت تسير فى مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس ، وملصوقة الى بعضها البعض بالوصلات ، وتسير الى خارج المعبد مدى أربعمئة متر ، حيث تصب فى أحد الأماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الانظار .

غير أن القوم ، لأسباب لا ندريها على وجه اليقين ، قد استبدلوا بها طرقا أخرى تختلف حسب المصور ، ففى «اللاهون» (من عهد الدولة الوسطى) كانت مياه المنازل تمر خلال مجار تصب فى مجرور بوسط الطريق ، وفى منزل من العمارنة (من عهد الدولة الحديثة) وجدت المياه تمر خلال اناء فخارى مثقوب مقمره ، وتصب فى وعاء خارج الحوائط^(٢٢) .

(٢٢) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ١٦٥٢ ، أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٣٢ ، بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ص ٥٣٥ - ٥٣٨ ، وكذا

L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Königs Sahure, I, Leipzig 1910, p. 7-12, 76-82.

كان الفنان المصرى القديم يتمسك فى تمثيله للأشخاص بالتقاليد الموروثة ، ويتبع فيها تعاليم الديانات المرعية فى الدولة ، وهو فى ذلك يريد الخلود والبث فى صورة رسمية فى أنصر الاشكل ، ومع ذلك فقد كان يبذل قصارى جهده للحفاظ على الصورة الاصلية لجنحة المتوفى كى تبقى الى الابد ، وكى لا ينتاب الروح شعور بالغربة حين يحتويها ساكنها القديم بعد اعادة تشكيله ، ولعل هذا يفسر لنا حقيقة تلك الثروة التى خلفها لنا الفن المصرى القديم فى الكشف عن العمل الجسمانية السائدة ، على الرغم من العقيدة التى كانوا يؤمنون بها فى ذلك الوقت من اظهار المتماثل والنقوش على اكمل صورة وأتم صحة .

وهناك تماثلان اشخصين (أحدهما نوبى ، والاخر مشكوك فى أصل مولده) قد أبرزتا تشحم الثديين ، وتهدل البطن وتهدل لفائف الشحم فى جسدهما . وهناك منظر آخر لرجل سمين يبدو وكأنه رئيس النوبة بحوله أشخاص بعضهم يطعمه ، والبعض الاخر منهمك فى العمل ، بينما هو جالس مستريح فى زورقه ، وقد بالغ الفنان فى إبراز الانحراف عن قوانين الرسم المصطلحة فى بعض مقابر الدولة القديمة .

وربما كانت بدانة هؤلاء الأشخاص من النوع المعتد عن الانحراف فى الماكل ، ومن خصائصه أنه يعم كل أجزاء الجسم ، غير أن توزيع بعض هذه التكدسات غير متساو فى بعض الأشخاص الآخرين ، ويمد توزيعه فى هذه الاحوان من السماء الاكلينيكية التى ترشد الى تشخيص الحالة المرضية ، وقد ظهر هذا التوزيع فى بعض الرسوم بوضوح يعجز أى مؤلف طبى حديث على أن يفوقه فى الوصف .

W. M. F. Petrie, Gizeh and Rifeh, London, 1917, Pl. XIX, No. 72.

J. E. Quibell, Excavations at Saqqara, 1923, Pl. XXX, 2,3.

وانظر عن الحمامات بمعبد دندرة (من عهد البطالمة) :

F. Daumas, in BIFAO, LVI, 1957, p. 5.

وهناك رسم للملكة «بونت» (٢٣) ، احتار العلماء في تفسير سبب سمته أردافها المفرطة ، وتلافيف الشحم واللحم التي تتخلل من ذراعيها وساقها ، دون القدمين واليدين ، ومن ثم فقد ذهب البعض الى أنه مرض الفيل ، بينما ذهب آخرون الى أنه «المكسيديم» (ضعف النخلة الدرقية) ، أو الكرمحة العنصرية ، أو ضمور العضلات المرضي ، على أن هريفا ثالثا يذهب الى أنه مرض دركوم (السمنة الموجعة) .

هذا ويبدو من نقش بارز لابنتها — انتزع من مكانه بمعبد الدير البحري في طيبة الغربية ، ولم يستدل على مكانه الحالي — أن مرض الام إنما كان وراثيا ، وقد أثار مظهره المزري حافظة الفنان الكاريكاتوري فجعل منه محورا لرسم سخرى على الخزف .

وعلى أية حال ، فلقد عرف المصريون كثيرا من أمراض السرى ، والفتق الاربى ، الى جانب انتفاخ البطن ، وتضم الاعضاء التناسلية والتدين ، فاذا جمعا كل هذه الدقائق في ميسفساء طبية ، فانها تشكل صورة قريبة الشبه بمرض الطحال المصري ، وقد تكون هذه الصورة — فيما يرى الدكتور بول غايونجى — رسما لمرض «عاع» الذى كثر الحديث عنه في أوراق البردى الطبية ، والذى مايزال الشك يحوم حول معرفة كنهه ، فهو — في رأى البعض — «البلهارسيا» لعلاقته بالديدان ، ولما يحدثه من ضعف شديد ، وان شك البعض في أن يكون قدماء المصريين قد عثروا على دودة البلهارسيا في الوريد البابى ، هذا فضلا عن أن هناك أوصاف عديدة للقبول الدموى ، جاءت بأسماء أخرى ، وان لم يجر وصف منها باسم «عاع» ، ومن ثم فقد ذهب البعض الى أن مرض «عاع» هذا ، إنما هو مرض «الانكلستوما» لما يسببه من هزال شديد قد يفتك بالمرضى ، وان استعمال المخصص يدل على ما يشكو الصبيان المصابون به من توقف في النمو الجنسى ، والبالغون من زوال القوى الحيوية .

(٢٣) انظر عن : بلاد بونت (محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة — مجلة كلية اللغة العربية والعلوم — الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٧ — ٣١٠ .

هذا ويدل تمثال «ذى القنب الصاد» بالمتحف المصرى على وجود مرض «سل العظام» بين القوم وقت ذاك كما أن ورم «روم القفداء» (القدم المنبجعة) ، وساق الفرعون «سبتاح» (من الاسرة التاسعة عشرة) ، وشكل مفتش الزراعة فى مقبرة «منا» فى طيبة الغربية (وهما ليسقا بحجم واحد) ، انما تدل على أن شكل الاطفال لم يكن مجهولا وقت ذاك .

وفى بردية ايبرس وصف للذبة الصدرية ، كما وصف القوم أيضا ادرار البول ، وقد يكون «البول السكرى» ، كما أن هناك أوصافا عدة لشكل الجسم ، والصمت نتيجة حدوث جروح بالرأس والجمجمة ، وأما أمراض المعدة فقد جاءت لها أوصاف عديدة شملت أمراضا مختلفة لأعضاء التجويف الباطنى ، كما عرفوا مرض الدرن ، وقد عزا البعض موت «توت عنخ آمون» المبكر الى اصابته بالدرن الرئوى ، وإن لم يثبت ذلك على وجه اليقين .

وقد درس الدكتور محمد كامل حسين مجموعة العظام الموجودة بمتحف التشريح بكلية الطب بجامعة القاهرة ورجح أن الأمراض الروماتيزمية كانت منتشرة بين القوم ، وكثير من تلك العظام مصاب بتكلس فى أربطة المفاصل ، مثل ما يصدر فى مرض «بكتروف» Bochterew ، كما وجد Exostoses فى الجمجمة ، أى زيادات موضعية فى العظم ، تشبه ما يحدث حول أورام «الام الجافة» .

هذا وقد وصف المصريون نوعا من الحمى المصحوبة بطفح جلدى ، وقد فسره البعض بأنه «الطاعون» وفسره آخرون بأنه «الجدرى» ، كما وصفوا نوعا من الدود بأنه (ينفرج) ، وقد يكون الدودة الوحيدة ، كما وصفوا نوعا آخر (مستطيل) وقد يكون «الاسكارس» أو غيره من

(٢٤) بول غليونجي : الحضارة الطبية من ١٥ - ٢٢ ، تاريخ الحضارة المصرية من ٥٣٩ - ٥٤١ ، وانظر :

B. Gunn, in BIFAO, 30, 1930, p. 791-815.

C. Kuentz, in BIFAO, 34, 1934, p. 143.

P. Ghaliyngui, in ASAE, XVII, 1947, p. 29.

A. Mariette, Deir el-Bahari, Texte, Leipzig, 1877.

E. Brunner, Die Alt-Aegyptisch. Scherbenbilder, 28, 1956, No. 76-1-1.

الفصل السادس

الاجراءات العلاجية

١ - التشخيص :

اعتمدت طرق فحص المريض على الخبرة ودقة الملاحظة ، وكان الفحص يبدأ عادة باستجواب المريض استجابا دقيقا ، ثم بفحصه فحصا عينيا شاملا ، يبدأ بالوجه فيلاحظ الفاحص لونه ، ولفراغات أنفه وجفنيه وعينه ٠٠٠ الخ ، ثم تشم رائحة الجسم من عرق ونفس ، ثم يأتى لفحص البطن ، فالأعضاء الأخرى (أذينا ، رعدة ، دوالي ، براز ، عرق ، لعاب ٠٠٠ الخ) ، ثم يتبع تشم الجسم والطرق ، وتقدير حرارة الجسم ، وفحص البراز والبول^(١) .

٢ - الإجراءات العلاجية :

يشير ما جاء فى بردية إيبيرس الى تقدم طب الاسنان عند المصريين القدماء ، ومن ذلك توصية بحشو السنه بخليط من الملاخيت والصمغ ، هذا وقد اكتشف «هرمان يونكر»^(٢) تثبيت سنتين معا بربطهما بسلك ذهبي ، وهو أول ما عرف من عمليات الجراحة الترميمية فى التاريخ ، أضف الى ذلك الفك الذى عثر عليه فى الجيزة ، وقد وجدت به ثقب صنع لتصريف «خراجات» بالاسنان^(٣) .

وكانت الجراحة تتم بأنواعها على أيدي كهنة الآلهة «سخت»^(٤) المتخصصين ، من جراحة صفري ، وأخرى كبرى ، فهناك عمليات الختان وفتح الخراجات ، وهناك عملية الترتبة ، وكان التخدير يتم قبل إجراء الجراحة ، ثم تغطى الجروح بعد انتهاء الجراحة ، وتعالج بالارتبطة أو باللمص الحى والاعشاب القابضة والعسل .

(١) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ص ٥٤٤ .

H. Junker, Giza, I, 1929, Pl. XL. C.

(٢)

J. H. Breasted, The Edwin Smith Papyrus, Chicago, 1930, p. 53. (٣)

(٤) أنظر عن الآلهة سخت (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية

القديمة ٣٤٨/٢ - ٣٤٩ ، مصر ٨١/٢ - ٨٢ .

V. Lons, Egyptian Mythology, 1968, p. 106.

هذا ولم تذكر اللغائف الطبية شيئا عن جراحة العين ، ومع ذلك فقد كان هناك تمييز واضح بين علاج العين الظاهر ، وعلاجها من الداخل ، والاخير كان يجرى بواسطة ريثة نسر ، استعملت كقطارة ، وتعتبر هذه أول قطارة عرفت في التاريخ ، ولعل هذا هو ما أراد أن يمثل الفنان الذي زين مقبرة «ايبي» في طيبة الغربية ، اللهم الا اذا كان الفنان يقصد برسمه هذا ، انتراع جسم غريب ننا من تابوت «ايبي» ، فدخل في عين أحد العمال عن طريق أداة تشبه المروء الطويل .

وقد عرف المصريون القدماء الجبائر في حالات الكسور البسيطة والمضاعفة ، بل وحتى المومياء التي أصيبت بكسر ما في أثناء عملية التحنيط الطويلة ، كانوا يجبرونها هي الاخرى ، حتى تلقى ربها ، وهي في أكمل صورة جسمانية ، هذا وتشير بردية أدوين سمث الى القدرة على المتفرقة في التشخيص بين الكسور والنقل ، وأما الجبائر فكانت من قشر الخشب أو من الغاب المخلف بقمائش من الكتان تتصل بعضها ببعض الاخر عن طريق أربطة ، وكان العضو المراد تجبيره يلف بها على أن يراعى أن تمتد الجبائر الى المفاصل في أعلى وأسفل الكسر ، وتشير البردية الى علاج كسر للترقوة فتقول : «إذا غصت رجلا مصابا بكسر في الترقوة ، ووجدت بها قصرا ، فقل هذا مرض سأعالجه ، وألقه على ظهره ، وضع بين اللوحين وسادة حتى يتباعد جزء الترقوة ، ويرجع العظم المكسور الى موضعه ، ثم تثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلى من خراجه ، ثم ضمده بال «ايمر» والحصل في الايام التالية .

وكانت الفراجيات والدمايل تعالج بثقبها ثم تصفيتها ، اما بواسطة شرائط من الكتان عواما بقمع من الغاب ، وكانت تولى عناية خاصة لانتزاع كل بقايا الاورام تماما ، خوفا من أن تعود مرة أخرى .

هذا وقد عرف المصريون وقت ذاك عمليات التربنة ، فهناك ثلاثة جماجم من العصر الفرعوني بها ثقب مستديرة ، فوات حواف ملساء ، يحتمل أن تكون نتيجة لهذه العمليات ، ورابعة يعتقد الآن أنها ضمور سببه الشيخوخة .

وقد استعمل المصريون أنواعا من المشارط مختلفة ، وكذا أنواعا من الكلابات ، وآلات الكى ، ولكل منها استعمال خاص فى مرحلة معينة من العملية لا تتعداه الى غيرها ، ويحتمل أن تكون هذه بعض الأدوات المروضة فى المتاحف المختلفة مثل : المشارط المستقيمة ، والمشارط الموحجة ذات السلاح المنعكف قريب الشبه بطلاقة هريجيا ، والملاقيط المستقيمة والموحجة وذات الحواف المساء ، وأخيرا الكلابات المسننة ذات حلقة تحد من فتحها ، وتحكم امساكها ، أما النار فكانت تستخدم فى كى الجراح والاورام .

هذا وفى معبد كوم امبو — على مبعدة ٤٢ كيلا شمالى أسوان — مجموعة طيبة من الرسوم تشير الى الآلات الجراحية التى كان يستعملها الأطباء ، ويمكن استعمال بعضها ، أما البعض الآخر فمازال فى حاجة الى فحص وحراسة — شأنها فى ذلك شأن الكثير من الآلات الطبية والجراحية التى تترخر بها المتاحف — وقد قسمت اللوحة التى توضح الآلات الجراحية ، أفقيا الى أربعة أقسام :

١ — تشمل من اليمين الى اليسار : قرنين يستعملان للحجامة ، ثم مجموعة «ابر» كل منها يحتوى على ثلاثة ابر ، ربما كانت تستعمل للوشم ثم ابرة ثم مجس أو مسطرة أو مسبرة وآلة كى ، ثم آلة أخرى ، ثم مسبر ومجس أو مسطرة أو مسبر ، ثم آلة غليظة الوسط ، رفيعة الطرفين يليها آلة كى .

٢ — وتشمل أيضا : يد هاون بميزراب أسفله هاون بدون ميزراب ، ويليه مبضع صغير بحددين ، أسفله آلة كى صغيرة ، ثم جفت ، ثم مبضع كبير بحددين ، ثم زباجة صغيرة للدواء أسفله ثلاث ملاعق ، ثم مبخرة بأسفله مخرزان .

٣ — تحتوى على ميزان بكف أسفله زهر اللوتس والبشنين ، إشارة الى الصعيد والدلتا ، ثم تعاويذ على شكل عينين أسفلهما قرن ، كان يستعمل للحجامة ، ثم اثنتان للعقاقير ، ثم جفت متوسط الرأس منحنى القبض لمنع الانزلاق — جفت مستدير الرأس مستقيم اليدين .

٤ — ويحتوى على مشرطين ، ثانيهما أكبر دوراناً من الاول ، ثم ابرتان ، فحوض مزدوج أسفله كرة خيط ، ثم مقص بلولب ليس له مقابض ، ثم ملقاط ، ثم كأسان لعمل الحجامة •

٣ - امراض النساء :

تناولت امراض النساء برديات ايبرس وكاهون وبرلين وكارلزبرج ولندن ، ويبدو أن كل ما ورد عن امراض النساء قد نقل من المجموعات الطبية التى ذكرها «كليمان السكندري» (١٥٠ - ٢١٢م) ، فقال عنها أن الجزء الخامس منها مفصص للرمد ، والسادس مكرس لامراض النساء ، ومن الطريف أن بردية كارلزبرج قد تناول الاختصاصين ذاتهما ، ويذهب البعض الى أن الزواج المبكر والولادات المتعددة فى سن مبكرة ، والاعمال المرهقة التى كانت تقوم بها نساء العامة ابلن الحمل ، وجهل القابلات ، انما كانت تسهم فى مضاعفة الامراض التى كانت تصيب المرأة فى مصر القديمة •

وكان القوم يعتقدون أن أعضاء الحوض عائمة متجولة فى التجويف الباطنى ، الامر الذى جعلهم حريصين على اعادة الرحم الى مكانه فى حالة المرض ، ومساعدته فى ذلك باطلاق بخور من شمع ممطر تحت المرأة ، وكثيرا ما كان هذا الشمع يصب فى قالب على شكل «أبى قردان» — ممثل الاله تحوت — ليمنحه هذا الرمز فاعلية أكبر فى الشفاء •

وقد وصف القوم سقوط الرحم وعالجوه ، اما بمختلف أنواع اللبوس أو بالتبخيرات المركبة من الشمع أو الخائط المجفف والتريبتين ، وعالجوا التهابات الرحم ، وانتفاخ عنقه بالحقن المنجلية المحتوية على عصير بعض النباتات ، كما عالجوا مرضا سموه «أكل الرحم» علاجاً موضعياً ، وقد عزا القوم الى مرض الرحم أعراضاً عديدة ، مثل الآلام التى تصيب أسفل البطن والرقبة والاذنين وأمراض العيون والنويات العصبية ، وقد وصفت بردية كاهون مرضاً يشمل مجموعة من العوارض هى : التهاب الرحم ، وآلام المفاصل والعينين ، ولعل هذا يطابق ما يسمى بالسيلان من الالتهاب الموضعى والروماتيزم المفصلى والتهاب العينين •

وأما عن الحمل والولادة ، فهناك عدة طرق للتأكد من خصب المرأة وعقمها ، وقد أشرنا من قبل ، الى طريقة وضع لبوس من الثوم في المهبل ثم ملاحظة رائحته في الفم ، كما كان لدى القوم عدة طرق لتشخيص الحمل ولمعرفة نوع الجنين ، وهذه الطرق بعضها أشبه ما يكون بالسحر ، وبعضها قد يكون له أساس علمي ، وكان الاطباء يوصون في تشخيصهم للحمل بوضع بول المرأة الحبل على مقدار من القمح ، وآخر من الشعير ، فان نبت القمح كان الجنين ذكرا ، وان نبت الشعير كان الجنين أنثى ، وان لم ينبت أيهما كان ذلك دليلا على عدم الحمل .

هذا ورغم أن هناك وصفة لمنع الحمل لمدة عام ولعامين ولثلاثة أعوام فقد ذهب كثير من الباحثين الى أن الاجهاض كان محرما في مصر الفرعونية ، كما أن تحديد النسل كان معاقبا عليه .

وأما عن الوضع فان النساء كن يجلسن ، اما في وضع ثنى الركبتين ، واما القرفصاء مع وضع اليدين على الفخذين ، يبدو ذلك واضحا في نقش بالمتحف المصرى ، حيث تجلس الموالدة على ركبتها ، واضمة يديها عليهما ، وتساعد على كلا جانبيها الالهة حاتصور ، وترى في بعض النصوص قاللى طوب وضما تحت كلا الفخذين ، وتجلس عليهما المرأة المستعدة للولادة القرفصاء (وكانت هذه الطريقة شائعة الى عهد قريب في الريف المصرى) ، وربما كان هذان الحجران أصل الكرسي ذى شكل حدوة الحصان ، وان اختلف العلماء في تفسير استعمال هذا الكرسي نظرا لضيق الفتحة به عن حجم رأس الطفل ، فقالوا انه كان مقعدا للراحة ، ويوجد كرسي آخر قد يكون القوم قد استعملوه لمثل ذلك الغرض ، وأيا ما كان الامر ، فلقد كنن الطفل يتغذى بعد الولادة بطريق الثدي .

هذا وفي بردية ومستكار اشارات الى ما يجب الاحتفاظ به لسلامة المرأة الموالدة ، ووقاية الأطفال وقت الولادة ، وغسل المولود ، وقطع صرته ، وتطبيب ملابسه بما يستطيع ، هذا وكانت المرأة المصرية حريصة الى أبعد الحدود على ارضاع طفلها ، وطبقا لما جاء في نصائح الحكيم

«آنى» فقد كان الطفل المصرى يفطم بعد سنوات ثلاث من ولادته (٥) .

٤ - العقاقير :

عرف المصرى القديم خواص العقاقير ، وهو يفتقى الطعام ، وأدرك عن طريق الملاحظة أثرها الطبى ، وقد توارث القوم هذه المعرفة ، ومن ثم فقد تخصصت فيها بعض الاسر حتى غدت سرا يكاد يكون مقصورا على أفرادها يتوارثونه فى حذر وكتمان ، ولعل من مظاهر هذه السرية أن كثيرا من العقاقير كان لها أسماء لا يعرفها غير فئة من المختارين ، فمثلا سميت «الابست» بقلب الرحم ، و «الكروكوس» بدم هيراقل .. الخ، مما زاد فى صعوبة تفسير النصوص القديمة ، ومما يحمل على الظن بأن أدوية كثيرة نصحبها الان خيالية أو سحرية ، وقد كانت فى الحقيقة مفردات طبية عادية رمز اليها بأسماء سرية .

ولعل من الامثلة التى تبين لنا مدى صعوبة تفسير النصوص أن هناك نبأنا يدعى بالمصرية «ميمى» ذهب البعض الى أنه «الخط» ، وذهب آخرون الى أنه «الدوم» ، وذهب فريق ثالث الى أنه «كمون حبشى» ، على أن «جرايو» يشير الى أنه «القمح» ، بينما يشير «لوفيفر» من طرف خفى الى أنه «الخرقة» ، وهناك لفظ مصرى آخر هو «ظرت» ذهب البعض الى أنه «الحنظل» ، وذهب آخرون الى أنه «الخروب» أو «الخرنوب» ، بينما ذهب فريق رابع الى أنه ربما يعنى القرع والحنظل، بينما حدده فريق خامس بالحنظل فقط .

(٥) بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية ٥٤٤/١ - ٥٥٥ ، الحضارة الطبية ص ٢٣ - ٣٠ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٦٦ - ٤٦٧ ، يوليوس جيار ، ولويس ريتز : الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة ص ٤٨ - ٥٢ ، حسن كمال : المرجع السابق ٢٣٩/٢ - ٢٦١ ، ٤٧٨ - ٤٩٤ ، محمد عبد الحميد : الفراعنة والطب الحديث - القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٠٠ - ٢٠١ وكذا

J. Capart, BIFAO, 30, 1931, p. 73.

J. Capart, une rue de Tombeaux..., Bruxelles, 1907, p. 51, Pl. 66. وكذا

P. Ghalioungui, Magic and Medical Science in Ancient Egypt,

London, 1963, p. 92.

F. Daumas, BIFAO, LVI, 1957, p. 5.

J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 420-421.

وكذا

وكذا

وكذا

وهكذا تتضارب آراء العلماء في تفسير أسماء بعض النباتات المصرية، وليس لدينا غير وسيلتين يستعان بهما على فهم المخطوط ، أولهما : الخصائص الطبية للمعقار وفائدتها في العلاج ، وثانيهما : المقارنة اللغوية بين المصرية والقبطية والعبرية والعربية .

وعلى أية حال ، فرغم أن العقاقير المصرية انما كانت نباتية وحيوانية ومعدنية، غير أن العقاقير النباتية انما كانت تشكل $\frac{2}{3}$ (خمس أسداس) ما استعمله المصري القديم من عقاقير ، وقد كان على رأس العقاقير النباتية المصرية نبات «دجم» الذي ربما كان «الخرع» ، وقد وجدت جذوره بمصر منذ عصور ما قبل التاريخ ، وقد أدرك المصريون خواصه الشفائية فاستعملوه في جميع الامراض ، وأفردت له «بردية ايبيرس» فصلا خاصا ، وأشارت الى استعمال بخوره كملين تمضغ مع الجعة ، وهذا اجراء سليم ، فالبخور سريعة الذوبان في الكحول . والكحول يرسب بدوره المواد السامة ، كما استعمله القوم أيضا لامراض قشرة الرأس، ولعلاج سقوط الشعر ، وكدهان لحالات كثيرة .

هذا ولكن لنبات «الخنس» مكانة دينية خاصة ، وله علاقة وثيقة بالله الاخصاب «مين» ، وقد أثبت العلم الحديث أن الخنس يحتوى على فيتامين (هـ) الذى يفيد في حالات العقم والضعف الجنسى ، كما أثبتت العلاقة الوثيقة بين هذا الفيتامين وبين هرمونات للتناسل عند الذكر والانثى ، كما عرف القوم نبات «الخشخاش» بنوعيه كدواء مسكن منوم، كما عرفوا «الرمان» وهناك وصفة طبية لمستطب مصنوع من جذور الرمان ، وأخرى من قشر الرمان لطرد الديدان المعوية ، كما استعملت قشور الرمان كمادة قابضة لعلاج القروح والجروح وأمراض النساء ، كما استعملت العصارة اللبغية للجميز في علاج الامراض الجلدية وخاصة الصدفية ، كما وصف الجميز للنزلة المعوية ، كما ذهب البعض الى أن اسم «تقوت» بمعنى الجميز ، قد ورد مسهلا وملينا ، وضد التهاب اللثة ، وضد الاستسربوط ، كما وصف الاينسون (ينسون) بأنه منبه معدى عطري معرق منفث ، مخرج للرياح ينفع لانتفاخ الامعاء يضاف للمسهل ضد المغص ، ومهدىء عام .

وقد أفردت بردية «(ادوين سمث)» فصلا للحلبة ، وقد كانت تستعمل علاجاً لازالة تجاعيد الشيخوخة ، كما كان زيتها يستخلص لاستعماله دهانا لتجعدات الوجه عند النساء ، كما وصفت للثدي المريض موضعياً ، ولحسرد الأرواح الخبيثة كعلاج.نفسى ، ولأسهال البطن ، كما وصف «الخيار» (شسبت) للقلب ووصف ورقه للأحصى وللشك النصفى الأيسر، ولأبعاد التهاب المشرح .

هذا وقد امتلأت البرديات الطبية بالعقاقير النباتية ، مثل المسنط والابسنت والصبر واللوز والشبث والايسون والبلبونيك (وزيته كان يستعمل في التدليك) والخروب (لتقوية الباء وطرد الديدان وتحصية الادوية) والقرطم والششم (ويستعمل لعلاج الرمذ) والكمون وحب الهان وعدة نباتات من فروع من فصيلة القرع والهندباء والتين والعرعر والحشيش والسكران والكتان والزئبق والفاح والنعناع والخردل المر وجوزة الطيب وحب البركة والمبلح والفسق والفجل والزعفران والبصل وغيرها .

وأما المواد الحيوانية فأهمها العسل (ميت) وقد وصف للأمعاء والبطن وضد الدسنتاريا وضد التهاب العينين لتحسين الابصار والحروق ، وهناك اللبن البقر والماعز والمرأة ، وقد اعتبر القوم لبن النساء عاملة أرقى من لبن الحيوان ، كما كان يحلون لبن المرأة التى أنجبت ذكراً فى المرتبة الاولى ، وقد عرف أن «أبقراط» أوصى بعدهم كذلك باعطاء اللبن نفسه، كما فعل الاقباط وعرب مصر نفس المشى بدورهم ، وهناك «كبد الثور»، وقد وصف ضد العشى ، كما ذهب «صابر جبيرة» الى أن المصريين قد عالجوا الاجهاض المتكرر بالكبد ، وذلك بسبب وجود فيتامين (أ) فيه بكثرة ، وهناك «مرارة الثور» وقد وصفت ضد ثعبان البطن وكمرهم للحمرة ، وهناك رأس وصفراء بعض الاسماك والمخ ، ودهن الحيوانات وافرازاتها ، كما استعملت الدهون والشحوم الحيوانية كوسيلة لعلاج البشرة وتطرية الجلد وتغذيته ، اما خالصة أو مركبة مع غيرها .

وأما المواد المعدنية فهى كالحجارة الكريمة (وخاصة الفيروز) والذهب

والفضة للطلاسم ، والشعبة وأملاح الانتمون و كاربونلت النوشادر والجير
 وصدا النحاس (الزنجبار) وأملاح الحديد والماتيزيا وسلفات الزئبق
 وأملاح الرصاص والبوتاسا والصودا ، وكانت العقاقير المعدنية تحتل
 المكان الثانى من دساتيرهم الدوائية ، رغم أنها تحتل المكان الاول من
 حيث تاريخ استعمالها ٧٧ .

(٦) حسن كمال : المرجع السابق ٣٠٥/١ - ٣٨٦ ، بول غليونجى :
 تاريخ الحضارة المصرية ٥٦١/١ - ٥٦٣ ، صابر جبرة : تاريخ العقاقير
 والعلاج - القاهرة ١٩٦٠ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٤٦٨ -
 ٤٧٣ ، وكذا

H. Grapow, Op-Cit, 6, 1959, p. 20-22, 42-45, 156-158, 223-225,
 305-306, 345-346.

L. Keimer, Op-Cit, 4, p. 34, 149.

B. Ebbell, Op-Cit, p. 210, 219, 226, 630, 741.

C. Leake, Op-Cit, p. 68-69

V. Loret, Op-Cit, p. 86.

Rec. Trav., 15, 1893, p. 121.

JEA, 20, 1934, p. 41.

G. Lefebvre, Op-Cit, p. 223.

F. Jonckheere, Op-Cit, p. 60-64.

وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا
 وكذا

الفصل السابع

التحضير

كان المصريون القدامى من أوائل الأمم ، ان لم يكونوا ، أول أمة آمنت (عن طريق الفكر الانساني) بالبعث ، والخلود بعد الموت في حياة قد لا تختلف في جوهرها عن حياتهم في العالم الدنيوى ، حدث ذلك قبل التاريخ بألاف السنين ، كما تشير الى ذلك بقايا أقدم حضارات العصر الحجري الحديث — كما في مرمدة بنى سلامة وفي حلوان العمرى وفي دير قاسا — (١) .

وليس هناك من شك في أن بناء الاهرامات وغيرها من للعمائر الدينية الضخمة في العصور التاريخية ، انما كان نتيجة سيطرة الدين على المصريين وأثره في حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان وما زال وسيظل — أكبر قوة تؤثر في حياة الانسان ، كما انه كان منفذا للخيالات ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التغير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة كان قد اعتنقها القوم ، وكان لها أكبر الاثر في نفوسهم ، بل أنه — فيما يرى برستد — لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم ، احتلت في نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها في نفس الشعب المصرى القديم (٢) .

هذا وقد اعتقد المصريون القدامى أن الانسان انما يتكون من جسد وروح ، وأن الجسد مصيره الى القبر بعد الموت ، وأما الروح فمصيرها الى السماء ، وكما جاء في نصوص الاهرام : «ان الروح انما تذهب الى السماء بينما يبقى الجسد في الارض ، ومن ثم فقد اعتقدوا أن هناك — بجانب الجسد المادى (خت) — روحا نورانية شغافة هي (الآخ) تذهب الى السماء ، وتبقى فيها الى الابد مع الاله «أوزير» .

(١) أنظر (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٤٠٧ - ٤١٤) .

(٢) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 45.

وهناك روح أخرى هي «الكا» (أى القرين) تبقى بجوار الجسد في مقبرته ، وفيما حوله على الأرض ، وأن القرايين انما تقدم لها ، وهي في نظر القوم ، الملاك الحارس للانسان ، أو التى كان المرء يستقبلها عند مولده بأمر من الاله «رع» ، كما كانوا يعتقدون أنه مادامت هذه «الكا» معه ، ومادام هو رب الكا ، وأنه يغدو منها ، فهو حى يرزق ، ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه «الكا» ، فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماما .

وهناك روح ثالثة هي «الباء» ، والتى يمكن تسميتها بالروح الابدية، وهي اذا كانت تترك الجسد ، وتنفلت منه عند الموت ، فقد تغفلوها في أشكال مختلفة ، فهي أحيانا كطير ، ومن ثم فمن المحتمل — فيما يرى القوم — أن تكون روح الميت طائرا بين طيور الاشجار التى غرسها بنفسه ، وقد تكون في هيئة زهرة اللوتس ، أو في هيئة ثعبان يندفع من جحره ، أو في هيئة تمساح يزحف من الماء الى الأرض .

هذا وكان القوم يعتقدون أن «الباء» تلتحق بموكب الشمس في رحلتى الليل والنهار ، وأنها تزور الجسد في رحلة النهار ، وأن كلا من «الباء» و «الكا» مرتبط بقاءهما وخلودهما ببقاء الجسد وخلوده ، كما أنهما تفتيان بقاء الجسد وفساده ، ولعل هذا هو السبب في اهتمام القوم بتحنيط أجساد موتاهم ، حتى تحتفظ بملامحها التى كانت لها في الحياة الدنيا (٣) .

٢ - التحنيط

اعتقد المصريون القدامى أن الموت هو انفصال العنصر الجسماني عن العناصر الروحية ، ومن هنا كانت العناية بدفن جثث الموتى ، إذ أن فناءها معناه هلاك الروح ، ولهذا عملوا على المحافظة على جسد المتوفى حتى يستطيع أن يحيا حياة الثانية وأن يتمتع بما يودع الى جانيه من طعام وشراب وكساء وما يقدم له من قرايين، على أن القوم منذ أن بدأوا يدفنون موتاهم في توابيت وفي غرف من اللبن أو غرف محفورة في الصخر ، تعرضت الجثث للتلف ، ذلك لان الرمال الحارة

(٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤١٤ - ٤١٦ .

الجلافة لم تعد تمتص ما فيها من رطوبة تعمل على فسادها ، ومن ثم فقد عملوا على الحفاظ على المظهر الخارجى للجثة بوسائل شتى ، منها لف الجثة بلفائف من الكتان تحتفظ بالشكل الخارجى للجسم أو تغشيها بغلاف من الجص ، وخاصة الوجه الذى ترسم عليه ملامحه ، أو تغطية الرأس بقناع من الكتان والجص مما تشكل فيه ملامح الوجه ، وقد بلغوا بهذه الوسيلة غايتها فى بداية الاسرة الثانية عشرة ، حيث صنعوا ثوابيت مخلقة على هيئة الميت يضعون فيها جثته ، ثم يضعونها داخل تابوت آخر من الخشب .

وهكذا لم يحضر القوم وسعا فى الحفاظ على الجثة ، وإن كان أهم وسائلهم فى ذلك هو التحنيط ، بل لقد وصل اهتمام القوم بالحفاظ على الجسد سليما الى تعويض الاطراف المنزوعة أثناء الدفن بأخرى ، والى تركيب الجبائر الى الاطراف المكسورة بعد الموت ، ربما نتيجة لقلة العناية فى أثناء التحنيط ، وكانهم أرادوا علاجها بعد اللوفاة ، ذلك لان العملية انما كانت دينية أكثر منها طبية ، وذلك حتى يمكن للروح أن تبقى وأن تتعرف على الجسد ، وتتمتع بما يقدمه الاحياء للميت من قرابين ، وما يصاحب عملية تقديم القرابين من طقوس دينية وصلوات ودعاء ، ومن ثم فقد كانت للمقابر ، وخاصة فى عهد الدولة القديمة والوسطى ، أبواب وهمية ، كانت أول الامر مجرد فجوة فى الحائط ، تطورت فيما بعد الى رسم يسمح للمتوفى بالدخول والخروج من المقبرة ، كما نحتت كذلك فوق الباب الوهمى لوحة صور فيها المتوفى وأمامه مائدة القرابين .

والتحنيط : لغة استخدام الحنوط أو الحنائط ، وهو كل طيب يمنع فساد الجسد أو هو كل ما يطيب به الميت من مسك وخزيرة وصندل وغبر وكافور ، وغير ذلك مما يذر عليه تطيبا له وتجفيفا لورطوبته ، ولفظ "Embal" يعنى حنط من لفظ لاتينى Balsmum أى حفظ فى البلسم ، أما لفظ موميا فقلل عنها صاحب «أقرب الموارد» أنها دواء ، وربما أطلقت الموميا اليوم على ما حنط من الاجسام ، وهى يونانية معناها حافظ الاجسام ، ويطلق على الجسد المحنط مجازا اسم موميا لما يعتريها من

سواد يشبه القار المعدنى (الاسفلت) ، وهو اللون المعروف للمادة التي وصفها «دسغوريديس» وذكر أنها تسمى «مومياء» ، ويذهب «الفرد لوكاس» الى أن هذا اللفظ ربما كان لفظا فارسيا بمعنى القار ، وأنه أطلق في العصور المتأخرة على الجثث المصرية المحنطة لقرب لونها من القار ، غير أن التسمية خاطئة ، ذلك لأنه لم يعثر على قار الا في مومياء واحدة من العصر الفارسي ، وان استعمل في عصر الاغريق والرومان ، ولعل سواد القار والراتنج هما سبب هذا الخطأ الذي وقع فيه بعض الاثريين (٤) .

وأيا ما كان الامر ، فهناك آثار للتحنيط منذ الاسرة الاولى (٥) ، ثم لا نلبث أن نتبينها في وضوح في عصر الاسرة الثانية (٦) ، وقد كان من الممكن أن يتوافر لدينا الكثير من آثار التحنيط مرتبة يتلو بعضها بعضا ، لولا ما وقع على قبور الملوك والنبلاء من عدوان ، وما أصابها من تخريب على أيام الثورة الاجتماعية الاولى ، وعلى أى حال ، فلقد كان الجسد في الاسرة الاولى يلف في طبقات سميكة من الكتان ثم سرعان ما ظهر في عهد الاسرة الثانية ما يثبت بداية المحاولات الاولى للتحنيط الحقيقي ، وذلك باظهار ملامح المتوفى بالغة بأربطة الكتان بطريقة تسمح بالمحافظة على الشكل الحي للوجه والصدر والاطراف بعد تحال الجسد في هيكله العظمى وتقلصه ويبدو أن ذلك قد تحقق بنمط الكتان في مادة صمغية حتى أن تلك المومياء التي ترجع الى الاسرة الثانية انما تكاد تبين مظهر أصحابها بوضوح ، فقد مثلت ملامح المتوفى بتفاصيلها ، وكذا أعضاء الرجال التناسلية ، وأبرزت تفاصيل الثديين للنساء في صورة كاملة ، كما وضعت الجثث في وضع القرفصاء وفصلت الذراعان والرجلان والاصابع ولفت بحيث تأخذ شكلها الاصلى في الحياة (٧) .

A. Lucas, Op-Cit, II, p. 338; R. Forbes, Studies in Ancient Technology, II, 1955, p. 99. (٤)

JEA, 7, p. 7-31. (٥)

A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries, II, London, 1948, p. 230. (٦)

W. B. Emery, Archaic Egypt, p. 162-164. (٧)

على أن القوم ، فيها يبدو ، انما قد توصلوا الى التحنيط بالمعنى الصحيح ولمرسوه لعملا في الاسرة الثالثة ، اذ وجدت من عصر هذه الاسرة تواييت لحفظ المومياء ، وتواييت أخرى بها أربعة أوان من المرمر لحفظ الاحشاء المحنطة ، كما وجدت بقايا من مومياء الملك «زوسر» في غرفة الدفن الجرانيتية في هرمه المدرج بسقارة (٨) .

ولعل أقدم مثال للتحنيط انما هو مومياء الملكة «حسب حرس» ، زوج الملك سنفر ، وأم الملك خوفو ، وقد وجدت أحشاء هذه الملكة محنطة ومودعة في صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبي» ، وقد قسمت الى أربعة أقسام زود كل منها بمادة التحنيط ، وهى التى عثر عليها في حجرة الدفن بمقبرتها ، شرقى الهرم الأكبر ، غير أن طريقة التحنيط لم تكن في الدولة القديمة قد وصلت الى درجة كبيرة من الاتقان ، ومن ثم فقد عمد القوم وقت ذاك الى استكمال تمثيل ملامح الجسم بمقمش كتان غمس في راتنج منصهر ، بحيث يبدو الوجه والجسم بملامحه الحقيقية في الحياة ، ولعل أبداع مثال لمومياء الدولة القديمة هو مومياء «نفرا» التى كشفت عنها هيئة الآثار في سقارة عام ١٩٦٦م .

هذا وقد كانت عملية التحنيط تستغرق سبعين يوما ، كان المكنة في أثنائها يرتلون الصلوات ، وقد ارتدوا قناعا على شكل رأس ابن آوى ، وهو يمثل أنوبيس ، اله الجبانة وراعى الموتى ، والذي كثيرا ما كانوا يسمونه «رئيس خيمة الاله» ، وكان التحنيط يتم داخل حظيرة مؤقتة تفك عقب الانتهاء من الخطوات الاولى ، وهى الغسل ، وذلك في أماكن مخصصة لذلك تقع في الغرب قريبا من مكان الدفن ، ونظرا للاهمية المعنوية لأمكن التحنيط ، فقد سميت «المكان الطاهر» و «دار الاله الطاهرة» و «خيمة الرب» و «كشك الاله» ، ويدهى أن التحنيط انما كان يستهدف في الدرجة الاولى المحافظة على الجسد من عوامل البلى عن طريق تخفيضه ، ولكن ليس هناك من ريب في أن هناك طرقا أخرى لمنع المتعفن ، منها طريقة التبريد في صفائح بعد تعقيم محتوياتها ، هذا فضلا

(٨) زكى اسكندر : التحنيط في مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٣ ص ١٠

عن طرائق التحليل والتعليق والتخزين والتجفيف ، كما أن هناك مواد كيميائية تمنع العفن كالجلسرين والكحول والزيوت الطيارة والتوابل وحمض الجاويك وثاني أكسيد الكبريت ، وأخيرا فإن أقسام التشريح في المستشفيات التعليمية تحفظ الجثث من العفن عن طريق حقنها بمواد مطهرة (٩) .

ولعل سائلا يتساءل : ما هي الوسائل التي استخدمها المصريون القدامى لتحفيظ أجساد موتاهم بطريقة أذهلت الغنى كلها بخاسة وأن جسم الإنسان إنما يحتوي على ٧٥٪ من وزنه ماء ، وأن اخراج هذه الكمية الهائلة من الجسم ليس بالأمر السهل ؟

لقد قام جدل طويل حول اجابة سؤالنا هذا ، فذهب رأى الى أن القوم إنما استعملوا حمام الملح بعد استخراج الاحشاء أثناء التحفيظ ، فهناك ما يشير الى أنهم قد حفظوا الاسماك بطريقة التعليق وذلك بسبب وفرة الملح ورخصه ورغم أنه لم يعثر في الموميات ما يشير الى استخدامهم لهذه الطريقة في التحفيظ ، فليس هناك ما ينفي استعمالها ، فضلا عن العثور على الملح في لفائف الجثث وفوق الملابس التي تنتمي الى العصر المسيحي (١٠) ، ومن ثم فقد ذهب «اليوت سمث» الى أن استعمال الملح في التحفيظ ، بل ان ملح الطعام إنما كان أهم مواد التحفيظ في أغلب الاحصاين (١١) .

على أن هناك ما يقف عقبة في قبولنا لهذه الطريقة ، ذلك أن ملح النطرون إنما يحتوي على نسبة عالية من ملح الطعام ، وعلى سبيل المثال فقد حوت عينات النطرون من الكاب ٧٥٪ من ملح الطعام ، ولعل الاتجاه السابق كان نتيجة لذلك ، وهذا يعنى أنه اعتبر المادة الشائبة هي المادة الاصلية ، بينما اعتبرت مادتا الكربونات والبيكربونات الصودا ، على

(٩) حسن كمال : الطب المصرى القديم ٥٦٢/٢-٥٦٣ ، بول غليونجى : الحضارة الطبية في مصر القديمة ص ٣٢ ، زكى اسكندر : المرجع السابق ص ١٠ .

Warren Dawson, Magician and Leech, London, p. 39. (١٠)

G. E. Smith and W. Dowson, Egyptian Mummies, p. 168. (١١)

أنها شوائب ، رغم أن الحقيقة عكس ذلك تماما ، ولعل هذا هو الذى دفع بعض الباحثين الى اعتبار مومياء الملك مرنبتاح مكسوة بملح الطعام بسبب غرقه فى البحر ، على اعتبار أنه فرعون موسى ، غير أن التحليل الكيميائى قد أثبت أن كمية الملح قليلة ، وانطلاقا من هذا كله ، فقد استبعدت طريقة التمليح من أن تكون الطريقة العادية فى التحنيط^(١٣) .

وهناك وجه آخر للنظر يذهب الى أن القوم قد عرفوا طريقة التدخين ، اعتمادا على العثور على حجرة فى مقابر حلبيية وقد امتلأت بالجنث حتى سقفها ، هذا فضلا عن حجرات مجاورة كسيت جدرانها بطبقة من الهباب ، مما يشير الى تجفيف الجنث عن طريق الحرارة البطيئة (التدخين)^(١٤) ، على أن هناك من يعارض هذا الاتجاه ، على أساس أنه من غير الممكن أن عددا كبيرا من القوم قدموا جنث موتاهم بهذا العدد الضخم دفعة واحدة ، ومن ثم فإن وجود الهباب انما يشير الى استخدامه فى تطهير المقابر ، هذا فضلا عن أن كلا من هيودوت وديودور لم يذكرنا شيئا عن تجفيف الجنث عن طريق التدخين .

وهناك وجه ثالث يذهب الى استعمال الجير الحى فى التحنيط لازالة الجلد ثم التأثير عليه بعد ذلك بنبيد التمر ، وأن هناك من وجد كربونات الجير فى بعض الموميات بنسبة ٨٦% ، غير أن «لوكلس» يرى أنه ليس هناك من دليل على استعمال المصريين للجير الحى فى التحنيط ، او فى أى غرض آخر قبل العصر البطلمى^(١٥) .

على أن هناك وجها رابعا للنظر يذهب الى استعمال النطرون كمادة أساسية فى التحنيط ، وقد عثر على النطرون فى عدة مقابر ، كما فى مقابر «نيويا» و «توبا» والذى للملكة تى ، زوج أمنتحتب الثالث وأم اخناتون ، وفى مقبرة من الاسرة الحادية والعشرين ، كما عثر على أكياس مليئة بالنطرون فى مقبرة «توت عنخ آمون» ، الى جانب أكياس بها نطرون فى

(١٢) حسن كمال : المرجع السابق ص ٥٦٤ .

S. Yeivin, Liverpool Annals, XIII, 1926, p. 15. (١٣)

A. Lucas, Op-Cit, p. 313. (١٤)

صدر بعض الموميات ، هذا فضلا عن العثور على لفائف موميت من عصر الاسرة الثمانية عشرة مشبعة بالنظرون ، بل لقد وجد نظرون داخل جمجمة طفل في مقبرة أمنحتب الثانى ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى استعمال النظرون من عصر الاسرة الرابعة وحتى العصر الفارسي (١٥) .

ولعل سؤال البداة الان : كيف تتم عملية التحنيط ؟

يروى هيرودوت أنه «إذا ما مات مصرى ذو قدر لطفت كل نساء بيته الرأس أو الوجه بالطين ، ثم يتركن الجثة في الدار ، ويجلن في المدينة لاطلمات ، وقد شعرن وكشفن عن صدورهن ومعهن كل «قربياتهن» ثم يحملون الجثة الى المهنطين الذين يعرضون عليهن نماذج ثلاثة لجثث مصنوعة من الخشب ، تمثل أنواع التحنيط الثلاثة ، وأغلاها الطريقة التى اتبعت في تحنيط أوزير ، والطريقة الثانية أقل تكلفة ، وأما الطريقة الثالثة فهي أقل ما يمكن عمله ولا تكلف الا القليل من المال فإذا ما اتفق الطرفان تسام المهنطون الجثة ، ثم يبدأون في اخراج بعض المخ من المنخارين بواسطة قطعة معقوفة من الحديد ، والبعض الآخر بفضل عقاقير يصبونها في الرأس ، ثم يشقون الكتشح بصجر أثيوبى مسنون (ولعله حجر الصوان) ويفرجون الاحشاء كلها ثم ينظفونها وينسلونها بنبيذ التمر ، ثم يطهرونها بالتوابل المجروشة ، ثم يملأ الجوف بمر نقى مسحوق ودار صينى وسائر أنواع الطيب ، ما عدا البخور ، ثم يفيطونها ثانية ، ثم يملحون الجثة بتحنيطها بالنظرون سبعين يوما ، في نهايتها تغسل الجثة ثم يلف الجسم كله بشرائط الكتان الشفلف ، ثم يسلمون الجثة لاصحابها ، ويعملون لها هيكلًا خشبيا على هيئة انسان ويضعونها فيه ، وبعد اغلاقه عليها يحفظونها بعناية في غرفة الدفن ويقيمونها مسندة الى حائط» .

هذه هي الطريقة الاولى الخالية الثمن ، وأما الثانية فتتم بأن يملأ المهنطون الحفن بزيت الصنوبر للاجوف الجثة دون أن يشجوها ، ودون

(١٥) حسن كمال : المرجع السابق ص ٥٦٤ - ٥٦٥ .

أن يستخرجوا الاحشاء ، ولكنهم يضعون الزيت من الشرج ويسخونه بعد ذلك حتى لا ينساب الزيت منه ، ويملحون الجثة أياما عدتها سبعون يوما ، وفي نهايتها يخرجون الزيت من الجوف ، وهذا الزيت قوته عظيمة ، حتى أنه يجرف معه الاحشاء والمصارين التي تكون قد تطلت ، أما اللحم فيذيبه النطرون ، ومن ثم لا يبقى من الجثة سوى الجلد والعظام ، ثم يردون الجثة الى أهلها دون أية عناية أخرى .

وأما الطريقة الثالثة والتي كانت تستخدم لأن هم أقل ثراء ، فقد كان المحنطون يغسلون الجوف بماء الفجل ، وتترك الجثة في الملح سبعين يوما ، ثم ترد لأصحابها ليذهبوا بها الى المقبرة^(١٦) .

وعلى أى حال ، فإن دراسة الجثث انما تشير الى أن معظم ما جاء في رواية هيرودوت انما هو صحيح الى حد كبير ، كما أن هناك ما يشير الى أن عملية التحنيط قد تطورت في العصور المختلفة الى أن بلغت ذروتها في عصر الدولة الحديثة، ويعتبر موميات الملوك تحوتس الاول وأمنحتب الثاني وسيتي الاول ورعمسيس الثاني والملكة نزمتم من أروع الامثلة على مدى اتقان القوم لعملية التحنيط ونجاحهم في احتفاظ الجسم بملامحه وأنسجته الاسلية .

وتتفق طريقة تحنيط الملوك والاشراف في ذلك العصر في كثير من تفاصيلها مع أغلى طريقة شرحها هيرودوت، وتتلخص في الخطوات التالية:

١ - تنقل الجثة الى معمل التحنيط ، والذي كان يسمى « بيت التطهير » (بروعبت) أو البيت الجميل (برنغر) حيث تنزع ملابسها ثم توضع على لوحة خشبية لاجراء العمليات الجراحية لاستخراج المخ ، الامر الذي يتم عادة عن طريق الانف ، وربما عن طريق الثقب الاعظم بواسطة قضيب ملوى من النحاس أو البرونز على شكل طعنة ، وفي كلا الحالتين كان المخ يهتك بسبب ضخامة حجمه وضآلة فتحة اخراجه ،

(١٦) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ١٩٢ - ١٩٧ .

والعملية رغم أنها شاقة فهي ضرورية لان المخ من أوائل الانسجة التي تتعفن بعد الوفاة .

٢ — تستخرج الاحشاء الباطنية عن طريق شق في الجانب الايسر من البطن ، ثم تستفرج الامعاء فالكبد فالحال ، أما الكليتان فتتركان عادة في مكانهما ، ثم يشق الحجاب الحاجز لاستفراج الرئتين ، اما القلب وأوعيته الدموية فتترك مكانها .

٣ — ينسف تجويف البطن والصدر بنبيذ البلع والتوابل ، وهو اجراء لا يترك أثرا ظاهريا على المومياء .

٤ — تغسل الاحشاء بعد نعيمها ، وذلك بوضع كل جزء منها في ملح نظرون جاف على سرير صغير مائل الى ان يستخلص كل الماء الذي بها وتجفف تماما ، ثم نعالج بالزيوت العطرية والراتنج المنصر ، وتلف في أربع لفافات مستقلة ، وتوضع كل منها في بعض الاحيان في قابوت صغير من الذهب كتقابوت احشاء توت عنخ آمون ، أو من الفضة كتقابوت احشاء شيشنق ، ثم توضع هذه النوابيت (أو اللفافات بدون توابيت غالبا) في أربعة أوان تسمى «الاولانى الكانوبية» اغطيها يوصل كل منها اسم أحد أولاد حورس الاربعة ، وقد شكلت رؤوس هذه الاولانى على شكل رأس آدمى حتى أخريات أيام الاسرة الثامنة عشرة ، ثم شكلت بعد ذلك طبقا للشكال الفطرية لأولاد حورس الاربعة ، فالكبد يوضع في اناء غطاؤه على شكل «ايمنسى» ، والرئتان توضع في اناء غطاؤه على شكل «حابى» والمعدة في اناء على شكل «دواموت اف» ، ثم الامعاء في اناء على شكل «قبح سنو اف» (وأما أشكال أولاد حورس فكان ايمنسى على شكل رأس آدمى ، وكان حابى على شكل رأس قرد ، ولكن دواموت اف على شكل رأس ابن آوى ، وكان قبح سنواف على شكل رأس صقر) وأخيرا كانت الاولانى الكانوبية توضع في صندوق للاحشاء يعلوه أحيانا تمثال أنوبيس ، اله الجبلنة والقنيط .

ولعل من الجدير بالاشارة ان الاحشاء كانت على أيام الاسرة الحادية والعشرين تتخلف وتلف بكتان ثم تعاد الى مكانها الطبيعي ، كما كانت في

الحياة الدنيا ، وأما أولاد حور الأربعة فكانت تصنع لهم تماثيل من الشمع ثم توضع في الأحشاء التي كانت تحميها ، كما كانت البطن تملأ في أكثر الحالات بالنشارة ، وفي قلة منها بالراتنج .

٥ — كان الفراغان البجاني والصدري يحشوان بمواد حشو مؤقتة من ثلاثة أنواع من اللفافات ، الأولى بها نظرون لاستخلاص ماء الجسم من الداخل ، والثانية من الكتان لامتناس الماء المستخرج ، والثالثة من الكتان كذلك ولكنها تحتوي على مواد عطرية لأكساب الجسم رائحة طيبة أثناء عملية التحنيط الرئيسية .

٦ — يقفل مكان فتحة البطن بالخياطة أو تختم بمادة راتنجية أو شمعية ، كما تقفل كذلك فتحات الفم والأنف والأذن والعيون ، ولزيادة المحافظة على الملامح كان المحنطون يغطون الوجه والفم والخدان بكتان مغموس بالنظرون والدهنيات .

٧ — كانت الفكرة الرئيسية للحنيط هي تجفيف الجثة لمنع الميكروبات اللاهوائية من النمو على أنسجتها ، ومن ثم فقد كانت الجثة توضع بعد استخراج أحشائها وغسلها في كوم من النظرون الجاف ، وربما ملح الطعام الجاف ، على سرير التحنيط ، وهو سرير مائل من الحجر في نهايته فتحة صغيرة تؤدي إلى حوض تجمع فيه السوائل التي تستخرج من الجثة نتيجة لعملية الانتفاح ، وتستغرق هذه العملية سبعة أيام . يظل الجسم فيها مغموساً في النظرون ، وقد ذكرت تلك السبعون يوماً على الآثار المصرية ، ومن ثم فإننا نقرأ على غطاء تابوت بالمتحف المصري «أنت يا من مكثت سبعين يوماً بالمنزل الجميل ، سبعون يوماً راقداً في المكان ، سبعون يوماً حداداً» .

٨ — تستخرج الجثة بعد ذلك من النظرون وتغسل بالماء وتجفف بالنشفت ، وقد تغسل بسائل آخر مثل نبيذ التمر ، وكانت الأصابع غالباً ما تصبغ بالحنة ، كما كان يحشى تجويف الجمجمة بالراتنج أو بالكتان المشبع بالراتنج ، ويحشى تجويف الصدر والبطن بمواد مثل

الانسيون والمر والكاشية (خيار شبر) ومواد عطرية أخرى ، فضلا عن الكتان أو الكتان المغموس في الراتنج ، وبالنشارة المشبعة بالراتنج أو بالتراب والنظرون ، وقد يضاف الى ذلك بصلة أو بصلتان ، ثم كانت تشد حافتا الشق البطنى الى جانب بعضهما ، ويثبت على الشق لوح معدنى أو من شمع النحل على شكل عين حور ، ثم يثبت هذا اللوح المعدنى في موضعه على الشق براتنج منصهر لسد شق البطن ، وأحيانا كان الشق يخاط بخيط من الكتان .

٩ — يدهن كل جسم المتوفى بزيت الارز ودهانات عطرية أخرى ، وكذلك كل سطحه بمسحوق المر والقرفة لأكسابه رائحة عطرة .

١٠ — تسد فتحتا الفم والانف والاذنين بقطع من قماش الكتان المغموس في الراتنج المصهور ، أما العينان فكان يوضع بكل منهما قطعة من هذا القماش المشبع بالراتنج تحت الجفن ثم تجذب الجفنان على الحشو . لكى تبدو العينان غير غائرتين ، وإنما في مستواهما الطبيعى في الحياة بقدر المستطاع ، وفى عهد الاسرة الحادية والعشرين استعملت العيون الصناعية وحشيت العضلات بالراتنج وبالكتان مع الراتنج للحفاظ على الشكل الظاهرى ، أما القطران فقد استعمل بعد ذلك وحده أو ممزوجا مع الراتنج .

١١ — تعالج الجثة كلها براتنج منصهر بواسطة فرشاة عريضة لأكساب الجثة صلابة ولسد مسام الجسم حتى لا تتعرض أنسجته لتأثير الرطوبة مرة أخرى ، ومن ثم لا تتمكن بكتريا التعفن من العيش على أنسجته .

١٢ — ترين جسم المتوفى بالحلى ، وقد وجدت على مومياء توت عنخ أمون ١٤٣ قطعة من الحلى المختلفة من الخواتم والاقراط والمعقود والاساور والصدريات والتماثيل المختلفة ، كما وضعوا في بعض الاحوال حزاما من الخرز في وسطه دلالة على شكل صقر جائم من العقيق الاحمر بحيث يقع فوق شق التضيق كتميمة لحماية الشق ووقايته ، ثم يلف

الجسم كله بلفائف من الكتان التى تلتصق بعكسها بالراتنج المعطر ، وقد
لغت جثة توت عنخ آمون بست عشرة طبقة من الكتان .

١٣ - تجرى على المومياة - بعد انتهاء كل العمليات السابقة
والطقوس التى تصاحبها - عملية «فتح الفم» التى يلمس فيها الكاهن
الاعظم فم المومياة بقضيب خاص ويقول له «أنت الآن ترى بعينيك ،
وتسمع بأذنيك ، وتفتح فمك لتتكلم وتأكل ، وتحرك ذراعيك وساقيك ،
أنت تحيا ، أنت الآن حي ، وقد عدت صغيرا مرة أخرى ، وستعيش الى
الابد» (١٧) .

-
- (١٧) زكى اسكندر : المرجع السابق ص ١١ - ١٦ ، حسن كمال :
المرجع السابق ص ٥٦٥ - ٥٦٨ ، بول غليونجى : المرجع السابق ص
٢٥ - ٢٨ ، محمد عبد الحميد : الفراعنة والطب الحديث ص ٢٠٧ - ٢٢٧ ،
يوليوس جيار ريتز : الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة ص ١٠٢ - ١٤٢ ،
G. E. Smith and W. Dawson, Op-Cit, p. 168. وكذا
A. Zaki and Z. Iskander, ASAE, 42, 1943, p. 223-255. وكذا
W. Dawson, JEA, 13, 1927, p. 40-49. وكذا
A. Lucas, Op-Cit, p. 270-320. وكذا
E. Smith, The Royal Mummies, Le Cairo, 1912. وكذا
H. S. Bakry, A brief Study of Mummification in Cairo, 1965. وكذا
S. Sauneron, le rituel de L'embaumement, le Cario, 1962. وكذا
Z. Iskander and A. E. Shaheen, Temporary Stuffing Materials
used in The Process of Mummification, Part, I, Asaf, T. LVII, Cairo,
1964, p. 197-208. وكذا
ASAE, 30, 1930, p. 102-104, 40, 1940, p. 233. وكذا
JEA, 18, p. 177. وكذا

المراجع المختارة

أولاً : المراجع العربية

- الدكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس - جزآن - القاهرة ١٩٥٥/٥٠
- الدكتور أحمد بدوى والدكتور محمد جمال الدين مختار : تاريخ التربية والتعليم فى مصر - الجزء الاول - القاهرة ١٩٧٤
- الدكتور أحمد فخرى : مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١
- الدكتور أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى - الادب المصرى القديم - القاهرة ١٩٦٢
- الدكتور أحمد فخرى : الاهرامات المصرية - القاهرة ١٩٦٣
- الدكتور بول غليونجى : طب وسمر - القاهرة ١٩٦٠
- الدكتور بول غليونجى : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى الطب عند قدماء المصريين - القاهرة ١٩٦٢
- الدكتور بول غليونجى ، وزينب الدواخلى : الحياة الطبية فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٥
- الدكتور حسن كمال : الطب المصرى وقديم (أربعة أجزاء) - القاهرة ١٩٦٤
- زكى اسكندر : التحنيط فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٣
- الدكتور سليم حسن : الادب المصرى القديم - جزآن - القاهرة ١٩٤٥
- الدكتور سيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٨٤
- الدكتور عبد الحميد زايد : مصر الخالدة - القاهرة ١٩٦٦
- الدكتور عبد الحميد زايد : الرمز والاسطورة الفرعونية - عالم الفكر - الكويت ١٩٨٥
- الدكتور عبد الحميد سماعة : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى الفلك عند المصريين القدماء - القاهرة ١٩٦٢
- الدكتور عبد العزيز صالح : تاريخ الحضارة المصرية - العصر الفرعونى الرياضيات فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٦٢

الدكتور عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها - الجزء الاول -
القاهرة ١٩٦٢ •

الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم - الجزء الاول - القاهرة
١٩٦٧ •

الدكتور عبد العزيز صالح : التربية والتعليم في مصر القديمة - القاهرة
١٩٦٦ •

الدكتور عبد المنعم ابو بكر : اساطير مصرية - القاهرة ١٩٥٤ •

الدكتور محمد بيومي مهران : الثورة الاجتماعية الاولى في مصر الفراعنة
الاسكندرية ١٩٦٦ •

الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الاول - الاسكندرية ١٩٨٨ •

الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثانى - الاسكندرية ١٩٨٨ •

الدكتور محمد بيومي مهران : مصر - الجزء الثالث - الاسكندرية ١٩٨٨ •

الدكتور محمد بيومي مهران : اخفائون - عصره ودعوته - القاهرة ١٩٧٩ •

الدكتور محمد بيومي مهران : اسرائيل - الجزء الثالث - الاسكندرية
١٩٧٩ •

محمد عبد الحميد بسيونى : الفراعنة والطب الحديث - دار المعارف -
القاهرة ١٩٧٩ •

محرم كمال : الحكم والامثال والنصائح عند المصريين القدماء - القاهرة
١٩٦٢ •

الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم - الجزء الاول
والثانى - الاسكندرية ١٩٦٦ •

الدكتور نجيب ميخائيل : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦ •

ثانيا : المراجع المترجمة

أدولف ارمان وهرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة

ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، ومحرم كمال - القاهرة ١٩٥٣ •

الكسندر شارف : تاريخ مصر - ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر - القاهرة

١٩٦٠

الن جاردنر : مصر الفراعنة - ترجمة نجيب ميخائيل - القاهرة ١٩٧٣ •

- جورج سارتون : تاريخ العلم - مصر - ترجمة الدكتور مصطفى الامير -
القاهرة ١٩٦٣م .
- جوستاف لوفيفر : روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني - ترجمة
على حافظ - القاهرة .
- جون ويلسون : الحضارة المصرية - ترجمة احمد فخرى - القاهرة ١٩٥٦ .
- جيمس هنرى برستد : فجر الضمير - ترجمة سليم حسن - القاهرة ١٩٥٦ .
- سيرج سونيرون : كهان مصر القديمة - ترجمة زينب الكردى - القاهرة
١٩٧٥ .
- يوليوس جيار ، ولويس ريتز : الطب والتحنيط في عهد الفراعنة - ترجمة
أنطون زكرى - القاهرة .

ثالثا : المرجع الاجنبية

- Anthes, (R.), JNES, 16, 1957, p. 176-190.
- Barta, (W.), MDIK, 21, 1971, p. 35-145.
- Bissing, (F. W. Von), Altägyptische Lebensweisheit, Zurich, 1955.
- Bottero, (J.), Cassin, (E.), and Vercoutier, (J.), The Near East, The Early
Civilization, London, 1967.
- Breasted, (J. H.), A History of Egypt, New York, 1946.
- Breasted, (J. H.), The Edwin Smith Surgical Papyrus, Chicago, 1930.
- Brunner - Traut, (E.), Altägyptische Märchen, Düsseldorf-Cologne, 1965.
- Brunner - Traut, (E.), ZAS, 94, 1967, p. 6-15.
- Brunner, (H.), Altägyptische Erziehung, Wiesbaden, 1957.
- Budge, (E.A.W.), Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in The British
Museum, London, 1910.
- Chace, Ludlow Bull, Henry Parker Manning, and Raymond Clare
Archibald, The Rhind Mathematical Papyrus, (2 Vol, Oberlin,
Ohio, 1927-1929).
- Dawson, (W.), JEA, 14, 1928, JEA, 20, 1934.
- Davaud, (E.), Les Maximes de Ptahhotep, Fribourg, 1916.
- Dawson, (W. R.), Making a Mummy, in JEA, XIII, 1927.

- Dawson (W. A.), and Gray (P. H. K.), *Mummies and Human remains*
British Museum, London, 1963.
- Drioton, (E.), et Vandier (J.) *L'Egypte*, Paris, 1962.
- Drioton, (E.), *RdE*, 12, 1960, p. 90-91.
- Ebbell, (B.) *The Ebers Papyrus*, Copenhagen, 1937.
- Edel, (E.), *MIO*, I, 1953, p. 210-226.
- Edgerton, (W. F.), *Chronology of The Twelfth Dynasty*, in *JNES*, I,
1942.
- Emery, (W. B.), *Archaic Egypt*, (Penguin Books), 1963.
- Erman, (A.), *The Literature of The Ancient Egyptians*, Trans. into
English by A. M. Blackman, London, 1927.
- Faulkner, (R. O.), Wente, (E. F.), and Simpson, (W. K.), *The Literature
of Ancient Egypt*, London, 1977.
- Faulkner, (R. O.), *JEA*, 50, 1964, p. 24-36, *JEA*, 51, 1965, p. 53-62.
- Federn, (W.), *JEA*, 36, 1950, p. 48-50.
- Forbes, (R.), *Studies in Ancient Technology*, II, London, 1955.
- Garstang, (J.), *The Burial Customs of Ancient Egypt*, London, 1907.
- Gardiner, (A. H.), *The House of Life*, *JEA*, 24,
- Gardiner, (A. H.), *The Admonitions of an Egyptian Sage*, Leipzig, 1909.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, I, 1914, p. 20-36.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, 1914, p. 100-106.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, 9, 1923, p. 5-25.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, 32, 1946, p. 71-74.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, 37, 1951, p. 109-110.
- Gardiner, (A. H.), *JEA*, 45, 1959, p. 12-15.
- Gardiner, (A. H.), *Hieratic Papyri in The British Museum, Third Series :*
Chester Beatty Gift. 2, London, 1935.
- Gardiner, (A. H.), *Egypt of The Pharaohs*, Oxford, 1961.
- Ghalioungui, (P.), *Magic and Medical Science in Ancient Egypt*, 1963.

- Golenischeff, (W.), Les Papyrus hieratiques Nos : 1115, 1116A et 1116B de L'Ermitage imperial a St-Petersbourg, St-Petersbourg, 1916.
- Goedicke, (H.), JARCE, 7, 1968, p. 15-21.
- Grapow, (Herman), Grundrisse der Medezin der Alten Agypter, Berlin (1958-1962).
- Griffith, (F. L.), JEA, 12, 1926, p. 191-231.
- Gunn, (B.), The Instructions of Ptah-Hotep and The Instructions of Ke'gamm, The Oldest books in The World, London, 1912.
- Hayes, (W. C.), The Scepter of Egypt, 2 Vols, New York, 1953-1959.
- Harris, (J. E.) and Weeks (K. R.), X-Raying The Pharaohs, New York, 1971.
- Helck, (W.), Der Text der lehre Amenemhets, I, fur Seinen Sohn, Wiesbaden, 1969.
- Hermann, (A.), Altgyptische Liebesdichtung, Wiesbaden, 1959.
- Hermann, (A.), OLZ, 42, 1939, p. 141-153.
- Humbert, (P.), Recherches sur les Sources de la Litterature Sapientiale d'Israel, Neuchatel, 1929.
- Iskander, (Z.), and Shaheen, (A. E.), Temporary Stuffing Materials used in The Process of Mummification, Cairo, 1964.
- Lefebvre, (G.), Romans et Contes Egyptians de L'epoque Pharaonique, Paris, 1949.
- Lefebvre, (G.), La Medicine de L'Epoque Pharaonique Paris, 1956.
- Lichtheim, (Miriam), Ancient Agyptian Literature Vol. I, London, 1975.
Vol. II, London, 1976.
- Lopez, (J.), RdE, 15, 1963, p. 29-33.
- Lucas, (A.), Ancient Egyptian Materials and Industries London, 1948.
- Moller, (G.), Hieratische Lesetucke fur den akademischen Gebrauch 3, Berlin, 1961.
- Muller, (D.) ZAS, 94, 1967, p. 117-123.

- Parker, (R. A.), *The Calendars of Ancient Egypt*, Chicago, 1950.
- Parker, (R. A.), *JNES*, 16, 1957.
- Peet, (T. E.), *The Rhind Mathematical Papyrus*, Liverpool, 1923.
- Peet, (T. E.), *A Comparative Study of The Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamis*, London, 1931.
- Peterson, (B. J.), *JEA*, 52, 1966, p. 120-128.
- Posner, (G.), *la Premiere domination Perse en Egypte*, le Caire, 1936.
- Posener, (G.), *Litterature et Politique dans L'Egypte le la XIIIe dynastic*.
Bibliothèque de l'Ecole des Hautes Etudes 307 Paris, 1958.
- Posener, (G.), *RdE*, 6, 1951, p. 32-33 .
- Posener, (G.), *RdE*, 18, 1966, p. 45-62.
- Posener, (G.), *ZAS*, 99, 1973, p. 129-135.
- Posener, (G.), *Annuaire du College de France*, 62, 1962, p. 290-295.
63, 1963, p. 303-305.
64, 1964, p. 305-307.
65, 1965, p. 343-346.
66, 1966, p. 342-345.
- Riad, (Naguib), *La Medecine au Temps des Pharaons*, Paris, 1955.
- Sauneron, (S.), *le rituel de L'embaumement*, le Cario, 1952.
- Simpson, (D. C.), *JEA*, 12, 1926, p. 232-239.
- Smith (E.), *The Royal Mummies*, le Cairo, 1912.
- Smith, (G. E.) and Dawson (W. R.), *Egyptian Mummies*, London, 1924.
- Sloley, (R. W.), *The Origin of The 365-day Egyptian Calendar*, in *ASAE*, XLVIII, 1949.
- Till, (W. C.), *Arzneikunde der Kopen*, Berlin, 1951.
- Vercoutter, (J.), *L'Egypte Ancienne*, Paris, 1963.
- Williams, (R.), *JEA*, 48, 1962, p. 49-56.
- Williams, (R.), in *Essays in Honour of T. J. Meek*, Toronto, 1964, p. 16-19.

- Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 12-13.
- Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 412-425.
- Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 441-446.
- Wilson, (J. A.), ANET, 1966, p. 467-469.
- Wilson, (J. A.), The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
- Wreszinski, (W.), The Text of Papyrus Ebres, Leipzig, 1913.
- Yoyotte, (J.), BSFE, 11, 1952, p. 67-72.
- Zaba, (Z.), Les Maximes de Ptahhotep, Prague, 1956.
- Zaki, (A.), and Iskander, (Z.), Materials and Method used for Mummifying the Body of Amentefnekht at Saqqara in ASAE, XLII, 1943.
- Zaki, (A.), and Iskander, (Z.), ASAE, 42, 1943.

فهرست الموضوعات

تقديم ط

الكتاب الاول

الادب المصرى القديم

الفصل الاول :

الادب المصرى القديم ، اهميته وتطوره وخصائصه ... ١

الفصل الثانى :

ادب الاسطورة ١٧

١ - اسطورة اوزير وست ٢٠

٢ - اسطورة حور والعقارب السبع ٢٩

٣ - اسطورة الصراع بين حور وست ٣٣

٤ - اسطورة هلاك البشرية وانقاذها ٤٣

٥ - اسطورة حيلة ايزة ٥٠

٦ - اسطورة البهتان والصدق ٥٤

٧ - اسطورة مولد حتشبسوت الالهى ٥٧

الفصل الثالث :

ادب القصة ٦٥

١ - قصة خوفو والسحرة ٧٠

(١) قصة الزوجة الخائنة ٧٣

(٢) قصة سنفرو وفتيات القصر ٧٤

(٣) قصة خوفو والساحر جدى ٧٥

٢ - قصة الفلاح الفصيح ٨٠

٣ - قصة سنوهى ٩٤

- ٤ - قصة الملاح والجزيرة النائية ١١٠
 ٥ - قصة فتح يافا ١١٦
 ٦ - قصة الاخوين ١٢٠
 ٧ - قصة ون أمون ١٢٧
 ٨ - قصة الامير المقدور عليه ١٤٠

الفصل الرابع :

- ادب الاناشيد ١٤٥
 أولا : من أناشيد أمون ١٤٧
 ثانيا : من أناشيد اخناتون لالهة أتون ١٥١
 ١ - الانشودة الصغرى ١٥١
 ٢ - النشيد الكبير ١٥٣
 مميزات دعوة اخناتون من خلال الاناشيد ١٥٨
 ١ - الدعوة الى التوحيد ١٥٩
 ٢ - الدعوة الى دين عالمي ١٦٠
 ٣ - القضاء على التفرقة العنصرية ١٦٢
 ٤ - التركيز على قدرة الخالق ١٦٥
 ٥ - اظهار الرحمة في صفات الاله الخالق ١٦٦
 ٦ - التفسير العلمي لفيضانات النيل ١٦٨
 ٧ - الدعوة الى الصدق ١٦٩
 ٨ - تجاهل المرأة في الديانة الجديدة ١٧٠
 ٩ - اخراج الدين الى العلانية ١٧٣
 ١٠ - تقدير تجلى قدرة الله في العالم الحي ١٧٣
 نشيد اخناتون والمزمور ١٠٤ ١٧٤

الفصل الخامس :

- ادب المدائح والملاحم والغناء والغزل ١٨٥
 أولا : من ادب المدائح ١٨٧
 ١ - مدائح منوسرت الثالث ١٨٧
 ٢ - قصيدة مديح تحوتمس الثالث ١٩٢
 ثانيا : من ادب الملاحم ١٩٥
 ملحمة معركة قادش ١٩٥

٢٠٥	ثالثا : من أدب الغزل والغناء
٢٠٥	(أولا) : أغاني الغزل
٢١٢	(ثانيا) : الغناء

الفصل السادس :

٢١٧	من أدب الحسوار
٢١٩	برمية الياثس من الحياة

الفصل السابع :

٢٣١	من أدب الحكمة والنصائح
٢٣٤	١ - تعاليم بتاح حوتب
٢٤٧	٢ - نصائح الى كاجمنى
٢٥٠	٣ - تعاليم خيتى بن داووف لابنه بيبى
٢٥٨	٤ - نصائح الحكيم أنى
٢٦٦	٥ - تعاليم امنمؤوى

الفصل الثامن :

٢٨٥	من أدب النقد والسياسة
٢٨٧	١ - تحذيرات الحكيم ايبو - ور
٢٩٩	٢ - نبؤة نفرتى
٣٠٦	٣ - ارشادات الى الملك مرى كارع
٣٢٧	٤ - تعاليم الملك أمنمحات الاول لولده سنومرت

الكتاب الثانى

العلوم

الفصل الاول :

٣٣٣	المراكز الثقافية ودور الحياة
٣٣٥	١ - تقديم
٣٤٢	٢ - المراكز الثقافية الكبرى
٣٤٤	٣ - دور الحياة

الفصل الثامن :

٣٤٩ الفصل

الفصل الثالث :

٣٦٣ العلوم الرياضية والهندسية

٣٦٥ ١ - العلوم الرياضية

٣٧٠ ٢ - الهندسة

الفصل الرابع :

٣٧٩ الطب

٣٨١ ١ - تقديم

٣٨٢ ٢ - الطب والسحر

٣٨٥ ٣ - البرديات الطبية

٣٨٨ (١) بردية أدوين سميث الجراحية

٣٩٢ (٢) بردية أيبرس

٣٩٥ (٣) بردية برلين الطبية

٣٩٦ (٤) بردية تشتر بيتي الطبية

٣٩٦ (٥) بردية كارلبرج

٣٩٧ (٦) بردية كاهون

٣٩٩ (٧) بردية لندن الطبية

٣٩٩ (٨) بردية ليدن

٤٠٠ (٩) بردية هرست

٤٠٠ ٤ - المدارس الطبية

٤٠٤ ٥ - الاطباء

٤٠٤ (أولا) الاطباء الكهنة

٤٠٦ (ثانيا) الاطباء العلمانيون

٤٠٩ (ثالثا) المساعدون

الفصل الخامس :

٤١١ الصحة العامة

٤١٣ ١ - السزواج

٤١٤ ٢ - الختان

٤١٩	٣ - النظافة العامة
٤٢٠	٤ - البيت المصري
٤٢٤	٥ - الامراض والتشوهات

الفصل السادس :

٤٢٩	الاجراءات العلاجية
٤٣١	١ - التشخيص
٤٣١	٢ - الاجراءات العلاجية
٤٣٤	٣ - امراض النساء
٤٣٦	٤ - العقاقير

الفصل السابع :

٤٤١	التحريض
٤٤٣	١ - تقويم
٤٤٤	٢ - التحريض
٤٥٦	المراجع المختارة
٤٥٩	اولا : المراجع العربية
٤٦٠	ثانيا : المراجع المترجمة
٤٦١	ثالثا : المراجع الاجنبية